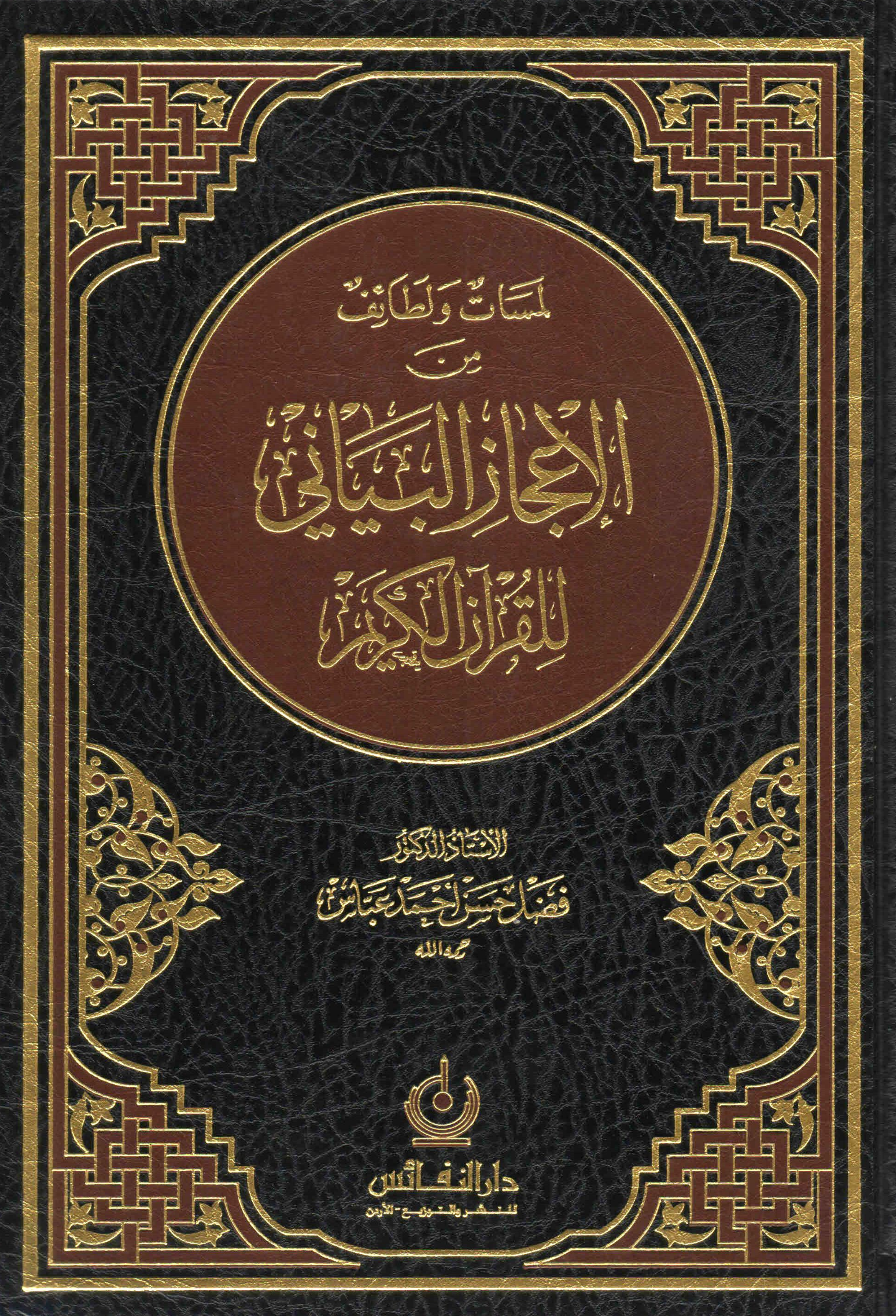
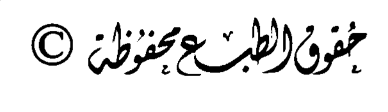

لمسات ولطائف
من
الإعجاز البياني
للقرآن الكريم
الأستاذ الدكتور
فضل حسن أحمد عباس
رحمه الله
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن


لمسات ولطائف
من
الإعجاز البياني
للقرآن الكريم



الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٥/٤/١٤٨٣

٢٢٧,٤
عباس، فضل حسن
لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم /فضل حسن عباس .-ط١.-
عمان- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٥
( ) ص.
ر.إ.: ٢٠١٥/٤/١٤٨٣
الواصفات:/إعجاز القرآن // القرآن الكريم/





العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، أَنْزَلَ على عَبْده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً قيِّماً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خير عباد الله وأشرف خلقه، صلاة وسلاماً تامّيْن، دائمَيْن، متلازمين إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه، الذين كانوا صورة صادقة لهذا القرآن، في آدابه وأوامره ونواهيه، ومن اتبعهم على هذا النهج... أما بعد.

فإن من أعظم نِعَم الله على الناس بعامة، والمسلمين بخاصة، هذا القرآن الذي أُرسلَ به سيدنا محمد ﷺ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩]. هذا القرآن الذي تكفل الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]، فهو يستعصي على كل المحاولات، التي تبغيه عوجاً، وهذا معنى الحديث الصحيح، الذي أخرجه الإمام مسلم، وهو ما قاله الله لنبيه: «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظاناً»[1]. فلقد كان القرآن بحقٍّ باعث نهضة، وأساسَ حضارة، ولكنها نهضة نظيفة من كل الشوائب والمكدرات، وحضارة لا يمكن أن تشيب أو تهرم.

ولا عجب -إذن- أن توجَّهُ له الأمة، في أوج حضارتها، وعلى اختلاف أزمنتها كذلك، كل ما مُنِحتْه من إمكانات، تستنتج منه آداباً، وتغذّي به ألباباً، وتفجر ينابيع حِكَمِه وأحكامه، وتهتدي بمناراته وأعلامه، وترشد إلى ما فيه من

---

(١) صحيح مسلم، ٢٨٦٥ (٦٣).

إشارات العلم، وقضايا الكون. وهو مع ذلك كله لا يفتأ يمدُّها بجديد، كلما أضاءت شمس، وأنار قمر، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩].

ومع هذه الجهود المخلصة الطيبة، التي لم تكن لكتابٍ سوى القرآن، رأينا على النقيض من ذلك، جهوداً أعْيت ذويها، وهم يَكِدُّون أذهانهم، ويُجْهدون أفكارهم وأقلامهم؛ ليجدوا فيه ثُغْرةً وخللاً، ولكنهم لم يورّثوا بعملهم إلا سآمةً ومللاً.

ومن أبرز القضايا القرآنية، قضية الإعجاز، التي بحثها العلماء قديماً وحديثاً، على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، ولا زالت بِكْراً، تُمْتِعُ فِكْراً، وتُخْرِج تبراً، وتسْطَع نوراً، وقضية الإعجاز ليس الهدف منها ردَّ شبهات الحاقدين، ودحض جهالات الجاهلين، وإنما مع ذلك وقبله، بيان روائع الكتاب الخالد، في مجالات الحياةِ المتعددة؛ ولذا كانت كتب الإعجاز في كل عصر تحمل جديداً للناس.

وشاء الله لي أن أكرَّم وأشرَّف لأسهم بنصيب -وإن كان جهد المقل- في هذا المضمار. وهذا الكتاب يشتمل على الإعجاز البياني. ولقد حاوت أن أسلك فيه طريقاً، خالياً من كل وُعورةٍ، بريئاً من كلِّ ما يعسر على القارئ، بعيداً عن كل تكلف وتمحل، راجياً أن يجد فيه كلُّ قارئ، أياً كانت ثقافته، ومهما كانت، أن يجد فيه بُغْيته، ومتعته الفكرية والروحية، والفوائد العلمية، ولا أنكر أنني أفدت من جهود السابقين، سواء كان ذلك من حيث المنهج والأسلوب، فتجنبت المواضع التي تصعب على القارئ، من غير ذوي الاختصاص، أم من حيث المادة العلمية، ولكن معظم هذا الكتاب -كما سيرى القارئ- إنما كان نتيجة لإجالة نظر في كتاب الله تعالى، مما فتح الله المنّان به، ولله الحمد والمنّة في الأولى والآخرة وهو الفتاح العليم.

ولقد اشتمل هذا الكتاب على فصول متعددة، ولما كان الإعجاز البياني مرجعه النظم، فلقد كان لزاماً أن أتحدث عن النظم وتعريفه أولاً، ثم عن الكلمة

وما لها من منزلة وعرضت بادئ بدء قضيتين هامتين، وهما قضيتا الغريب والمترادف، ولما كان هذا الكتاب لا يقف عند الدراسة النظرية للإعجاز، بل هو يقوم في معظمه على الدراسة الميدانية العملية، كان لا بد أن نذكر أمثلة كثيرة للكلمة القرآنية من حيث اختيارها في جملها، بما يقنع ويمتع، ويفي ويكفي إن شاء الله.

ثم تحدثت فيما بعد عن رسالة الحرف في كتاب الله تعالى، وهو فصل أرجو أن يجد فيه القارئ القول الفصل، في روعة القرآن وإعجازه. ثم تحدثت عن الجملة القرآنية بعد ذلك، من حيثيات متعددة، وجهات مختلفة، وبعد الحديث عن الجملة، كان لا بد من الحديث عن الفقرة القرآنية، ومثلت لذلك، بشيء من القرآن المكي والمدني، ليتبين القارئ أن أسلوب القرآن في رفعته وروعته، مكيّه ومدنيه سواء. ثم تحدثت عن السورة القرآنية، وما ينتظمها من وحدة عضوية، ومثلت لذلك بسور من المكي والمدني كذلك، وتحدثت بعد ذلك عن الصلة بين السورة والسورة من كتاب الله. وبعد ذلك تحدثت عن القرآن في مجموعه.

ولما انتهيت من هذه الفصول، ذات البناء التصاعدي -كما رأيت- عرضت لفصول ذات صلة بهذه الموضوعات، فتحدثت عن الأسلوب القرآني وخصائصه، وعقدت فصلاً للفاصلة القرآنية، وآخر للتكرار، وفصلاً لقضية الزوائد والحذف، وهو ذو أهميةٍ؛ وذلك لما اكتنفه من منزلقات كثيرة، كانت نتيجة قواعد صناعية، ناشئة عن مذاهب النحويين واللغويين، وختمته بتحليل سورتين من كتاب الله، إحداهما مكية، والأخرى مدنية، تحليلاً موضوعياً.

والله أسأل أن يكون خالصاً لوجهه، وأن يكون في ميزان حسناتي وحسنات والديّ، وأصحاب الحقوق عليّ. رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين، واجعلنا اللهم من الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا محمد النبي الأميّ، وعلى آله وصحبه، واجزِ اللهم سيدنا محمد ﷺ خير ما تجزي نبيّاً عن أمته، وآل سيدنا محمد وصحبه.

الدكتور
فضل حسن عباس

تمهيد

النظم

تجمع المعاجم العربية على أن النظم إنما يرجع إلى ضم الأشياء بعضها إلى بعض، ولقد وضعه العرب كعادتهم للأمور المحسوسة، فأطلقوه على نظم اللؤلؤ والخرز في العقد الواحد، ثم استعمل في ضم الكلام وجمع بعضه إلى بعض، وتأليفه في جمل وفقرات وموضوعات.

وحينما نتحدث عن نظم القرآن الكريم فسوف لا نقف عندما وقف عنده بعض الناس، الذين يحسبون أن النظم إنما يشمل الجملة الواحدة فلا يتعداها إلى غيرها، لكننا نعني بالنظم ما هو أوسع دائرة، وأشمل موضوعاً، فإذا كان النظم: تأليف الكلام على وجه مخصوص، فمن الطبعي أن ينتظم هذا المعنى الجملة المؤلفة من كلمات، والآية المكونة من أكثر من جملة، والسورة المؤلفة من آيات، وأخيراً القرآن الكريم المكوّن من هذه السور، المتناسق بعضها مع بعض، وحجتنا فيما ذهبنا إليه قوله سبحانه: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١].

حديثنا عن النظم -إذن- يشمل الموضوعات التالية:

أولاً: اختيار الكلمة.

ثانياً: الجملة القرآنية.

ثالثاً: السورة القرآنية.

رابعاً: ما بين السورة والسورة.

خامساً: القرآن في مجموعه.

وإذا كان الإعجاز البياني إنما يرجع في لبّه وجوهره إلى النظم، وإذا كان القرآن الكريم كتاب الإنسانية جميعها عربها وعجمها، منذ أن أنزله الله وسيبقى ما دامت الحياة والأحياء، إذا كان ذلك كذلك فليس من المنطقي أن يكون هذا النظم خاصاً بالعرب وحدهم، وإنما غلط من غلط في هذه القضية لأنهم ظنوا أن الإعجاز البياني إنما هو حديث عن الصورة التي تمتع العواطف وتلذها النفس، وترهف الحسّ، الصورة التي تقوم على الاستعارة والكناية والتشبيه، وهذه تختلف عند كل قوم باختلاف بيئتهم، ولكن النظم ليس كما حسبوه، وإنما نعني بالإعجاز البياني الذي يقوم على النظم: ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تُفسَّر لهم وتبين لهم دقائقها، وهم وغيرهم في ذلك سواء؛ فإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النساء:٥] اختيرت فيه كلمة (في) على كلمة (منه) لأمر اقتصادي وهو أن رزق أولئك ينبغي أن يكون مما ينتجه المال، لا من أساسه ورأسه، فإن غير العربي يمكن أن يعرف هذا حين تفسر له معاني القرآن.

وإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة:١٤] استعملت فيه كلمة الإغراء دون الإلقاء لتدل على الإلصاق والدوام، فإن هذا يمكن أن يدركه غير العربي حينما يفسر له؛ ولا أدل على ذلك من وضعنا نحن اليوم، فنحن مع كوننا عرباً، ولكن بعدنا عن العربية سليقة، يجعلنا لا ندرك هذه الدقائق ولا نتذوق معانيها إلا إذا فسرت لنا، فنحن العرب وغيرنا سواء.

إن المحققين من العلماء -كما عرفت من قبل- ذهبوا إلى أن الاستعارة والتشبيه وأنواع البديع، ليست من جوهر الإعجاز القرآني، ولكن النظم وحده هو جوهر هذا الإعجاز، والنظم كما بينا في الجزء الأول له جانبان اثنان، فكري ونفسي؛

لذا فإن القول بأن الإعجاز البياني خاص بالعرب وحدهم -مع أنه يكاد يكون من المسلمات- بحاجة إلى إعادة نظر. ولم أجد من نبّه على هذه القضية من قبل.

وأنا على يقين من أن قضية النظم حينما تجد لها من يحسن شرحها وييسر فهمها للناس، فإنها ستكون من خير الروافد العلمية والإيمانية على السواء، وأنا أقرر هذا نتيجة تجربة عملية، ولا فرق بين العرب اليوم وبين غيرهم في هذا المضمار، وأرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب مصداقية، وبرهاناً عملياً وشاهد حق لهذا الذي قررته.

ولا بد قبل الحديث عن النظم وما يتعلق به، أن نحدثك عن أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، ثم نتحدث عن الكلمة التي هي أساس النظم، مستمدين العون من الله، والله ولي التوفيق وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الفصل الأول

أثر القرآن الكريم
في اللغة العربية

لقد كرم الله اللغة العربية بهذا القرآن ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف:٣]، ومن أجل ذلك كانت العربية تتمتع بخصائص، قلّ أن توجد في غيرها من اللغات، وهذه الخصائص لا تظهر في جهة واحدة من جهات العربية، بل هي في جهات كثيرة متعددة، فهناك الخصائص التي تمتاز بها الحروف العربية، من سعة في المخرج، وتعدد في هذه المخارج، حتى لا يطغى بعض هذه الحروف على بعض، وهناك خصائص للكلمات تظهر في سهولة النطق من جهة، وفيما بين هذه الكلمات من وشائج وصلات من جهة ثانية، وفيما بينها وبين المعنى الذي تدل عليه من مناسبة من جهة ثالثة.

أما التراكيب العربية، فإن من أبهى خصائصها هذا الإيجاز، الذي يجمع المنصفون[1] على أنه مما تمتاز به هذه اللغة على غيرها من اللغات، وهذ الإيجاز لا بد له من الدقة والإحكام، وتلك لعمر الحق صفات العربية الجوهرية الأولى.

وهذه الميزات للعربية جوهرية تنبع من ذاتها ورئيسة لا تخرج عن أصالتها، ومع هذه الخصائص الأصيلة الرئيسة، فإن هناك خصائص مكتسبة، اكتسبتها العربية من ذلك الكتاب الذي خصها الله به وخصّه بها، هذه الخصائص التي لا تقل عن الميزات الأولى، وإن ما أفادته العربية من كتاب الله تعالى لا ينحصر في زاوية واحدة، ولا ينحسر في جدول واحد.

---

(١) أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص١٠٣، عالم الكتب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٧.

١ - فلقد كان لهذا القرآن الكريم الفضل في أن جمع العرب على لغة واحدة، بعد أن كان لكل قبيلة منهم لهجتها ولغتها، وقد اجتمعوا فيها بعد على هذا القرآن، وكان من نتيجة ذلك أن حفظ القرآن لهم هذه اللغة، دون أن تتشعب بها الأودية أو أن تختلف بها الألسن، كما أنها حافظت بفضل هذا القرآن على أصالتها، وهذا لو تأملته لوجدته من أعظم ما أسداه القرآن العظيم إلى هذه اللغة.

٢- ومن أوجه تأثير القرآن في اللغة، هذه الأساليب البديعة والتراكيب الرصينة، التي كان لها فيها بعد الأثر في تطور النقد، ورقِّي الأساليب العربية، فأنت إذ تأملت مواطن إيجازه، وروائق مضامينه، ودقة معانيه، والأساليب التي عبّر بها عن ذلك مما يلجه العرب وإن وقفوا في بعضه على بعض أبوابه، وجدت من ذلك الكثير الكثير، تجد هذا في أساليب الاستفهام وأنواعه، والكنايات وأقسامها، وإنك واجد ذلك كذلك في جدله وقصصه، ووعده ووعيده.

ولا تعدو الحقيقة حينما تزعم أن ما وصل إليه العرب فيما بعد من أبحاث لغوية على تنوعها، يرجع الفضل فيها إلى القرآن، ليس هذا فحسب، بل إن القرآن هذب طباعهم، وثقّف ألسنتهم، حتى إنك لتشعر بتلك النقلة العظيمة بين الذي كان لهم قبل القرآن الكريم، وبين الذي كان لهم بعد نزوله، يقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لبيان أن حصول الملكة بكثرة الحفظ: «ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغ وأذوقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاورتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح

شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم، وارتفعت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة»[1].

ويقول الرافعي رحمه الله : «ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم -مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف- ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، حتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسُّل على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف في نظمها آثار الوزن والتلحين، على ما يكون من تفاوتهم في صفة ذلك ومقداره، ومبلغهم من العلم به، وتقدمهم في صنعته، ولولا القرآن، وهذا الأثر من نظمه العجيب، لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقي من بعد هؤلاء في العامية، بل لما بقيت اللغة نفسها»[2].

٣- ومما منحه القرآن هذه اللغة بحق، أنه أمدَّها بماء الحياة والنضارة، فهي باقية ما بقي القرآن، لا تموت كما ماتت كثير من اللغات واللهجات، ولا تهرم كذلك، بل تبقى نضرة في شبابها، لا تهرم ولا تبلى.

(١) مقدمة ابن خلدون، ٥٧٩، ٥٨٠، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣، ص٢١٥.

٤- ومع هذه الميزات والخصائص التي نذكرها على سبيل الإجمال دون تفصيل، نجد أن القرآن الكريم قد نقل هذه اللغة الثرية في أساسها، من جو الصحراء الذي لم يمكنها فيه أن تستغل ثروتها استغلالاً تاماً إلى مشارق الأرض، حيث أثبتت قدرتها على التصرف، وجدارتها بكل ما يعرض لها ويلقى عليها من معارف وأحداث واكتشافات.

لقد كان العرب يحصرون هذه اللغة الثرية في التعبير، عما هو حولهم من أمور البداوة، قضايا الصحراء وأشيائها، كانوا يستغلون اللغة في ذلك، ومع هذا كان بوسع هذه اللغة أن تَثِبَ وثبات قوية سريعة، لو أنها وجدت إمكانات التصنيع شأنهم وشأنها كالأمم التي تملك ثروات طبيعية، ولكنها لا تستطيع استغلالها واستثمارها، ولا تحسن ذلك، فلما جاء القرآن وجدت اللغة فيه ضالتها، واكتشفت ذاتيتها، وإذ بها تنتقل من الحديث عن الأطلال والفيافي، والغربان والحشرات، والقيصوم والشيح[1]، لتصبح لغة الدقة في الحياة كلها، لغة العلم والمصطلحات، لغة العقل والعاطفة، لغة الحياة بكل ما فيها من أسرار، وكما كان فضل الإسلام على العرب، لولاه لم يكونوا شيئاً يذكر، ولكانت مواطنهم ومواقعهم وبيئتهم سماء من غير أضواء، وأصواتاً من غير أصداء، ومساكن من غير أحياء، كذلك كان فضل القرآن على هذه اللغة رضي من رضي، وأبى من أبى.

وإذا كانت هذه اللغة قد مرت قبل نزول القرآن بأكثر من طور من أطوار التهذيب، فلقد كان أعظم هذه الأطوار وآخرها هو ما أفادته من هذا الكتاب[2]، وما على القارئ إلا أن ينظر في بعض آثار العرب قبل هذا الكتاب، وفي هذا القرآن نظرة واعية، فإنه يدرك دون جهد هذا العطاء السخي الذي منحه القرآن لهذه اللغة.

---

(١) وذلك هو حال أمتنا اليوم.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، ص٦٠، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

الكلمة:

يميز الناس بين الكلام الذي تنشرح له صدورهم، وبين ما تنقبض منه نفوسهم، بالطريقة التي يتبعها الكاتب، والأسلوب الذي يصوغ فيه موضوعه، الذي يخرج للناس، وإذا كان هذا الأسلوب يقوم على دعائم متعددة، فإن الذي يهمنا -هنا- من هذه الدعائم أولاها وأولاها بالتقدير، ونعني بها الأصالة.

وأول لبنة في هذه الأصالة الكلمة، ذلك أن اللفظة الجيدة تدل على المعنى المراد، ووقوعه في المكان المناسب. يقول ستيفن أولمان:

وفي أي نقد يوجه إلى اللغة تكون الكلمة عرضة لأن ينظر إليها، على أنها السبب الأساسي في هذا النقد، وليس ثمة ما يثير الدهشة أو الغرابة في هذه المكانة التي تنفرد بها الكلمات، فهي أصغر «نوافل» المعنى أو أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل، أضف إلى ذلك أن الكلمات هي أسماء الأشخاص والأشياء، وهي أول خطوة يقوم بها الطفل في سبيل تعلم اللغة، وللكلمات كيان مستقل في الكتابة والطباعة، وتتمتع بذاتية ومكانة مستقلة في المعجم، وهي فوق هذا وذاك تخضع في استعمالها لعدد لا يحصى من القيود والعادات الخرافية، حتى إنها في كثير من الحالات كانت موضع العبادة والتقديس، لهذا كله لم يكن من الغريب أن تنفرد الكلمات باهتمام خاص من نقاد اللغة(١).

والكلمة أصل الدقة في التعبير، والوضوح في المعنى، والصدق في الدلالة، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصل دلّت على المعنى كله، فإذا حشرت حشراً، أو قسرت قسراً، دلت على بعض المعنى أو ألجأت إلى غيره. وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة، والنظام المطلوب، تحركت الآلة، وإلا ظلت جامدة.

---

(١) ستيف أولمان، دور الكلمات في اللغة، ص٣، ترجمة وتعليق: د. كمال محمد بشر، سنة ١٩٦٢.

«وللكلمات أرواح» كما قال «موباسان»، فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها، ولا عوض منها، ثم وضعتها في الموضع الذي أُعِدَّ لها، وهندس عليها ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة، وترسل عليها الضوء، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبعية والوضوح، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف[1].

لا عجب إذن أن نجد العرب في عصورهم الأولى يجهدون أنفسهم في اختيار هذه الكلمات والبحث عنها وانتقائها، مجندين لها كل ما منحوه من طاقات العقل ودفقات الشعور وجميل الأحاسيس. فلقد كانوا في جاهليتهم، يدركون ما للكلمة من شأن، أو ما تحدثه من أثر سلبي فيقبلونها أو يردونها نتيجة معرفة وذوق.

سمع طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ بيتَ المُسَيَّبِ بنِ عَلَس:

وقــد أتناسَــى الهَــمَّ عنــدَ ادِّكــارِهِ بنــاجٍ عليــه الصَّــيْعَرِيَّةُ مُكْــدَمِ

فقال: استنوق الجملُ، لأن الصَّيْعَرِيَّة: سمة في عنق الناقة لا البعير[2].

ومن ذلك ما يروى عن حسان حينما أنشد:

لنا الجفنــاتُ الغُــرُّ يَلْمَعْــنَ في الضُّــحَى وأســيافُنا يَقطُــرْنَ مِــن نجــدةٍ دمــا

فقيل له: لو قلت: (يسطعن في الدجى)، ولو قلت: (يجرين)، لكان أولى[3].

---

(١) الأستاذ أحمد حسن الزيات، ١٣٠٢-١٣٨٨هـ/ ١٨٨٥-١٩٦٨م، مقدمة دفاع عن البلاغة، مطبعة النهضة، ١٩٦٧.

(٢) د. أحمد مطلوب، د. حسن البصير، البلاغة والتطبيق، الجمهورية العراقية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ، ص١١.

(٣) الأستاذ مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي، ١٣٥٦هـ/ ١٨٨١م، تاريخ آداب العرب، ضبطها وصححها: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

فإذا تجاوزنا العصر الجاهلي وجدنا ذلك واضحاً في العصر الإسلامي من ذلك: ما روي عن أفصح العرب وأبلغهم سيدنا محمد ﷺ وهو يوجه معلماً، مبيناً لأصحابه ﷺ ولمن بعدهم مكانة الكلمة وأصالتها: «لا يقُولَنَّ أحدكم: خَبُثَتْ نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي»[1].

وكذلك ما روي عنه، وهو يعلِّم أحدَ صحابته، البراء بن عازب ﷺ أن يقول: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت» فقال البراء: «ورسولك الذي أرسلت» فقال الرسول ﷺ : «ونبيك الذي أرسلت»[2]. وما روي عن سيدنا عمر في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، «لو شاء الله لقال: أنتم، فكنا كلنا، ولكن قال: كنتم في خاصة أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[3].

وفي العصر العباسي، كان للكلمة منزلتها كذلك، ومما يروى في ذلك: أن رجلاً أنشد ابن هرمة بيته:

بـــالله ربـــكَ إنْ دخلـــتَ فقـــلْ لهـــا هـــذا ابـــنُ هرمـــةَ قـــائماً بالبـــابِ

فقال للرجل: ما كذا قلت: أكنت أتصدّق؟ (أسأل) قال: فماذا؟ قال: واقفاً، ثم قال: ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[4].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ٨/ ٥١، كتاب الأدب، باب: لا يقل: خبثت نفسي، عن عائشة ﷺ ، وأخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ١٧٦٥، كتاب الألفاظ، باب كراهة قول الإنسان: خبثت نفسي، ورقمه ٢٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨/ ٨٤، ٨٥، كتاب الدعوات، باب: إذ بات طاهراً، وأخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٨١، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم ٢٧١٠.

(٣) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، ٢٢٤-٣١٠هـ/ ٨٣٩-٩٢٣م، جامع البيان في تفسير القرآن، ٤/ ٢٩، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر.

(٤) الدكتور شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص٣٦.

والمتتبع لآداب العرب ومساجلاتهم في أسواقهم يجد كثيراً من ذلك، والحق أن الذوق السليم يجد فرقاً شاسعاً بين الكلمة الجيدة وغيرها من الكلمات الممجوجة، وجميل أن أنقل هنا كلمة ابن الأثير، قال: «ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة (الغُصْن) ولفظة (العُسْلُوج) وبين لفظة (المُدامَة) ولفظة (الإسْفَنْط) وبين لفظة (السيف) ولفظة (الخَنْشَلِيل) وبين لفظة (الأَسد) ولفظة (الفَدَوْكَس)، فلا ينبغي أن يخاطب، ولا يجاب بجواب، بل يُترك وشأنه، كما قيل: اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقَى الجَعْرَ في رَحْله، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق، ذات عين محمرة، وشفة غليظة كأنها كلوة، وشعر قطط كأنه زبيبة، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة، ذات خد أسيل وطرف كحيل، ومَبْسِم كأنما نُظِمَ مِن أقاح، وطرة كأنها ليل على صباح»[(١)].

وإذا كان هذا في كلام الناس، فهو في كلام الله المتناهي في البلاغة أكثر وضوحاً، وأشد ظهوراً، ويقول الإمام ابن عطية رحمه الله : «وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب - يومئذ- في سلامة الذوق، وجودة القريحة»[(٢)].

وما قاله ابن عطية، كلام حري بالتقدير، جدير بالدراسة، ذلك أن المفردات القرآنية لها خصائص ومميزات، جمال وقعها، واتساقها الكامل مع المعنى، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

---

(١) نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجرزي، أبو الفتح، ضياء الدين المعروف بـ «ابن الأثير» الكاتب، ٥٥٨-٦٣٧هـ/ ١١٦٣-١٢٣٩م. المثل السائر، طبع البابي الحلبي سنة ١٩٣٩، ج١، ص١٤٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، مقدمة التفسير.

فالمفردات القرآنية إذن مفردات مختارة منتقاة، ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظر في المعاجم اللغوية نجدها زاخرة بالألفاظ الكثيرة، ولكل مادة اشتقاقاتها الكثيرة المتعددة، وهي من حيث الفصاحة والخفة ليست سواء أولاً، وقد تدار الكلمات الكثيرة على معنى واحدٍ ثانياً، أما كتاب الله فيخص كل لفظ بمعنى لا يتعداه.

قال الراغب[1]: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمِهِم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوي بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[2].

ومن هنا كانت مفردات القرآن الكريم قليلة -نسبياً- إذا قيست بتلك المفردات التي ذكرتها المعاجم، فأكثر ألفاظ القرآن تنتمي إلى أصول ثلاثية[3]، وقليل من هذه الألفاظ ينتمي إلى أصل غير ثلاثي، ففي القرآن الكريم ألف وستمائة وأربعون (١٦٤٠) أصلاً ثلاثياً، يتفرع منها ما يزيد على خمسين ألف لفظة، وهي تزيد على نسبة ثمانٍ وتسعين بالمئة (٩٨٪) من مفردات القرآن[4]، وغير الثلاثي لا يزيد على ثمانمائة لفظ، وإن نظرة يسيرة في لسان العرب، والقاموس المحيط تجعلنا ندرك أن المفردات القرآنية كانت بمثابة فرائد ودرر إذا قيست بغيرها من المفردات.

وثلاثية المفردات اللغوية بعامة والقرآنية بخاصة، هو ما استقرت عليه كلمة العلماء منذ القرون الأولى، ومن هؤلاء القاضي ابن الباقلاني في إعجاز القرآن، ومع

---

(١) أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ).

(٢) المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص٦ المقدمة.

(٣) أي مادة.

(٤) مجلة الدوحة، قطر، سنة ١٩٧٧م.

هذا وجدنا حديثاً من ينازع في هذه القضية، يقول الدكتور عبدالرؤوف مخلوف[1]: «أما ما ذهب إليه الباقلاني من ثلاثية المفردات في اللغة العربية، فمسألة نقف منها وقفة متأملة، وحين ننعم النظر في واقع اللغة العربية نستطيع أن نقول: إن المفردات المكونة من ثلاثة أحرف تكاد تكون قلة في اللسان العربي، والمتتبع لأية قطعة لغوية -ولتكن مما كتب الباقلاني ذاته، أو من القرآن الكريم- يشهد بذلك، قلة قليلة من المفردات هي التي تأتي على ثلاثة أحرف.

وأما فكرة الثلاثية التي نجده عند علماء اللغة العربية يردون الكلمات إلى أصول مكونة من ثلاثة أحرف، فإنها نشأت لما أرادوا أن يصنعوا المعاجم التي تجمع مفردات اللغة، واحتاجوا أن يستقرئوها ليضعوا بإزاء كل كلمة معناها. إنهم افترضوا لكل مجموعة من المشتقات أصلاً هو المصدر أو هو الفعل الماضي مجرداً من الزيادات -على خلاف بينهم في أيهم أولى باعتباره أصلاً- وذلك الافتراض إنما كان ليتيسر لهم عن طريق حصر جميع الكلم المستعملة، والذي ليست في كثرته ولا في جملته على ثلاثة أحرف، عند الاستخدام والاستعمال.

على أنه ينبغي ألا يغيب عن ذهن الباحث عندما نتكلم في ثلاثية اللغة وعدم ثلاثيتها، أن ليست اللغة هي هذه الحروف التي نكتبها، إذ هذه ليست إلا رمزاً للغة، وحقيقة اللغة إنما هي الأصوات التي تنطق على نحو مخصوص متواضع عليه فتسمع فيدرك السامع معناها أو توضع لهذا هذه الرموز التي نسميها حروفاً فيراها القارئ ويدرك ما تدل عليه «... وعلى هذا التصور يكون القول بثلاثية المفردات في اللغة العربية فيه تسامح، أو فيه عند التحقيق العلمي ذهاب عن الوجه الصحيح، إذ العبرة في اللغة بأصواتها وليست بالحروف التي تصورها وترمز لها، والعبرة فيها بالمستعمل منها والدائر على الألسنة، وليست بالأصول التي نفترضها أو نرد إليها

(١) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص١٥١-١٥٣.

مستعملها والجاري على ألسنة المتكلمين بها حين نريد جمعها وتدوينها، فإن ذلك كله مجرد اصطلاح للتيسير»[1].

إن مما يستدعي العجب ويثير الاستغراب بحق ما يماري فيه الكاتب من ثلاثية أكثر الأصول العربية، وهي قضية بدهية ما كان ينبغي أن يماري فيها أحد.

إن كون أكثر الأصول العربية تتكون من ثلاثة أحرف، أمر يشهد به الحس، كما يشهد له الواقع، وهذه بحق من خصائص العربية.

وليست العربية أصواتاً فحسب، وإن أصحاب المعاجم حينما بنوا معاجمهم على الأصول الثلاثية لم يفترضوا -كما قال الكاتب- أصولاً، سواء كانت هذه الأصول المصادر أم غيرها تتكون منها الكلمات، وإنما فعلوا ذلك بعد استقراء واستقصاء، فهي حقيقة عقلية لغوية، وما أبعد الافتراض عن الحقيقة.

إن الألفاظ العربية منها ألفاظ مجردة، وهذه أكثرها أصول ثلاثية، ومنها ألفاظ مزيدة، هذه الزيادات تختلف باختلاف الصيغ التي يريدها المتكلم، وقد تكون هذه الزيادات في الأفعال أو الأسماء، وقد يكون للمادة الواحدة من الصيغ ما ينيف على العشرين والثلاثين، خذ مثلاً فعلاً ماضياً وحاول أن تدخل عليه الحروف المزيدة، وأن تستقصي المعاني لهذه الحروف، وستجد نفسك أمام زمر متعددة من الألفاظ والمعاني جمعها أصل واحد، فلا يمكن لأصحاب المعاجم أن يذكروا هذه الصيغ جميعاً، لأن من شأن هذا أن يوسع مساحة المعاجم بما لا طائل تحته، فأمر هذه الصيغ يمكن أن يستخرجه كل باحث، بل كل طالب علم، بل هو أمر يكاد يكون متركزاً في الطبائع، وما يقال عن الأفعال، يقال عن الأسماء كذلك.

أما ما مثل به الكاتب من كلمة «قلم» وقاسه على اللاتينية (Kalamon) فلا نقبله منه، ولا نسلمه له، ولو أننا وجهنا هذا السؤال لتلميذ صغير: ما هذا؟ فإنه

(١) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص١٥١-١٥٣.

يقول «قلم» فنحن لا نقف على التنوين في العربية، وإذا أخذنا كلمتي «آسٍ» و«آسن» في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، وكلمة «راعٍ» و«راعن» من الرعونة، فإننا نجد أن اللفظ واحد، ولكن مادتي الكلمتين مختلفتان، فكلمة آسٍ الأولى من الأَسَى، أما الثانية هي أَسِنَ الماءُ بمعنى تغير، وكلمة راعٍ الأولى من رَعَى، والثانية من رَعُنَ، ومثل هذا كثير في العربية، اتحد الصوت فيه، ولكن المعنى يختلف اختلافاً كبيراً، ليست اللغة -إذن- أصواتاً فحسب.

وأخيراً فلا أود أن أسترسل في هذه القضية البدهية، وإن ما ادعاه الكاتب من التشكيك والمماراة في ثلاثية الأصول العربية، لا أقول فيه شيء من التسامح، بل هو ذهاب عن الوجه الصحيح.

الفصل الثاني

الكلمة وأثرها في الدراسات اللغوية

عناية العلماء بالدراسات القرآنية :

لقد كانت الدراسات القرآنية بعامة الشغل الشاغل لعلماء الأمة، فهي خير ميدان يتنافس فيه المتنافسون، حيث كانت حلق العلم في المساجد تجمع بين المعرفة اللغوية وروايات التفسير المأثور، ومايتصل بذلك من روايات الشعر، وأحاديث القصاص، ونقلة الأخبار، وحتمية التطور أمر لا بد منه، لذلك تشعبت هذه الدراسات القرآنية، هذه الشعب الثلاث تشمل جهود المفسرين واللغويين وعلماء البيان.

أما المفسرون، فكانوا يعتمدون على الروايات عن الرسول ﷺ ، أو المنقولة عن الصحابة أو التابعين. فما رُوِيَ عن النبي ﷺ يسمونه مرفوعاً، وما رُوِيَ عن الصحابة يسمونه موقوفاً، أما ما روي عن التابعين فهو المقطوع، وغاية المفسر أن يبين المعنى القريب للآية القرآنية، وأن يزيل ما يكتنفها من غموض.

أما اللغويون، فكانت غاية جهدهم لا تقف عند ما يعنيه المفسرون، فهم يبحثون في الكلمات القرآنية من حيث الإفراد والتركيب، وهي أبحاث انتظمتها فيما بعد فروع كثيرة، كمتن اللغة والصرف والاشتقاق والإعراب.

أما علماء البيان فهم وإن كانت حاجتهم ماسة إلى اللغويين والمفسرين، فإن الزاوية التي كانت تشغلهم وتقفهم طويلاً روعة الأسلوب، وجمال الصورة، وبراعة اللفظ، ودقة المعنى، وهو ما انتظمه فيما بعد ما سمي علوم البلاغة والنقد.

والذي يعنينا من هذا كله «الكلمة القرآنية»، فلقد كان من الطبعي أن تحظى قبل غيرها -لكونها الأساس والأصل واللبنة الأولى- بجهد العلماء وعنايتهم،

وأن يقفوا أمامها ليوضحوا مدلولاتها، ويكشفوا عما ترشد إليه من معنى أولاً، وليبينوا صيغتها واشتقاقها والفصيلة اللغوية التي تنتمي إليها ثانياً، وليظهروا جمال موقعها وأصالتها في موضعها، وما لها من حلاوة جرس، وما تحدثه من إرهاف في الحس ثالثاً.

ولئن كانت هذه الجهات جميعاً تبدو لأول وهلة متداخلة لما بينها من وشيجة قربى، وعظيم صلة، ولأن بعضها يكمل بعضاً، فإن لكل منها ميدانه ولونه ومباحثه الخاصة، وبخاصة بعد أن استقرت الدراسات القرآنية وأصبح لكل علم شخصيته التي تميزه عن غيره.

كانت الجهة الأولى من الجهات الثلاث مهمة المفسرين، والثانية وظيفة اللغويين، والثالثة ميدان علماء البيان، هؤلاء جميعاً جندوا كل طاقاتهم للكلمة القرآنية، ومع ما بذلوه من جهد، وما أولوها من عناية مشكورين فستظل الكلمة القرآنية شمس هداية يشع منها النور، لا تفقد من جوهرها ما تفقده الشمس كل يوم.

وإذا كان هذا البحث معنياً بالحديث عن أثر الكلمة القرآنية في الدراسات اللغوية، فلا بد من كلمة عن جهود اللغويين بين يدي فصوله الثلاثة التي أشرنا إليها من قبل.

لما دخل الناس في دين الله أفواجاً، واختلط العرب بغيرهم، وكان كثير منهم من غير العرب، صارت الحاجة ماسة إلى حفظ لغة القرآن، فهَرع كثير من العلماء إلى أخذ هذه اللغة من مظانها ومصادرها، ولقد كانت المفردات القرآنية من أخطر ما وجه إليها العلماء عنايتهم، وضربوا لها أكباد الإبل، بل كانت أيضاً من أول ما حاولوا تمحيصه وتحقيقه والبحث عنه، وفي ظني أن ذلك نتيجة عاملين اثنين:

عامل ذاتي أو داخلي: ونعني به معرفة المعنى القرآني معرفة تزيل الشبه وتمحو الشكوك، فتفسير القرآن الكريم يحتاج، بل يتوقف على تحديد مدلول اللفظ.

وأما العامل الآخر، فهو عامل خارجي: ونعني به ذلك الهجوم الشرس من قِبَل الشعوبيين على ابنة عدنان لغة القرآن[1]، من أجل ذلك وجدنا العلماء يقفون موقف المدافع المنافح، وهم يصلون الليل بالنهار، هاجرين الأهل والديار، باحثين في لغة البادية التي لم يتطرق إليها اللحن بعد، ولم تفسدها العجمة.

وبدهي أن يكون الأعراب -وهم أقل اختلاطاً بغيرهم- أحفظ للغة، فعندما يفدون إلى سوق المربد والبصرة والكوفة يلتقي بهم العلماء؛ ليأخذوا عنهم ويفيدوا منهم، وبقي الأمر كذلك حتى إذا اختلط أولئك الأعراب بغيرهم أصبحوا غير معوَّل عليهم.

ظلت -إذن- ثقة الناس بالأعراب ما بقيت لهم صفاتهم التي فُطروا عليها، وطالما كانت ألسنتهم مستمسكة بسليقتها، ولقد بلغوا في جمودهم على هذه الفطرة مبلغه في أول عهدهم، فلما طال مكث الأعراب في الحضر، لانت جلودهم، وطاعت ألسنتهم بشوائب العجمة، لاحظ الجاحظ ذلك فقال[2]: «كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه ويوم مات بون بعيد على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة»[3]، لأجل ذلك كان لا بد أن يرحل كثير من العلماء إلى البادية؛ ليأخذوا عن أهلها الذين لم يختلطوا بغيرهم من الشعوب المتعددة.

وبدأت حركة الجمع والتأليف، وكانت أول مرحلة من مراحل هذا الجمع تدوين كل ما يسمع من كلمات مهما تعددت موضوعاتها، وكانت المرحلة الثانية جمع الكلمات التي تتعلق بموضوع واحد، كأن يجمعوا الكلمات التي تتعلق بالمطر أو

---

(١) ذلك الهجوم الذي لا يشبهه من حيث العنف والحقد والخروج عن الحق إلا ما نجده في أيامنا هذه من حملات ظالمة على هذه اللغة، والفرق بين الأمس واليوم أن الهجوم في هذه الأيام من أبنائها.

(٢) البيان والتبيين، لعمرو بن بحر بن محبوب الكناني (ت٢٥٥هـ)، طبعة الاستقامة سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٤٢م، ج١ ص١٧٤.

(٣) رواية اللغة، الدكتور عبدالحميد الشلقاني، مدير مكتبة الإسكندرية، الناشر: دار المعارف بمصر، القاهرة، ص٧٩.

بالخيل أو اللبن أو النخل، وكانت المرحلة الثالثة جمع هذه الموضوعات كلها في معجم واحد.

ولم تقتصر مهمة العلماء على السؤال عن معنى الألفاظ، بل كانت تتعداها إلى قضايا الاشتقاق والإعراب.

«فقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف، فمر أعرابي مُحْرِم[1]، فأراد السائل سؤال الأعرابي، فقال له أبو عمرو: دعني فأنا ألطف منك بسؤاله وأعرف، وسأله، فقال الأعرابي: اشتقاق الاسم من فعل المسمى، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي، فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال: ذهب إلى الخُيلاء التي في الخيل والعُجْب، ألا تراها تمشي العِرَضْنَة خُيلاء وتَكَبُّراً»[2].

هذا في الاشتقاق، أما الإعراب، فيقول الأصمعي: «جاء عيسى بن عمر الثقفي، ونحن عند أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو: ما شيءٌ بلغني أنَّكَ تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني عنك أنك تجيز: ليس الطيبُ إلا المسكُ بالرفع»، فقال أبو عمرو: نمت يا أبا عُمَر وأدلج الناس، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع، ثم قال أبو عَمرو: قم يا يحيى -يعني اليزيدي- وأنت يا خلف -يعني خلف الأحمر- فاذهبا إلى أبي المهدي فَلَقِّنَاه الرفع فإنه لا يرفع، واذهبا إلى المنتجع التميمي ولَقِّنَاه النصبَ فإنه لا ينصب، قال: فذهبت أنا وخلف فأتينا، أبا المهدي وإذا هو يصلي، وكان به عارض، وإذا هو يقول: اخسأنان عني، ثم قضى صلاته والتفت إلينا، وقال: ما خطبكما؟ قلنا: جئناك نسألك عن شيء، قال: هاتيا فقلنا: كيف تقول: ليس الطيبُ إلا المسكُ؟ فقال: أتأمرانني بالكذب على كَبْرَةَ سِنّي، فأين الجادي؟ وأين بَنَّةُ الإبل الصادرة؟ فقال له:

---

(١) أي فصيح لم يخالط الحضر.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الإشبيلي، محمد بن الحسن، (ت٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، طبعة السعادة، ١٣٧٣هـ، ص٣٩.

خلف الأحمر: ليس الشرابُ إلا العسلُ، فقال: فما يصنع سودان هَجَر؟ ما لهم شراب غير هذا التمر، قال اليزيدي: فلما رأيتُ ذلك منه، قلت له: ليس مِلاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها، فقال: هذا كلام لا دَخَل فيه، ليس مِلاكُ الأمر إلا طاعةَ الله والعملَ بها، فقال اليزيدي: ليس مِلاكُ الأمرِ إلا طاعةُ الله والعملُ بها، فقال: ليس هذا لحني ولا لحن قومي، فكتبنا ما سمعناه منه، ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلاً يَعْقل، فقال له خلف: ليس الطيبُ إلا المسكَ، «بالنصب»، فلقّناه النصب وجهِدنا فيه، فلم ينصب وأبى إلا الرفع[1].

وسيبدأ الحديث عن المباحث الثلاثة التي حددتها من قبل وهي:

الأول: ما يتعلق باللفظ.

الثاني: بالمعنى.

الثالث: بالصيغة.

وسنجد أن للقرآن الكريم في هذه الدراسات إثراء ونماء، وغاية وهدفاً.

(١) إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي، الأمالي ومعه ذيل الأمالي والنوادر، طبعة دار الكتب، ١٩٣٦م، ذيل الأمالي، ص٣٩.

المبحث الأول
جانب اللفظ

أما جانب اللفظ فنتحدث فيه عن موضعين اثنين متصل كل منهما بصاحبه: الغريب والنوادر، وهما أول ما بحثه العلماء ودوّنوه، يدلنا على ذلك أن أول من كتب في الغريب: أبو عبيدة، والأصمعي، وأبو بكر السجستاني، وابن قتيبة، وهم من علماء القرنين الثاني والثالث للهجرة، كذلك النوادر كتب فيها: أبو زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبو مسحل الأعرابي.

أولاً: الغريب:

أما الغريب: فلقد كان له شأن عند العلماء، يقول الأصمعي: توسَّلت بالملح ونلت بالغريب[1]؛ وقد «قالوا: إن الأصمعي عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها...»[2].

وذكر صاحب مراتب النحويين عن عبدالصمد بن المعذل[3] قال: رأيت الأصمعي وقد جاءه الأحمر الكوفي[4] فألقى عليه مسائل من الغريب، فجعل يجيبه، وكان الأحمر كأنه مجنون من سؤاله وحركته... ثم سأله الأصمعي عن بيت فلم

---

(١) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١، ص١٨٦ .

(٢) الفهرست لابن النديم، ١/ ٧٩.

(٣) عبدالصمد بن المعذل بن غيلان من شعراء الدولة العباسي بصري المولد والمنشأ وقد روي عنه كثير من اللغة والأخبار وقليل من الحديث.

(٤) هو علي بن الحسن صاحب الكسائي، بغية الوعاة، ١/ ١٥٨.

يجبه، فسأله عن ثان فلم يجبه، فسأله عن ثالث فلجلج... فقال الأحمر ما تعرض لك في اللغة إلا مجنون[١].

وقد يتساءل القارئ ما معنى ورود الغريب في كتاب الله، ونحن نعلم أن الغرابة وصف في الكلمة ينافي الإبداع والفصاحة؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول:

لقد عرفت كلمة الغريب في الصدر الأول، أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» وأخرج مثله عن عمر وابن عمر وابن مسعود موقوفاً[٢].

وهذا ترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يقول: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»[٣]، وكان يأمر صاحبه أن يخرج للناس -وقد اجتمعوا على بابه- ليقول لهم: «من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل»[٤].

---

(١) عبدالواحد بن علي أبو الطيب اللغوي كان من علماء القرن الرابع النحويين واللغويين. مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٩٠.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب، وابن أبي شيبة والحاكم، قال الحاكم: صححه جماعة ولكن الحافظ الذهبي والهيثمي والعراقي أجمعوا على ضعفه، فيض القدير للمناوي، ج١، ص٥٥٨.

(٣) أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م، ج١، ٢٤.

(٤) أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم (٤٣٠هـ/ ١٣٠٨م)، حلية الأولياء، مطبعة السعادة، ١٩٣٢م، ج ص٣٢٠-٣٢١.

والغريب في هذه الآثار يختلف عن الغرابة، التي ذكرها علماء البلاغة من بعد، فاللفظة الغريبة عندهم ما كانت غير ظاهرة في معناها، ولا مأنوسة في استعمالها، تثقل على السمع، وينفر منها الطبع»[1].

أما الغريب في كتاب الله تبارك وتعالى فهو الذي إذا سمعه السامع تحفز وتشوق لمعرفة معناه، وبدهي أن الناس جميعاً ليسوا سواء في معارفهم، فما يسهل على بعضهم، نجده يصعب على آخرين ممن هم أوسع ثقافة، وأكثر علماً.

من هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى جاء أعرابيان يختصمان في بئر، قال أحدهما: أنا فطرتها»[2].

وما روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه وقد سأل وهو على المنبر عن معنى التخوف، وذلك في كتاب الله ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل:٤٧].

فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها، قال: نعم. قال شاعرنا وأنشد:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامكاً قرداً   كما تخوف عُودُ النَّبعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم[3].

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والسنّة النبوية، الناشر، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٥٣.
وانظر: الدكتور محمد رجب البيومي، المدرس بكلية اللغة العربية، جامعة القاهرة، البيان القرآني السنة الثالثة، الكتاب الواحد والثلاثين ربيع الثاني، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص١١٦ وما بعدها، دار النصر للطب.

(٢) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج١ ص١١٣.

(٣) الدر المصون، للسمين الحلبي، ٧/ ٢٢٥.

إذن لا بد من وجود الغريب في كتاب الله تبارك وتعالى بمعناه اللغوي، وهو ما لا يستوي في فهمه جميع مستمعيه، لا بمعناه في مصطلح البلاغيين، وهذا الغريب ليس كثيراً، لا كما عده السيوطي[1] رحمه الله فلقد أحصيت ما عده السيوطي في الإتقان فبلغ ما يزيد على سبعمائة وخمسين كلمة، ونحن لا نعد الغرابة تختلف باختلاف العصور، وإلا كانت ألفاظ القرآن جلّها غريبة، وليس الأمر كذلك فمقياس الغرابة إذن هو: ذوق ومعرفة أولئك الذين نزل القرآن فيهم.

أسباب الغرابة:

١- وإذا تلمسنا أسباب هذه الغرابة فسنجد في مقدمتها ورود كلمات في كتاب الله تعالى من غير لغة قريش، ولا أقول من غير لغات العرب، والذي يقرأ كتب التفسير وعلوم القرآن يجد ذلك مبثوثاً فيها على نطاق واسع -نعني لغات القبائل العربية- وقد عقد السيوطي باباً ذكر فيه الكلمات التي جاءت في كتاب الله تعالى من غير لغة قريش، وكلمة سيدنا عمر رضي الله عنه : «الشعر ديوان العرب» -وهو يرشد إلى فهم ألفاظ القرآن من الشعر- خير دليل على ما ذهبنا إليه، لأن جلّ الشعراء لم يكونوا من قريش.

٢- ومن أسباب الغرابة كذلك نقل الكلمة من معناها اللغوي المتبادر إلى وضع جديد قصد إليه الشارع، وذلك: كلفظ (الظلم) مثلاً الذي توسع في مدلوله فقصد به الشرك، وغيره من الألفاظ الكثيرة التي جاءت في كتاب الله تعالى[2].

---

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان، ج١، ص١١٤.

(٢) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، النوع العشرون: الألفاظ الإسلامية، ج١ ص٢٩٤، دار الفكر، بيروت، شرحه وضبط وصححه وعنون موضوعاته: محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

٣- وثمة سبب ثالث، وهو أن تكون الكلمة قد استُعملت استعمالاً دلت القرائن على أن المعنى اللغوي لهذه الكلمة غير مقصود، وذلك ككلمة (مبصرة) في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩]، فمعنى ﴿مُبْصِرَةً﴾ غير عمياء، وما نظن أحداً يقصد هذا المعنى من الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة:١٨].

٤- وأخيراً -وليس آخراً- قد ترد الكلمة الغريبة في كتاب الله، وذلك لغرابة المعنى الذي جاءت من أجله، مثل كلمة (التناوش) في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ:٥٢]، وكلمة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢٢].

ومن هنا فإن سلاسة ألفاظ القرآن، وعدم غرابتها الغرابة التي تحدث عنها علماء البلاغة، لم ينازع فيها أحد من الناس، وهذا يؤيد ما قلته من قبل من أن مقياس الغرابة: هو ذوق ومعرفة أولئك الذين نزل القرآن فيهم.

ونقف ونحن نتحدث عن الغريب أمام كتب ثلاثة، لا لنتحدث عنها ونحللها، فذلك ليس من موضوعنا، ولكن لنلحظ ما في هذه الدراسة المتتابعة من تطور لمفهوم الغريب.

أول هذه الكتب: كتاب أبي عبيدة «مجاز القرآن»، وهو الذي سماه بعضهم «غريب القرآن» كذلك، وأطلق عليه بعضهم «معاني القرآن»، وآخرون «إعراب القرآن»، وكلها أسماء لمسمى واحد، والذي يعنينا من الكتاب هو ما فيه من الغريب، أما ما بعد ذلك من موضوعات عرض لها أبو عبيدة فليس لنا الآن فيه شأن.

والكتاب الثاني: «غريب القرآن» لأبي بكر السجستاني، والثالث: «غريب القرآن» لابن قتيبة.

والذي يعرض لهذه الكتب الثلاثة بالبحث والنقد، يمكنه أن يخلص إلى هذه النتيجة، وهي فيما أرى نتيجة منطقية حتمية، وخلاصتها أن النظرة للغريب، كانت تتطور، وتتسع رقعتها شيئاً فشيئاً، وأكتفي هنا بنقل ما ذكره أبو عبيدة في غريب سورة فاتحة الكتاب، قال أبو عبيد:

«الرحمن» مجازه: ذو الرحمة، و«الرحيم» مجازه: الراحم، وقد يقدِّرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم.

وقد فعلوا مثل ذلك، فقالوا: ندمان ونديم، واستشهد لذلك بأبيات من الشعر لا نرى ضرورة لذكرها.

«رب العالمين»: أي المخلوقين، قال لبيد بن ربيعة:

مـــا إن رأيـــت ولا ســـمعت بمـــثلهم في العالمينـــا

وواحدهم: عالم، قال العجاج:

فخنـــــــدف هامـــــــة هـــــــذا العـــــــالم

«الدين» الحساب والجزاء، يقال في المثل: «كما تدين تدان».

وقال ابن نفيل:

واعلـــمْ وأيقِـــنْ أنَّ ملكـــكَ زائـــل   واعلـــمْ بـــأنَّ كـــما تَـــدين تُـــدانُ

«الصراط»: الطريق، المنهاج الواضح، قال:

فصـــدَّ عـــن نهـــجِ الصـــراطِ القاصـــدِ

وقال جرير:

أمـــيرُ المـــؤمنين عـــلى صراطٍ   إذا اعـــوجَّ المـــواردُ مســـتقيمِ

والموارد: الطرق، ما وردتَ عليه من ماء، كذلك القَرِيّ، وقال:

وَطِئنا أرضهم بالخيلِ حتى ... تركناهم آذلَّ مِن الصراطِ[1]

هذا كل ما ذكره أبو عبيدة عن غريب سورة الفاتحة. أما ما عدا ذلك، فهو إما من مباحث الإعراب، أو من مباحث الزيادة التي تستهوي أبا عبيدة دائماً، ونجده هنا يقرر زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧][2].

أما الكتابان الآخران فرقعة الغريب فيهما تتسع، هذه واحدة، وأخرى حرية بالتسجيل، وهي الاستشهاد بكلام العرب الذي وجدناه عند أبي عبيد، وهو ما لا نجده بهذه الصفة عند الذين جاؤوا من بعده.

ثانيا: النوادر:

ومما هو قريب الصلة بالغريب النوادر، النوادر: جمع نادرة، وليست هي الطرفة، إنما هي ما ندر من الكلام، والذي يستقرئ ما ذكروه من النوادر يمكنه أن يدرك أن المقصود بالنوادر الفروق الدقيقة بين الكلمات، والكلام منه الفصيح، ومنه الشواذ، والشوارد والنوادر، ولعل: النوادر أقرب ما تكون إلى جمهرة الكلام الفصيح.

ولا بد أن نسوق هاهنا بعض الأمثلة على النوادر لنقرب المسألة من الأذهان، جاء في إصلاح المنطق «وما كان على «مِفْعَل» و«مِفْعَلَه» مما يُعتمل به، فهو مكسور الميم، نحو، مِخْرَز ومِقْطَع، ومِبْضَع، ومِسَلَّة، مِخَدَّة، ومِصْدَغة، مِخْلاة، إلا أحرفاً جاءت نوادر بضم الميم والعين، وهي: مُسْعَط، وكان القياس مِسْعَط، ومُنْخُل ومُدُقّ، ومُدْهُن، ومُكْحُلة ومُنْصُل»[3].

(١) مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق: الدكتور محمد فؤاد سزكين، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ج١، ص٢٠، ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٥.

(٣) الخطيب التبريزي، تهذيب إصلاح المنطق، ص٥٠٦، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ، سنة ١٩٨٣م.

«وما كان على (فَعَلَ يَفْعَلُ) فإن مصدره إذا جاء على (مَفْعَل) مفتوح العين، وكذلك المَوْضَع مفتوحٌ، نحو قولك: دَخَلَ يَدْخُلُ مَدْخَلاً، وهذا مَدْخُلُه، وخَرَجَ يَخْرُجُ مَخْرَجاً، وهذا مَخْرَجُه، إلا أحرفاً جاءت نوادرَ بكسر العين، هي: مَفرِق الرأس، وكان القياس مَفْرَق، ومَطلِع ومَشرِق ومَغرِب ومَسقِط ومَسكِن، وقد يقال: مَسْكَن، ومَنْبِت ومَحْشِر، وقد يقال: مَحْشَر، ومَسْجِد ومَنْسِك ومَجْزِر، فإن هذه جاءت على غير القياس، ومنها ما يقال بالفتح، ومنه ما لا يُفتح»[1].

وقد نقل السيوطي في المزهر عن ابن هشام ما يوضح المقصود بالنوادر فقال: «اعلم أنهم يستعملون غالباً وكثيراً ونادراً وقليلاً ومطرداً، فالمطَّرد لا يتخلَّف والغالب أكثر الأشياء، ولكنه يتخلَّف، والكثير دونه، والقليل: دون الكثير، والنادر: أقل من القليل، فالعشرون بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالبُها، والخمسة عشر بالنسبة إليها كثير لا غالب، والثلاثة قليل، والواحد: نادر، فعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك»[2].

يقول الدكتور عزة حسن: إن نظرية ابن هشام في النوادر قائمة على مخالفة اللفظ للقياس، وخروجه عليه، وهي نظرية صحيحة ثابتة، تؤكدها الأمثلة الكثيرة المبثوثة في كتب اللغة، ولكن هذه النظرية على الرغم من ذلك لا تحل لنا مشكلة النوادر، ولا تعللها تعليلاً تاماً، لأننا نجد كثيراً من الألفاظ جاءت مخالفة للقياس، وهي مع ذلك فصيحة مشهورة، لا تعد من النوادر في حال من الأحوال، فينبغي لنا والحالة هذه أن نجد تعليلاً آخر يتمم نظرية ابن هشام، ويفسر لنا ما لم تستطع تفسره[3].

---

(١) إصلاح المنطق، لابن السكيت، ص٢١٩-٢٢٠، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٤٩م.

(٢) عبدالرحمن السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج١، ص٢٣٤.

(٣) مقدمة كتاب النوادر لأبي مسحل الأعرابي، ص٢٠، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

ثم قال: «وبعد فهل كانت هذه الألفاظ التي نراها في كتب النوادر، والتي أوردها الرواة والعلماء على أنها نوادر، هل كانت جميعها من النوادر، خلاف الفصيح حقاً؟ ولا يسعنا إلا أن نجيب بالنفي على هذا السؤال، ونحن نستمد هذا الجواب من كتب النوادر نفسها، لأن كثيراً من الألفاظ التي وردت فيها لا يمكن لنا أن نعدها من نوادر اللغة وغريبها في حال من الأحوال، بل هي تكاد تكون أفصح من الفصيح.

والسبب في ذلك على ما نرى، تباين وجهات النظر عند علماء اللغة أنفسهم، واختلاف معاييرهم في تقدير فصاحة الألفاظ أو غرابتها»(١).

وقد كتب في النوادر كثير من العلماء منهم: أبو زيد الأنصاري(٢)، وابن الأعرابي(٣)، وأبو عمرو الشيباني(٤)، وفي جمهرة ابن دريد(٥)، وغريب أبي عبيدة أبواب معقودة للنوادر.

وقد يتساءل القارئ: ما صلة النوادر بالدراسات القرآنية؟ وكلمات القرآن هي أفصح الكلمات وهو تساؤل مقبول. والجواب عنه سهل ويسير كذلك.

فالذين كتبوا في النوادر تتبعوا الكلمات، ورأوا ما بينها من فروق، فوجدوا أن الكلمات القرآنية جميعاً بعيدة كل البُعد عن دائرة النوادر إذا كان المقصود بها الشاذ من القول، اللهم إلا ما كان من لغتين كلغة الحجازيين والتميميين، أو ما كان قراءة

---

(١) د. عزة حسن، مقدمة النوادر، ص٢٢.

(٢) أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (١١٩-٢١٥هـ/ ٧٣٧-٨٣٠م)، أحد أئمة الأدب واللغة.

(٣) محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، أبو عبدالله (١٥٠-٢٣١هـ/ ٧٦٧-٨٤٥م)، راوية، نسابة، علاّمة باللغة.

(٤) إسحاق بن مرار الشيباني -بالولاء- أبو عمرو (٩٤-٢٠٦هـ/ ٧١٣-٨٢١هـ) لغوي أديب.

(٥) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر، (٢٢٣-٣٢١هـ/ ٨٣٨-٩٣٣م)، من أئمة اللغة والأدب.

شاذة، ولا يشمل هذا بالطبع ما عدّه بعض العلماء من النوادر، وكان -رأياً- خاصاً بهم، كما روي عن الأصمعي من أنه كان يفرق بين حَزِنَ وأَحْزَنَ، فيعد حَزِن فصيح، وأحزن ليس كذلك وكأنه يعدّه من النوادر، والأمر ليس كذلك، لأن كلتا اللفظتين قراءة متواترة «يُحْزِنْكَ، ويَحْزُنْكَ».

فالحديث عن النوادر إذن كان ذا صلة وثيقة بالدراسات القرآنية، مكملة لما سبقها من دراسة الغريب، وفي الأمثلة التالية ما يبين ذلك:

فمن اختلاف اللغتين ما نقله السيوطي في المزهر، قال يونس[1] في نوادره: «أهل الحجاز (يَبطِش)، وتميم (يبطُش). تميم (هَيْهات) وأهل الحجاز (أَيْهات)، أهل الحجاز (مِرْية)، وتميم (مُرْية)، أهل الحجاز (الحِجّ) وتميم (الحَجّ)، أهل الحجاز (تخذت ووخذت) وتميم (اتخذت)، أهل الحجاز (رِضوان) وتميم (رُضوان)، أهل الحجاز (سَلْ ربك) وتميم (سأل) أهل الحجاز (ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان) وتميم (مذ يومين ومذ يومان)، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الإعراب، ويختلفون في (مذ ومنذ) فيجعلها أهل الحجاز (بالنون) وتميم (بلا نون)، أهل الحجاز (لاته عن وجهه يليته) وتميم (ألاته يُليته)، أهل الحجاز (قد عَرِض لفلان شيء تقديره: علم) وتميم (عَرَض له شيء، تقديره: ضرب)»[2].

وقال أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في أول نوادره[3].

«أهل الحجاز (أنا منك براء) وسائر العرب (أنا منك بريء)، أهل الحجاز (يخففون: الهَدْي يجعلونه كالرَّمْي) وتميم (يشددونه يقول: الهديّ كالعَشِيّ والشَّقِيّ)

---

(١) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبدالرحمن، ويُعرف بالنحوي، علاّمة بالأدب، وكان إمام نحاة البصرة في عصره، (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م).

(٢) السيوطي، المزهر، ج٢، ص٢٧٥.

(٣) يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي أبو محمد اليزيدي، ١٣٨-٢٠٢هـ/ ٧٥٥-٨٩٨م، عالم بالعربية والأدب.

أهل الحجاز (تركته بتلك العدوة وأوطأته عَشْوة ولي بك إسْوَة وقِدْوَة) وتميم (تضم أوائل الأربعة) أهل الحجاز (لَعَمْرِي) وتميم (رَعَمْلي)، أهل الحجاز (الشَّفْع والوَتر - بفتح الواو) وتميم (الوِتر - بكسر الواو) أهل الحجاز (الوَلاية في الدين والتولي - مفتوح-، وفي السلطان -مكسور- [يعني وِلاية]) وتميم: (تكسر الجميع)»(١).

ولم يصل إلينا إلا ثلاثة كتب من كتب النوادر، نوادر أبي زيد الأنصاري، وهو من البصريين، ونوادر أبي مسحل الأعرابي(٢) وهو من الكوفيين، والكتب الثالث لأبي علي القالي، وهذا الكتاب أقرب إلى كتب الأدب منه إلى ما نحن بصدده.

والناظر في الكتابين الأول والثاني يجد تأكيد ما قلته من قبل، ففي نوادر أبي مسحل نجد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور:١٥]، وفي قراءة لعائشة رضي الله عنها (إذ تَلِقُونه) -بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف- من وَلَقَ - يَلِق، كوعد يعد، وقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] وهي قراءة العامة [أي القراءة المتواترة، قراءة الجمهور، وفي قراءة شاذة] (وادَّكَرَ بعدَ أَمَهٍ)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جُبُلًّا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢] [وهي قراءة روح عن يعقوب، وهي قراءة متواترة]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر:٥٤]، بضم النون والهاء، [أي: ونُهُرٍ جمع نَهْرٍ، وهي قراءة ابن حيصن، وهي قراءة شاذة](٣).

أما أبو زيد فنجده يستشهد بكثير من الآيات الكريمة في نوادره(٤).

---

(١) السيوطي، المزهر، ج٢، ص٢٧٧.

(٢) عبدالوهاب بن حريش الأعرابي، أبو محمد الملقب بأبي مسحل، نحو ١٧٠-٢٣٠هـ/ ٧٨٦-٨٤٥م، غزير العلم باللغة، عارف بالنحو والقراءات.

(٣) كتاب النوادر، عُني بتحقيقه الدكتور عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٠هـ/ ١٩٦١م.

(٤) كتاب النوادر في اللغة مع تعاليق عليه، لمصححه: سعيد الخوري الشرتوني، اللبناني، المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٤م. ففي ص٨ استشهد بقوله تعالى: =

ثم تتابعت المؤلفات في هذا الموضوع، فمنها على سبيل المثال: كتاب «الألفاظ» و«إصلاح المنطق» لابن السكيت[1].

ذكر في الكتاب الأول «الألفاظ» موضوعات متعددة، وذكر في كل موضوع الألفاظ التي تدل عليه.

وذكر في الكتاب الثاني: -وهو بحق سفر ضخم- الألفاظ المتقاربة في الأوزان، وما بينها من اتفاق واختلاف في المعنى.

والواقف على هذا الكتاب يجد ابن السكيت استشهد على كثير مما ذكره بآي القرآن الكريم، ففي باب (فَعْل وفِعْل) بفح الفاء وكسرها. باختلاف المعنى، يستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت:٥] وبقوله تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ [الذاريات:٢] وبقوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل:٧]، وقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات:١٠٧] .

وفي باب (فِعْل، وفَعْل) -بكسر الفاء وفتحها- باتفاق معنى يستشهد بقوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ -بكسر الحاء- [الفرقان:٥٣]، (حَجراً محجوراً) بفتح الحاء.

= ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠]، وفي ص١١ بقوله تعالى: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة:٧]، وص١٥ بقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، وص٢٦ بقوله: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:١٠٩]، وص٣٧ بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة:١٨٦]، وص٣٨ بقوله: ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:١١]، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة:٣٠]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾ [المرسلات:٤١]، وص٥٧ بقوله: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه:١٠٨]، وص٦٤ بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [المائدة:١٣]، وص١٩٠ بقوله: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ:٣٦]، وص٢٥٥ بقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ [الرحمن:٦٤].

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت (١٨٦هـ-٢٤٤هـ)، وكتابه: إصلاح المنطق، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف بمصر. أما كتاب الألفاظ، فحققه د. فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٨م.

وفي باب (فَعْل) -بفتح الفاء وسكون العين- و(فَعَل) -بفتح الفاء والعين- باختلاف معنى، يستشهد بقوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المرسلات:٣٢]، وقوله سبحانه: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقوله: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم:٢٥].

وفي باب (فَعْل وفُعْل وفِعْل) -بفتح الفاء وضمها وكسرها وسكون العين- باتفاق معنى، يستشهد بقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [آل عمران:١٤٠] و(قُرْحٌ)، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]. وقرأ العدوي البصري [يعني أبا السَّمَّال قعنب بن أبي قعنب]: (في سُمِّ الخياط) [وهي قراءة شاذة] قال يونس: أهل العالية يقولون: السُّمُّ، وتميم تقول: السَّمّ.

وفي باب (فَعْلٍ) -بفتح الفاء وسكون العين- و(فَعَلٍ) -بفتح الفاء والعين- من المُعْتَلّ، يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، بعد قوله: وهو الأَيْدُ والآدُ للقوة، إلى غير ذلك.

حتى الأبواب التي لم يستشهد فيها بشيء من القرآن نجد أنه يستند فيما كتبه إلى النص القرآني المحكم، ففي آخر باب من الكتاب، وهو باب (فُعَله) -بضم الفاء وفتح العين- يقول ابن السكيت: «واعلم أنه ما جاء على (فُعَله) -بضم الفاء وفتح العين- من النعوت فهو في تأويل فاعل، وما جاء على (فُعْلَة) -ساكنة العين- فهو في معنى مفعول به، تقول: «هذا رجل ضُحَكَةٌ» كثير الضَّحِك، و«لُعَبَةٌ» كثير اللعب، و«لُعَنَة»: كثير اللعن للناس. و«رجل هُزَأَةٌ»: يهزأ من الناس.

... ورجل هُمَزَة لُـمَزَة: يَهمِز الناس ويَلْمِزهم، أي: يعيبهم، قال الشاعر:

تُـــدْلي بـــوُدِّي إذا لاَقيتَنِـــي كـــذباً   وإنْ أُغَيَّـــبْ فأنـــتَ الهـــامِزُ اللمَـــزَهْ

ولم يذكر قوله سبحانه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة:١]»[1].

---

(١) إصلاح المنطق، ص٤٧٤-٤٧٥.

ومن هذه الكتب: كتاب «الفصيح» لثعلب[1]، ذكر فيه: اللفظ الفصيح، وقد يكون هذا الفصيح من لغة أو لغتين أو أكثر، وقد شَرَحَ كثيرٌ من العلماء هذا الكتاب.

وهذه النهضة اللغوية لا يمكننا أن نستوعب الحديث عنها، فالمقام لا يسمح من جهة، ولا يعنينا التفصيل من جهة أخرى، لكن الدافع لها بحق كان كتاب الله تعالى، من أجل حفظ ألفاظه، أو من أجل الاستشهاد بألفاظه على الفصيح الذي ينبغي أن يسجل وينطق به.

---

(١) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (٢٠٠-٢٩١هـ/ ٨١٦-٩٠٤م)، إمام الكوفيين في النحو واللغة.

المبحث الثاني
مدلول اللفظ

وهو لا يقل شأناً وخطراً عن سابقه، فمدلول اللفظ حري به أن يوجَّهَ إليه العلماء هممهم، ذلك أن الألفاظ إنما هي قوالب للمعاني.

من نافلة القول -إذن- أن تكون حَرِيَّةً بالتقدير، من أجل هذا كان البحث عن هذه المعاني مزامناً مع البحث في الألفاظ، يدلنا لذلك أن الأضداد وما يتصل بها لم تكن متأخرة عن غيرها مما تحدثنا عنه.

وسنتحدث في هذا الفصل عن المشترك بنوعيه، أعني المشترك اللفظي، والمشترك المعنوي (الترادف).

أ- المشترك اللفظي:

والمشترك اللفظي أن يتحد اللفظ ويتعدد المعنى، أي أن يشترك أكثر من معنى في كلمة واحدة، وعلى العكس من ذلك المشترك المعنوي، فهو اشتراك أكثر من كلمة في معنى واحد. ولقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في هذين الجانبين من الدراسة، وقد ظهر ذلك في دراسات علوم الفقه وأصوله فضلاً عما نجده من أثر في التفسير وعلوم القرآن.

والناظر في هذه العلوم جميعها لا يجد عناءً في إدراك ما أحدثته هذه المباحث من ثراء علمي، بل لا أغالي إذا زعمت بأن أثرها قد امتد إلى أنواع كثيرة من المعارف، حيث أفادت الدراسات النقدية والبلاغية والنحوية والدراسات الفقهية والكلامية كذلك، وقد يقال: إن وجود المشترك اللفظي ليس أمراً مجمعاً عليه عند العلماء، ومع صحة هذا القول، فإن هذا لا يقلل من شأن هذه القضية، فجمهرة العلماء ومن يعتد بهم من ذوي الشأن، من أئمة التفسير والأصوليين، أصول الدين

وأصول الفقه، والفقهاء، لا يرتابون في وجود المشترك اللفظي، فهم يعدونها ظاهرة لغوية، وأقل من القليل هم الذين ماروا في وجود المشترك اللفظي.

إن وجود المشترك اللفظي في اللغة من الأمور المبكرة التي أشار إليها العلماء، فهذا أبو العميثل عبدالله بن خليد بن سعد (ت٢٤٠هـ) يُخرج لنا كتاباً فيما اتفق لفظه واختلف معناه، ومن بعده المبرد محمد بن يزيد نجده يكتب فيما اتفق لفظه واختلف معناه في كتاب الله، وهو كتيب طُبع في المطبعة السلفية للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله.

ولا نكاد نجد كتاباً من كتب التفسير واللغة وغيرهما إلا وفيه إشارات كثيرة مبثوثة، تتحدث عن المشترك اللفظي يقول الطبري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل:٧٢]: «واختلف أهل التأويل في المعنيين بالحفدة، فقال بعضهم: هم الأختان، اختان الرجل على بناته؟، وقال آخرون هم أعوان الرجل وخدمه، وقال آخرون هم ولد الرجل وولد ولده، وقال آخرون: هم بنو امرأة الرجل من غيره...» ثم قال: «ولم يكن الله تعالى دلّ بظاهر تنزيله ولا على لسان رسول الله ﷺ ولا بحجة عقل على أنه عنى بذلك نوعاً من الحفدة دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكل ذلك علينا لم يكن لنا أن نوجه ذلك إلى خاص من الحفدة، دون عام إلا ما اجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم، وإذا كان ذلك كذلك فلكل الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا وجه في الصحة ومخرج في التأويل»(١).

وكلمة مسحر في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٣،١٨٥] يقول ابن جرير: اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضهم: معناه

---

(١) الإمام محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠)، جامع البيان، ١٤/٩٦-٩٩، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية، سنة ١٣٢٨هـ.

إنما أنت من المسحورين، وقال آخرون: معناه من المخلوقين، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قال: من المخلوقين، واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى ذلك، فكان بعض أهل البصرة يقول: «كل من أكل من إنس أو دابة فهو مسحر وذلك لأن له سَحْراً يَقْري (أي: يجمع) ما أكَلَ فيه، واستشهد على ذلك بقول لبيد:

فــإنْ تســألينا فِــيمَ نحــنُ فإنَّنَــا   عصــافيرُ مِــن هــذا الأنــام المُسَــحَّرِ

وقال بعض نحويي الكوفيين نحو هذا، غير أنه قال: أُخذ من قولك: انتفخ سَحْرُك، أي: إنك تأكل الطعام والشراب فتُسَحَّرُ به وتُعَلَّل، وقال: معنى قول لبيد: من هذا الأنام المُسَحَّر، من هذا الأنام المعلَّل المخدوع، قال: ويروى أن السِّحْرَ، من ذلك لأنه كالخديعة».

«والصواب من القول في ذلك عندي القولُ الذي ذكرته عن ابن عباس، أن معناه إنما أنتَ من المخلوقين الذين يُعَلَّلون بالطعام والشراب مثلنا»[1].

فالمُسَحَّرُ كما رأينا من باب المشترك اللفظي، لأنه إما أن يكون من السِّحر، فيكون معناه المسحور الذي اختلط في عقله، وإما أن يكون من السَّحْرِ -بفتح السين على غير القياس بمعنى الرئة-، ومنه قول السيدة عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه الإمام مسلم: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْرِي ونَحْرِي». فالمُسَحَّرُ على هذا التفسير ذو الرئة الذي يأكل ويشرب، ولقد أشار الزمخشري في كشافه إلى هذين القولين فلم يرجح أحدهما على الآخر، قال: «المسحر الذي سُحِرَ كثيراً حتى غُلِب على عقله، وقيل: هو من السَّحْر: الرئة وأنه بشر»[2].

---

(١) الطبري، جامع البيان، ١٩/ ٦٣.

(٢) الإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٣/ ٣٢٨، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

ثم جاء الرازي (ت٦٠٦هـ) ونقل هذه الأقوال كذلك، وكان صنيعه مثل الزمخشري فلم يرجح قولاً على قول[1]، وهؤلاء هم أئمة التفسير أعني الطبري والزمخشري والرازي، وتفاسيرهم هي الأصول التي أفاد منها المفسرون، فهم كما رأينا يذكرون الأوجه المحتملة لكلمة مُسَحَّر، وهي من المشترك اللفظي، والطبري وحده هو الذي رجح أحد الأقوال، وهو أن المسحر الذي يأكل ويشرب.

والذي يترجح لي في هذه الكلمة تفسيرها في كل موضع بما يتسق مع السياق والنظم، فلقد وردت الكلمة مرتين، كلتاهما في سورة الشعراء، الأولى حديثاً عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٥]، والثانية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦].

فالكلمة في الآية الأولى معناها، إنما أنت بشر تأكل وتشرب، أما في الآية الثانية فتعني المسحور من السحر، أي: المختلط في عقله، وإنما ذهبت هذا المذهب في تفسير الآيتين الكريمتين.

أولاً: لخلو الموضع الأول من الواو، ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وهذا ما يسميه علماء البلاغة فصلاً، ومن مواضع الفصل أن تكون الثانية تأكيداً للأولى، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف:٣١]، فليس بين الجملتين تغاير، لذلك ترك العطف.

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢٤/ ١٥٩، الطبعة الأولى، المطبعة البهية المصرية.

أما في الموضع الثاني فقد جاءت الواو ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، والعطف يقتضي التغاير، فكونه مسحراً يختلف عن كونه بشراً، وهذا هو الذي لمحه الزمخشري دون أن يفصل القول فيه.

ثانياً: وإذا هناك مرجحاً بيانياً فإن هناك مرجحاً تاريخياً كذلك، إن أمر السحر لم يكن معروفاً في القبائل العربية الأولى عاد وثمود، لذا لم نجد تهمة السحر توجه إلى الأنبياء، كل الذي كان يوجهه القوم إلى أنبيائهم أنهم بشر يأكل مما يأكلون ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾ [المؤمنون:٣٣].

وهكذا نجد البحث في المشترك اللفظي ذا فوائد متعددة، تتصل بإعجاز القرآن وبأسرار كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى.

ومن هذا اختلافهم في كلمة (القَدْر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، فالقدر يمكن أن يكون الشرف والمنزلة، ويمكن أن يكون من التقدير، ويمكن أن يفسر بالضيق، وهو ضد البسط، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد:٢٦] والكلمة في الآية محتملة لهذه الوجوه، فَلَيْلَة القدر ذات الشرف والمنزلة، أو التي تقدر فيه الأشياء، أو التي تضيق فيها الأرض من كثرة الملائكة، وهذا كثير جداً، وإنما أحببت الإشارة إليه فحسب.

وليس هذا مقتصراً على تفسير كتب الله تعالى، بل نجده في غيره كذلك، فقد عرض الشريف المرتضَى لمعنى كلمة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : «من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً أو تجفاناً، فبعد أن ينقل قولي أبي عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة في معنى الفقر»، يذكر معنى ثالثاً، فيقول: «ويمكن أن يكون في الخبر وجه ثالث تشهد بصحته اللغة، وهو أن أحد وجوه معنى لفظة الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم أو قريب منه، ثم يكوى عليه حبل يذلل بذلك الصعب [من الإبل]. يقال: فقره يفقره فقراً إذا فعل ذلك به، وبعير مفقور وبه فقرة، وكل شيء

حزته وأثرت فيه فقد فقرته تفقيراً، ومنه سميت الفاقرة، وقيل سيف مُفَقَّر فيحمل القول على أنه ﷺ أراد: من أحبنا فليزم نفسه وليخطمها وليقدها إلى الطاعات، ويصرفها عما تميل طباعها إليه من الشهوات، وليذللها على الصبر عما كره منها، ومشقة ما أريد منها، كما يُفَعل ذلك في البعير الصعب، وهذا وجه في الخبر ثالث لم يذكر.

وليس يجب أن يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد من اللغة وكلام العرب، لأن الواجب على من يتعاطى تفسير غريب القرآن والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني، فيجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منها منفرداً، وليس عليه العلم بمراده بعينه، فإن مراده مغيب عنه، وأكثر ما يلزمه ما ذكرناه من ذكر وجوه احتمال الكلام»[1].

ولقد تعددت الجهات التي بحثها العلماء في المشترك اللفظي، فمن ذلك بحثهم في الأضداد والملاحن، والمسلسل والمشجر والمداخل، ويعنون به تسلسل الألفاظ وتداخلها وشرحها، وبيان ما بينها من صلات ووشائج، فتفسر اللفظة بكلمة، ثم تفسر الكلمة بأخرى وهكذا، وهذه كلها مباحث لغوية لا تخص القرآن وحده.

وهناك مباحث خاصة بالقرآن الكريم، وهي ما عُرف عند الكاتبين في علوم القرآن بالوجوه والنظائر والأفراد، وسنقتصر من هذه المباحث على ما هو ألصق بالدراسات القرآنية.

أولاً: الأضداد:

والأضداد قسم من المشترك اللفظي، ذلكم لأن الكلمة التي لها أكثر من معنى قد يمكننا الجمع بين معانيها، كما رأينا في الأمثلة السابقة، فنحمل اللفظ على كل ما قيل في معناه، وقد يكون ذلك متعذراً، لأن المعنيين متضادان.

---

(١) أمالي المرتضى، ١/ ١٨.

والحق أن البحث في الأضداد كان من أول ما استرعى انتباه العلماء، فشمّروا عن سواعدهم باحثين محاولين استقصاء هذه الكلمات أو التنبيه عليها، وبين أيدينا أكثر من كتاب يحمل هذا العنوان (الأضداد).

ولعل أولها كتاب الأصمعي[1]، وقد استشهد على أكثر ما ذكره بآيات من القرآن الكريم، والأصمعي: محافظ كما نعرف، فهو يتحرج كثيراً أن يبدي في القرآن رأياً، وهذا هو المنهج الذي نجده في كتابه يتحدث عن كلمة (قرء) بأنها قد يراد بها: الطهر، وقد يراد بها: الحيض، ويستشهد على ذلك بشيء من الشعر، ويتحدث بعد ذلك عن كلمة (شعب) يقال: شعبت الشيء: بمعنى: أصلحته، وشعبته: بمعنى فرقته.

وكذلك كلمة (عسعس): يمكن أن تفسر بمعنيين متضادين: أقبل أو أدبر، ويتحدث عن كلمة (أقوى): فالمُقْوي من لا زاد عنده، ولا متاع، والمُقْوي: كثير المال. وكذلك كلمة (عفا) يقال: عفا الشيء: إذا درس، وعفا: إذا كثر.

وهذه الكلمات كلها في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير:١٧]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة:٧٣]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ [الأعراف:٩٥][2].

---

(١) هو سعيد بن عبدالملك بن قريب بن عبدالملك بن علي بن أصمع المعروف بالأصمعي، صاحب لغة ونحو وإمام في الأخبار والنوادر والملح والغرائب (ت٢١٧هـ/ ٩٣٢م).

(٢) ثلاثة كتب في الأضداد، للأصمعي والسجستاني ولابن السكيت، دار الشرق، بيروت، نشرها: الدكتور أوغست هفنر، أستاذ العربية في كلية انسيروك، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، كتاب: الأضداد عن الأصمعي، ص٥-٨.

والكتاب الثاني من كتب الأضداد لابن السكيت[1] وهو شبيه بكتاب الأصمعي، كأنما هو رواية ثانية له: فهو يبدأ بكلمة (القرء) كما بدأ الأصمعي ويذكر كلمة الأقواء، كما ذكرها الأصمعي.

والكتاب الثالث هو (الأضداد) لأبي بكر السجستاني[2]، وكان من حقه ومن حقنا أن نعده الكتاب الثاني لأنه متقدم على ابن السكيت، ولكن لما كان كتاب ابن السكيت نسخة عن كتاب الأصمعي، وكان كتاب السجستاني يمثل طوراً جديداً في دراسة الأضداد، آثرنا إغفال العامل الزمني.

أفاد السجستاني كثيراً من أستاذه الأصمعي، ولكنه لم يقف عند ما وقف عنده، وهو يبين لنا الغرض من تأليفه كتابه، ونلحظ أنَّ الدافع على تأليفه خدمة كتاب الله تبارك وتعالى، يقول: «حملنا على تأليفه أنّا وجدنا من الأضداد في كلامهم، والمقلوبِ شيئاً كثيراً، فأوضحنا ما حضر منه، إذ كان يجيء في القرآن الظنُّ يقيناً وشكاً، والرجاء خوفاً وطمعاً، هو مشهور في كلام العرب، وضدُّ الشيء خلافه وغيره، فأردنا أن يكون لا يَرَى مَن لا يعرف لغات العرب أن الله عز وجل حين قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦] مَدَحَ الشَّاكِّين في لقاء ربهم، وإنما المعنى يستيقنون، وكذلك في صفة من أُوتي كتابه بيمينه من أهل الجنة: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ﴾ [الحاقة:١٩-٢٠] يريد: إني أيقنت، ولو كان شاكاً لم يكن مؤمناً، وأما قوله: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية:٣٢] فهؤلاء شُكّاكٌ كفار»[3].

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) هو سهل بن محمد عثمان بن يزيد أبو حاتم الجشمي السجستاني (١٦٥هـ-٢٥٥هـ)، من ساكني البصرة، كان إماماً في علوم القرآن واللغة والشعر، وكان كثير التصانيف في اللغة، وصنّف في النحو القراءة.

(٣) ثلاث كتب في الأضداد، كتاب الأضداد للسجستاني، ص٢.

«... رجاء: قال أبو حاتم: والرجاء: يكون طمعاً، ويكون خوفاً، وفي القرآن في معنى (الطمع) ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء:٢٨]، قال كعب بن زهير «البسيط»:

أرجو وآمُلُ أن تَدْنُو مَوَدَّتُها ... وما إِخَالُ لدينا مِنكِ تَنْوِيلُ

أراد الطمع، وأراد: وما لدينا منك تنويل إخال، فألغى إخال، وفي الحديث «لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخوفُه بميزانٍ تريص لاعتدلا».

والتَّرِيْصُ: المُقَوَّمُ تقويماً. قال الشاعر: (وهو ذو الإصبعَ العدواني) في نَبْلٍ مُقَوَّمَة (المنسرح):

قَوَّمَ أفواقَها وتَرَّصَها ... أَنْبَلُ عَدْوانَ كُلّها صَنَعا

أنبل: أحذق، وقال بشر بن أبي خازم: «الوافر»

فَرَجِّى الخيرَ وانتَظِري إيابي ... إذا ما القَارِظُ العَنَزِيّ آبَا

ويقال: رَجَوْتُ وَرَجَّيْتُ «مشدَّدة» وارتَجَيْتُ في المعنيين: طَمِعتُ وخِفتُ وقال: «الرجز»

وما تُرَجِّي إذ تُلاقي الذّائِدَا ... أسبعةً لاقَتْ معاً أم واحِدا

أي: ما تَخاف ولا تُبالي، وهي في لغة هُذَيل وكِنانة ونَصْر وخُزاعة في معنى: المُبالاة، والرَّجاء: في القرآن في معنى (الخوف) كثير، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس:٧]، وقوله: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [العنكبوت:٣٦]، وهو كثير، قال أبو ذؤيب: «الطويل»

إذا لَسَعَتْهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها ... وخالَفَها في بَيْتِ نُوبٍ عَوامِلِ

أَنَّثَ النحل وهي لغة، والتذكير: جيد، وبَيْتُ النحل: الجِبْحُ والخلية، والجمع: الجِباحُ والخلايا، والنُّوبُ: جمع نائِب، ونُوبٌ: أراد أنها تختلف، وتأتي بالشمع والعسل، وليس قول أبي عبيدة: أراد أنها سود مثلُ ألوان النوبة لجنس من الحبش بشيء، وزعم أنه يقال: النُّوبَةُ واللوبة، والنُّوبِيُّ، واللوبيُّ واللابةُ: الحَرَّة، وهي أرض كأنما فرشت بالحجارة، والجمع اللابُ واللُّوبُ، كما يقال: دارةٌ من الرمل، ودُورٌ ودار، ولا يُقال: لُوبَة ولُوب، وإن كان الأصمعي قد ذكر ذلك، فإنه لم يصح عندنا من وجه آخر، كما لا يقال: دُورَة ودُورٌ، وإنما هي: دارة ودُورٌ، وقول العجاج «الرجز»:

مـــــن الـــــدَّبِيلِ ناشـــــطاً للـــــدُّورِ

يعني: لداراتِ الرمل، والدَّبِيل: رمل معروف، والناشط: الذي يقطع من موضع إلى موضع آخر، وهو هاهنا: ثور وحشي، قال النابغة: «الطويل»

مَجَلَّـــتُهُم ذاتُ الإلـــه ودِيـــنُهُمْ قـويمٌ فـما يرجـون غـيرَ العواقـبِ[1]»

«... خاف: وكان أبو عبيدة يقول: خاف: من الخوف، ومن اليقين، وكان يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء:٣] يريد: أيقنتم، ولا علم لي بهذا، لأنه قرآن فإنما نحكيه عن رب العالمين، ولا ندري لعله ليس كما يَظُنُّ»[2].

«... أسر: وقال أبو عبيدة: أسررت الشيءَ: أخفيتُه وأظهرتُه أيضاً، وكان يقول في هذه الآية ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس:٥٤] أظهروها، ولا أثق بقوله في هذا، والله أعلم، وقد زعموا أن الفرزدق قال: «الطويل»

فلـــما رأى الحَجّـــاجُ جَـــرَّدَ ســـيفَه أَسَرَّ الحَـــروريُّ الـــذي كـــان أَضْـــمَرا

(١) كتاب الأضداد للسجستاني، ص٨٠.
(٢) المرجع السابق، ص٨٨.

ولا أثق أيضاً بقول الفرزدق في القرآن، ولا أدري لعله قال: «الذي كان أظهراً» أي: كتم ما كان عليه، والفرزدق: كثير التخليط في شعره، وليس في قول نَظِيْرَيْهِ جرير والأخطل، شيء من ذلك، فلا أثق به في القرآن»[1].

ويمكن أن نستخلص الحقائق التالية:

١ - إن أبا حاتم: لا يرى التوسع في نظرية الأضداد في اللغة، وخاصة في لفظ القرآن، فهو لا يرى التسليم بما قاله المفسرون واللغويون من قبل، بل ينقد آراءهم ويفندها مخطئاً كثيراً منها.

٢- الاقتصار في الألفاظ الأضداد على ما جاء منها مما لا يحتمل الشك ويؤيده السياق والشواهد الصحيحة.

٣- رجع باقي ما جاء منها إلى أصولها، من تصحيف وتغاير في اللهجات أو مجرد أخطاء وقع فيها الشعراء نتيجة الاختلاط بالمولَّدين، أو أخطاء في الشعر نفسه نتيجة تداول ألسنة الرواة.

ويهمنا أن نرجع إلى أصل هذا الرأي -القول بعدم التوسع في الأضداد- في القرآن خاصة، وهو واضح في كتابه، ذلك أن التوسع فيها لا يسلم من العثرات ولا ينبغي لمفسر القرآن التمادي وراءها، يقول: «وكل شيء من هذا الباب في القرآن فتفسيره يُتّقى، وما لم يكن في القرآن فهو أيسر خطباً».

٤- إرجاع بعض ما جاء في الأضداد إلى حالات خاصة ملابسة اللفظ، كالتفاؤل، أو التشاؤم.

٥- الاكتفاء في بعضها بذكر ما جاء في تفسير العلماء مع الوقوف بين الآراء المتعارضة موقفاً وسطاً[2].

---

(١) المرجع السابق، ص١١٤.

(٢) الدكتور محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: الأستاذ محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ص١٧٢-١٧٣.

الأضداد: لابن الأنباري[1]:

وهو الحلقة الثالثة من كتب الأضداد، يقول في مقدمته: «هذا كتابُ ذِكْرِ الحروف، التي تُوقِعُها العرب على المعاني المتضادة، فيكون الحرف منها مؤدياً عن معنيين مختلفين، ويظن أهل البِدَع والزيغ والإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم، فسيألون عن ذلك، ويحتجون بأن الاسم مُنبِئ عن المعنى الذي تحته، ودال عليه، وموضح تأويله، فإذا اعتور اللفظةَ الواحدة معنيان مختلفان، لم يعرف المخاطَب أيهما أراد المخاطب، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى، فأُجيبوا عن هذا الذي ظنوه، وسألوا عنه بضروب الأجوبة:

أحدُهن: أن كلام العرب يصحِّح بعضُه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يُعرَف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوعُ اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها، ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنًى واحد»[2].

الواضح إذن: أن ابن الأنباري قصد بكتابه الرد على الشعوبيين أولاً، وخدمة العربية، لغة القرآن ثانياً، وهذان العاملان أشرت إليهما في أول الباب، ويمثل بعد ذلك بألفاظ ذوات معانٍ متضادة، يحدد السياق المعنى المقصود لكل لفظة، واستشهد لذلك ببعض الشعر، ثم قسم الكلام إلى أربعة أقسام ليبين خطورة الأضداد[3].

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري، (٢٧١-٣٢٨هـ/ ٨٨٤-٩٤٠م) من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار.

(٢) الأضداد في اللغة، اعتنى بضبطها بالشكل وتصحيحها الشيخ محمد عبدالقادر سعيد الرافعي، والعلاّمة اللغوي أحمد الشنقيطي، طبع بالمطبعة الحسينية المصرية، بكفر الطماعين بمصر، ص٢.

(٣) المرجع السابق، ص٦.

١- ألفاظ لا تعني إذا وردت في الكلام إلا معنى واحداً، لا يتغير بتغير السياق، كالرجل والمرأة، والجمل والناقة، واليوم والليلة، وقام وقعد، وتكلم وسكت، وهذا هو الكثير الذي لا يحاط به.

٢- ألفاظ لا يفهم معناها إلا بالسياق، ولا يمكن أن تختلط في المدلول، مثل لفظ (حَمَل) بمعنى ولد الضأن، و(حمل) بمعنى اسم الرجل.

٣- ألفاظ يقع اللفظان منها أو أكثر على المعنى، كقولك: البر والحنطة، أو العير والحمار، والذئب والسِّيْد، وجلس وقعد.

٤- ألفاظ يختلف معناها باختلاف السياق، وهذا القسم يضم الأضداد، وهو القسم المهم في هذا البحث، لأنه القليل الظريف من كلام العرب.

ويبين بعد ذلك: أن ما كُتِبَ قبله في الأضداد لم يكن تاماً، فأراد أن يجمعه ويزيد عليه، وأول ما يذكره (الظن) يقول:

فأول ذلك (الظن) يقول على معانٍ أربعة:

معنيان متضادان، أحدهما: الشك، والآخر: اليقين الذي لا شك فيه، فأما معنى: الشك، فأكثر من أن تُحصَى شواهده، وأما معنى: اليقين فمنه قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن:١٢].

معناه: علمنا، وقال جل اسمه ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣]، معناه: فعلموا بغير شك...[1].

«... والمعنيان اللذان ليسا متضادّين: أحدُهما: (الكذب)، والآخر: (التهمة)، فإذا كان (الظن) بمعنى الكذب، قلت: ظن فلان، أي: كذب، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨] فمعناه: إن هم إلا يكذبون، ولو كان على معنى

---

(١) الأضداد في اللغة، ص١١.

الشك، لاستوفى منصوبَيْه أو ما يقوم مقامَهما، وأما معنى: التهمة، فهو أن تقول: ظننت فلاناً، فتستغني عن الخبر، لأنك اتهمته، ولو كان بمعنى: الشك المحض لم يُقْتَصَرْ به على منصوب واحد»[1].

«... وقال بعض أهل اللغة: رجوت: حرف من الأضداد، يكون بمعنى: الشك والطمع، ويكون بمعنى: (اليقين)، فأما معنى: الشك والطمع فكثير لا يحاط، ومنه قول كعب بن زهير:

أرجُو وآمـلُ أن تَـدنُو مودَّتُها ... وما إخـالُ لـدينا منـكِ تَنْوِيـلُ

معناه: وما لدينا منك تنويل، وأخال: لغو.

وأما معنى (العلم) فقوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠]. معناه: فمن كان يعلم لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، وقولهم عندي غير صحيح، لأن الرجاء لا يخرج أبداً من معنى: الشك، أنشدنا أبو العباس:

فَـوَا حَـزَني مـا أشـبَهَ اليـأسَ بالرَّجَـا ... وإن لم يكونـا عنـدَنا بِسَـواء

والآية التي احتجوا بها: لا حجة لهم فيها، لأن معناها: فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه، أي: يطمع في ذلك، ولا يتيقنه.

وقال سهل السِّجسْتاني: معنى قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فمن كان يخاف لقاء ربه، وهذا عندنا غلط، لأن العرب لا تذهب بالرجاء مذهب الخوف إلا مع حروف الجحد، وقد استقصينا الشواهد لهذا، ويقال: ارتجيت ورجَّيت بمعنًى»[2].

ويواصل ابن الأنباري حديثه عن الأضداد، ونود أن نسجل هنا أن دراسة الأضداد طرأ عليها ما طرأ على دراسة الغريب مما تحدثنا عنه من قبل:

---

(١) المرجع السابق، ص١٢-١٣.

(٢) الأضداد في اللغة لابن الأنباري، ص١٣-١٤.

١ - فهذا ابن الأنباري يكمل ما بدأه مَنْ قبله، موافقاً حيناً، وراداً حيناً آخر.

٢ - إن الغالب على مادة الأضداد، كونها من كتاب الله تبارك وتعالى، وهذا يدل خير دلالة على عناية أولئك الأئمة -رحمهم الله تعالى- بالكلمات القرآنية وتعيين مدلولاتها حتى لا يكون حرج أو اختلاف.

ثانياً: الملاحن:

ومن أقسام المشترك الملاحن، وهي مشتقة من اللحن، وللحن أكثر من معنى، ولكن المعنى الذي يتصل بها نحن بصدده الفطنة والذكاء والتعريض، ومنه قول النبي ﷺ: «لعلَّ أحدكم أن يكون ألحن بحجته» [أخرجه البخاري ومسلم].

وقول القتال الكلابي:

ولقد وحيت لكم لِكَيْما تَفْطَنُوا ... ولَحَنْتُ لحناً ليس بالمرتابِ

وقول مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري:

وحديثٍ ألَذُّهُ هو مما ... ينعت الناعتون يوزَنُ وزنَا

منطقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أحيا ... ناً وخيرُ الحديثِ ما كان لحنا[1] [2]

أخذ بعض العلماء والمتأدبين على الجاحظ وابن قتيبة تفسيرهما اللحن بأنه الخطأ في القول. وإنما المقصود بالبيت وصفها بالظرف والفطنة وأنها توري بما قصدت له[3].

---

(١) حديث معطوف على ما قبله، أي لها وجه ولها حياء، ولها حديث ما مثل ذلك وقوله: (ألذه) أي أستلذه، يقال: «لذذت به ولذذته»، وقوله: «مما ينعت الناعتون» أي مما ينعته الناعتون، وقوله: «يوزن وزناً» أي موزوناً، فهو في موضع الحال.

(٢) الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ)، الأمالي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١/ ١٤، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٣) الشريف المرتضي، الأمالي، ١/ ١٥.

فالمقصود من الملاحن -إذن- أن تكون اللفظة لها معنيان توري بأحدهما عن الآخر، فكلمة لعبت يمكن أن تكون من اللعب، ويمكن أن تكون من اللعاب.

ومن الذين كتبوا في الملاحن ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي (ت٣٢٠هـ)، يقول في مقدمة كتابه: «هذا الكتاب ألفناه ليفزع إليه المجبر المضطهد على اليمين المكره عليه، فيعارض بها رسمناه، ويضمر خلاف ما يظهر، ليسلم من عادية الظالم، ويتخلص من حيف الغاشم، وسميناه كتاب (الملاحن) واشتققنا له هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة... لأن اللحن عند العرب: الفطنة، ومنه قول النبي ﷺ: «لعل أحدكم ألحن بحجته من بعض» أي أفطن لها، وأغوص عليها، وذلك أن أصل اللحن أن تريد شيئاً فتوري عنه بشيء آخر»[1].

بقي مما هو وثيق الصلة بهذه الأنواع قسمان يجب التنبيه لهما، والعناية بهما، فلئن كانت الأقسام السابقة عامة في القرآن وغيره، فإن هذين يختص بهما كتاب الله تبارك وتعالى، ونعني بهما: (الوجوه) أولاً، و(الأفراد) ثانياً.

ثالثاً: الوجوه:

أما الوجه: فأن يكون للكلمة الواحدة معانٍ كثيرة، وفي كتب علوم القرآن فصول لهذا النوع، من ذلك كلمة (الهدى) جاءت في كتاب الله تعالى على تسعة عشر وجهاً، أي تسعة عشر معنى، وهذه المعاني هي:

الثبات ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦].

والبيان ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة:٥].

والدِّين ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٣].

---

(١) مقدمة كتاب الملاحن، لابن دريد، الطبعة السلفية، سنة ١٣٤٧هـ.

والإيمان ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ ﴾ [مريم:٧٦].

والدعاء ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد:٧]، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء:٧٣]

وبمعنى: الرسل والكتب ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨].

والمعرفة ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل:١٦].

وبمعنى: النبي ﷺ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩].

وبمعنى القرآن ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم:٢٣].

وبمعنى التوراة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [غافر:٥٣].

وبمعنى: الاسترجاع ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٧].

والحجة ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، بعد قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ أي لا يهديهم حجة.

والتوحيد ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ [القصص٥٧].

والسنّة ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف:٢٢].

والإصلاح ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢].

والإلهام ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠] أي: ألهمهم المعاش.

والتوبة ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

والإرشاد ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢][1].

ومن ذلك الصلاة تأتي على وجوه كثيرة منها:

الصلوات الخمس، وصلاة العصر، وصلاة الجمعة والجنازة والدعاء، والدين والقراءة، والرحمة والاستغفار، ومواضع الصلاة.

ومن ذلك الرحمة، وردت على أوجه منها: الإسلام، والإيمان، والجنة، والمطر، والنعمة، والنبوة، والقرآن، والرزق، والنصر، والفتح، والعافية، والمودة، والسعة، والمغفرة، والعصمة[2].

رابعاً: الأفراد:

ويعنون بالأفراد: أن يأتي اللفظ في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، فيكون معناه واحداً في جميعها، ولكنه يخرج عن هذا المعنى في موضع واحد، لذلك سمي هذا النوع بالأفراد، لأن اللفظة في موضع واحد تجيء بمعنى غير الذي جاءت له في مواضع كثيرة.

من ذلك مثلاً «كلمة (البروج) فحيثما وردت في كتاب الله تعالى، فمعناها الكواكب أو المنازل، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، ولكنها جاءت في موضع واحد تختص بمعنى

---

(١) من أراد المزيد، فليرجع إلى: الإتقان للسيوطي، ١/ ١٤١. والبرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، إبراهيم الطبعة الأولى، ١٣٧٦-١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزرك.

(٢) وأول من كتب في الوجوه مقاتل بن سليمان المتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة وقد طبع كتابه بتحقيق: الدكتور عبدالله شحادة، ويليه كتاب يحيى بن سلام، وقد طبع بتحقيق: الدكتورة هند شلبي، وأوسع منهما كتاب الدامغاني، وهو مطبوع كذلك، وكتب الوجوه والنظائر كثيرة.

آخر، وهي قوله سبحانه: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨]، فالبروج: هنا تفسَّر بالقصور.

ومن ذلك كلمة (أسف) فلقد وردت في كتاب الله في مواضع كثيرة، ولكنها تفسَّر بالحزن، قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف:٨٤].

وقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ [الأعراف:١٥٠]، ولكنها جاءت في موضع واحد لغير هذا المعنى، وهذا الموضع قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥]، فإنها لا يجوز هنا أن تفسر بالحزن، إنما تفسر بالغضب، أي: فلما أغضبونا ومن ذلك كلمة (فحشاء) فحيث وردت في كتاب الله، فيقصد بها الزنا، وما عظم من الفواحش، إلا أن موضعاً واحداً فسرت فيه هذه الكلمة بالبخل وهو قوله سبحانه: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ [البقرة:٢٦٨] فالفحشاء، هنا: البخل: وممن كتب في الوجوه والأفراد ابن فارس»[(١)].

ب- المشترك المعنوي:

ونعني به الترادف، والترادف عند مثبتيه أن يكون للكلمتين أو الكلمات معنى واحد، ويظهر أن الحديث عن الكلمات التي تبدو لأول وهلة أنها مترادفة، وتلمس ما بين هذه الكلمات من فروق دقيقة ظهر مبكراً، فقد تقدم لنا من قبل قول ابن هرمة:

هـــذا ابـــنُ هَرْمَـــةَ قـــائماً بالبـــاب

وكيف أن ابن هرمة أنكر على منشده هذا البيت وصوبه له «هذا ابنُ هَرْمَةَ واقفاً بالباب» وبين له أن الفرق بين الكلمتين فرق شاسع.

---

(١) راجع: الإتقان، للسيوطي، ١/ ١٤٣.

ومن هذا ما رووه عن النضر بن شميل من أنه دخل على المأمون، فقال له: اجلس مرتين أو ثلاث فقال النضر: يا أمير المؤمنين إنما يكون الجلوس بعد اتكاء، وذكره بما جاء في السنة عن بعض الرواة، حيث كان النبي ﷺ يعظ أصحابه ويعلمهم فنهاهم عن الشرك بالله وعقوق الوالدين، قال راوي الحديث وكان متكئاً وجلس، ثم قال: «ألا وقول الزور»، قال المأمون: فماذا أقول -إذن- قال: قل: اقعد فأعجب المأمون ذلك.

ومما هو أصل في موضوعنا هذا واشتهر بين العلماء كلمة الجاحظ.

«وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج»[1].

ولقد كان لهذه الملحوظات وما يشبهها أثر غير خفي في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى فيما بعد، فلماذا استعملت كلمة القيام في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة:٢٠] بينما استعملت كلمة الوقوف في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٣٠]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٤] ولم استعمل مادة

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: وشرح عبدالسلام هارون، دار الجبل، ١/ ٢٠.

القعود كثيراً في كتاب الله في مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦]، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن:٩]، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٦٠]، على حين لم تستعمل مادة الجلوس إلا في آية واحدة ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١]؟ ولم استعملت كلمة الفعل في آيات، وكلمة العمل في آيات أخرى؟ إلى غير ذلك من أبحاث شيقة مفيدة تحدد لكل لفظ معناه الذي لا يشترك معه غير فيه. وهذا ما سنحدثك عنه في موضوع الإعجاز البياني.

ولا بد أن نقرر هنا بأن عدم التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية قد حرم الناس من فوائد كثيرة، وحال بينهم وبين إدراك متكامل لمدلول الكلمة القرآنية، وسد أمامهم أبواب الوعي الدقيق لكثير من الآيات الكريمة ونعترف أن كثيراً من كتب التفسير والمعاجم اللغوية كانت سبباً في ذلك كله حيث التقت هذه الكتب والمعجمات على أن تعطي المعنى القريب للكلمة القرآنية، فتشتبه المعاني، وتختلط بعضها ببعض.

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها، فإن كثيرين وقفوا من الترادف موقف السلبية والإنكار[1]، وقد فطن بعض العلماء والباحثين لهذه القضية الخطرة، وما يمكن أن تحدثه مِن أثر سلبي في فهم المعنى وإدراكه، فطرحوا قضية الترادف للبحث ولم يقتصر ذلك على الأقدمين فحسب، بل تجاوزه إلى المحدثين كذلك، وهذه خلاصة لآرائهم وأقوالهم:

١- أبو هلال العسكري:

وهذا الإمام اللغوي أبو هلال العسكري[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب الصناعتين في كتاب «الفروق اللغوية» يذكر في مقدمته: «أنه ألَّف كتابه في الفروق بين معاني

---

(١) انظر: مجلة الثقافة، الأستاذ علي عبدالواحد وافي، سنة ١٩٧٣.

(٢) الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، عالم بالأدب.

الألفاظ، لأنه لم يجد من كتب قبله في هذا الموضوع، وبيّن أنه سيذكر ما جاء من ذلك في كتاب الله تعالى، وفي كلام العرب».

وفي الباب الأول من الكتاب، نقل كثيراً من أقوال المحققين مستشهداً على عدم وجود الترادف في العربية، وما نقله حري بنا أن نقتطف منه بعض العبارات لأنه جدير بأن يذكر ويسجل.

قال رحمه الله : «وكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد، لأن ذلك تكثير للغة بما لا فائدة فيه...»[1].

ثم قال رحمه الله تعالى: «ولهذا المعنى أيضاً، قال المحقِّقون من أهل العربية: إن حروف الجر لا تتعاقب، حتى قال ابن درستَوَيْه: في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس، قال أبو هلال رحمه الله: وذلك أنها إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها، ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر، فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد، فأبى المحققون أن يقولوا بذلك وقال به من لا يتحقق المعاني».

ثم أورد أبو هلال ما يتوهمه بعضهم من ضرورة وجود الترادف في العربية، أورده وَرَدَّه رداً مقنعاً مفحماً، قال: «ولعل قائلاً يقول: إن امتناعك من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد ردّ على جميع أهل اللغة، لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا: هو العقل، أو الجَرْح: قالوا: هو الكسب، أو السكب، قالوا: هو الصب، وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء، وكذلك الجرح والكسب، والسكب والصب، وما أشبه ذلك، قلنا: نحن أيضاً كذلك نقول، إلا أنا نذهب إلى قولنا: اللب، وإن كان هو العقل فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا: العقل، ومثل ذلك

---

(١) الفروق اللغوية، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ص١٢.

القول، وإن كان هو الكلام، والكلام هو القول، فإن كل واحد منهما يفيد بخلاف ما يفيده الآخر، وكذلك المؤمن، وإن كان هو المستحق للثواب، فإن قولنا: مستحق للثواب يفيد خلاف ما يفيده قولنا: مؤمن، وكذلك: جميع ما في هذا الباب...»[1].

٢- ابن فارس:

ومن هؤلاء الإمام اللغوي أبو الحسن أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة العربية وسَنَنِ العرب في كلامها» فهو ينكر قضية الترادف بين الكلمات يقول: «يسمى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك أكثر الكلام كرجل وفرس، وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد نحو: عين الماء وعين السحاب، ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السيف والمهند والحسام، والذي نقوله في هذا إن الاسم واحد وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى.

وقد خالف في ذلك قوم فزعموا أنها -وإن اختلفت ألفاظها- فإنها ترجع إلى معنى واحد، وذلك قولنا: سيف وعَضْبٌ وحسام، وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غيرُ معنى الآخر، قالوا وكذلك الأفعال، نحو: مضى وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام وهجع، قالوا: ففي (قعد) معنى ليس في (جلس) وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد ابن يحيى ثعلب واحتج أصحاب المقالة الأولى: بأنه لو كان لكل لفظة معنى غير الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته، وذلك أنا نقول في ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]: لا شك فيه، فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأً، فلما عُبِّرَ عن هذا بهذا علم أن المعنى واحد، قالوا وإنما يأتي الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيداً ومبالغة كقولهم: «طويل»

(١) ص١٣-١٤.

وهِنْـــدٌ أتَـــى مِـــن دونِهـــا النـــأيُ والبُعْـــدُ

قالوا: فالنأي هو البُعد، قالوا، وكذلك قول الآخر: «عامَ الحَبْسِ والأَصْرِ»، فإن الحبس هو الأَصرُ.

ونحن نقول إن في (قعد) معنًى ليس في (جلس)، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد، وأخذه المقيمُ والمُقْعِدُ، وقَعَدَتِ المرأة عن الحيض.

ونقول لناس من الخوارج قَعَدٌ، ثم نقول: كان مضطجعاً فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس، لأن الجَلْسَ: المرتفع، فالجلوس ارتفاع عما دونه وعلى هذا يجري الباب كلُّه.

وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّرَ عن الشيء بالشيء فإنا نقول: إنما عُبِّرَ عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول: إن اللفظتين مختلفتان فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقول: إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى»[1].

وإذا كان هذا موقف هذين الإمامين اللغويين من الترادف، فإن هناك موقفاً آخر يمثله أحد رجال الفقه وأصوله، ذلكم هو الإمام الشوكاني، فبعد أن عرف الترادف وفرق بينه وبين المؤكد قال: «وقد ذهب الجمهور إلى إثبات الترادف في اللغة العربية، وهو الحق، وسببه إما تعدد الوضع أو توسيع دائرة التعبير وتكثير وسائله، وهو المسمى عند أهل البيان بالافتنان أو تسهيل مجال النظم والنثر وأنواع البديع فإنه قد يصلح أحد اللفظين المترادفين للقافية أو الوزن أو السجعة دون الآخر، وقد يحصُل التجنيس والتقابل والمطابقة ونحو ذلك، وبهذا دون هذا، وبهذا يندفع ما قاله المانعون لوقوع الترادف، في اللغة، من أنه لو وقع لَعَرِيَ عن الفائدة لكفاية أحدِهما فيكون الثاني من باب العبث ويندفع أيضاً ما قالوه من أنه تكون من تحصيل الحاصل، ولم يأتوا بحجة مقبولة في مقابلة ما هو معلوم بالضرورة من وقوع

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: مصطفى اليحيى، ص٩٦-٩٧.

الترادف في لغة العرب، مثل: الأسد والليث، والحِنطة والقمح، والجلوس والقعود، وهذا كثير جداً، وإنكاره مُباهته.

وقولهم: إن ما يُظَنّ أنه من الترادف هو من اختلاف الذات والصفة، كالإنسان والبشر، أو الصفات كالخمر لتغطيته العقل، والعقار لعُقْرِه أو لمعاقرته، أو اختلاف الحالة السابقة كالقعود من القيام، والجلوس من الاضطجاع، تكلف ظاهر، وتعسف بحت، وهو إن أمكن تكلُّفُ مثله في بعض المواد المترادفة، فإنه لا يمكن في أكثرها، علم هذا كل عالم بلغة العرب، فالعَجَبُ مِن نسبةِ المنع من الوقوع إلى مثل ثعلبٍ وابن فارسٍ مع توسعهما في هذا العلم»[1].

ونحن ننازع الشوكاني في كثير مما ذهب إليه، ننازعه أولاً في نسبته إثبات الترادف للجمهور، اللهم إلا أن يكون جمهور الفقهاء والأصوليين، مع أن هؤلاء كذلك مختلفون في هذا الأمر، وقد تقدم لنا قول الجاحظ وأبي هلال وابن الأعرابي وابن فارس، وابن درستويه وأبي علي الفارسي، وهؤلاء أئمة في البيان واللغة والنحو، وننازعه كذلك في أن الترادف يكون للافتنان، أو تسهيل مجال النظم والنثر، ولو كان الأمر كما قال لذهب كثير من معاني الشعر والنثر، فكم من كلمة اختارها الشاعر لإكمال قافيته كان مما عابه العلماء والنقاد.

وننازعه كذلك فيما رمى به منكري الترادف من التكلف والمباهته وخير ما يرد به عليه كتاب الله تبارك وتعالى، وعلى سبيل المثال ما نقلناه من الآيات الكريمة التي استعملت فيها الكلمات استعمالاً دقيقاً، حيث جاءت مادتا القيام والوقوف، والجلوس والقعود، والشك والريب، والعمل والفعل، مما يظن ترادفه، جاءت كل كلمة في مكانها حيث لا يغني عنها غيرها ولا يسد مسدها، ولعل الذي يوازن بين كلامه وبين كلام سابقيه من أئمة اللغة يطمئن إلى ما قاله اللغويون.

---

(١) الإمام محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص١٨، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، مطبعة مصطفى الحلبي.

٣- السيوطي:

وقد ذكر الحافظ السيوطي رحمه الله هذه المسألة، وبين حجج الفريقين، وأحسب أن الذي يقرأ ما ذكره السيوطي يترجح لديه قول من أنكر الترادف.

ذكر السيوطي عن عز الدين بن جماعة قال: حكى الشيخ القاضي أبو بكر بن العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، منهم: ابن خالويه، فقال: احفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي، فقال: ما أحفظ إلا اسماً واحداً، وهو السيف، قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة[1].

وحري بالدارس لكتاب الله تعالى أن تكون له هذه النظرة ذات الدقة والشمول، حتى لا يطغى بعض المعاني على بعض، ولا تخرج الكلمة من حيزها الذي ينبغي لها ألا تتعداه.

وحديثاً وجدنا من الباحثين من يتحدث عن الترادف، محاولاً أن يعالج هذه القضية بأسلوب حديث.

٤- الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

ومن هؤلاء الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله فبعد أن ذكر أقوال العلماء في الترادف، وبيّن أنهم اختلفوا فيه على أربعة أقوال:

منهم: المنكرون له، وهم كثرة من أئمة اللغة، كابن الأعرابي وثعلب، وابن فارس، فهؤلاء عدوا المترادفات أسماء، كل منها يمتاز عن غيره ببعض الفروق.

---

(١) انظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، ج١، ص٤٠٥.

والمذهب الثاني «عد المترادفات صفات، لما اشتهر من الأسماء، فالسيف هو الاسم، وما أطلق عليه بعد ذلك، كالصارم والبتار والمهند، فإنما هي صفات، وهذا هو مذهب أبي علي الفارسي، كما يقول الرافعي رحمه الله ، وقد تقدم لنا أن أبا علي أنكر الترادف.

المذهب الثالث: وهو مذهب الأصوليين، ولكنهم يخصونه بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد، كقولهم: أصلح الفاسد، ولمّ الشَّعَثَ، ورَتَقَ الفَتْق، وشَعَبَ الصَّدع»[1].

المذهب الرابع: إثباته الترادف مطلقاً دون قيد.

وبعد أن ينقل الرافعي رحمه الله هذه المذاهب يقول: «والصحيح من ذلك كله أن أوضاع العرب تختلف؛ لأنهم متصرفون في اللغة، لا يعرفون لها قيوداً اصطلاحية، وما من عربي إلا وهو في حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التي يرجع إليها أصل الوضع، لأن اللغة مفردات وضعها أفراد، وقد كانت لهم أشياء كأنها مظاهر الطبيعة المتسلطة عليهم بمعانيها المتناقضة، وصفاتها المتباينة، لبلوغها الغاية في مألوفهم من اللذة والألم، والمنفعة والمضرة، وهذه يراها كل عربي، ويحدث عنها ويصفها على ما يجد في نفسه من أثرها، وعلى ما يراه من صفاتها المختلفة، فلا جرم اختلفت الألفاظ الموضوعة لها بحسب ذلك.

ومن هذه الألفاظ ما يكون أسماء من وضع القبائل المتعددة، ثم تسمع كل قبيلة لغة الأخرى، فيأخذ بعضها عن بعض استطرافاً وتوسعاً في الكلام.

ومنها ما يكون صفات يتصرف في وضعها أفراد كل قبيلة، فلا تختص بالوضع الواحد، لما عَلِمَت من اختلاف السبب الحامل على اشتقاقها، ثم تنزل هذه الصفات منزلة الحقائق العرفية بعد أن تكون قد فشت في الاستعمال، وتلتحق

---

(١) وهذا ليس من الترادف الذي نعنيه هنا، لأن هذه عبارات، وحديثنا عن الكلمات المفردة.

ألفاظها بأصل اللغة، وهذا هو القسم الأكبر من المترادفات، كثرت عندهم أسماؤه وصفاته لما أشرنا إليه آنفاً»[1].

٥- الأستاذ علي الجارم:

وقد عرض لقضية الترادف الأستاذ علي الجارم، فبعد أن نقل آراء العلماء الأقدمين، نراه يتخذ موقفاً وسطاً، فهو يذكر أن المنكرين للترادف والمثبتين له مبالغون، أما مبالغة المنكرين فتظهر في إنكارهم الترادف بين ألفاظ لا يسوغ إنكار الترادف فيها، وأما مبالغة المثبتين، فقد أتوا بألفاظ عدّوها مترادفة وهي في واقع الأمر ليست كذلك، ومثّل لذلك بكلمة كبح وكمح.

ونحن مع الأستاذ الجارم فيما أخذه على القائلين بالترادف، لأن الباء والميم يتعاقبان، ومن ذلك: لازم ولازب، ومكة وبكة وراكب وراكم، وينبه الأستاذ الجارم في نهاية بحثه إلى أن الواجب الأول على دارسي الترادف هو القيام ببحث دقيق لمعاني الكلمات التي يُظَنّ أنها من الترادف، ويقيني بأننا إذا اتبعنا هذا المنهج بدقة وموضوعية، فإننا سنخلص إلى القول بعدم الترادف في جلّ كلمات اللغة إن لم يكن في كلماتها جميعها.

٦- الدكتور إبراهيم أنيس:

ومن الذين عرضوا لهذه القضية الدكتور إبراهيم أنيس، فقد بدأ باستعراض آراء السابقين وخلص إلى القول بوجود الترادف، واستدل على ذلك بما روي عن النبي ﷺ أنه وقعت منه السكين فقال لأبي هريرة: ناولني السكين، عدة مرات فلم يجب، ثم قال له أبو هريرة، آلمدية تريد؟ فقال النبي ﷺ : نعم[2]، وبما روي أن رجلاً من عرب الشمال ذهب إلى أحد ملوك من ملوك حِمْيَر في اليمن، فكان الملك فوق

---

(١) تاريخ آداب العرب، ج١، ص١٩١-١٩٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ٣٤٢٧. مسلم، ١٧٢٠.

السطح، فأطلعَ الرجلَ إليه، فقال له الملك: ثِبْ، أي: اقعد، فوثب الرجل من عَلٍ فتكسر، فقال الملك: ما بصاحبكم؟ فقالوا: إنه لا يعرف الحميرية.

وما مثل به الدكتور أنيس خارج عما نحن بصدده، ولا بد من تحرير محل النزاع كما يقول علماء المناظرة، فحديثنا عن الترادف وجوده وعدمه في البيئة الواحدة، وليس في بيئات متعددة، وذلك كالشك والريب مثلاً، والقعود والجلوس، فهذه كلمات مستعملة في لغة قريش.

ويفرق الدكتور أنيس بين النظرة التاريخة والنظرة الوصفية في دراسة الترادف، فيقول: إن المنكرين للترادف قد نظروا إليه من الزاوية التاريخية، حيث إن الكلمات في القديم كانت لها معانٍ مختلفة ومن ثَمَّ لا ترادف بالمعنى الحقيقي، أما المثبتون فقد نظروا إليه من الناحية الوصفية الخاصة بفترة معينة، وفي هذه الفترة تلاشت هذه الفروق في المعاني بين الكلمات، وعليه فليس هناك ما يسمى الترادف.

ويذكر الدكتور أنيس أن بعض العرب أوردوا أمثلة من الترادف هي في الواقع وحقيقة الأمر ليست منه في شيء، ومثل لذلك بما نقلناه عن الأستاذ علي الجارم.

٧- الدكتور رمضان عبدالتواب:

ومن المحدَثين الذين عرضوا لقضية الترادف كذلك، الدكتور رمضان عبدالتواب في كتابه: «فصول في فقه اللغة» فلقد عقد فصلاً خاصاً بالترادف، ذكر فيه ما لاقته هذه القضية من أقوال العلماء ما بين مقل ومكثر، ومقر ومنكر، كما تحدث عن أهم أسباب الترادف في اللغة، والتي نوجزها فيما يلي:

١ - تعدد أسماء الشيء الواحد في اللهجات المختلفة.

٢- أن يكون للشيء الواحد في الأصل اسم، ثم يوصف بصفات باختلاف خصائص ذلك الشيء، وإذا بتلك الصفات تستخدم في يوم ما استخدام الشيء، وينسى ما فيها من الوصف أو يتناساه المتحدث باللغة.

٣- التطور اللغوي في اللفظة الواحدة.

٤- الاستعارة من اللغات الأجنبية.

وهذه الأسباب التي ذكرها الدكتور رمضان لا نشك في أنها من أقوى الحجج لأولئك الذين ينكرون الترادف بمعناه الدقيق بين الكلمات العربية، وبخاصة إذا كانت هذه الكلمات من لغة واحدة، ولقد أحسن الدكتور رمضان وهو ينقل عن الأئمة شروطاً إذا تحققت أمكن القول بالترادف وهي:

١- الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً.

٢- الاتحاد في البيئة اللغوية.

٣- الاتحاد في العصر.

٤- ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي آخر[1].

وهيهات أن تتحقق هذه الشروط، ويقيننا أن تحقق هذه الشروط صعب إن لم يكن متعسراً، ولا بد من ملحوظة أسجلها هنا على ما ذهب إليه الدكتور رمضان من أن القائلين بالترادف كانوا يتحمسون لهذا القول، ويدافعون عنه في بعض كتبهم على حين كانوا يتخلون عنه في كتب أخرى، ويضرب لذلك مثلاً بأبي هلال صاحب كتاب «الفروق» الذي أشرت إليه آنفاً، فبينما هو يشدد بحزم على عدم وجود الترادف في كتاب «الفروق» يعترف به في مكان آخر، يقول الدكتور: «وبما أن أبا هلال العسكري يبالغ في هذا الكتاب في منع الترادف، ويحاول جاهداً البحث عن الفروق بين الألفاظ المترادفة فإنه في كتابين آخرين له ينسى هذا المبدأ، ويذكر الألفاظ المترادفة بلا اعتراض عليها أو محاولة للتفريق بينهما»[2].

---

(١) فصول في فقه اللغة العربية، الدكتور رمضان عبدالتواب، أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب، جامعة عين شمس، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٣١٦، ٣١٨.

(٢) فصول في فقه العربية، ص٣١٥، ذهب إلى هذا الراي تبعاً للدكتور عبدالتواب صاحب (رواية اللغة)، الدكتور عبدالحميد الشلقاني، ص٢٢٥.

والكتابان اللذان يقصدهما الكاتب، كتاب «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» وكتاب «المعجم في بقية الأشياء»، وما نظن الأمر كذلك.

إن أبا هلال بنى نظريته في إنكار الترادف على أسس تحدث عنها في كتاب الفروق، ودافع عنها بقوة، ولذا فإن ما ذكره في كتابيه اللذين استنتج منهما الكاتب نسياناً لنظريته أو عدوله عنها غير مسلّم له، لأن طبيعة البحث في الكتابين المذكورين لا تتطلب ولا تستدعي أن يبين الفروق الدقيقة بين الكلمات، ولعل عنوان الكتابين شاهد على ذلك.

والذي نحاول أن نخلص إليه أن الذين أنكروا الترادف في العربية بعامة، والقرآن بخاصة، يقيمون من الأدلة ما يقنع العقل، نحن على يقين من أن وجود الترادف في كتاب الله تعالى أمر غير منسجم مع قدسية القرآن وأحكامه وروعة بيانه، ودقة معانيه، وما رُوِي عن المازني من أنه سمع أبا سوار الغنوي يقرأ (وإذ قتلتم نسمة فادارأتم فيها) فقال له المازني: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة:٧٢] فقال الغنوي: «النسمة والنفس سواء»[1] أمر غير مقبول، ذلك لأنه لا يجوز لأحد أن يغير في ألفاظ القرآن، كما يحلو له، ولا يقبل ذلك من مؤمن فضلاً عن أن يكون عارفاً بكلام العرب، ونحن ندرك ما بين النفس والنسمة من بون.

٨- الدكتورة عائشة عبدالرحمن:

أما الدكتورة بنت الشاطئ فبعد أن نقلت آراء الأقدمين واختلافهم في هذه القضية تقول: «وظلت القضية فيما أعلم معلقة، لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي، حتى بعد أن اتصلت دراساتنا اللغوية الحديثة بجديد البحوث في علوم اللغة والصوت والاجتماع.

(١) ص٣١٦. وأمالي القالي، طبعة القاهرة، ١٩٥٤، ٢/ ٧٦. وعنها في المزهر، ١/ ٤١٣. وكذلك الأضداد لابن الأنباري، ص٧. والمزهر، ١/ ٣٩٩.

وإن كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراجَ في العصور المتأخرة، ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في فقه اللغة وعلم الاجتماع اللغوي أذكر منهم: الدكتور علي عبدالواحد الذي نشر في مجلة الثقافة سنة ١٩٦٣ مقالاً في مزايا لغتنا العربية، التي انفردت بشرف نزول الوحي بها، فكان مما عدد من مزاياها أنها تستطيع لثرائها أن تؤدي المعنى الواحد بعشرات الألفاظ.

والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس، قطع في كتابه «دلالات الألفاظ» بوجود الترادف في العربية، فلم يلمح فرقاً أي فرق، بين أن تقول مثلاً: «لم يسمع وفي أذنيه صمم، وفي أذنيه وقر»، وذكر الآية الكريمة شاهداً: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [لقمان:٧][1] .

وإلى عهد قريب كانت قضية الترادف من بين ما شُغِلَ به المجمعُ اللغوي في القاهرة، وقد اقترح أحد السادة الأعضاء، أن نتخفف من ثقل المترادفات فنصنف

---

(١) والحق أن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا: «لم يسمع» وبين ﴿فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ وفي كتاب الله تعالى آيتان ذكرت إحداهما، الجملتان معاً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧] واكتفت الثانية بذكر الجملة الأولى ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٨]، صحيح أن الجملة الثانية جاءت تأكيداً للأولى، لأنه لم يأت بينهما حرف العطف، وهي مما استشهد به الشيخ عبدالقاهر في موضوع الفصل والوصل، ولكن ليس معنى التأكيد الخلو من معنى جديد، فقد يكون عدم السماع لأكثر من علة، أما الوقر في الأذنين، فهو تنصيص على علة معينة، لذا فنحن لسنا مع القول بترادف العبارتين ونستدل لذلك بسياق كل من الآيتين الكريمتين، فسياق آية لقمان كان حديثاً عن الذي يشتري لهو الحديث ليضل الناس، فجريمته مزدوجة ضلال وإضلال، لكن آية الجاثية جاءت في شأن الذي يسمع الآيات ويعرض عنها، فضرره مقتصر على نفسه، وهذه من أسرار الكتاب الخالد، وحكمته البيانية والاجتماعية.

معجماً لألفاظ العربية، يستبعد في المعنى الواحد ما زاد على لفظ واحد يختاره المجمعيون مِن حشد الألفاظ المترادفة»[1].

وهي تحسن صنعاً، وتصيب كبد الحقيقة، إذ تبين أن القرآن الكريم ينبغي أن يكون لنا المرجع في ذلك ليحسم لنا الخلاف في هذه القضية التي كثر فهي الخلاف وطال.

ومن خلال تجوالنا يظهر لنا أن أقوى ما يستند إليه القائلون بالترادف أمران اثنان: وجود لغات مختلفة في الكلمة الواحدة، كان تضع إحدى القبائل لفظة (سكين) والأخرى: لفظة (مدية)، وهذا ما يروى عن أبي هريرة: حينما قدم إلى النبي ﷺ مسلماً، وقال له النبي ﷺ : «أعطني السكين فلم يعرف ما السكين»[2].

والأمر الثاني: أن العرب وضعوا للمعنى الواحد لفظين وأكثر، ليدلوا على اتساع في لغتهم.

أما الحجة الأولى: فنحن لا ننازع فيها أحداً أبداً، وهذا ما يشهد به الواقع، فنحن نرى اليوم مسميات كثيرة لشيء واحد، اختلفت باختلاف الأقطار حتى باختلاف البلاد من قطر واحد، لكن الذي ننازع فيه هو الأمر الثاني.

وعلى كل حال فإن كتاب الله تعالى هو الفيصل في ذلك، والمتدبر للألفاظ القرآنية لا يسعه إلا أن ينكر القول بالترادف، فالشك والريب: كلمتان مستعملتان في كتاب الله تعالى، ولا نستطيع أن نجزم بأنهما من لغتين اثنتين، ومع ذلك فنحن ننكر أن تكونا قد وضعتا للدلالة على اتساع العربية، إنما لكل كلمة مدلولها الخاص بها.

---

(١) الدكتور عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، أستاذة الدراسات القرآنية بدار الحديث وكلية الشريعة، جامعة القرويين، المغرب، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ص١٩٧-١٩٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ٣٤٢٧. مسلم، ١٧٢٠.

وتعجبني كلمة ابن الأعرابي: «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل واحدٍ منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرْنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله»[1].

ومن الحق أن أقرر هنا أن إثارة قضية الترادف بين العلماء كان لها حظ وافر في شأن الإعجاز القرآني، فلقد كان تحديد مدلول الكلمات من أعظم روافد الإعجاز، وذلك يظهر في دقة الفروق بين الكلمات، وكيف أن كل كلمة إنما استعملت في مكانها الخاص بها، نلحظ ذلك في حديث العلماء عن الفروق بين هَلُمَّ وتعال، والخشية والخوف، والقعود والجلوس، والعمل والفعل، والزوج والمرأة، والفرض والكتب، والقرآن والكتاب، وغير ذلك كثير مما عدّ من المترادفات: وهي من أولى وأول ما يجب أن توجه إليه جهود العلماء لإعطاء معاني خاصة تنسجم مع السياقات القرآنية.

وهكذا نجد أن البحث في مدلول الألفاظ، كان المرجع فيه القرآن الكريم، وكانت الغاية منه القرآن الكريم كذلك، وهي بحق أبحاث غنية ثرية، كانت ذات أثر في كثير من الموضوعات العلمية كالفقه والأصول، والأدبية كالنقد والبلاغة، وكان لذلك كله آثار طيبة في محاولة الفهم الدقيق لكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

ومن المفيد أن نتساءل في نهاية هذا المبحث، أي نوعَيْ المشترك كان له الأثر الأكبر في إثراء الدراسات القرآنية بعامة، ودراسات الإعجاز بخاصة، ومع يقيننا في أن كلاً من النوعين أسهم في هذه الدراسات، فإننا نرى أن المشترك المعنوي - الترادف- كان له النصيب الأوفر في هذه الدراسات، ذلك لأن تحديد المعاني الدقيقة للكلمات التي يظن أنها مترادفة أبرز لنا كثيراً من مكنونات الموضوعات القرآنية.

---

(١) فصول في فقه اللغة، ص٣١٣.

والمتأمل لكتاب الله تعالى يجد من ذلك ما يجتلب الأذهان، ويختلب الآذان، فكلمتا الشك والريب استعملت كل منهما في مواضع، ونحن إذا أنعمنا النظر في الآيات التي استعملت فيها كل من الشك والريب نجد أن كلاً منهما لا تصلح مكان الأخرى، فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] لا تصلح فيه كلمة الشك، وقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤] لا تصلح فيه كلمة الريب، ذلك لأن الشَّكَّ تردد النفس بين أمرين، أما الريب، فإن فيه زيادة على هذا التردد فهو تردد مع ريبة وتهمة.

كذلك كلمة العمل والفعل، والخوف والخشية، والكتاب القرآن، وغير ذلك وهو كثير ما عدّ مترادفاً، تدلنا النظرة الفاحصة الواعية على أن كل كلمة إنما جاءت مستقرة في مكانها.

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين هذه المواضع جميعها، لذلك كان لهذا النوع أثره في الدراسات القرآنية.

أما المشترك اللفظي فغالباً ما يكون مع الكلمة قرينة تبين المراد منها أو ترجح هذا المراد، ولقد ذكرنا من قبل كلمة مُسَحَّر، وعرفنا أن لها معنيين، ووجدنا أن هناك مرجحات تاريخية وبلاغية لبيان المعنى المراد من كل منهما.

خلاصة القول: موضوع المشترك في الدراسات اللغوية كان للكلمات القرآنية الأثر في توجيهه، بل في تطور هذه الدراسات اللغوية كذلك.

وحريٌّ بالدارس لكتاب الله تعالى أن تكون له هذه النظرة ذاتُ الدقة والشمول حتى لا يطغى بعض المعاني على بعض، ولا تخرج الكلمة من حيزها الذي ينبغي لها ألا تتعداه. وهذا ما سنحدثك عنه حديثاً ميدانياً بعد المبحث الثالث إن شاء الله.

المبحث الثالث

اللفظة من حيث الصيغة

كان النوع من هذه الدراسات متزامناً كذلك مع ما ذكرناه من قبل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدلنا على قضية حرية بالتقدير، جديرة بالتسجيل، وهي أن أئمتنا اللغويين لم يكونوا من ذوي النظرة الضيقة في مباحثهم، وإنما كانت نظرتهم شمولية وهم يقفون أمام ما يبحثون، فلم يشغلهم البحث في غرابة اللفظة، أو كونها نادرةً عن مدلول اللفظة غريبة كانت أم غير غريبة، نادرة كانت أم غير نادرة، ولم يكن هذا أو ذاك يشغلاهم عن الصيغ المتعددة للفظة الواحدة، فقد تكون للأسماء صيغ كثيرة، كالمصدر والصفة والتفضيل، وكذلك الأفعال، فهل مدلول هذه الصيغ واحدة؟ لقد ذكر العلماء مثل هذا.

فهذا أبو عبيدة في مجاز القرآن يحدثنا عن بعض هذه الصيغ فيقول عند قوله سبحانه: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢]: مجازه: أن كل شيء من العذاب فهو (أمطرت) بالألف، وإن كان من الرحمة فهو (مَطِرت) [١].

فهو يفرق إذن بين صيغتي (فَعِلَ) و(أفْعِل).

ثم رأينا فيما بعد كتباً تؤلف في صيغتي (فَعَلْتُ) و(أفْعَلْتُ) هل هما شيء واحد؟ وكثيرون الذين كتبوا في هاتين الصيغتين منهم: الأصمعي، وأبو زيد وأبو حاتم السجستاني.

ولقد كان الخلاف بين العلماء في هاتين الصيغتين ينمُّ عن معرفة بلغات العرب، أو عن التزام بما جاء في كتاب الله تعالى، يدُلّنا على ذلك ما كان بين الأصمعي وأبي زيد من خلافٍ في هاتين الصيغتين.

---

(١) مجاز القرآن، ج١، ص٢٤٥.

فهذه مادة الكاف والنون تأتي منها صيغتان للماضي (كَنَّ) و(أكَنَّ)، فكان الأصمعي يرى أن لكل من هاتين الصيغتين معنىً يختلف عن الأخرى.

فصيغة (كَنَّ) بدون همزةٍ تدل على الحفظ والصون، أما صيغة (أكنَّ) فتدل على الإخفاء والستر.

لكن أبا زيد -وهو معاصر الأصمعي ونِدُّه- كان يرى أنهما تأتيان لمعنى واحد، كل ما في الأمر أن إحداهما: لغة الحجاز، والأخرى: لغة نجد.

أما الأصمعي فكانت حجته مستمدة من كتاب الله تعالى، فلقد جاء في التنزيل في سورة الواقعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣]، ومعناه: المصون، ومكنون: اسم مفعولٍ للفعل الثلاثي (كَنَّ). أما الصيغة الثانية: فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥]. ولا شك أن معناه: أخفيتم.

وقريب من هذا ما ذكروه في صيغة (فَعَّلَ) و(أفْعَلَ) مستدلين لذلك بما جاء في كتاب الله تعالى من فعلي (نَزَّل) و(أنْزَلَ) فقالوا: إن (أنْزَلَ) إنما تُستعمل لما نزل جملة واحدة، وأما (نَزَّلَ) فإنما تستعمل لما كان متفرقاً، واستدلوا لهذا بمثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران:١-٣].

ومن هذا القبيل كذلك اختلاف صيغ المبالغة حيث تُعطِي كلُّ صيغة معنى خاصاً بها. قال أبو هلال العسكري:

«وقال المحققون من أهل العربية: لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد، قالوا: فإذا كان الرجل عدةً للشيء، قيل فيه (مِفْعَل) مثل: مِرْحَم ومِحْرَب. وإذا كان قوياً على الفعل قيل: فَعولٌ، مثل: صبورٍ وشكورٍ، وإذا فَعَلَ الفِعْلَ وقتاً بعد وقت، قيل: فَعّال مثل: عَلاّمٍ وصَبّارٍ، وإذا كان ذلك عادةً له قيل: مِفْعالٌ مثل: مِعْوانٍ ومِعْطاءٍ ومِهْداءٍ. ومن لا يتحقق المعاني يظنُّ أن ذلك كلَّه يفيد

المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها»[1].

واختلاف صيغ المصادر، فلقد أوْصل سيبويه[2] صيغ هذه المصادر إلى نيِّف وثلاثين، وكذلك ربما يكون للفعل أكثر من مصدر، لكن كل مصدر يُستعمل في وضع خاص، وشأن خاص.

ومن هذه النوع: اختلاف القراءات في كلمة واحدة مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشعراء:٥٦]، وفي قراءة (حَذِرُونَ). فالحَذِر: المتيقِّظ، والحاذِرُ: القوي في السلاح، والذي يُجدِّد حِذْرَه. ومن له إلمام بالقراءات فسيُمتِّع نفسه بكثير من هذا.

ولقد أُلِّفت كتب كثيرة لهذه الصيغ، فللأخفش[3] والأصمعي كتاب في (الاشتقاق)، ولأبي حاتم (اشتقاق الأسماء) ولهذين الأخيرين كتاب في (المذكر والمؤنث)، وللنضر بن شُمَيل[4] كتاب (المصادر).

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص١٣.

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر الملقب: سيبويه (١٤٨-١٨٠هـ/ ٧٦٥-٧٩٦) إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، وُلد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتاباً كثيرة، رحل إلى بغداد وناظر الكسائي، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم، وغادر إلى الأهواز، وتوفي بها، وقيل: توفي بشيراز. «الأعلام»، ٥/ ٨١.

(٣) سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي، ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ/ ٨٣٠م) نحوي، عالِم باللغة والأدب، من أهل بلخ، سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنف كتباً كثيرة. الأعلام، ٣/ ١٠٢.

(٤) النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني، التميمي، أبو الحسن، (١٢٢-٢٠٣هـ/ ٧٤٠-٨١٩م) أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث، وفقه اللغة. وُلد بمرو، وانتقل إلى البصرة مع ابنه، وأصله منها فأقام بها زمناً، وعاد إلى مرو، فولي قضاءها، واتصل بالمأمون العباسي فأكرمه وقرّبه. الأعلام، ٨/ ٣٣.

وهكذا نجد أن دراسة الصيغ قد استوعبها العلماء استيعاباً تاماً، وفي علمي الصرف والاشتقاق خير دليل على ذلك.

ولا يظنن أحد أن جهود اللغويين كانت منحصرة فيما ذكرناه، وأشرنا إليه من قبل، فالذي ذكرناه كان خاصاً باللفظة المفردة. ولعلماء اللغة جهود لا تقف عند اللفظة القرآنية، بل تتعداها إلى التراكيب والجمل، كبحوثهم، وكتبهم في معاني القرآن وما يتفرع عنها من إعراب، وهي كتب كثيرة تجلُّ على الحصر[1].

ولقد لاحظنا مما سبق أن هذه المباحث كان جلُّ ما تسعى إليه صِحَّةَ الكلمة من حيث المعنى والاستعمال والصيغة، ولا يعنيها بعد ذلك شيء آخر.

فهذا الفراء في (معاني القرآن) يقول في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الانشقاق:٢٣]، الإيعاءُ: ما يجمعون في صدورهم من التكذيب والإثم. والوعي لو قيل: والله أعلم بما يَعُون، لكان صواباً، ولكنه لا يستقيم في القراءة[2].

(١) فمنها: معاني القرآن للفراء والأخفش والزجاج، ولابن درستويه كتاب توسط فيه بين الفراء والأخفش.
الفراء: هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أو بني منقر، أبو زكريا المعروف بالفراء (١٤٤-٢٠٧هـ/ ٧٦١-٨٢٢م) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب، كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. وُلد بالكوفة وانتقل إلى بغداد، توفي في طريق مكة، وكان فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها. الأعلام، ٨/ ١٤٥.
الزجاج: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (٢٤١-٣١٨هـ/ ٨٥٥-٩٢٣م) عالم بالنحو واللغة، وُلد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج، ومالَ إلى النحو فعلّمه المبرد، أدب ابن وزير المعتضد العباسي، وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب. وله تصانيف كثيرة. الأعلام، ١/ ٤٠.
ابن درستويه: عبدالله بن جعفر بن محمد بن درستويه ابن المرزبان، أبو محمد، (٢٥٨-٣٤٧/ ٨٧١-٩٥٨م) من علماء اللغة، فارسي الأصل، اشتهر وتوفي ببغداد، وله تصانيف كثيرة، منها تصحيح الفصيح، ونقض كتاب العين. الأعلام، ٤/ ٧٦.
(٢) معاني القرآن للفراء، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠، ج٣، ص٢٥٢. لسان العرب، ١٥/ ٣٩٦، مادة (وعي). الدر المصون للسمين الحلبي، ١٠/ ٧٤١.

المانع من مجيء كلمة (يَعُون) عند الفراء مع صحتها لغةً، عدم استقامة القراءة، ويعني بها عدم انسجام الفاصلة مع ما قبلها وما بعدها، فإن ما قبلها، (يؤمنون) (يسجدون) وبعدها (يكذِّبون)، وكلمة (يَعُون) -بياء مفتوحة وعين مضمومة- لا تنسجم مع هذه الفواصل، لأنها أقل منها حروفاً.

وما ذكره الفراء نخالفه فيه، فكم من فاصلتين جاءت إحداهما أطول من الأخرى، وأذكر على سبيل المثال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات:٢٤-٢٦]، مع أن الكلمة التي ذكرها الفراء، وهي كلمة (تَعون) إحدى القراءات الشاذة[1].

نحن لا نوافق الفراء إذن، وإنما نرى أن كلمة (يوعون) لم تأت من أجل الجرس فقط، إنما مع الجرس شيء آخر، وهو دقة المعنى الذي يتفق مع السياق، فالسياق هنا سياق إيعاء (أي: جمع) وليس سياق (الوعي)، وهذا ما يلحظه علماء البيان في بحوثهم. وهذا ما سنخصص له بحثاً خاصاً نتحدث فيه عن جهود علماء البيان قديماً وحديثاً.

سائلين الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) البحر المحيط لأبي حيان، ٨/ ٣٣٦، طبعة دار الفكر. الدر المصون للسمين الحلبي، ١٠/ ٧٤١.
وقراءة الجمهور ﴿يُوعُونَ﴾ من أوعى يُوْعي، وقرأ أبو رجاء (يَعُونَ) من وعى يَعِي، وهي قراءة شاذة.

الفصل الثالث

بلاغة الكلمة في كتاب الله تعالى

بعد أن حدثناك عن الكلمة القرآنية، وعناية العلماء بها، وبعد أن حدثناك من رأي العلماء بالترادف، نحدثك عن الكلمة القرآنية حديثاً ميدانياً عملياً، تدرك فيه الدقة والموضوعية والإحكام، وعدم الترادف بين كلمتين من كلمات القرآن. وقد قسمته إلى مبحثين.

المبحث الأول

كلمات يظن أنها مترادفة

١ - الخوف والخشية:

لا يكاد اللغوي يفرق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى منه، وهي أشد من الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشِيَّة، أي: يابسة، وهو فوات بالكلية، أي لا فائدة فيها.

والخوف من قولهم: ناقة خَوْفاء، أي: بها داء، وهو نقص، وليست بفوات.

ولذلك خُصَّت الخشية بالله تعالى في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١] وفرق بينهما أيضاً: بأن الخشية تكون من عِظَم المُخْتَشَى، وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المَخُوف أمراً يسيراً.

ويدل لذلك أن (الخاء، والشين، والياء) في تقاليبها تدل على العظمة نحو: شيخ: للسيد الكبير، وخيش: لما غَلُظ من اللباس.

ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وأما ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] ففيه نكتة لطيفة، لأنه وصف الملائكة، ولما ذكر قوتهم وشدة خَلْقِهم عبّر عنهم بالخوف؛ لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة، فجمع بين الأمرين، ولما كان ضعف البشر معلوماً لم يحتج إلى التنبيه عليه[1].

---

(١) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي، ج٣، ص٦٠٢. =

وهذا الوجه الأخير هو الذي اقتصر عليه الراغب الأصفهاني حيث قال: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه». ولكن السَّيد رشيد رضا رحمه الله لم يرتض ما ذكره الراغب، قال رحمه الله: «إن القيد الذي ذكره الراغب لا يظهر في كل الشواهد التي وردت من هذا الحرف في القرآن وكلام العرب». وبعد أن استشهد على ذلك بشيء من أقوال العرب قال: «فإن كان بين الخوف والخشية فرق فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف في محل الأمل، ومن دقق النظر في الآيات التي ورد فيها حرف الخشية يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية مادة: خَشَتِ النخلةُ تخشو، إذا جاء ثمرها دقلاً (رديئاً) وهي مما يرجى منها الجيد».

وإذا تتبعنا الآيات القرآنية الكريمة، ندرك الفروق سواء ما ذكره الراغب، أم غيره، فلا ضير أن يكون هناك أكثر من فرق بين الكلمتين، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] يشهد لما قاله صاحب المنار، من أن الخشية خوف في محل الأمل، ومن أحق من العلماء بهذا الخوف وبذلك الأمل، ولا يتنافى مع ما قاله الراغب، من أن الخشية: خوف يشوبه التعظيم. والعلماء حقيقون بهذا التعظيم، حريصون عليه.

كذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠]، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣]، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:١٣].

= والبرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩من ج٤، ص٧٨.

هذه الآيات جميعها ينسجم مفهوم الخشية فيها، مع ما ذكر من قبل، من أن الخشية ليست خوفاً فحسب، فقد يتحقق الخوف دون الخشية، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، نجد فيها خير بيان، وأوضح دليل، على الفروق بين هاتين الكلمتين.

قال تعالى يصف المنافقين: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) ﴾ [النور:٥٠]، وفي سورة الروم المكية: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الروم:٢٨]، فهذه الآيات تتحدث عن خوف نتيجته الضعف، والخوف كما قلنا من قبل ناشئ عن ضعف الخائف، بينما الخشية ناشئة عن عظم المُخْتَشَى، ولعل ما يوضح لنا هذا الأمر توضيحاً تاماً، حديث القرآن عن الشيطان الرجيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [الأنفال:٤٨]، وفي آية أخرى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر:١٦]. فهذا خوف لا يشوبه أمل أبداً، وهكذا نجد الآيات الكريمة، تارة تكون الخشية فيها خوفاً في محل الأمل، وتارة تكون خوفاً يشوبه التعظيم، إلا أنها جميعاً يلمح فيها عظم المُخْتَشَى منه.

أما قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران:١٧٥] فلا ينافي ما قلناه؛ لأن معنى الآية الكريمة:

الشيطان يخوفكم أولياءه، وهذا الخوف لا يمكن أن يكون ناتجاً عن تعظيم لأولياء الشيطان، وإنما سببه الضعف، بخاصة إذا عرفنا أن الآية نزلت بعد غزوة أُحد،

وهكذا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فهي للمؤمنين عن أن يضعفوا أمام أولياء الشيطان، وليكن هذا الشعور بالضعف من قوة الله وحده، ولا نستطيع أن نسترسل لنتحدث عن كل ما جاء في هذين الموضوعين، ونرجو أن يكون فيما ذكرنا الغنية والكفاية.

وإذا كنا قد تحدثنا عن: الخوف والخشية في كتاب الله تعالى، فيجمل بنا أن نذكر بعض الألفاظ التي تشبه هاتين الكلمتين، والتي كثيراً ما تفسر بمعنى واحد.

فمن ذلك كلمة (الإشفاق) والكثيرون يفسرونها: بالخوف، ولكننا حينما ننعم النظر في آي القرآن الكريم نجد بوناً بينهما شاسعاً.

فهذه الكلمة: (الإشفاق): تكاد تقتصر استعمالاتها على عباد الله تبارك وتعالى، ملائكة وغير ملائكة، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى:١٨]، أي: الساعة.

ومن هنا كان الإشفاق عناية مشوبة بخوف، وقد يغلب جانب هذا أو ذاك - أعني العناية أو الخوف- حسبما يقتضيه السياق ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور:٢٦] يغلب فيه جانب العناية، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ [المجادلة:١٣]، يغلب فيه جانب الخوف[١].

وما أجمل ما قاله ابن فارس من أن: (الشين، والفاء، والقاف) أصل واحد يدل على رِقَّة في الشيء، ثم يشتقُّ منه، فمن ذلك قولهم: أشفقت من الأمر، إذا رَقَقْتَ وحاذرت[٢].

---

(١) الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/ ١١٠٨م) المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، طبعة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص٢٦٤.

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، طبعة دار إحياء الكتب العربية، طبعة أولى، ج٣، ص١٩٧.

ومن ذلك كلمة: (وجل)، فهذه الكلمة التي تفسر بالخوف، كذلك نجدها في كتاب الله تعالى تستعمل في سياق أخص من الخوف، فالوجل: هو استشعار الخوف. وهو حالة نفسية تعرض للنفس عند بداية شيء ما.

وحينما ننعم النظر فيما يشبه هذه المادة، بخاصة في حرفيها الأولين، ندرك دقة المعنى للكلمة من جهة، وما بين الكلمات العربية من وشائج القربى، وذلك مثل كلمات وجس: وهي الإحساس بالشيء، ووجد، ووجف. فالوجل: أحد مقدمات الخوف قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢].

والقرآن الكريم وهو يأسرنا بروعة بيانه -وإن من البيان لسحراً- وهو يحدثنا عن قصة إبراهيم عليه السلام يذكر: الوجل تارة، والخوف تارة أخرى.

وإجالة للفكر بعض الشيء، نجد أن كلاً من الكلمتين استعملت في مكانها اللائق بها الذي لا يصلح فيه غيرها، إليك ذلك:

ففي سورة الحجر ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحجر:٥١-٥٣]، وفي سورة الذاريات: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٨].

فلفظة (الوجل) كما رأينا ذكرت عند دخولهم وتسليمهم عليه، ولكن لفظة (الإيجاس) بالخوف جاءت في السياق القرآني بعد ذلك كله حينما امتنعوا عن الأكل. وهكذا نجد أن كلاً من الوجل والخشية والإشفاق، لا يمكن أن تفسر بالخوف، بل لكل منها مكانها الخاص بها الذي لا ينبغي أن تتخطاه، واستعمالها الذي ينبع عن الدقة والموضوعية.

٢- ومن الكلمات القرآنية التي يظن أنها بمعنى واحد هاتان الكلمتان: جاء وأتى.

فالكلمة الأولى: تسند غالباً إلى الجواهر والأعيان، بينما تسند الكلمة الثانية: إلى المعاني والأزمان.

والمتتبع للآيات القرآنية يجد ذلك واضحاً كل الوضوح، قال تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف:٧٢]، أي: بصواع الملك ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف:١٨]، ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس:٢٤].

وقد اجتمعت الكلمتان في قوله تعالى في سياق قصة لوط عليه السلام ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ [الحجر:٦٣-٦٤]، فالذي جاؤوا به العذاب، وهو أمر مشاهد، والذي أتي به الحق. وقد ذهب الراغب إلى أن الإتيان إنما هو: المجيء بسهولة، فهو أخص من مطلق المجيء، ومنه قيل: للسيل المارّ على وجهه: أَتِيّ وأتاوِيّ[1].

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود:٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف:٣٤].

فإن المتحدَّث عنه في الآية الأولى هو: العذاب. وفي الآية الثانية هو: الموت وكأنه أمر مشاهد، ولذا يعبر القرآن الكريم عنهم بالحضور[2].

---

(١) الراغب، المفردات، ص٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج٤، ص٨٠.

٣- وهناك كلمتان في كتاب الله تعالى هما بحق مظهر من مظاهر إعجازه، وأعني بهما: الفعل والعمل. ويظهر أن الفرق بينهما من جهتين اثنتين:

أما أولاً: فإن لفظ (عمل) يستعمل لما يمتد زمانه.

وأما لفظة (الفعل) فعلى العكس من ذلك، فهو لما يكون دفعة واحدة.

والاستعمال القرآني يؤيد هذا الفرق. والآيات الكريمة تشهد له خير شهادة قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ [التوبة:١٠٥].

أما استعمال مادة الفعل، فليس لها زمان مستمر، وإنما تحدث دفعة واحدة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر:٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل:١]، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:١٨].

وهذا الفرق هو الذي اقتصر عليه السيوطي رحمه الله[1].

وهناك فرق آخر لا يقل عنه دقة وروعة. وهو ما ذكره الراغب رحمه الله حيث قال: «العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل، لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات»[2].

ولم يذكر الراغب رحمه الله من الآيات ما يعدّ تطبيقاً لهذا الفرق، وهو ما سنذكره بعون الله.

فالمتأمل في الذكر الحكيم يجد ما يطمئن به قلبه، وتطيب به نفسه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور:٤١]. وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾

(١) الإتقان للسيوطي، ٢/ ٣٦٦.

(٢) الراغب، المفردات، ص٣٤٨.

[الأنبياء:٦٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

أما الآية الأولى والثانية: فأمرهما ظاهر، فالفعل أُسند إلى الحيوان من طير وغيره في الآية الأولى، وإلى الجماد في الآية الثانية.

وأما الآية الثالثة: فإنه يلوح لنا منها سر رائع، فتعالى المُنْزِل، وجلّ الصانع، حيث لم يقل: يعملون ما تعملون. لا من أجل غرض لفظي فحسب، وهو ما بين الفعلين: يعلمون وتعملون، من تقارب وتشابه في الأحرف، وإنما لما هو أعمق من ذلك وأدق. وهو أن هؤلاء الملائكة لا يعلمون ما تقصدون إليه من عمل فقط، وإنما يعلمون ما وراء ذلك من خلجات النفوس، وطرفة العين، والخواطر والهواجس، وكل ما لا يقصده المرء. فما أبدع الجمال القرآني! وما أجمل بديع كلماته!

ويظهر لي أن هذا يشبه قول الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨]، حيث عبّر بالقول دون الكلام.

ولا شك أن الكلام يشمل ما هو مفيد فقط، أما القول: فيشمل المفيد وغيره(١).

ومن خير الشواهد التي توضح الفرق بين (الفعل) و(العمل) ما قصّه الله علينا من نبأ موسى وفرعون. قال تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء:١٩-٢٠]. والفعلة: هنا هي قتل موسى عليه السلام للقبطي، وقد كان دفعة واحدة لا تدرج فيه من جهة، كما أنه من جهة أخرى كان أمراً غير مقصود ولا مراد لموسى عليه السلام ، فكل الذي حدث منه، وكز القبطي، والوكز عادة لا يقتل، لذلك سمّاه القرآن فعلاً.

---

(١) أبو الفتح عثمان، بن جني (٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ثانية، ج١، ص٧.

وفي قصة البقرة عن بني إسرائيل ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [البقرة:٧١]، والمعن النظر في آي القرآن يجد من ذلك ما يثلج الصدر.

٤ - ومن هذا القبيل كلمتا: القعود والجلوس.

من طريف ما يروى أن أحدهم دخل على المأمون، فقال: اجلس، لكنه استمر واقفاً، قال: اجلس مرتين أو ثلاث، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يكون الجلوس بعد اتكاء، وإنما يكون بعد القيام القعودُ. وهو يشير بذلك إلى الحديث «وجلس وكان متكئاً»[(١)].

والمتأمل لآي القرآن الكريم، واستعمال هاتين الكلمتين، يدرك روعة العربية من جهة، وإعجاز الكتاب الخالد من جهة ثانية، فالقعود إنما يستعمل لما فيه لبث ومكث، أما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك. قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور:٦٠]، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦] ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٥]، ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ [الجن:٩]، وهذا يبين حرصهم على استراق السمع.

أما مادة: جلوس، فلم تأتِ إلا في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة:١١]. وهذه المجالس عادة لا يطول المكث فيها. ومنه الحديث الشريف «مثل الجليس الصالح والسوء»[(٢)] والحديث الآخر «إياكم والجلوس على الطرقات»[(٣)].

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها.

ومن أسرار العربية أن (القاف، والعين، والدال) تدل على اللبث والثبات فمنها مادة: قعد التي تحدثنا عنها من قبل، والدقعاء: للتراب الكثير الدائم الذي يبقى في مسيل الماء، ومنه: العقد الذي يستعمل لعقدة النكاح، والعقيدة: وهي قضايا ثابتة.

أما (الجيم، واللام، والسين) فعلى العكس من ذلك، ففيه الحركة، ومنه: السجل للشيء المتحرك الذي لا يبقى عند صاحبه.

والطريف أنهم ضموا عين المضارع في قولهم: «يقعُد» وكسروها في قولهم: «يجلِس» والكسرة أخف من الضمة، فاستعملوها لما فيه الحركة، واستعملوا الضمة الأثقل لما فيه المكث.

٥- الإعطاء والإيتاء:

مع ما بين هاتين الكلمتين من تشابه في اللفظ، واتحاد في الاستعمال عند كثير من الناس، إلا أن بينهما فروقاً من حيث الحقيقة، ويشهد لذلك الاستعمال القرآني، فما هي الفروق بين الإيتاء والإعطاء يا ترى؟

ينقل صاحب البرهان عن الجويني -رحمهما الله تعالى- إن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع ولا كذلك الإيتاء، وما ليس له مطاوع أقوى في إثبات مفعوله، ألا ترى أنك تقول: كسرته فانكسر. وهذا هو المطاوع ولكنك لا تقول: قتلته فانقتل، ومن هنا كان الإيتاء أقوى من الإعطاء.

وهناك فرق آخر بين الإعطاء والإيتاء، وهو أن الإعطاء إنما يكون على جهة التمليك، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص:٣٩] وقد لا يكون الإيتاء على جهة التمليك.

وفرق ثالث: وهو أن الإيتاء لا يكون إلا للشيء الكثير، والعظيم الشأن، وقد يكون الإعطاء للقليل، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النجم:٣٣-٣٤].

ويمكننا أن نتدبر الآيات القرآنية على ضوء هذه الفروق التي ذكرناها. وأول ما يخطر للفكر معرفته ليلمح فيه الفرق بين هاتين الكلمتين قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النور:٥٦]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩].

فانظر كيف عبّر عن كل من الزكاة والجزية، فبجانب الزكاة استعملت كلمة الإيتاء، فيمكن أن نلمح الفروق التي ذكرناها من قبل، فهي عطاء على سبيل التمليك من جهة، وهي أكثر قوة في إثبات مفعولها كذلك، لأن المؤمنين يخرجونها خالصة من قلوبهم، ولا كذلك الجزية. ولقد استعمل الإيتاء كذلك بجانب المُلْك والحكمة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦٩]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم:١٢]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء:٥٤].

أما الإعطاء، فيكفي أن نقرأ فيه هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة:٥٨]، وإعطاء المنافقين لا لكونهم يستحقونه، يقول الرسول ﷺ «إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليّ منه»[1].

وقد يتساءل بعضهم: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر:١]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى:٥].

والجواب عن ذلك: أن هذا الذي أعطيه النبي ﷺ، هو قليل في حقه، وهو قليل كذلك إذا قيس إلى ما هو أعظم منه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣].

٦- الكمال والإتمام:

من الكلمات التي تصعب التفرقة بينها، كلمتا الكمال والإتمام، وكثير من جعلهما ذواتي معنى واحد، لكن ورودهما في آية واحدة يشعر أن بينهما فرقاً، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:٣]، فقد عطف الإتمام على الإكمال، والعطف يقتضي التغاير، لذلك قالوا: إن الإتمام: إزالة نقصان الأصل، أما الإكمال: فهو إزالة نقصان بعض الصفات العارضة للأصل، فإذا قلنا: تم الشيء، فمعنى ذلك أنه زال نقص في ذاته، وإذا قلنا: كمل الشيء فمعنى ذلك أنه زال نقص فيه غير ذاتي، وعلى هذا حملوا الآية الكريمة ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة:١٩٦] قالوا: ولم يقل (تامة) لأن التمام إزالة نقصان الأصل، والأصل هنا قد كمل بقوله (عشرة) فيحتمل أن تكون غير كاملة في ثوابها فقال: كاملة.

وهناك فرق آخر: وهو أننا إذا قلنا: هذا شيء تام، فإن ذلك يشعر بنقص كان فيه من قبل، وإذا قلنا: كامل فلا يشعر بذلك النقص، وعلى هذا يمكن أن نفهم الآية الكريمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فلم يكن هناك نقص في الدين، وإنما كان المسلمون يطالبون بما نزل عليهم، فمن مات قبل أن تفرض الزكاة أو تحول القبلة، لم يقل إنه مات، وفي الدين نقص، وهذا معنى ما قالوه بأن كمال الشيء لا يشعر بنقصه، أما إتمام النعمة فلقد أكرم الله المسلمين بالأمن. فالآية نزلت في حجة الوداع كما نعلم، حيث أمن المسلمون في حجهم، وذهابهم، وإيابهم، وهذا أمر لم يكن متوافراً لهم من قبل، والله أعلم بمراده.

٧- وهاتان كلمتان استعملتا في كتاب الله تعالى، وهما كلمتا: شك وريب:

والعجب كل العجب من الذين يحتجون على وجود الترادف في اللغة بقولهم: لو لم يكن هناك ترادف ما صحّ أن نفسر: الريب بالشك[1].

---

(١) المزهر للسيوطي، حققه: محمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل، ج١، ص٤٠٤.

وإنما نعجب من أمره لأننا لا ندري كيف يفسر الريب بالشك، واستعمال القرآن شاهد لما بينهما من فرق، بل فروق. القرآن الكريم ينفي الريب دائماً عن القضايا الكبرى الكتاب والساعة، كما أنه ينفيه عن المؤمنين في جميع أحوالهم، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥]، ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١].

وعندما تستعمل كلمة الشك مسندة إلى الكافرين، فإنها غالباً ما توصف بكلمة مريب، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى:١٤]، ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

وقد نجد أن كلمة الشك، إذا ذكرت وحدها مسندة إلى الكافرين فإنه يضرب عنها، وينتقل إلى ما هو أكثر منها ضلالاً، وأشد منها سوءاً، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٦٦]، واستعمل الشك، دون وصف في قول الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤].

وهذه الآيات الكريمة تجعلنا غير مترددين في أن الريب شيء أكثر من الشك. «فالريب ينم عن القلق في النفس وما يختلج فيها من أسباب الغيظ»[1]، ومن ثم تنافي الطمأنينة، وهذا بعيد عن ساح المؤمنين، فضلاً عن قلبه الشريف ﷺ لذلك حيل بينه وبين أن يسند إليه الريب.

أما الشك فمع بُعده عنه ﷺ إلا أن الشك ليس فيه ما في الريب من محاذير، ذلك أنه -أي الشك- تردد بين شيئين، قال الراغب: «الشك: وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمارة، والمرية: التردد في

(١) محمود الآلوسي (ت١٢٦٠هـ/ ١٨٥٤م)، روح المعاني، الناشر: المطبعة المنيرية، ج١، ص١٠٦.

المتقابلين، وطلب الأمارة: من مَرَى الضرع، أي: مسحه للدر، والريب: أن يتوهم في الشيء، ثم ينكشف عما توهم فيه»[1].

ونزيد هنا أننا نجد هذه المادة، يوصف بها المنافقون، وأن هذا الفعل يسند إليهم، قال تعالى في سورة براءة في سياق الحديث عن المنافقين: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة:٤٥]، وقال سبحانه عن الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة:١١٠].

وفي التنزيل آية جمعت الكلمتين معاً، وتدبُّرها يدل على ما بينهما من بون شاسع، قال تعالى في سورة المؤمن وهو يحكي لنا خطاب هذا المؤمن الذي سميت السورة باسمه وقوله لآل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر:٣٤-٣٥]. ونرى من السياق الكريم الفرق الشاسع بين الكلمتين، حيث جاءت كلمة الشك مطلقة دون وصف، لا يفهم منها أكثر من ترددهم فيما جاءهم به ﷺ . أما كلمة مرتاب المشتقة من الريب فقد ذكرت مقترنة بالإسراف والإضلال، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنم عن سوء أولئك الذين استقر في قلوبهم الريب. ولو أننا وقفنا مع الآيات القرآنية التي ذكرت فيها إحدى هاتين الكلمتين لوجدنا أن كل كلمة لا يمكن أن تصلح مكان أختها.

---

(١) الراغب، المفردات، ص٢٠٥.

٨- السَّنَةُ والعام:

ونقرأ في كتاب الله تعالى آية ذُكِرَ فيها كلمتان اثنتان جاءت كلٌّ في موضعها، لا أقول الذي يناسبها فحسب، ولكن أقول الذي لا يناسبها غيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، وتأملاً في كل من الكلمتين على حدة نستنتج أن هناك أكثر من فرق بينهما.

فالسنة: تلقي من منطوقها ظلال الشدة والقحط والصعوبة. والعام: على العكس من ذلك. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾ [يوسف:٤٩]، وفي الأثر «سنين كسني يوسف»[(١)].

وهناك فرق آخر وهو أن السنة تُستعمل أكثر ما تُستعمل في السنة الشمسية على حين يُستعمل العام للقمرية، ونحن نعلم أن بينهما أحد عشر يوماً تقريباً، ومن هنا فلا عجب أن تدهشنا روعة التعبير في اختيار الكلمات، حيث ذُكرت السنة فيما قضاه نوح عليه وعلى نبيِّنا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه، وذكرت كلمة: العام بجانب المدة التي استثنيت من ذلك، وفي هذا تصوير لما عاناه عليه السلام من شدة في الأمر، ومقارعة لأعداء الله، وطول أمد، وإذا تدبرنا كتاب الله تعالى، فإننا لن نجد أي كلمة منه تشبه غيرها، فضلاً عن أن تسد مسدّها.

٩- وهاتان كلمتان: كتاب وقرآن:

وإذا أجلنا الفكرة ورجعنا البصر كرتين فسيظهر لنا أن الاستعمالات لكلمة: «كتاب» إنما قصد به تعيين هذه الكلمة، وكذلك كلمة «قرآن» ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاستسقاء، باب: دعاء النبي ﷺ «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف».
ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، صحيح مسلم، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، مصر، كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، ج٢، ص١٣٥.

رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ [البقرة:٢]، ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ ﴾ [الأنبياء:١٠]، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل:٨٩].

ويلحظ التالي لهذه الآيات الكريمة أن كلمة الكتاب تشير إلى ما يستنبط منه من أحكام، وما فيه من قواعد ومبادئ، وما اشتمل عليه من تشريع وحكم، وما ضمه من علوم ومعارف، وما يوصل إليه من رِفْعَة.

أما كلمة «قرآن» فنجدها في هذه الآيات الكريمة ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل:٤]، ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾ [الإسراء:١٠٦]، ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء:٧٨]، ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء:٤٥].

وهذه الآيات جميعاً إنما تشير إلى قضية القراءة والتلاوة، ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ [القيامة١٦-١٨].

وهكذا نجد أكثر المواضع التي ذكرت فيها كلمة: القرآن.

التعبير بالقرآن إذن إنما يكون في سياق القراءة والتلاوة، على حين نجد آيات ذكر فيها القرآن والكتاب معاً، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس:٣٧]. فالكتاب في الآية الكريمة يُعنى بها -والله أعلم- الكتب المتقدمة على القرآن في نزولها. وأما قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٩] فلا ينافي ما قلناه؛ لأن الآية الكريمة جاءت بعد ذكر الكتاب الذي أُعطِيه موسى عليه السلام، وقبل الكتاب الذي سيأخذه كل إنسان يوم القيامة. فالآية الأولى التي ذكرت قبل هذه الآية ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء:٢] والآية التي ذكرت بعد الثانية ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا

﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٣-١٤] توسطت كلمة القرآن بين كتابين، فناسب أن يذكر بينهما القرآن الذي جُعل هداية للناس جميعاً.

١٠ - كتب وفرض:

وما دمنا نتحدث عن الكتاب، يجمل بنا أن نعرض إلى ما جاء من هذه المادة كثيراً في كتاب الله تعالى وبخاصة في جملة التكاليف التشريعات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة:١٧٨]، وبعدها ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ [البقرة:١٨٠]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ ﴾ [البقرة:٢١٦]. ونلحظ أن هناك فرقاً بين الكتابة وبين الفرض في حسّ القرآن. فالكتابة ملحوظ فيها الإيجاب والروح الجماعية، أعني كونها أمراً جماعياً لا يختلف باختلاف الناس.

أما الفريضة فيُراعَى فيها جانب القطع والتحديد، ولذا نلحظ تفاوت الناس فيها كفرائض المواريث، أو ما شرعه الله لنبيه ﷺ أو للمؤمنين في بعض حالاته ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ ﴾ [الأحزاب:٣٨]، ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وأستأنس لهذا الفرق بشاهد من خير الشواهد في هذا المضمار، وهو ما رُوِي عن سيد البشر وأفصحهم في الحديث الصحيح «أن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة»[١]. فانظر كيف خُصَّت الصلاة بما لم تُوصَف به الزكاة، ونحن نعلم الفرق بين الشعيرتين، وأن الصلاة يتساوى فيها المسلمون جميعاً حرهم وعبدهم، غنيهم وفقيرهم، عاجزهم وغيره. وليست الزكاة كذلك الطبع.

---

(١) مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان ما هو وبيان خصاله، ج١، ص٣٠.

١١- الفلاح والفوز:

وقد كثُر استعمالهما في كتاب الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ [المؤمنون:١]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭﴾ [الأعلى:١٤]، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ [البقرة:٥]، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ⑤②﴾ [النور:٥٢].

وكثير من المفسرين يعطون الكلمتين مدلولاً واحداً فيقولون في معنى: أفلح، فاز.

والذي يلوح لنا من ذلك، -والله أعلم بأسرار كتابه- أن الفلاح لغة: الشَّقُّ، ومنه المثل: «والحديد بالحديد يفلح»[1]، بل هذه المادة اللغوية التي تبدأ بهذين الحرفين (الفاء، واللام) تدل على ذلك، كالفلق والفلج وغيرهما، فالفلاح لا بد فيه إذاً من حركة ومشقة، ولهذا نجد الآيات التي ذكر فيها الفلاح في كتاب الله تعالى جاءت جامعة لكثير من التكاليف والأوامر، محذرة من كثير من النواهي. مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾، حيث ذكر أوصافاً كثيرة، منه: البدني والنفسي والمالي، ونهى عن غيرها، وكذلك قوله تعالى في سور البقرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ وفي غيرها من الآيات.

وأما الفوز فيلاحظ فيه جانب السلامة والنجاة، ولعل الأصل اللغوي ما يشير على ذلك من قولهم (مفازة) لما كان سبب الهلاك غالباً.

١٢- وهاتان كلمتا: جبل وعلم:

استعملت كل منهما مُشَبَّهاً به في سياق البحر، فالسفن شبهت بالأعلام، والموج شبه بالجبال، ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ②④﴾ [الرحمن:٢٤]، وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢].

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني، (ت٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنّة المحمدية، سنة ١٩٥٥، ج١، ص١١.

وما أجمل التعبير، وأعظم الروعة، حيث استعمل العَلَمَ في مقام الإنعام والآلاء، وفيه من الإيناس ما لا يخفَى، واستعمل الجبلُ في مقام الشدة والبطش.

١٣- وما دمنا قد تحدثنا عن البحر فإننا نجد أن الكتاب الكريم استعمل كلمة اليم، وهي كلمة يظهر أنها مشتركة بين العربية والفرعونية، لذا لم يستعملها القرآن الكريم إلا في شأن موسى ﷺ وقوم فرعون، قال تعالى(1): ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص:٧].

١٤- الحَلِفُ والقَسَمُ:

وردت كلمة (الحلف) في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، منه قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة:٨٩]، ووردت مسندة إلى المنافقين في آيات كثيرة، ذكر كثير منها في سورة براءة ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ [التوبة:٦٢]، ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ ﴾ [التوبة:٩٥]، ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ﴾ [التوبة:٧٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، في السور المدنية التي تتحدث عن المنافقين. وورد في سورة القلم المكية ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [القلم:١٠] .

أما كلمة القسم، فقد وردت في السور المكية والمدنية مسندة إلى الكافرين والمنافقين ومن ورودها في السور المكية قوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل:٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا

---

(١) اكتشف هذا التشابه -وهو كثير بين اللغتين- علاّمة الآثار المصري أحمد باشا كمال.
انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ثانية، ج٩، ص٦٤.

نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر:٤٢]، وآية ثالثة مكية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام:١٠٩][1].

ومن مجيئها في السور المدنية قوله سبحانه: ﴿ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور:٥٣].

ويقيننا أن الحلف والقسم ليسا شيئاً واحداً، وهو ما ترشد إليه الآيات الكريمة، ولكن ما الفرق بينهما؟

ترى الدكتورة بنت الشاطئ[2]: أن الحلف لا يكون إلا فيما هو كذب، ومن هنا أسند الحلف كثيراً إلى المنافقين، كما ذكر في كفارة اليمين ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

وأما القسم فإنما يكون لليمين الصادق بها صاحبها.

وما نظننا نوافقها على هذا الذي ذهبت إليه، والذي يظهر لي أن الحلف قد يكون صاحبه صادقاً أو كاذباً، وهذا ما تشهد به الآية التي مرت معنا، والتي ذكرناها من قبل، فآية المائدة تتحدث عن كفارة اليمين للمؤمنين الذين لا يحلفون إلا صادقين، ولكنهم يريدون أن يكفروا عن حلفهم، وتلك سنّة النبي ﷺ: «إذا حلف ووجد أن من الخير أن يعود لما حلف عليه فليعد وليكفر عن يمينه»[3].

---

(١) نختار في تفسير هذه الآية أن المتحدث عنهم: هم الكافرون وليس المؤمنين كما يرى بعض المفسرين.

(٢) الدكتور عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ص٢١٢.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان والنذور، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، قول النبي ﷺ: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وائتِ الذي هو خير».

أما القَسَمُ فإنما يأتي في معرض التأكيد، والصيغ التي ذكرت في كتاب الله تعالى جميعها كانت عن المنافقين والكافرين -كما قلت من قبل- ولم تأت آية منها حديثاً عن المؤمنين. وهذا بالطبع لا يشمل الآيات التي أقسم بها ربنا تبارك وتعالى كقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة:١]، وكأن الكافرين والمنافقين أرادوا أن يغلظوا الإيمان ليخفوا وراءها ما يتفاعل في نفوسهم من كذب وخديعة.

١٥- الحمد والشكر:

بدأ الله كتابه قوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، ولقد ذكرت هذه الجملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مرات عديدة فاتحة لسور عديدة، ولكن كلمة الشكر ذكرت أكثر من كلمة الحمد. قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة:١٥٢]، ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩]. ولقد ذهب بعض المفسرين على أن الكلمتين ذواتا معنى واحد، والمحققون ذهبوا غير هذا المذهب، وإذا كان من فرق بين الحمد والشكر فإن الحمد يكون باللسان، أما الشكر فلا يختص به اللسان وحده، وإنما يكون بالقلب والجَنَان.

أفادَتْكُمُ النعماءُ مني ثلاثةً ... يَدِي ولساني والضمير المُحَجَّبَا

وهناك فرق آخر بين الحمد والشكر، وهو أن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة، أما الحمد فإنما يكون لأي شيء حسن، فأنت قد تحمد إنساناً لشجاعته أو كرمه دون أن ينالك منه شيء، ومن أجل هذا اختيرت كلمة (حمد) في فاتحة الكتاب العزيز.

١٦- النأي والبُعد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التوبة:٤٢]، فالبعد الذي هو ضد القرب قد

يكون زمانياً أو مكانياً، ولكن النأي كما تشير إليه الآيات الكريمة إنما يعني الإعراض مع كبر.

١٧- زوج وامرأة:

ومن الكلمات التي جاءت في كتاب الله تعالى، ويحسب بعض الناس لأول وهلة أنها متحدة في المعنى: «زوج» و«امرأة»، ومع أن الزوج يصدق على كل رجل وامرأة إلا أن القرآن الكريم يستعمل هذه الكلمة -أعني كلمة الزوج- أكثر ما يستعملها للمرأة، قال تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الممتحنة:١١]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ [الأحزاب:٢٨]، ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ [المؤمنون:٦] ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الدخان:٥٤]، فإذا كان الحديث عن الرجال، فقد يستعمل القرآن الكريم كلمة: بعل، قال تعالى حكاية عن امرأة إبراهيم عليه السلام ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ [هود:٧٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ [البقرة:٢٢٨].

والذي يظهر لي من هذا أن المرأة أحوج إلى الزوجية وأمسّ وألصق فهي أحوج من الرجل، وأكثر إلحاحاً، ولا عجب في ذلك، فهي أقل من الرجل حيلة وقدرة على التصرف في كثير من أمور الحياة.

أما ما نحن بصدده من التفرقة ما بين زوجة وامرأة، فقد فرّقت بينهما الدكتورة بنت الشاطئ[1] بما يلي:

«كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف، حكمةً وآية، أو تشريعاً وحكماً، فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة فهي امرأة لا زوج»، وما جاء في آيات الله تبارك وتعالى لا يشهد لهذا الذي قالته.

---

(١) الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ»، الإعجاز البياني للقرآن، ص٢١٢.

وبعد الوقوف مع الآيات الكريمة وتدبرها نستنتج أن هناك فرقين بين هاتين الكلمتين:

أولاً: أن امرأة تطلق على الأنثى من الناس حتى لو لم تكن ذات بعل، فكأنما هي تأنيث: مرء. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص:٢٣]، وهما بنتا الشيخ الكبير، كانتا غير متزوجتين، وقال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٠]. أما زوج فلا تكون إلا حينما يكون رباط الزوجية قائماً، فكل زوج امرأة، وليس كل امرأة زوجاً.

ثانياً: تطلق كلمة زوج حينما يناط أمر بين الزوجين، أي حينما تكون قضية مشتركة بينهما ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب:٥٩]، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء:٩٠]، ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ [الممتحنة:١١].

فنحن نرى في هذه الآيات الكريمة أن هناك قضايا مشتركة بين الزوجين، سواء كانت هذه القضية تبليغاً أم إنجاباً أم أمراً آخر.

أما قول الكاتبة بأن المرأة تستعمل حينما تتعطل آيتها من السكن والرحمة والمودة بخيانة أو تباين عقيدة، فشيء نعجب منه، فلئن جاز في امرأة نوح، وامرأة لوط، فإنه لا يجوز في غيرهما. قال تعالى يحدثنا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود:٧١]، وعن زكريا ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم:٨].

١٨ - الشح والبخل:

جاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد:٣٧-٣٨].

وعلى هدى من الآيات السابقة ندرك أن الشح يختلف عن البخل، فالشح من لوازم النفوس، ولهذا يحتاج إلى رياضة النفس حتى يتخلص منه صاحبه، أما البخل فإنما هو أمر يعرض للنفس، ويمكنها أن تتغلب عليه، وتتخلص منه. وهذا ما ترشد إليه الآية الكريمة ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾، فهم يبخلون إذا أُحفيَ عليهم بالسؤال، فطلب منهم أن ينفقوا جميع أموالهم أو أكثرها، وهذا ما أرشدت إليه الأحاديث النبوية الشريفة مثل قوله ﷺ: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[1]. ولهذا كان الشح شر ما يتصف به الإنسان[2].

١٩ - النعيم والنعمة:

تذكر الدكتور بنت الشاطئ[3]: إن النعمة هي ما كانت دنيوية فحسب، وإن النعيم ما كان أخروياً فقط. وإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:٨] إنما يقصد به النعيم الأخروي، أي حينما يرون الجحيم يسألون عن النعيم الذي ضيّعوه.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في الشح، عون المعبود شرح سنن أبي داود، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، نشر: دار الفكر، ج٥، ص١١٥.

(٢) يذكر بعض الكاتبين من الترادف كلمات ذات أصل واحد مثل: أسقى وسقى، وخطف وتخطف، ومدّ وأمدّ، وإنس وإنسان. ويظهر لي أن هذه ليست من باب المترادف فهي كلمات ذات أصل واحد، وإنما يفرق بينها، إما بزيادة ونقص في بعض الأحرف، وإما في الحركات. ولهذا لم أذكر شيئاً منها في هذا الباب.

(٣) الإعجاز البياني، بنت الشاطئ، ص٢١٨.

وهذا الفرق الذي ذكرته يختلف عما يتبادر من فهم الآية الكريمة، وما روي في تفسيرها من آثار، فإن الذي نحسبه -والله أعلم- أن النعمة تختلف عن النعيم من حيث هي واحدة، أما النعيم: فكأنما هو اسم لجملة من النِّعَم، وإنما لم يسألنا الله عن النعمة لأننا نعيش في أنعم كثيرة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

فكأن النعيم يدل على ما فيه زيادة على ما تقتضيه ضرورات الحياة، ثم إن النعيم جاء موصوفاً، ونظن أن وصف النعيم في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة:٢١] لا يؤيد ما ذهبت إليه، لأن وصف النعيم بالمقيم في الآخرة يدل على أن هناك نعيماً في الدنيا ليس كذلك.

وأيضاً فلقد استعملت كلمة (نعيم) مقصوداً به النعيم الدنيوي في قول لبيد: «وكل نعيم لا محالة زائل». لذلك استثني منه نعيم الجنة -والله تعالى أعلم-.

٢٠- يدع ويذر:

هذان الفعلان استعملت منهما صيغة المضارع والأمر، والذي جاء في كتاب الله تعالى، وفي كثير من الآيات الثانية منهما. قال تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:١٢٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨].

وإذا كانت الكلمتان تستعملان في معنى الترك، إلا أن الأولى منهما هي: ترك مع عناية وتلهف، ومن ذلك (ما وَدَعَكَ رَبُّكَ) [الضحى:٣] هي قراءة غير متواترة.

أما الكلمة الثانية: فهي ترك مع إعراض وإهمال للشيء، وعدم اعتداد، وقلة اعتناء به، ومنه الوذرة: وهي قطعة من اللحم تترك لعدم الاعتداد بها، لقلة جودتها. ولذلك استعملت الكلمة الثانية كثيراً في كتاب الله عز وجل.

ذلكم هو البيان القرآني الرائع، وتلكم هي ألفاظه، ذات المفهوم المحدد.

وقد يتساءل بعض الناس -وحُقَّ لهم ذلك- كيف نفهم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، وقول النبي ﷺ: «ذروني ما تركتكم»[1]، وهل يمكن أن نجريها على الأصل الذي ذكرت.

وأقول في الجواب: نعم، ونلمح في ذلك لطيفة بيانية بديعة!

أما الآية الكريمة: فقد وردت في شأن عدة المتوفى عنها زوجها، ونلحظ من السياق القرآني هذا البيان الرائع، فلم يقل القرآن: «واللاتي توفي بعولتهن»، وإنما ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾، ولم يقل: يدعون أو يتركون[2]. ذلك لأن المتوفى لا يعبأ بما وراءه، لأن في الآخرة ما يشغله، ولأن الله سبحانه يبدله أهلاً خيراً من أهله، وداراً خيراً من داره، ونحن نعلم أن الآية تتحدث عن المؤمنين. هذا أولاً.

وأما ثانياً: فلأن الآية وردت في شأن العدة، وهي المدة التي تمنع المرأة فيها من الزواج، فالآية الكريمة إذن جاءت تأمر المرأة بأن تتربص بنفسها، وتغالب ما يدور في خلدها، وتصبر في هذه المدة. ولذا استعمل في سياق الحديث عنها كلمة (تذر).

فلما كان الحديث عن الذرية لم تستعمل هذه المادة، وإنما استعملت كلمة أخرى، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء:٩].

فاستعملت كلمة الترك كما رأينا، ذلك لأن قلق الإنسان على ذريته، أمر جبلي طبعي، أما المرأة فقد تنتقل إلى بعل آخر. هذا هو السر الذي يظهر لي في الآية الكريمة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف، وما لا يقع، ونحو ذلك، ج٤، ص١٨٣١.

(٢) أورد الراغب رحمه الله هذا السؤال في مقدمته ووعد أن يجيب عليه في كتاب آخر من كتبه، ولم نحظ بهذا الكتاب.

أما الحديث الشريف، -وسيدنا رسول الله ﷺ أُعطِي جوامع الكَلِم- فالسياق الذي جاء فيه يحتم استعمال هذه الكلمة، لأنه نهي للمسلمين عن أن يسألوا عما سكت عنه الله ورسوله، كأنما يقول لهم: لا تعتدوا، ولا توجهوا عنايتكم إلا لما طولبتم به، أما ما وراء ذلك فذروه حتى لا تعنتوا أنفسكم.

وأكتفي بما ذكرت في هذا المبحث عن تلك الألفاظ التي يظن أنها مترادفة متحدة المعنى. ولندع الكلام في هذ الفصل، ولا أقول نذره، لننتقل إلى مبحث آخر، وإلى روضة قرآنية جديدة، وعلى الله التكلان، ومنه التوفيق، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

المبحث الثاني
ألفاظ مختلفة جاءت في مواضع متشابهة
واختصاص كل موضع بما يلائمه

وهذا الموضوع يختلف عن سابقه، فلقد كانت دراستنا في الموضوع الأول عن الفروق الدقيقة بين الكلمات، أما هذا الموضوع فالحديث فيه عن ألفاظ مختلفة في المعنى، لكنها جاءت في مواضع متشابهة، واختص كل موضع بما يلائمه ويناسبه وسيتضح ذلك من الآيات الكريمة التي يكرمنا الله سبحانه بذكرها. ومن ذلك:

١- **كلمتا: الإلقاء والقذف**: فقد وردت كل من الكلمتين في سياق الجهاد ومحاربة الأعداء، مسندتين إلى الله تبارك وتعالى المنعم على عباده بهذا الرعب إكراماً للمؤمنين، وبأساً على أعدائهم، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال:١٢]، وقال: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر:٢].

ومن كان له أدنى اطلاع ومعرفة في قضايا اللغة يدرك أن كلمة (القذف) تعطي من الدلالة، وتلقي من الظلال ما لا يوجد في كلمة (إلقاء).

فكلمة (القذف) إنما تستعمل لما فيه الشدة والقوة والضخامة، ولهذا يقال «هم بين خاذف وقاذف»، فالخذف: هو رمي الخذف، وهي الحصاة الصغيرة، أما القذف فلا يكون إلا بما كبر من الحجارة واشتد ضاربه فيه.

وحينما نقف أمام النصين الكريمين نتساءل متدبرين، لِمَ جاءت كل كلمة في هذا المكان دون غيره؟ والسياق كفيل بالإجابة على هذا التساؤل، لذلك كان السياق أمراً لا بد منه لفهم الكتاب العزيز وتفسيره، وإذا كانت اللغة والمأثور لا غناء عنهما، فإن السياق كذلك. وإليك بيان ما نحن بصدده:

الإلقاء في سور الأنفال التي تحدثت عن غزوة بدر، والتي كانت بين المسلمين وبين قريش، وكان المشركون من أهل مكة يقفون ويتجمعون في ذلك الموضع، لا يجدون ما يتحصنون به إلا تروسهم وأسلحتهم، لكن كلمة القذف جاءت في سورة الحشر، سورة بني النضير، وهم الذين -كما حدثنا القرآن الكريم عنهم- كانت لهم حصونهم المنيعة الحصينة، القرآن الكريم يحدثنا عن ذلك، وهو يمتن على المؤمنين ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢].

كانت كلمة الإلقاء إذن في مكانها المناسب، وجاءت كلمة القذف حيث لا يصلح أن تستعمل كلمة الإلقاء... وهكذا تتجلى لنا الكلمة القرآنية بهاءً ورواء.

٢- حادّ وشاقّ: هاتان كلمتان في كتاب الله، استعملت كل واحدة منهما في موضع معين، فقد استعملت الأولى في سياق الحديث عن المنافقين، واستعملت الثانية في سياق الكافرين، كما يشهد لذلك ما جاء في سورة براءة في سياق المنافقين ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [التوبة:٦٣]، وفي سورة المجادلة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ [المجادلة:٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة:٢٠].

ووردت المشاقّة حديثاً عن الكافرين في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ ﴾ [الأنفال:١٣]، في سورة الأنفال حديثاً عن المشركين، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ ﴾ [الحشر:٤]، في سورة الحشر حديثاً عن اليهود.

والسؤال: لم اختصت كل كلمة بموضعها؟ وللإجابة على ذلك نقول:

إن المشاقّة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر، ففيها معنى البُعد، أما المحادّة: فليس فيها هذا المعنى، إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حدّ

-أي علامة- توضع بين الفريقين مثل حد الأرض، وهو ما فيها من علامات تميز بين الشركاء، وهكذا المنافقون يَدَّعون الإسلام بألسنتهم، فتجري عليهم أحكامه الظاهرة وليس الكافرون كذلك.

٣- **التفكر والتذكر**: كلمة التفكر، ذكرت كثيراً في كتاب الله تعالى ولكن المواضع التي ذكرت فيها جميعاً نجدها قضايا معقدة لا يسهل إدراكها وتصورها على كل فرد، بل هي في أمس الحاجة إلى قدرات عقلية ومعرفة وعلم، فكثيراً ما ترد في قضايا التناسل، وإخراج شيء من شيء، وتداخل الأشياء بعضها ببعض ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد:٣]، وفي سورة النحل يتحدث القرآن عن النحل: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٩].

وقد ترد صيغة التفكر في معرض الاستنتاج والمقارنة بين الأشياء، ومعرض المثل، كما نرى ذلك في آيتي البقرة، آية الخمر والميسر اللذين فيهما إثم كبير ومنافع، وإثمهما أكبر من نفعهما، وكذلك الآية التي ضربت مثلاً لمن عمل بالطاعات ثم تركها وهو أشد ما يكون حاجة إليها ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٦].

كلمة التفكر إذن جاءت في هذه المواضع: آية الزوجية وما أودعه الله بين الزوجين، آية الأرض وما فيها من رواسي وأنهار، ونظام الزوجية في النبات، وفي كل

شيء ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤] وفي آية الإنبات من الماء الواحد أشياء مختلفة، وفي آية النحل وما تأكله من الثمرات المختلفة، وكيف يتحول ذلك إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، كذلك جاءت كلمة التفكر في معرض التمييز بين الأشياء والمقارنة بين إيجابياتها وسلبياتها، وحسناتها وسيئاتها، وذلك يظهر في آية الخمر والميسر، وفي ذلك المثل الذي ضربه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ والذي جاء في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما حينما سأله عمر رضي الله عنه فقال: «ضربت مثلاً لمن عمل بالطاعات فلما كبر سنه، وكان أحوج ما يكون إلى الحسنة اجتالته الشياطين عن الحق». إن مثل هذا حري بالتفكر.

أما كلمة التذكر، فنجدها في مواضع تتسق معها، نقرأ مثلاً قول الله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل:١٣].

إن اختلاف ألوان النبات أمر لا يحتاج إلى كثير تفكير ولا كبير عناء، وإنما يحتاج إلى الذاكرة وحدها فحسب، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢] بجمع عالِم، فقد جاءت في حديث خلق السموات والأرض، واختلاف الألسن والألوان قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢]، لا شك أن هذه القضايا -أعني خلق السموات والأرض واختلاف الناس ألسنةً وألواناً لا يفيها التذكر حقها، ولا بد فيها من علم ومعرفة.

وقد جاءت كلمة (عالمين) في موضعين في كتاب الله تعالى، في الآية التي معنا، وفي قوله سبحانه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣] وهذه الآية جاءت بعد المثل الذي ضربه الله تعالى لمن يتخذ أولياء من

دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وتلك قضية -لعمر الحق- تحتاج أكثر ما تحتاج إلى الدراسة والعلم، وذلك كثير في كتاب الله تعالى.

وفي سورة المجادلة جاء قول الله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) ﴾ [المجادلة:٣-٥].

فالآية الأولى جاءت للحث على تنفيذ حدود الله تبارك وتعالى وإخراج الكفارات، أما الآية الثانية، فقد ذكرت في سياق أولئك الذين لا يقومون بتعطيل الحدود فقط بل يستبدلون بها غيرها مستهينين بها، ساخرين منها، وشتان بين الفريقين لذا ختمت كل آية بما يستحقه كل منهما، فالذي يترك الحدود لشهوة في نفسه يستحق العذاب الموجع الأليم، أما الذي يتركها استهانة بها، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، كما نجد اليوم في مجتمعاتنا فأولئك يستحقون مع الألم الإهانة، لأن الجزاء من جنس العمل. ومثل هذا، ما جاء جزاء للذين يؤذون الله ورسوله، قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب:٥٧].

٤- وهاتان كلمتان في كتاب الله تعالى، وصفت بهما الأرض حيث ظهر فيها آثار القدرة الإلهية، كلمتا: هامدة وخاشعة.

أما الأولى: ففي قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج:٥].

وأما الثانية: ففي قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت:٣٩].

فالآية الأولى: جاءت خاتمة لقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ الآية [الحج:٥]. فالهمود لا شك متسق مع ذكر الموتى وهم جثث هامدة لا حراك فيها.

والآية الثانية: جاءت في سياق العبادة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت:٣٧]. فالخشوع متسق ومتناسق مع ذكر العبادة[١].

٥- وهاتان كلمتان متجاورتان في سورة آل عمران:

إحداهما: في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران:٤٠].

والأخرى: في قصة مريم: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٤٧].

فلقد عبّر بالفعل ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ في الآية الأولى، لأن لفظ الفعل غالباً ما يجري على قانون الأسباب المعروفة.وعبّر بـ (الخلق) في الثانية ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾، فالخلق يجري في الإيجاد والإبداع. ولما كان إيجاد يحيى من زوجين كسائر الناس، عبّر عنه بالفعل. لكن إيجاد عيسى عليه السلام جرى على غير قانون الأسباب والمسببات فعبّر عنه بالخلق[٢].

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، طبعة دار الشروق، ص٩٧.

(٢) ولا ننسى أن قصة زكريا ذكر فيها الغلام، وقصة مريم ذكر فيها الولد، لأن قضية الولادة هي المعجزة. أما ذكر الغلام في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ [مريم:٨] فموافقة لجبريل حينما قال لها: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم:١٩].

٦- وفي كتاب الله تعالى الكثير من هذا القبيل، بل كل كلمة في الحقيقة إنما تؤدي رسالتها الخاصة بها، فيدرك المتدبرون لكتاب الله تعالى الحكمة من كل كلمة وهي توجيههم في شؤون الحياة على اختلاف أغراضها.

تحدث القرآن الكريم عن المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وهذا كثير في كتاب الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة:٥١]، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال:٧٣].

فماذا عن المنافقين؟ نقرأ قول الله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٦٧]. هذا التعبير عن المنافقين توجيه رائع للمسلمين، يعلمون منه كيف يعاملون أعداءهم، المؤمنون أولياء؛ لأنهم أصحاب عقيدة صحيحة، والكافرون أولياء لأنهم يجتمعون على عقيدة فاسدة، ولكن المنافقين لا يجمعهم شيء، فهم مذبذبون بين ذلك، ويسيطر عليهم الجبن، ويهيمن عليهم البخل، فليس بينهم ولاية أبداً، لذلك لم يفوا بوعدهم لليهود حينما قالوا لهم: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ [الحشر:١١].

لذا جاءت الكلمة القرآنية خير معبر، بأصدق لهجة، وبأوفى بيان عن حال أولئك المنافقين الذين لا تربطهم مودة، ولا تقودهم فكرة ثابتة.

٧- وما أروع كلمة: المودة في كتاب الله تعالى، يعبّر بها في شؤون الزوجية، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١] حيث أوثرت على كلمة الحب، لما في هذه الأخيرة من جموح العاطفة، وتأجج الهوى بين زيادة ونقص، وهكذا التعبير القرآني في ثبوته وقوته وحكمته وبيانه.

٨- وشبيه بهذا أننا نرى القرآن الكريم يضع المضمر مكان الظاهر في بعض الآيات، بيان ذلك أن السؤال عن الساعة كان يسند إلى الضمير تارة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ [الأعراف:١٨٧، النازعات:٤٢]، ويسند إلى الاسم الظاهر تارة كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٦٣].

ولقد وقفت أمام هذه النصوص الكريمة باحثاً عن الحكمة، مستفسراً عن البيان القرآني، فوجدت أن السور المدنية كان يسند فيها السؤال دائماً إلى الضمير، وكذلك السور المكية، لكن هناك فرقاً بين السياقين. فسياق السؤال في الآيات المكية سياق تعنت واستهزاء ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الأعراف:١٨٧، النازعات:٤٢]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء:٨٥]، وربما عن ذي القرنين.

ولكن السؤال في الآيات المدنية إنما هو سؤال تعلم ونفع وفائدة، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:٢١٥]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ [المائدة:٤]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة٢٢٢]. والسؤال عن الساعة في الآيات المكية جرى على هذه القاعدة.

أما سورة الأحزاب فهي مدنية، ولو أنه قيل: يسألونك عن الساعة، لتبادر إلى الذهن أن السائلين هم المسلمون. ولكنه غيّر الأسلوب هكذا ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ ﴾ وما ذلك -والله أعلم- إلا لنكتة رائعة، وهي أن هؤلاء السائلين ليسوا المسلمين. ودليل ذلك: أن الآية الكريمة جاءت بعد الحديث عن المنافقين: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦٠]، كما ذكر بعدها الكافرون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٤].

لذا جرى الأسلوب فيها على ما رأيناه.

٩- **الإغراء والإلقاء**: ومما هو جدير بالتدبر، حريٌّ بأن تخشع له القلوب، هاتان الكلمتان من كتاب الله، وهما كلمتا الإلقاء والإغراء، ولتستمع:

في سياق الحديث عن أهل الكتاب ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة:١٤]، وفي آية أخرى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة:٦٤].

وقفت طويلاً عند هاتين الآيتين، أتساءلُ عن سر استعمال ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ في آية ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾ في أخرى، وكنت على يقين من أن وجود كل من الكلمتين في موضعها، لا بد له من حكمة. والحقيقة أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم لا يختص بالعرب وحدهم -كما بينته لك من قبل- إنما كل من فقه العربية من غير العرب، أو ترجمت له معاني الكتاب الكريم، فإنه سيقف على هذا الإعجاز، كما يقف عنده العربي ذو الطبيعة المسترسلة، والسليقة المتأصلة.

جاءت كلمة الإغراء حديثاً عن النصارى، أما كلمة الإلقاء فجاءت في سياق الحديث عن اليهود، وإن كان كثير من المفسرين ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ أي بين اليهود والنصارى، وإذا أردنا تفسيراً قريباً للإغراء والإلقاء، فإن الإغراء ببساطة هو الإلصاق الذي تصْعب إزالته، فهو مأخوذ من الغَرا (بفتح الغين) أو الغِراء (بكسرها) وهي المادة المعروفة عند كثير من الحرفيين، أما الإلقاء فهو مجرد الطرح.

وبعد هذه المعرفة اللغوية، إذا أردت أن تتذوق البيان في الآيتين الكريمتين، فلا بد لك من التاريخ والواقع، فلقد حدثنا التاريخ أن العداء بين الأمم النصرانية مستحكم ملصق بهم، ويمكنك أن تقرأ التاريخ يحدثك عن تلك الحروب الطاحنة، بين الشعوب الأوروبية والطوائف النصرانية، ولقد كان آخرها شمولاً الحرب العالمية الثانية، وإنما قلنا: آخرها شمولاً؛ لأن هناك عداوات إقليمية بين الكنائس النصرانية، كما يحدث في إيرلندا وغيرها لا زال على أشده.

أما الإلقاء فهو مجرد الطرح -كما علمت-، فإذا كان الضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمُ﴾ راجعاً لليهود، فنحن نعلم أن هذه العداوة لم تصل إلى ما هي عليه عند النصارى، وإذا كان راجعاً لليهود والنصارى معاً -كما ذهب بعض المفسرين- فالأمر فيه ظاهر كذلك، فأمر العداوة لا يصل إلى ما هو عليه عند النصارى بعضهم مع بعض.

هذه شذرة من شذرات الإعجاز البياني، كما يصوره الكتاب الخالد، وصدق الله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

١٠- **الوليجة والبطانة**: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة:١٦].

والبطانة هو اللباس الذي يحاذي البشرة، ونحن نعلم أن ما يلبسه الإنسان منه ما يمس جلده ومنه ما يكون فوق ذلك، ويسمى الأول شعاراً، والثاني دثاراً، ومنه الأثر «الناس دثار والأنصار شعار»، وكلمة البطانة معروفة مشتهرة بين الناس، أما الوليجة فهي من الولوج، أي: الدخول، وربما كان دخولاً فيه ضيق.

قال الراغب الأصفهاني: «الولوج: الدخول في مضيق قال: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] فتنبه على ما ركب الله عز وجل عليه العالم من زيادة الليل في النهار وزيادة النهار في الليل، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها، والوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله، ومنه قولهم: فلان وليجة في القوم إذا لحق بهم وليس منهم، إنساناً كان أو غيره، قال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة:١٦]، وذلك مثل قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥١]، ورجل خُرَجَةٌ وَلَجَةٌ: كثير الخروج والولوج»[1].

والآية الأولى جاءت في سياق يتحدث عن أهل الكتاب بدليل ما قبلها وما بعدها، فلقد جاءت تنهى المؤمنين أن يطيعوا أولئك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٠٠].

أما الآية الثانية فقد جاءت في سياق الجهاد، وإنهاء العهود للمشركين، فهي في سورة براءة، وهي السورة الأخيرة التي جاءت تبين أحكام القتال، فالآية الأولى تنهى المؤمنين أن يجعلوا خاصتهم من غيرهم. والآية الثانية تنهى المؤمنين أن يدخلوا غيرهم في مداخلهم الخاصة، ولما كان شأن الجهاد خطيراً لا يجوز للمؤمن أن يطلع غيره على أي سر من أسراره أيّاً كان هذا السر، ولا على أي قضية من قضاياه؛ لذا جاءت كلمة وليجة لتؤدي هذا المعنى، فلعل بعض المسلمين يبيحوا لأنفسهم أن يدخلوا معهم غيرهم في حرب أعداء الله، فيستعينوا بغير المؤمنين. جاءت كلمة وليجة لتحذر المسلمين من ذلك.

---

(١) المفردات، الراغب، ص٥٣٢.

ومن هذا تدرك أن ما قاله بعض المفسرين من تفسير الوليجة بالبطانة، فيه تساهل وتسامح.

١١- **الدثار والتزمل**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل:١-٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ [المدثر:١-٣]. وكثيرون الذين يفسرون الدثار والتزمل بمعنى واحد، إلا أن اختيار الكلمة القرآنية في موضعها، يحتم علينا أن نبحث عن سر هذا الاختيار، فالدثار -كما مر معنا آنفاً- هو اللباس الذي يلي البشرة، أما التزمل فهو يعطي معنى زائداً على ما سبق، فالتزمل فيه معنى الثقل والكثرة، ومنه الزوامل التي تحمل الأحمال الثقيلة.

ولما كان الدثار أمراً لا بد منه لكل من يقابل الناس، جاء قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ ، ولما كان المتزمل، أي: المتلفف المتثقل بما يضعه على بدنه من ثياب وغطاء وغشاء -وهذا يكون في حالة نومه- جاء قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ .

وهكذا تجد الكلمات القرآنية، كل في موقعها الذي يصلح لها، وفي موضعها الذي لا تصلح هي إلا له.

١٢- **جعل وخلق**: ذكر الراغب أن جعل تأتي في كتاب الله على وجوه، وذكر لها معاني خمسة، والذي يعنينا الآن أننا نجد أن جعل، تارة تستعمل في مقابلة خلق، وتارة تستعمل في مقابلة أنزل، وثالثة في مقابلة سلك، فمن الأول نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النساء:١]، وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الروم:٢١]، ولكننا نقرأ في مواضع أخرى ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٩]، وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر:٦].

أ- في مقابلة خلق: وإذا فكرت في هذه المواضع جميعاً، وجدت أنه حينما يكون السياق حديثاً عن القدرة، ذكرت كلمة الخلق، وحينما يكون السياق حديثاً عن النعمة، تذكر كلمة الجعل، والسياق في كل آية خير دليل على ما ذكرته لك. فالآية الأولى أمرت بالتقوى، تقوى الله القادر على كل شيء، وحري بمن كانت هذه قدرته أن يتقيه العباد، وكذلك الآية الثانية جاءت في ذكر آيات الله وعظيم قدرته ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم:٢٠]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم:٢١]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم:٢٢]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم:٢٣]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم:٢٥].

أما المجموعة الثانية، فالآية الأولى تقول: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فهذا الجعل فيه معنى التصيير، فهو يشبه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، والآية الثانية جاء فيها عقب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر:٦] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر:٦].

ألا تجد أن ذلك حديث عن النعمة.

وهذا مضطرد في كتاب الله، ومما يوضح ذلك هذه الدقيقة القرآنية واللطيفة البيانية أن تقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [النحل:٨٠-٨١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا

تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزخرف:١٢]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ [غافر:٧٩]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح:١٦].

هذه الآيات جميعاً جاءت في سياق الحديث عن نِعَم الله تبارك وتعالى، فآية الإسراء وآية نوح، تحدثنا عن جعل الليل والنهار، والشمس والقمر، وآية النحل تحدثت عن جعل الظلال مما خلق الله، وجعل الأكنان من الجبال، كما تحدثت عن جعل البيوت سكناً، وجعل البيوت من جلود الأنعام، كما تحدثت آيتا الزخرف وغافر عن جعل الفلك والأنعام ركوبة للناس، وعما في الأنعام من منافع كثيرة لا تقف عند الأكل وحده.

ولكننا نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس:٣٦]، وفي السورة نفسها ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [يس:٧١]، ونقرأ قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ ﴾ [الأنبياء:٣٣].

فالآيتان الأولى والثانية في سورة يس، وسورة يس -كما تعلم- جاءت تتحدث عن البعث، وهذا البعث يحتاج في إثباته إلى بيان القدرة الإلهية، لذا جاءت الآيات -كما رأيت- معنونة بعنوان الخلق، والآية الثالثة في سورة الأنبياء تتحدث عن القدرة، وتلك لَعَمْرُ الحقِّ ومضة إعجاز مضيئة، حري أن يهتدى بنورها.

ب- جعل في مقابلة أنزل: تقرأ قوله الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:١-٣]، وتقرأ قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف:١-٤]. وإذا أردنا أن ندرك سر استعمال كل من الكلمتين في موضعها، فينبغي أن تتذكر أن الحديث بعد الآية

الأولى، آية الإنزال كان عن أحسن القصص الذي يقصه الله على نبيه ﷺ، مما لا سبيل لمعرفته إلا بخبر السماء.

السياق سياق إنزال -إذن- لكن الآية الثانية آية الجعل، ذكر عقبها ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ فإذا كان أصل القرآن في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ أو علم الله -كما يقول المفسرون- فإن من رحمة الله تعالى، أن جعل هذا الكتاب فيما بعد قرآناً عربياً، ولم يجعله قرآناً أعجمياً.

كلمة الجعل -إذن- جاءت لتفيد معنى التصيير، وهكذا تجد أن كلاً من الجعل والإنزال، جاءت حيث ينبغي أن تكون.

ج- جعل في مقابلة (سلك): قال الله تعالى: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ [طه:٥٢-٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزخرف:٩-١٠].

وقفت طويلاً عند هاتين الآيتين، وقد رأيت أن الذين كتبوا في التشابه يرون أن مؤدى الكلمتين شيء واحد، ولكن إيماني بدقة اللفظة القرآنية، حال بيني وبين القناعة بما ذكروه، مع كل التقدير والإجلال لهم على ما صنعوه وبذلوه جزاهم الله عن كتابه وعن المسلمين خيراً.

ولعل الله أكرمنا بالهداية إلى سرٍّ من أسرار تلك الكلمات، وهذا يقتضينا أولاً أن نبحث عن الفرق بين الكلمتين -أعني كلمة السلك والجعل- وإذا كان الجعلُ الإيجادَ أو التصيير، فإن السلك إنما يدل على نفاذ مرتب، وعلى عمق في الترتيب، وإبداع. ألا ترى أنهم يستعملون السلك في وضع الجواهر والخرز في العقد، وهذا يحتاج إلى بصيرة بعمق وإبداعٍ في الترتيب.

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٢١]. إن سلك الماء ينابيع في الأرض، إنما هي بحاجة إلى اللطيف الخبير، الذي يعلم طبائع الأشياء، وما يصلح لبعضها دون الآخر، ثم تدبر قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل:٦٨-٦٩]، وسل عما يقوله العلماء بطبائع النحل، تدرك سر استعمال الكلمة القرآنية، فإذن تأكدتَ أن هناك فرقاً بين الجعل والسلك...

بقي أن ننتقل بك إلى القضية الثانية، وهي سرّ استعمال كل من الكلمتين في موضعها: كلمة جعل جاءت في سورة الزخرف في سياق خطاب أهل مكة من العرب، ولكن كلمة سلك جاءت في سورة (طه)، وعلى التحديد جاءت رداً من موسى عليه السلام على فرعون، وذلك على الأسئلة المتعنتة ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [طه:٤٩]، ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [طه:٥١].

وأرجو أن يكون قد بدأ يلوح لك نور الكلمات، وسر البيان، كلمة السلك جاءت في سياق الخطاب لفرعون، وكلمة الجعل في سياق الحديث عن أهل مكة، ومن البدهيّ أنَّ ما لمصر من حضارة بخاصة في تلك الأزمنة يقتضي ترتيباً وتنظيماً ودقةً في إيجاد الطرق، زراعية وغير زراعية، لذا جاءت كلمة السلك.

أما عند العرب فلم يكن لأمر الطرق عندهم إلا الهداية في السير، ولذا جاء في الآية ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزخرف:١٠] وهذه الخاتمة التي خُتمت بها الآية تؤيد ما ذهبت إليه.

تلك كلمة واحدة من كتاب الله تعالى، كلمة جعل، جاءت تتناوب مع كلمات كثيرة -كما رأيت- ولا تظنن أننا استوفينا ما لهذه الكلمة من حق، وإنما أردنا لك أن تتذوق، فإذا راقك ما تذوقت وهو كذلك، فتزوَّد، والله يفتح الباب لمن صدق الطلب.

وهكذا يمكنك أن تفهم سر استعمال الكلمة القرآنية من السياق، الذي جاءت فيه، والله يتولى هدانا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الرابع

في الإفراد والتثنية والجمع

من عجيب أمر هذا القرآن أننا نجد فيه كلمات لم تُستعمل إلا مفردة، وأخرى ذُكرت في صيغة الجمع، وإن كان أكثر كلماته -ونعني بها الأسماء- ذُكرت بالصيغتين معاً.

ولقد ذكر الأئمة -رحمهم الله تعالى- بعض ما جاء من ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى، كما فعل ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» والسيوطي في أكثر من كتاب من كتبه، وسأحاول في هذا المبحث الإفادة مما ذكروه مناقشاً حيناً، ورادّاً حيناً آخر، كما أحاول التقصي كذلك عن بعض الكلمات راجياً توفيق الله تعالى وفتحه، وهو خير الفاتحين.

وأول ما يظهر للمتأمل في كتاب الله تعالى، أن إفراد الكلمة تكتنفه أسباب عدة:

- فقد تفرد الكلمة لعدم تحقق غيرها في الخارج، كالشمس والقمر وغيرهما مما لا تعدد لوجوده.
- وقد يكون استعمال الكلمة مفردة، إشارة إلى الحكمة المقصودة من تلك الكلمة، وهي أنها لا تؤدي رسالتها إلا إذا كانت كذلك -مفردة-.
- وقد يكون الإفراد، لسبب ثالث: وهو ثقل الجمع.
- وثمة سبب رابع، وهو أن تكون الكلمة قصد منها تأدية معنى لا تشترك مع غيرها فيه.

تلك أهم أسباب الإفراد -كما تبدو لي-.

وهناك أسباب للجمع كذلك، يتوخى فيها القرآن بياناً وحكمة كما مرّ بنا من قبل.

- فقد يكون هناك ثقل بالمفرد من حيث النطق.
- وقد لا يكون للمفرد وحده رسالة يمكن أن تؤدى، ولا تؤدى إلا بالجمع.

وهكذا يمكن أن نتلمس الأسباب للكلمات القرآنية الكريمة، من هذه الحيثية أو تلك.

١ - ومما ذكره العلماء في ذلك كلمتا: **الريح والرياح**.

فالرياح: تستعمل في سياق الرحمة، والريح: في سياق العذاب، مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات:٤١]، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الروم:٤٦].

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ [يونس:٢٢] حيث استُعملت الريح في مقام الإنعام قالوا: إن لذلك سببين معنوياً ولفظياً.

أما الأول: فإنه ليس من مصلحة أهل الفلك أن تكون رياح كثيرة.

وأما الثاني: فإنها وصفت بطيبة.

٢ - وقد ذكروا من ذلك: **السموات والأرض** فقالوا: أفردت الأرض، ولم تُجمع لثقل الجمع، وأما السماء فترد مفردة إن أريدَ الجهة، وترد مجموعة إن أريدَ التعدد والإحاطة والشمول وبيان القدرة، قال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات:٢٢]، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١٦٤، آل عمران:١٩٠].

وذهب ابن القيم[1] وهو يقارن بين آيتين مذهباً آخر، يقول عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ:٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ ﴾ [يونس:٣١].

يقول رحمه الله وهو يقارن بين هاتين الآيتين: «إنه لما كان السؤال عن السموات تولى الله الإجابة: قل الله. ولما كان السؤال عن السماء كانت الإجابة منهم: فسيقولون الله. ذلك لعدم إقرارهم بوجود سبع سموات»[2].

وهذه بديعة من بدائع كتاب ربنا، حري بنا وبكل متأمل أن يقف خاشعاً مسبحاً عندها. هذه اللفتة الكريمة التي وردت فيها «السماء» مفردة تارة، ومجموعة أخرى.

في سورة آل عمران، نقرأ قول الله تعالى وهو يبين ما أعدّ لعباده، وما امتنّ به عليهم، وما أكرمهم به ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران:١٣٣].

(١) محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م). بدائع الفوائد، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج١، ص١١٧.

(٢) ولكن ما ذهب إليه رحمه الله غير مسلَّم له، فهو منتقض بما سبق بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ ﴾، والذي يتراءى لنا، أنهم تولوا الإجابة في الآية السابقة ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ ﴾ لأن السؤال ليس عن الرزق فحسب، وإنما انتظم فيها انتظم أموراً كثيرة كملك السمع والأبصار وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، وتدبير الأمر، ومن البدهي بأنه لا يقدر على هذه إلا الله وحده.

ونقرأ في سورة الحديد هذه الآية الكريمة: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد:٢١].

فالآية الأولى: جمعت فيها السموات، لكن الآية الثانية: أفردت فيها السماء وأدخل عليها (كاف) التشبيه.

والمنعم النظر في الآيتين الكريمتين يلمح هذا السر الرائع، ذلك أن الذين أعدت لهم هذه الجنة في الآية الأولى -وهم المتقون- ذكرت لهم أوصاف، كل وصف منها يستحق صاحبه أرفع المنازل لأنها أوصاف تدل على التجرد، ونبذ حظوظ النفس، وذلك يعسر على الكثيرين، ومن الذي يتغلب على نفسه فينفق في السراء والضراء؟ ومن الذي يتغلب على نفسه فيكظم غيظه ويعفو عن غيره؟ والناظر في عالمنا الإسلامي يجد أن ما أصابه من مرض عضال، وضعف حركة، وقلة بركة، يرجع أول ما يرجع إلى التخلي عن هذه الصفات. أما الآية الثانية: وهي التي أفردت فيها السماء، فقد ذكر فيها الإيمان وحده، لذلك اختلف التعبير في الآيتين الكريمتين.

بقي أن يقال: إذا كانت السماء جاءت مفردة تارة، ومجموعة أخرى، لكن الأرض لم تأتِ في كتاب الله تعالى مجموعة، وإنما جاءت مفردة فحسب، وسواء قلنا إن جمع السموات كان لما ذكرناه من قبل أم لأن لكل سماء طبيعتها الخاصة بها، فإن إفراد الأرض، إما لثقل الجمع، كما قالوا: وهو «أرضين»، أو لأنها ليس فيها هذا الاختلاف الذي يمكن أن يكون في السموات. وهذا ما نرجحه لأن أمر الثقل أمر نسبي، لذلك وجدنا هذا الجمع في حديث النبي ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين»[1]. وإلى قريب من هذا أشار صاحب

---

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين، ج٦، ص٢٩٢.
وانظر: مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الظلم وغصب الأراضي، ج٣، ص١٢٣٠، حديث رقم ١٦١٠.

البرهان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمنه أنه حيث ورد ذكر الأرض في القرآن فإنها مفردة كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]. وحكمته أنها بمنزلة السفل والتحت ولكن وصف بها هذا المكان المحسوس، فجرت مجرى امرأة وزور، وضيف، فلا معنى لجمعها كما لا يجمع الفوق والتحت والعلو والسفل، فإن قصد المخبر إلى جزء من هذه الأرض الموطوءة، وعيّن قطعة محدودة منها خرجت عن معنى السفل، الذي هو مقابلة العلو، فجاز أن تُثَنَّى إذا ضممتَ إليها جزءاً آخر، ومنه قوله ﷺ «يطوقه من سبع أرضين» فجمعها لما اعتمد الكلام على ذات الأرض، وأثبتها على التفصيل والتعيين لآحادها دون الوصف بكونها تحت أو أسفل في مقابلة علو.

وأما جمع السموات، فإن المقصود بها ذاتها دون معنى الوصف، فلهذا جمعت جمع سلامة، لأن العددَ القليل جمعُ القليل أولى به، بخلاف الأرض فإن المقصود بها معنى التحت والسفل، دون الذات والعدد.

وحيث أريد بها الذات والعدد أتي بلفظ يدل على التعدد كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وأيضاً فإن الأرض لا نسبة إليها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء، فهي وإن تعددت كالواحد القليل، فاختير لها اسم الجنس.

وأيضاً فالأرض هي دار الدنيا التي بالنسبة إلى الآخرة، كما يدخل الإنسان إصبعه في اليم، فما يعلق بها هو مثال الدنيا، والله تعالى لم يذكر الدنيا إلا مقلِّلاً لها.

وأما السموات فليست من الدنيا على أحد القولين، فإذا أريد الوصف الشامل للسموات، وهو معنى العلو والفوق أُفرِد كالأرض، بدليل قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦]، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك:١٧]. فأُفرد هنا لما كان الوصف الشامل، وليس المراد سماء معنية.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١]، بخلاف قوله في سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]، فإن قبلها ذكر الله سعة علمه، وأن له ما في السموات وما في الأرض، فاقتضى السياق أن يذكر سعة علمه، وتعلقه بمعلومات ملكه، وهو السموات كلها والأرض.

ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردها إرادة للجنس.

وقال السهيلي: لأن المخاطبين بالإفراد مقرون بأن الرزق ينزل من السحاب، وهو سماء، ولهذا قال في آخر الآية ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١] وهم لا يقرون بما نزل من فوق ذلك من الرحمة والرحمات وغيرها، ولهذا قال في آية سبأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ:٢٤] أمر نبيه ﷺ بهذا القول ليعلم بحقيقته.

وكذا قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، فإنها جاءت مجموعة؛ لتعلق الظرف بما في اسم الله تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى: هو الإله المعبود في كل واحدة من السموات، فذكر الجمع هنا أحسن، ولما خفي هذا المعنى على بعض المجسمة قال: بالوقف على قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣]، أراد لهذين الجنسين، أي: رب كل ما علا وسفل.

وجاءت مجموعة في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:١] في جميع السور لما كان الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم، وتباين مراتبهم، لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء:١٩]، وقوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ ﴾ [الإسراء:٤٤]، أي: تسبح بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، ولهذا صرح بالعدد بقوله: ﴿ٱلسَّبْعُ﴾.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات:٢٢]، و(الرزق): المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴾: الجنة. وكلاهما في هذه الجهة؛ لأنها في كل واحدة واحدة من السموات، فكان لفظ الإفراد أليق.

وجاءت مجموعة في قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [النمل:٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات، أتى بها مجموعة، ولم يَجِئْ في سياق الأخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذاتها، بل المراد الوصف.

فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [يونس:٣١]، وبين قوله: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ﴾ [سبأ:٢٤]؟

قيل: السياق في كل منها مرشد إلى الفرق، فإن الآيات التي في يونس سيقت للاحتجاج عليهم بما أقروا به من كونه تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبّر أمورهم بأن يُخرج الحي من الميت، ويُخرج الميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، إذ فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف تعبدون معه غيره، ولهذا قال بعده: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي: هم يقرون به، ولا يجحدونه، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى ينتهي إليهم، فأفردت لفظة (السماء) هنا لذلك.

وأما الآية التي في سبأ، فإنه لم ينتظم لها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماء، ولهذا أمر رسوله بأن يجيب، وأن يذكر عنهم أنهم هم المجيبون، فقال: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل: «فسيقولون الله» أي: الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات»[1].

٣- وهذه كلمة عين، وردت مفردة في كتاب الله تعالى في مثل قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، لما أريد التخصيص. ووردت مجموعة لما كان المقام يقتضي التهويل والتعميم، كما جاء في الحديث عن الطوفان ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر:١١-١٢]. ووردت كلمة عين بغير هذا المعنى وهو المبصرة مفردة ومجموعة كذلك، قال تعالى لنوح ﵇: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود:٣٧]، ولموسى ﵇: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٩] وقال لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ [الطور:٤٨][2].

هكذا تأتي الكلمة القرآنية لتتلاءم مع المقام الذي ذكرت فيه دالة على المعنى أفضل دلالة، متمكنة من النفس خير تمكن، ومع روعة الإبداع نجد كذلك جمال الإيقاع، ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦].

٤- وذلك في كتاب الله تعالى لا يمكن حصره، فهذه كلمة: (ولي)، وردت مفردة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) البرهان، الزركشي، ج٤، ص٦-٩.

(٢) ومن بديع النظم، ودقة المعنى، أننا نجد الجمع يختلف لكلمة (عين) باختلاف معناها، فالعين التي هي آلة الإبصار يأتي جمعها على أعين، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ﴾ [الأعراف:١٩٥] أما عين الماء، أي: الجارية، فتجمع على عيون، قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يس:٣٤].

كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧][(١)]، فولي المؤمنين الله وحده، أما الكافرون فأولياؤهم كثر.

٥- وهذه كلمة: الألباب لم تذكر إلا بهذه الصيغة، صيغة الجمع، أما المفرد وهو كلمة (لب) فإنها لم تذكر في كتاب الله تعالى، ولكن لِمَ؟!

يقول الإمام السيوطي[(٢)] رحمه الله بأن عدم ذكرها يرجع إلى ثقلها، وهكذا يقول الرافعي رحمه الله كذلك[(٣)].

وأقول: إن الكلمة القرآنية لا ينبغي أن ينظر إليها من حيثية واحدة، من حيث الخفة والثقل فحسب، بل يمكن أن تعطينا من أسرارها حينما نمعن النظر فيها عطاء لا ينتهي أثره.

وإذا سلّمنا ما ذكره هذان الإمامان: السيوطي والرافعي، يمكننا أن نجد سبباً آخر، فلا نقف عند هذه القضية اللفظية. بيان ذلك:

إننا نجد كلمة (حِجْر) بمعنى (العقل) ذكرت مفردة فحسب في كتاب الله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر:٥][(٤)].

وأما الألباب: فقد وردت بصيغة الجمع -كما عرفنا من قبل- لأننا نظن -والله أعلم- أن هناك سراً بديعاً، وغاية رائعة قصد إليها.

---

(١) فالله وحده ولي المؤمنين، أما الكافرون فأولياؤهم كثر ولكنهم لا يغنون عنهم شيئاً.

(٢) معترك الأقران للسيوطي، ج٢، ص٥٩٨.

(٣) إعجاز القرآني للرافعي، ص١٦٠. وفيه يقول الرافعي رحمه الله: لم تجئ (لب) في القرآن مفردة بل جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية.

(٤) أما ورودها مجموعة في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء:٢٣]، فإن الحجر هنا له معنى آخر، ولا بد من الجمع لأنه خطاب لجماعة المؤمنين.

نحن نعلم أن الحَجْر هو: المنع، أما (اللب) فهو: الثمرة والنتاج، وقضية الامتناع عن الوقوع في الردى، والابتعاد عن المساوئ والرذائل وتجنب الهوى التي تعطيها كلمة (حِجْر) نعلم أن هذه قضية فردية، تخص أول ما تخص الفرد نفسه، لأنها ذات تعلق بميوله واتجاهاته واستعداداته.

أما كلمة (اللب) بما تحمله من معنى محدد، فهي في الواقع أمر يخص الجماعة أكثر من الفرد، لأن الجماعة من شأنها أن تنتج، وتجد ثمرة جهادها، من أجل ذلك نرجح -والله أعلم- أن كلمة (الحِجْر) لم ترد مجموعة بمعناها الدال على العقل كما أن كلمة (ألباب) لم ترد مفردة كذلك؛ لأن الحجر يتجلى فيها الجانب السلبي وهو ألصق بالفرد، ولأن اللب يتجلى فيه الجانب الإيجابي، وهو من شأن الجماعة، فكم من مقررات تتخذها الجماعات لا تنفذ لعدم التزام الأفراد بتنفيذها.

٦- ومن هذا، هذه الآية من كتاب الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فهنا يعدل القرآن عن كلمة: (الصُّرط) جمع صِراط، لكونها أثقل من السُّبل من جهة، ولكون الصراط يغلب عليه طريق الخير من جهة أخرى.

٧- وفي القرآن الكريم، تذكر لفظة الآية من آيات الله في هذا الكون مفردة تارة، ومجموعة أخرى، والمنعم النظر ينعم وينعم على هذا الإبداع.

من ذلك: ما جاء في سور الحجر بعد الحديث عن قوم لوط عليه السلام: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر:٧٥-٧٧].

فانظر: كيف ذكرت الآيات أولاً لما كان الحديث عن المتوسمين الذين شاهدوا هلاك قوم لوط، وما أكثرها من آيات، فإهلاكهم آية، وإمطار الحجارة عليهم آية، وقلب قراهم آية... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المتعلقة بهم.

ولما كان الحديث عما بقي فيها من أثر يراه أهل مكة في طريقهم إلى الشام، ذكرت الآية مفردة، لأنها لا تتعلق إلا بآثارهم فحسب، وهي آية تكفي المؤمنين ليعتبروا بها.

وفي سورة النحل -وهي سورة النِّعم- يمنّ الله علينا بالإنبات، إنبات ما يصلح شؤوننا، ويمنّ علينا بعد ذلك بتسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم...إلخ.

وفي آية ثالثة يمن علينا بما ذرأ في الأرض مختلفاً ألوانه. هذه النعم الثلاث، ختمت الأولى والثالثة منها بلفظ آية إفراداً، أما الثانية: فقد ختمت مجموعة بلفظ آيات.

قال تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل:١١-١٣].

فما أجمل ختم كل آية بما يناسبها، وليس هذا غرضنا الآن، لكن الذي يعنينا أن التسخير أمر يختلف طبيعة وزماناً ومكاناً. فتسخير الليل والنهار له الأغراض التي ليست لتسخير الشمس والقمر، وكذلك النجوم عبّر عنها هنا بجملة مستقلة ليست تابعة لما قبلها، كما جاء في سورة الأعراف ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ [الأعراف:٥٤]، فتسخيرها هنا أمر مستقل بذاته، منفرد عما قبله. من أجل ذلك كله ختمت هذه الآية بغير ما خُتمت به قريناتها.

أما الإنبات وذرء ما في الأرض، فكلاهما شيء واحد. لذا ختم كل منهما بلفظ آية إفراداً غير جمع.

٨- وقد تجيء الكلمة القرآنية مفردة تارة ومثناه أخرى ومجموعة ثالثة: كالمشرق والمغرب، نقرأ قول الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩]، ونقرأ قول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن:١٧]، أما سورة المعارج فنقرأ فيها قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾ [المعارج:٤٠-٤١].

وقد ذكروا في الآية الأولى: أنها تعني مشرق الشمس ومغربها. أما آية الرحمن: فإنها تعني ذلك في كل من الصيف والشتاء؛ لأن لكل واحد منهما ما يخصه هو فضلاً عن أن سورة الرحمن ذكر فيها أشياء كثيرة، كل اثنين متقابلان معاً، كالشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء والأرض، والرفع والوضع، القسط والخسران، الفاكهة والنخل، والحب والعصف، والجن والإنس، والبحران العذب والملح، واللؤلؤ والمرجان. كما ذكر قول الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٦٢].

أما آية المشارق المغارب، فإنما تعني تعدد المطالع حسب الأزمنة والأمكنة. ولا ننسى أنها جاءت في سياق إثبات البعث(١) فهي أدل على قدرة الله تعالى(٢).

---

(١) ولا يخلو وقت من الأوقات من وجود مشرق ومغرب.

(٢) ومن عجيب أمر الفراء -عفا الله عنه- قوله: «إن العرب قد تذكر جنتين، وتريد واحدة» واستشهد لذلك ببيتين من الشعر. وهذا غير مقبول ولا جائز في كتاب الله تعالى. ونحن نقرأ فيما بعد من آيات ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ [الرحمن:٥٠] ثم نقرأ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ [الرحمن:٦٢].
إن ما ذكره الفراء لا يتفق مع دقة كتاب الله وقدسيته.
انظر: يحيى بن زياد بن عبدالله الفراء (ت٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة أولى، سنة ١٩٥٥، ج٣، ص١١٨.

٩- ومما جاء في صيغة الإفراد والتثنية والجمع، كلمة يد مضافة إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعنينا أن نخوض مع أصحاب المذاهب الكلامية، فذلك ليس من منهجنا هنا.

جاءت كلمة (يد) مفردة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

وجاءت مثناة رداً على رأسي الشر في الجن والإنس، أما رأس الشر في الجن وهو إبليس فإننا نقرأ قول الله تعالى مؤنباً له: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وأما رأس الشر في الإنس وهم اليهود فنقرأ قول الله تعالى ناعياً عليهم مكذباً لهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤] ونقرأ هذه الكلمة مجموعة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس:٧١].

والمنعم النظر، يجد أن كل صيغة من هذه الصيغ جاءت بحيث لا يمكن أن يسد غيرها مسدها.

ففي مقام البيعة أفردت. وفي مقام الإنفاق ذكرت صيغة التثنية لأن شأن الجواد كذلك، ومن الأدب العربي[1] كثير من هذا، وكذلك ذكرت صيغة التثنية في شأن خلق آدم عليه السلام دالة على العناية والتعهد والإبداع، وأما صيغة الجمع، فقد ذكرت في سياق تعدد المخلوقات، والله أعلم بأسرار كتابه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

---

(١) قال الخليل بن أحمد الفراهيدي:

يداك يَدٌ خيرُها يُرتَجى ... وأُخرَى لأعدائِها غائظة

وفي السنة المطهرة، في الحديث الصحيح «وكلتا يديه يمين» أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، حديث رقم ١٨.

١٠- ومما جاء إفراداً وجمعاً في كتاب الله تعالى: السمع والبصر، حيث يفرد السمع، ويجمع البصر، وقد ذكروا في ذلك: أن السمع مصدر لا يُثَنَّى ولا يُجمع، كما أن السمع تدرك به الأصوات فحسب.

أما الأبصار: فيدرك بها أكثر من شيء واحد كالأحجام والألوان، وقد جاء البصر مفرداً في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، ذلك لأنها تتحدث في نطاق مسؤولية الفرد.

١١- ومن ذلك ألفاظ ليس في ذكر مفردها فائدة، لأن المقصود بها الجماعة، كلفظ اليهود والنصارى، إذ المقصود كونهما جماعات خرجت عن جادّة الحق، واتخذت موقفاً عدائياً من جماعة المؤمنين، وكذلك «المنافقون».

١٢- وقد ورد لفظ الجنة في كتاب الله تعالى مفرداً ومجموعاً، أما النار، فلم ترد إلا بلفظ فرد، ذلك لأن الجنة رحمة، فما أجمل أن تتعدد مراتبها، كذلك لفظ الأزلام والأصنام، لأن التنفير كان عنها جميعها لا عن واحد معين.

١٣- ومن أروع ما ورد في كتاب الله، من ذلك جمع الشافعين وإفراد الصديق في قول الله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

وعلق الزمخشري(١) مبيناً الحكمة في ذلك، وهو كثرة الشافعين، وقلة الصديق، وذلك كثير في كتاب الله تعالى ليس من الغرض استقصاؤه وحصره.

والذي ينعم النظر في الكتاب العزيز يجد ما يثلج الصدر، وما يرقص له القلب.

١٤- ومنها حيث ذكر (الكأس) في القرآن كان مفرداً، ولم يجمع في قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ﴾ [الواقعة:١٨]، ولم يقل (وكؤوس) لأن الكأس إناء فيه

---

(١) الكشاف، للزمخشري، ج٣، ص١١٩.

شراب، فإن لم يكن فيه شراب، فليس بكأس، بل قدح، والقدح إذا جعل فيه الشراب، فالاعتبار للشراب لا لإنائه لأن المقصود هو المشروب، والظرف اتخذ للآلة، ولولا الشراب والحاجة إلى شربه لما اتخذ، والقدح مصنوع والشراب جنس، فلو قال: «كؤوس» لكان اعتبر حال القدح، والقدح تبع، ولما لم يجمع، اعتبر حال الشراب وهو أصل، واعتبار الأصل أولى، فانظر كيف اختار الأحسن من الألفاظ.

وكثير من الفصحاء قالوا: دارت الكؤوس، ومالت الرؤوس، فدعاهم الجمع إلى اختيار غير الحسن، فلم يدخل كلامهم حد الفصاحة، والذي يدل على ما ذكرناه أن الله تعالى، لما ذكر الكأس واعتبر الأصل قال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة:١٨]. فذكر الشراب، وحيث ذكر المصنوع، ولم يكن في اللفظ دلالة على الشراب جمع فقال: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ ثم ذكر ما يتخذ منه فقال: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:١٥][(١)].

ويقول الأستاذ الرافعي رحمه الله: «إن لفظة كوب لم تأتِ مفردة في كتاب الله، لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور، والرقة، والانكشاف، وحسن التناسب كلفظة أكواب التي هي الجمع»[(٢)].

كلمات قرآنية ورد لها أكثر من جمع واحد:

يقسم اللغويون الجمع إلى: جمع سالم، وجمع تكسير. والأول: إما مذكر وإما مؤنث، والثاني: أما للقلة، وإما للكثرة. وصيغ جمع القلة أربع ذكرها ابن مالك رحمه الله في ألفيته بقوله[(٣)]:

---

(١) البرهان، للزركشي، ج٤، ص٢٠.

(٢) الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٢٣٢.

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين بن عقيل، توزيع دار القلم، بيروت، لبنان، ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، ج٢، ص٤٥٢.

أَفْعِلَةٌ أَفْعَلُ ثُمَّ فِعْلَهْ   ثَمَّتَ أفعالٌ جُموعُ قِلَّهْ

وفي القرآن الكريم كلمات جمعت تارة جمعاً سالماً، وأخرى مكسراً:

١ - فمن ذلك جمع راكع وساجد، فقد جاء في كتاب الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة:١١٢]. ونقرأ في سورة الفتح وصفاً لأصحاب النبي ﷺ ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح:٢٩]، كما نقرأ قوله سبحانه يحدثنا عن البيت العتيق ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦].

ولا يشك أحد في أن ما جاء في سورة الفتح، وما جاء في شأن البيت العتيق إنما قصد به الكثرة من حيث الكم، ومن حيث الكيف، أي كثرة الذين يقومون بهذه العبادات، وكثرة العبادة نفسها كذلك، وليس كذلك ما جاء في سورة براءة[(١)].

فإن قيل: كيف جمع الطائفين والقائمين جمع سلامة، والرُّكَّع جمع تكسير؟

---

(١) وإتماماً للفائدة نذكر هنا أنه قدم الطائفين؛ لأنهم يطوفون حول الكعبة -شرّفها الله تعالى- فهم لا يلزمون مكاناً واحداً، وثنّى بالقائمين؛ لأنهم يقفون في مكان معين، ثم ذكر بعده الركوع والسجود لأن الركوع والسجود لا يلزم منه أن يكون في الحرم، هذا أولاً.
وأما ثانياً: فقد ذُكِرَ للساجد جموعٌ ثلاثة:
١- جمع المذكر السالم كما جاء في سورة براءة (الساجدون) وهو يتناسب مع الأوصاف التي ذكرت في الآية الآنفة الذكر.
٢- الجمع الثاني: سجود وهو ما ذكر في سورة الحج، وهو يفيد مع حركة السجود، الخشوع والخضوع.
٣- سُجَّد كما ذكر في سورة الفتح- لأنه يتعلق برؤية العين. ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح:٢٩] العين لا ترى إلا الحركة الظاهرة، أما الخشوع فأمر لا يمكن رؤيته. ونلاحظ أنه لم يفصل بين السجود والركوع بحرف العطف، لأن الركوع لا يعتبر إلا إذا كان معه السجود.

والجواب: إن جمع السلامة أقرب إلى لفظ الفعل، فطائفون بمنزلة يطوفون ففي لفظه إشعار بصلة التطهير، وهو حدوث الطواف وتجدده، ولو قال بالطواف لم يفد ذلك، لأن لفظ المصدر يخفي ذلك، وكذا القول في القائمين.

وأما الراكعون، فلما سبق أنه لا يلزم كونه في البيت ولا عنده، فلهذا لم يجمع جمع سلامة، إذ لا يحتاج فيه إلى بيان الفعل الباعث على التطهير كما احتيج فيما قبله[1].

٢- ومن الكلمات التي جمعت جمع سلامة، وجمع تكسير، ما جاء في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

فانظر كيف جاء جمع الابن على أبناء في قوله: ﴿أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وجمع سلامة في قوله: ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فجمع السلامة أدل على العموم من جهة، ولفظ (بني) يطلق على من ينتسبون إلى الأب من طرق متعددة يقال «بنو آدم وبنو تميم» ولا يقال: «أبناء آدم وأبناء تميم».

إذا عرفنا هذا أدركنا سر مجيء كل من الكلمتين في موضعها، فأبناء الأزواج ينتسبون إلى الرجل من طريق واحد، وليس كذلك أبناء الإخوة وأبناء الأخوات فقد يكونون من أخ شقيق أو أخ لأب أو أخ لأم، وكذلك أبناء الأخت، أو أبناء أخ من الرضاع أو أخت من الرضاع... وهكذا جاء كل جمع في مكانه الذي يصلح له.

---

(١) البرهان، للزركشي، ج٣، ص٢٥٠.

فإن قيل: لقد جاء لفظ الأبناء مضافاً للإخوة والأخوات في حق أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٥].

ويبدو -والله أعلم- أن ذكر الأبناء هنا جاء على بابه لأن الآية خاصة، أما آية النور فعامة، ولعل في الآية أسراراً غير ما ذكرت يفتح الله بها على من يشاء.

٣- ومن الكلمات التي جمعت جمعاً مكسراً تارة، وجمع سلامة تارة أخرى، كلمة نبي، فلقد جمعت جمع سلامة في بضع عشر موضعاً، وجمعت على أنبياء في خمسة مواضع، كان السياق فيها جميعاً تبكيتاً لليهود، ونعياً عليهم بصنيعهم السيِّئ، وكأنه قصد بهذا الجمع تكثير الأنبياء، والذين لحقهم الأذى من أولئك الذين جبلوا على الشر ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة:٩١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢]، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١٨١]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ﴾ [النساء:١٥٥]، ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة:٢٠].

وهذا الموضع الأخير، وإن كان ظاهره امتناناً عليهم إلا أنه في النهاية كان تبكيتاً لهم، أما جمع السلامة فجاء في أكثر من سياق واحد ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٣٦]، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

٤- ومن ذلك كلمة رسل جمع رسول، وقد ذكرت نيفاً وأربعين مرة، وكلمة مرسلين جمع مرسل، وقد ذكرت في ثلاث وثلاثين موضعاً.

ومن ينعم النظر في كل من الكلمتين يجد أن كلمة الرسل لا تذكر إلا لمن خصّه الله بالرسالة من البشر، وذكرت قليلاً في شأن الملائكة مثل قوله تعالى: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود:٨١]، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج:٧٥].

أما كلمة مرسلين، فلقد ذكرت في سياق أعم، فهي لا تخص الرسل وحدهم، وإنما تشمل غيرهم كذلك، مثل قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يس:١٤]، وهذا الحديث عن أصحاب عيسى عليه السلام، ولم يخصهم الله بالرسالة، من هذا قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل:٣٥]، كما ذكرت كلمة مرسلين في سياق الحديث عن يوم القيامة ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف:٦]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص:٦٥]، كما جاءت كلمة المرسلين في سياق التعميم حديثاً عن المكذبين ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء:١٢٣]...إلخ الآيات.

٥- وهذه كلمة سنبلة وردت مجموعة جمع تكسير في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة:٢٦١] وهو جمع كثرة، ولكنها وردت مجموعة جمعاً سالماً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف:٤٣].

والآية الأولى وردت في سياق التكثير(١)، أما الثانية: فلقد قصد بها تحديد العدد نفسه، كما يدل عليه سياقها ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ و﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾.

وعجيب شأن هذا القرآن إذ وردت فيه كلمات جمعت بصيغ جمع التكسير ولكن بصيغ متعددة.

---

(١) لأنها في مقام الحث على الإنفاق وجزاء المنفقين.

جموع كثرة وقلة ظاهرة:

وقبل أن أتحدث عن سر اختلاف هذا الجمع في كتاب الله تعالى أراني مضطراً أن أنبه لقضية هامة، وهي أن هناك جموعاً للقلة والكثرة لا يحتاج الأمر في تتبعها إلى طول وقوف، وكثرة عناء، ذلك لأن الأمر فيها ظاهر بيِّن.

من هذه كلمتا: آلاف وألوف، وأشهر وشهور: فلقد وردت كل من هذه الكلمات في موضعها المراد منها، قلة أو كثرة، ففي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥]. ونقرأ قول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ [التوبة:٣٦]. ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢] فالأمر في هذه الكلمات ظاهر بيِّن، فالآلاف والأشهر: جاءت أكثر من ذلك، لكن الذي لا بد من أن نقف عنده وقفة تأمل. هو ما لا تظهر فيه مزية للعدد.

جموع كثرة وقلة تحتاج إلى تدبر:

١- من هذه كلمة نفس جمعت جمع كثرة في موضعين لا يوجد غيرهما في كتاب الله أولهما: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ ﴾ [الإسراء:٢٥]، والثانية: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ [التكوير:٧]. ولكل من الجمعين سببه، وعلى سبيل المثال: كلمة أنفس في آية المطلقات جاءت بصيغة جمع القلة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ونلمح ذلك توجيهاً قرآنياً كريماً، وسراً بيانياً بديعاً، ومنهجاً تربوياً قوياً. فالطلاق علة اجتماعية، وآفة ذات أثر سيِّئ ومن هنا كان أبغض الحلال إلى الله.

لا عجب إذن أن نجد هذه الصيغة أنفس في كتاب الله تعالى كأنما هي دعوة لإحكام صلات الزوجية وتوثيق عراها، ومن شأن ذلك تقليل الطلاق.

وهكذا إذا تتبعنا كلمة الأنفس في كتاب الله نجد لها هذا السر، وتلك الروعة.

أما كلمة النفوس فقد جاء تارة في سياق سعة علم الله تبارك وتعالى، وتارة في شأن يوم القيامة، ولا شك أن المقصود في هذين الموضعين: التعميم والشمول. ففي الآية الأولى: المقصود شمول علم الله لجميع النفوس من جهة، ولكل ما في النفس الواحدة من جهة أخرى، وفي الآية الثانية ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ عموم لا يدخله التخصيص، فهو حديث عن الخلق جميعاً يوم القيامة.

٢- وهذه كلمة بحر جمعت جمع قلة في مثل قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٢٧] وجمعت جمع كثرة في سياق الحديث عن يوم القيامة ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير:٦]، ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [الانفطار:٣].

ففي الحديث عن مشاهد يوم القيامة جمع البحر جمع كثرة ليشمل البحار جميعها ما عرفناه وما لم نعرفه.

٣- وهاتان كلمتا عباد وعبيد: في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق:٢٩]، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [ق:٢٩].

وما أجمل ما لمحه الراغب رحمه الله بفكره الثاقب، وأشار إليه مما بين الكلمتين من فرق دقيق، فحينما ذكرت كلمة عبيد سلط حرف النفي على الظلم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق:٢٩] ولما كان الحديث عن العباد فقط سلط النفي على إرادة الظلم ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر:٣١]، وشتان ما بينهما، وصدق الله ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥].

أما السهيلي رحمه الله في الروض الأنف فقد ذكر أن كلمتي عبيد ونخيل تطلقان على الصغير والكبير. قال تعالى: ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ [الرعد:٤]،

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ ﴾ [النحل:١١]. فإذا ذكر العباد والنخل فإنهما يخصان الكبير، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ ﴾ [ق:١٠]، ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ [الأنعام:١٤١]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ ﴾ [الأنعام:٩٩]، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ ﴾ [الإسراء:٦٥].

٤- وهذه كلمة أساور جاءت في سياق ذكر أهل الجنة في سور كثيرة من سور القرآن الكريم ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ [الكهف:٣١]، وجاءت بصيغة أخرى في سياق الحديث عن بغي فرعون وطغيانه في هذه الدنيا[1] ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣ ﴾ [الزخرف:٥٣] لأن أساور جمع كثر وأسورة جمع قلة.

٥- وأخيراً هاتان كلمتان في كتاب الله تعالى وهما كلمة ضعفاء وضعاف، جاءت الأولى في قوله سبحانه: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ ﴾ [البقرة:٢٦٦] وجاءت الثانية في قوله سبحانه: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ ﴾ [النساء:٩].

فالآية الأولى تتحدث عن أحد ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ ﴾ بصيغة الإفراد، والثانية تتحدث عن الجمع ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ ﴾ فالضعفاء أفراد الذرية الواحدة، والضعاف: أفراد ذريات متعددة كما يرشد سياق كل من الآيتين.

---

(١) ونحن نعلم أن صيغة أفعلة: جملة قلة وليست كذلك كلمة أساور.

ذلك غيض من فيض بما في الكلمات القرآنية من سمو وجمال في التعبير، ودقة وروعة في البيان، ووفاء في المعنى، وغاية في القصد. وهناك الكثير، بل الأكثر مما لم أذكره اكتفاء بما ذكرت، أو قصداً لعدم الإطالة، وقد تكون كثير من الكلمات بحاجة إلى إجالة نظر، وإطالة فكر، وعسى الله أن يلهمنا الصواب في إدراك ما لم ندركه، ويهيئ لكتابه من يفتح أكمام كلماته ليتنسم أريجها، وتتروح النفوس عبيرها الشذى.

والعجيب أن هذا الكتاب الكريم تأتي الكلمة فيه بسياقها المتحدث عنه فيتجسد في النفس ذلك المعنى خوفاً أو طمعاً، تنفيراً أو تشويقاً، كما نجد ذلك في كلمة الشواظ في قوله سبحانه: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن:٣٥]، وكلمة الغاشية والغواشي في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ [الغاشية:١]، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف:٤١]. وكلمة عبوساً قمطريراً ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:١٠]. وفي مقابل ذلك نجد نضرة النعيم ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين:٢٤] ونضرة وسروراً ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان:١١]، والرحيق والسلسبيل، قال تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المطففين:٢٥]، وقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإنسان:١٧-١٨].

وخلاصة القول إن استعمال القرآن الكريم للكلمة تقديماً أو تأخيراً، أو إفراداً أو جمعاً على اختلاف هذه الجموع، كل ذلك كان مراعى فيه الدقة والإبداع، فكلمتا المدثر والمزمل، اللتان يتوهم اتحادهما جاءت كل منهما في موضعها.

وتقديم كلمة أمر في قوله تعالى: ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ [طه:٦٢]، وتأخيرها في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ [الكهف:٢١]، وتقديم النور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [التحريم٨]، وتأخيره في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾

[الحديد:١٢] وغير ذلك. كان نتيجة نظام محكم، وغاية سامية مما ليس بطاقة الناس جميعاً أن يقدروا عليه مهما كان نصيبهم من بلاغة في القول، ودقة في التفكير. وقد لمح ذلك الجاحظ حينما قال: «وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع، إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»[1].

وقد عقد الأستاذ أحمد أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن» فصلاً خاصاً بألفاظ القرآن، أسمح لنفسي أن أقتطع منه بعض العبارات الموجزة لكونها وثيقة الصلة بهذا الموضوع، قال: «يتأنق أسلوب القرآن في ألفاظه... ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً. ولما بين الكلمات من فروق ولـِمَا يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظاً مكان آخر فقال: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات:١٤] فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه. ولما كانت كلمة (راعنا) لها معنى في العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة:١٠٤].

فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى»[2].

---

(١) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ج١، ص٢٠.

(٢) أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، الناشر: مكتبة نهضة، مصر ومطبعتها، طبعة ثانية، ص٥٧-٥٨.

الفصل الخامس

رسالة الحرف في كتاب الله تعالى

وإذا كنا نتحدث عن الكلمة القرآنية، فإنما نعني بها الكلمة باصطلاح اللغويين، اسماً كانت، أو فعلاً، أو حرفاً من حروف المعاني، لذلك كان لهذا الحرف نصيبه الأوفى، وحظه الأوفر في البيان القرآني، سواء كان ذلك من حيث حذفه وذكره، أم من حيث وضع حرف مكان حرف آخر.

وأحب أن أشير هنا إلى أن ما ذهب إليه كثير من العلماء من تناوب الحروف بعضها مكان بعض، قضية غير مسلمة أو مستساغة في كتاب الله تعالى، فكل حرف له مدلوله الخاص به. فإذا قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، فإن حرف الجر (في) جيء به قصداً، ولا يسدّ غيره مسده[1]. وهكذا كل حرف في كتاب الله تبارك وتعالى، لا ينبغي أن نقول: إنه جاء عوضاً عن غيره فـ (عن) في قوله تعالى: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون:٥] ليس المقصود بها أن تكون بمعنى (في) أي في صلاته.

فلقد ذكر المحدث الخطابي[2] بسنده إلى مالك بن دينار، قال: جمعنا الحسن - يعني البصري رحمهم الله جميعاً- من أجل عرض المصاحف، وكان في المجلس أبو العالية، فسأله أحدنا عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ

---

(١) ذلك لأن هذا الحرف يصور لنا ما في نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين.

(٢) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٣٢.

سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ فقال أبو العالية: هو الذي يسهو في صلاته، فقال الحسن: لا، يا أبا العالية: إن الله يقول: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم)[1].

فنحن نرى أن الحسن البصري رحمه الله، وهو الذي أُرضع لَبان النبوة فأكرمه الله أيما إكرام - أبى أن يستبدل الحرف القرآني بغيره.

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد من ذلك ما يُطَمئن القلوب، ويثلج الصدور. والحق أن الحرف في كتاب الله تعالى، حري بالدراسة الجادة، والبحث الدائب، وقد وقفني هذا الحرف في كثير من الآيات القرآنية، وأنا أبحث عن سر حذفه تارة، ووجوده تارة أخرى، وأهرع لكتب التفسير -جزى الله كاتبيها خير الجزاء- ولكني أحياناً لا أجد البغية التي تشفي الغلة، وتبرئ العلة، وسأكتفي من ذلك ببعض الآيات الكريمة.

(١) وهذا هو رأي المحققين اللغويين كما نقله أبو هلال العسكري عن ابن درستويه.
انظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٣.

المبحث الأول

حذف الحرف وذكره

١ - يقول تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة:٨] ويقول سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٣].

وقفت طويلاً مع هاتين الآيتين الكريمتين، ابحث عن سر النظم، حيث جاء الخبر منكراً في الآية الأولى، معرفة في الآية الثانية، والحق أن الفرق بين المعرفة والنكرة في الخبر، فرق كبير من حيث المعنى، بيان ذلك:

أنك تستشعر الفرق بين قولك: «فلسطين أمانة» و«فلسطين الأمانة» وقولك: «اليهود أعداء» و«اليهود الأعداء». فقولك: «فلسطين أمانة» كل الذي أفاده هذا القول أن فلسطين أمانة ينبغي أن يحافظ عليها، ولا يجوز أن يفرط فيها، وهي أمانة كغيرها من الأمانات. وكذلك قولك: «اليهود أعداء» كل ما نفهمه منه أن عداوة اليهود أمر ثابت، ولا يجوز أن تهدم السدود التي تحول بيننا وبين هذه العداوة، أما قولنا: «فلسطين الأمانة» و«اليهود الأعداء» فإنه يفيد معنى آخر زائداً عن الأول، وهو أن فلسطين هي الأمانة التي ينبغي أن يكون للمسلمين بها عناية؛ لأنها ليست كغيرها من الأمانات، فهي الأمانة التي ينبغي أن توجَّه لها الأفكار والسواعد، وما ملكته الأمة. وكذلك قولنا: «اليهود الأعداء» يدل على أن عداوة اليهود لا تشبهها عداوة أبداً، وكأنهم هم الأعداء لا غيرهم.

وأظنك بعد هذا التمهيد، تدرك الفرق بين الخبر المعرف، والخبر المنكر، ويمكننا أن نرجع إلى الآيتين الكريمتين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة:٨]، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ولعل مما يساعدنا على كشف اللثام، وتفتق الأكمام لهاتين الآيتين الكريمتين، معرفة السياق الذي نزلت فيه كل منهما.

أما آية براءة، فقد نزلت في شأن أولئك، الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد، والذين لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، والآية مدنية -كما نعلم- وهذه الفئة واحدة من فئات كثيرة، كانت تناصب المسلمين العداء، كما أنها واحدة من الفئات الكثيرة التي تحدثت عنها السورة الكريمة، سورة براءة، فهناك المنافقون على اختلاف فئاتهم وأعمالهم، وهناك أهل الكتاب من يهود وغير يهود، وهناك المشركون من غير أولئك المعاهدين، وهؤلاء جميعاً يشتركون في الفسق، فلو أنه قيل في الآية الكريمة: (وأكثرهم الفاسقون) لكان تخصيصاً لهؤلاء بالفسق دون غيرهم، وذلك أمر غير مراد ولا مقصود، لذا جاء نظم الآية على ما هي عليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ لأن هناك فئات كثيرة تشترك معهم في هذا الفسق.

أما الآية الثانية فلم تتحدث عن فئة خاصة، إنما كان حديثها عن الناس عامة، وسورة النحل سورة النِّعَم، فهي تتحدث عن نِعَم الله تبارك وتعالى التي أنعم بها على الناس جميعاً، ويشهد لهذا السياقُ والآياتُ الكثيرة التي جاءت قبل هذه الآية، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [النحل:٧٠]، ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ [النحل:٧١]، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل:٧٢]، ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النحل:٧٨]، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل:٨٠]، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ [النحل:٨١]، وبعد هذه النِّعم جميعاً يقول الله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٢-٨٣] ألا ترى أن التعريف هنا أمر لا بُدّ منه، وبخاصة بعد هذه النعم جميعاً، ولو قال: «أكثرهم كافرون» لكان معنى هذا أن هناك فئات كثيرة تشترك معهم في هذا الكفر، وليس هذا مقصوداً في الآية الكريمة؛ لأن الحديث فيها ليس عن فئة دون فئة، وإنما هو حديث عن الناس جميعاً، لما عرفت من السياق المتقدم، بل لقد نُصَّ على ذكر

الناس في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل:٦١].

٢- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد:٣٥].

وقفت كثيراً مع هاتين الآيتين الكريمتين، أتأمل النظم، راجياً من الله أن يكرمني بنور الفهم، والفرق بين الآيتين من حيث النظم ظاهر لك، ففي الآية الأولى ذكرت (لا) مرتين ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾، ولكنها في الآية الثانية لم تذكر إلا مرة واحدة ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾، ويعلم الله أن هذا القرآن يحمل حجته على أنه تنزيل رب العالمين، في كل آية من آياته، وأرجو أن تتدبر الآيتين تدبراً جيداً، وما أظنك إلا أنك سيرقص قلبك طرباً، وتتيه نفسك، ويخشع فؤادك، ولقد وجدت ذلك كله -ويعلم الله صدق ما أقول-.

ولعله قد بلغ بك الشوق مبلغاً، لتدرك سر النظم في الآيتين الكريمتين، فالآية الأولى جاءت تحذر المؤمنين من أمرين اثنين: الوَهَن والحَزَن، والوهن والحزن أمران ليسا من الفضيلة ولا من الخير في شيء، فلا يجوز للمؤمنين أبداً أن يركنوا إلى واحدة من هاتين الصفتين، أو من هذين المرضين الاجتماعيين، اللذين ينخران في جسم الأمة، فيحولان بينها وبين نعمة الأمن، وحلاوة الاستقرار، والقدرة على التحفز، ولذة المقاومة، ومقامة الشر.

أما الآية الثانية، فكان النهي فيها عن أمرين اثنين كذلك: الوهن، وهو ما تشترك فيه مع الآية الأولى، وهو الأمر الأول، أما الأمر الثاني فهو الدعوة إلى السَّلْم، ولكنه لم يقترن بحرف النهي (لا) الذي اقترن به الحزن؛ وما ذلك -والله أعلم بما ينزل- إلا لأن الحزن شر في كل وقت، أما الدعوة إلى السَّلْم فليس كذلك،

إنما هو شر حيناً، ولكن قد يكون خيراً حيناً آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنفال:٦١]، ولكنه شر حينما يكون استسلاماً، وحينما يقترن بالضعف والوهن، كما هو الشأن في أيامنا هذه، فلو أنه قيل: «ولا تدعو إلى السَّلْم» لكان السَّلْم محرماً على المسلمين في كل حين وعصر، وليس هذا من شأن الإسلام. لكن نظم الآية على ما هو عليه ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ جاء يحرم على المسلمين الدعوة إلى السلم الناشئة عن الضعف، والتي هي خضوع وخنوع وذل لا يرتضيه الإسلام ولا يليق بالمسلمين.

أرأيت إلى بديع النظم، أرأيت إلى رسالة الحرف القرآني، التي يحملها للمسلمين -هذا الحرف- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف:٢]، ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ [الفرقان:٦].

٣- يقول تعالى حديثاً عن المتقين الذين يؤمنون بالغيب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة:٥]، ويقول حديثاً عن أولئك الذين لهم قلوب لا يفقهون بها: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فأنت ترى أن الآية الأولى وُسِّطَ فيها حرف العطف ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أما الآية الثانية فلقد خلت من هذا الحرف، ولقد جلّى الزمخشريُّ رحمه الله هذه الدقيقة البيانية، فذكر السر الذي من أجله وجد حرف العطف في الآية الأولى، وحذف في الثانية، وخلاصته ما ذكره في ذلك: أن الآية الأولى ذكرت وصفين مستقلين للمؤمنين: أولهما: أنهم على هدى من ربهم، فمسلكهم سوي، ومسيرتهم صحيحة، والثاني: أنهم مفلحون، وتلك هي غاية ونتيجة للوصف الأول، فإن فوزهم وفلاحهم إنما نشأ عن كونهم سائرين على الهدى.

أما الآية الثانية فليس الأمر فيها كذلك، فوصفهم بالغفلة إنما هو مؤكد لتشبيههم بالأنعام، فلو أنه جيء بالواو في هذه الآية لترتب على مجيئها خطأ يجل عنه القرآن، مؤداه أن الأنعام ليست في غفلة، فلو قيل: وأولئك هم الغافلون، لكان هذا مغايراً لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، ويصير المعنى -كما قلت من قبل- إن لهم صفتين: فهم كالأنعام أولاً، وهم غافلون ثانياً، وعلى هذا لا تتصف الأنعام بالغفلة، وتلك غفلة يجل عنها العقلاء.

٤- قال تعالى في سورة الشعراء يحكي لنا ما قاله المعاندون لأنبيائهم، فها هي ثمود التي استحبت العمى على الهدى يقولون لنبيهم صالح ﷺ، وقد أمرهم بعبادة الله وحده وحذرهم: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٥]. وهذا شعيب ﷺ كان له نصيبه من قومه نصيب أخيه صالح، فها هم أصحاب الأيكة يقولون له: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦].

فنحن أمام آيتين متحدثين في الجواب:

إحداهما: وُسِّطَ فيها حرف العطف، وترك من الثانية. فالشهاب الآلوسي[(١)] رحمه الله وهو خاتمة المحققين في عصره، يرى أن سبب زيادة الواو يرجع إلى أن شعيباً ﷺ كان خطيب الأنبياء عليهم السلام فأحب القوم أن يجاروه فيما وهب من قول فزادوا هذه الواو.

ومن قبل الشهاب الآلوسي رحمه الله يقول الكرماني صاحب متشابه القرآن، ما هو قريب من هذا:

(١) انظر: تفسير الآلوسي المسمى روح المعاني، ج١٩، ص١١٩.

إن شعيباً زاد في الحديث، فزادوا له في القول. وإن صالحاً قَلَّلَ فقلَّلوا له[1].

وما أظن ذلك مقنعاً، ولا منسجماً مع بيان القرآن الكريم وروعته وإيجازه وإعجازه، فهل كان شعيب خطيبَ الأنبياء حقاً، وهل كان كلام صالح أقل من كلامه -عليهما السلام- ؟ لعل واقع الآيات التي جاءت كل من الجملتين بعدها لا يشهد لذلك ولا يقره.

وعلى التسليم بأن كلام صالح كان أقل -مع أنه ليس كذلك، كما قلت- فهل وجود الواو من شأنه أن يكن زيادة في الحديث تتفق مع بلاغة شعيب وخطابه؟! والعجب من الكرماني وغيره حيث عدَّ الجملة الأولى ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ بدلاً؛ والجملة الثانية: عطفاً مع اتحاد المعنى. مع أننا نعرف أن البدل والعطف متغايرا، تماماً، فإذا قلنا «قام زيد وأخوك» و«قام زيد أخوك» ففي الجملة الأولى ينبغي أن يكون زيد ليس هو الأخ، أما الجملة الثانية: فإن زيداً فيها هو الأخ نفسه، إذن لا يمكن أن تكون إحدى الجملتين عطفاً، والأخرى بدلاً، ويكون المعنى واحداً.

والذي ظهر لي -ولله الحمد والمنّة، والله أعلم بمراده- أن هنا شفافية من الإعجاز التاريخي والبياني معاً. ذلك أن كلمة مسحرين يمكن أن تفسر بالمسحرين الذين أصيبوا بمس واختلط الأمر عليهم، ويمكن أن تفسر بمن لهم معدة ورئة، ويأكلون ويشربون. ومن هذا القبيل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْري ونحري»[2].

---

(١) محمود بن حمزة الكرماني (ت نحو ٥٠٥هـ/ ١١١٠م) متشابه القرآن، الذي غيّر محققه اسمه فسماه: أسرار التكرار، دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا، طبعة دار الاعتصام، طبعة ثانية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص١٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها بلفظ: «قالت: لما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري»، حديث رقم ٢٤٤٣، ٤/ ١٨٩٣.

والذي نراه هنا أن ما قاله قوم صالح عليه السلام إنما قصد به هذا المعنى الأخير، وإن ما قاله قوم شعيب عليه السلام إنما قصد به المعنى الأول، وحجة ذلك[1]:

إن كلمة مسحر: حينما تفسر بصاحب المعدة والرئة، الذي يأكل ويشرب، فإنها تكون مساوية للبشرية، أما إذا فسرت بالمسحور، فإنها لن تكون كذلك، بل كل منهما فيها معنى غير الذي في الأخرى. من هنا قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾. ونحن نعلم أن الجملة الثانية -كما يقرر علماء البلاغة- حينما تكون وصفاً أو بدلاً أو تأكيداً للجملة الأولى، فإنه لا يجوز أن يوسط بينهما حرف العطف، وهذا ما نراه هنا.

أما إذا كانت الجملة الثانية تفيد معنى جديداً فلا بد من حرف العطف، لأن العطف يقتضي التغاير، وهذا ما وجدناه فيما قاله قوم شعيب. هذا من حيث البيان.

أما من حيث التاريخ:

فإننا ونحن نقرأ كتاب الله تعالى يحدثنا عما كان يدور بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم، نجد أن التهمة بفرية السحر، لم تكن معروفة عند الأنبياء الأُوَل، وإنما كانت متأخرة، وكأن قضية السحر لم تكن مشتهرة عند القبائل الأولى: عاد وثمود، وكل الذي يجيبون به أنبياءهم متذرعين به أنهم بشر يأكلون ويشربون، وأنهم اتبعهم الأرذلون.

بعد هذا نلمح نوعي الإعجاز في الآيتين -أعني البياني والتاريخي-[2] كما قرر من قبل، والله أعلم. ونسأله أن يلهمنا الصواب، وأن يفتح علينا في فهم كتابه.

---

(١) وليس في ذلك محظور أن تكون اللفظة الواحدة لها أكثر من معنى، وها هو أحد علماء اللغة وهو المبرد (ت٢٨٥-٨٩٨م) يكتب كتاباً في هذا، وهو: «ما ائتلف لفظه واختلف معناه في كتاب الله».

(٢) فكلمة (مسحرين) التي قيلت لصالح تعني أنه يأكل ويشرب، وهذه هي البشرية بعينها، فليس هناك مكان للواو، أما ما قاله قوم شعيب عليه السلام، فهو من السحر، وهو زائد عن البشرية، لذا جاءت الواو.

٥- تحدث القرآن الكريم عما خص به أهل الجنة، وعما أنعم به على الناس في الدنيا، ففي سورة المؤمنون يمتن على الناس بقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون:١٩]، ونقرأ في سورة الزخرف ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف:٧٣]. فلِمَ جاءت هذه الواو في الآية الأولى حديثاً عن نعم الله على الناس في هذه الحياة، وحُذفت عندما كان الحديث عن الجنة وأهلها؟

إن أدنى تأمل يطلعنا ونحن نتدبر الآيتين الكريمتين على مواطن الإعجاز ودقائق البيان وسر التعبير وروعة التقدير، إن جنات أهل الدنيا ليست كلها معدة للأكل، فهناك أغراض كثيرة، لعل في مقدمتها التجارة، ومنها التصدق والإهداء.

أما فاكهة أهل الجنة فليست كذلك، فإن الهدف الرئيس والغرض الأساسي منها هو الأكل وحده، وأظنكم بدأتم تدركون سر وجود الواو في الأولى، وحذفها في الثانية؟

إن الواو حرف عطف -كما تعلمون- ولا بد لها من معطوف ومعطوف عليه، من أجل ذلك كانت هذه الواو الدالة على أشياء معطوف بعضها على بعض، فكأنه قيل: أنشأنا لكم جنات، لتتجروا وتدخروا، وتتصدقوا، وتهدوا، ومنها تأكلون كذلك، كان لا بد من هذه الواو -إذن- في الحديث عن جنات الدنيا، لكننا لا نجد لها ضرورة في الآية الثانية، إذ وجودها يكون زيادة يجل النظم الكريم عنها، فإن أهل جنة الآخرة ليس لهم إلا الأكل.

ومن هنا جاءت هذه الواو ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وهي تحكي لنا الفروق الشاسعة بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، فهي بحق مظهر إعجاز، وعلامة إيجاز.

٦- وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى:

الأولى: في سورة الحجر: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ ﴾ [الحجر:٤].

والثانية: في سورة الشعراء وهي قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ﴾ [الشعراء:٢٠٨].

فقد ذهب المفسرون مذاهب شتى، واحتدم بينهم ما يكون بين العلماء، فذهب الزمخشري، وتبعه من اقتفوا أثره في مدرسته البيانية كالبيضاوي، إلى أن قوله تعالى: ﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ ﴾ صفة القرية، ووسطت الواو بين الصفة والموصوف. وتعقبه أبو حيان، -وهي عادته دائماً- وليس من غرضنا هنا أن نخوض معهم هذا اللجج، أو أن ننصر بعضاً على بعض فيما أقاموه من حجج، فذلك لا يتعلق لنا به نهج، وإنما الذي نقصد إليه أن نأتي إلى الآية من أقرب أبوابها علَّنا نستطيع أن نمسها برقة كي نحظى بما تشير إليه من روعة ودقة، فالكتاب المعلوم: هو ما قدره الله لها من أجل، فالواو هنا جاءت في مكانها مزدانة غير قلقة ولا نابية ولا مقحمة ولا زائدة، وسامح الله الشهاب الآلوسي الذي استدل بقراءة ابن أبي عبلة «إلا لها كتاب معلوم» بحذف الواو، على أن الواو يمكن أن تكون زائدة، وما هي والله كذلك. فما أجمل هذه الواو في مكانها، فهي واو الحال(١).

أما الآية الثانية: فقد جاءت بغير واو، ذلك لأن وجود المنذرين مما جرت به سنّة الله تعالى، فالجملة في موضع الصفة، ولعل هذا ما لمحه الشيخ زاده رحمه الله في حاشيته على البيضاوي من أن ما في الآية الأولى أمر عقلي، وأما الثاني فهو أمر عادي، فالكتاب المعلوم لا شك قبل الإهلاك؛ لأنه في علم الله الأزلي، وأما الإنذار فهو

(١) مجيء الحال من النكرة جائز عند بعض النحاة إذا كان لذلك سبب، وليست قراءة ابن أبي عبلة متواترة حتى يستشهد بها على قضية خطيرة مثل هذه.

مقدمة مصاحبة لهذا الإهلاك، ملازمة له ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥].

٧- وقد نجد هذه الواو في عطف بعض المفردات على بعض، وقد لا نجدها فإذا كانت الأوصاف جارية بعضها على بعض، جاءت جميعاً على نسق واحد بدون واو، أما إذا كان بينها شيء من التضاد الحقيقي، أو من حيث اللفظ فقط، نجد أن هذه الواو أمر لا بد منه، قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]، ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم:٥].

فلقد رأينا كيف جاءت هذه الواو فيما فيه تضاد حقيقي، مثل الوصفين الأخيرين ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾، أو ظاهري فقط مثل ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ و﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ﴾ وخلت منها الأوصاف الأخرى مثل: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾، ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ وصدق الله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨].

أما قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]. فلقد جاءتا خاليتين من الواو لأن الوصفين في كل آية لا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر، فمن كان شديداً على الكفار لا بد أن يكون رحيماً على المؤمنين، ومن كان ذليلاً على المؤمنين لا بد أن يكون عزيزاً على الكافرين.

٨- وهذه لطيفة من لطائف أسرار التنزيل، نلمحها في الحرف، في وجوده، أو عدمه.

نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال:٤٩]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب:١٢]. فقد ذكرت الواو هنا (وإذ)، ولم تذكر في الآية السابقة (إذ). وإذا أردنا أن نقف على سر هذا الحرف وجوداً وعدماً، فلنتدبر السياق في كل من الموضوعين.

في سورة الأنفال يهيب القرآن بالمؤمنين ويرشدهم ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال:٤٧-٤٩]. الآية تتحدث عن تزيين الشيطان للكافرين أعمالهم وجاء بعدها الحديث عن المنافقين، دون أن يوسط بينهما حرف العطف، ذلك لأن تزيين الشيطان وقول المنافقين كانا في وقت واحد، وهذا معنى قولهم: إن قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ بدل من قوله: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ ﴾ وكأن ربنا يقول: وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم في الوقت الذي قال فيه المنافقون كذا وكذا.

ثم إن قول المنافقين ليس إلا من تزيين الشيطان، وهذا لا ينافي أن المزين لهم هم كفار مكة، ولو جاءت الواو هنا لتغير هذا المعنى الذي يقصد إليه القرآن، وهو أن قوى البغي جميعها تألبت على المؤمنين في وقت واحد، ولكنهم إن توكلوا على الله حق التوكل فإن الله عزيز حكيم، ولن يضرهم ذلك شيئاً.

أما آية الأحزاب التي جاءت فيها الواو، فلنتدبر ما جاء قبلها من آيات لندرك الفرق بين السياقين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ

﴿ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [الأحزاب:٩-١٣].

لقد ذكرت (إذ) هنا خمس مرات، الأولين منهما بدون حرف عطف، ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾، ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾، والثلاثة وُسِّطَ بينها حرف العطف، وعدم ذكره في الأولين ظاهر، لأن النعمة في هذا المجيء الذي دفعه الله عن المؤمنين، والمجيء الثاني بدل من المجيء الأول، فلا يجوز أن يوسط بينهما حرف عطف فيقال: (وإذ جاءوكم من فوقكم).

أما الثلاثة الباقية: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾، ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ فكل واحدة من هذه تعطي معنىً جديداً، فكانت حرية بأن تكون قضية مستقلة يذكر الله بها المؤمنين، فزيغ الأبصار يختلف عن مجيء الجنود لأنه خاص بالمؤمنين، وكذلك قول المنافقين يختلف عن سابقيه، وهكذا لكل من هذه الأفعال فاعل خاص به، المجيء أسند للكافرين، وزيع الأبصار خاص بالمؤمنين والقول أسند للمنافقين، وهذا القول اختلف في موضعيه، فالقول الأول أسند للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، والثاني أسند لطائفة منهم، وهكذا كان وجود هذه الواو أمراً لا بد منه.

٩- وهاتان آيتان في كتاب الله تعالى تتحدثان عن البحر، ولكن الأولى تحدثت عنه في مجال التسخير، وفي سياق نِعَم الله تبارك وتعالى على العالمين، فبعد الحديث عن إنزال الماء من السماء، وإنبات الزرع والشجر، وبعد الحديث عن تسخير الشمس والقمر، وما في الأرض مختلفاً ألوانه [الآيات:١٠-١٣ من سورة النحل]، بعد هذا كله، نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل:١٤].

أما الآية الثانية: فلقد كان حديثها عن البحر، ولكن في سياق آخر، فقد تحدثت الآيات في سورة فاطر عن الموازنة بين الذين يعملون الصالحات والذين يمكرون السيئات [الآيات:٧-١٠]، كما تحدثت كذلك عن الموازنة بين الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور، والأحياء والأموات [الآيات:١٩-٢٢].

في هذا السياق نقرأ قول الله تعالى حديثاً عن البحر: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر:١٢].

فالحديث عن البحر هنا إذن كان في سياق المثل، موازنة بين العذب الفرات والملح الأجاج، لذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ [فاطر:١٩-٢٢].[1]

---

(١) فالواو في آية النحل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ حرف عطف، أما الآية الثانية، أعني آية فاطر، فقد خلت من الواو ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾، فقد أكرم الله البشرية بهذين البحرين، اللذين نرى الفلك يجري في كل منهما. ومن كل واحد منهما تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية وهي اللؤلؤ والمرجان، وترى الفلك في كل مواخر، لتبتغوا من فضل الله، واللام للتعليل، أي فعل ما فعل لتبتغوا ولتشكروا.

يقول صاحب درة التنزيل: «إن آية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم، وقد اجتمع في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ الآية، مجموع الأمرين من الاعتبار وإبداء النعمة بتسخير البحر وأكل اللحم الطري منه وإخراج الحلية للباس، ومخر السفن إياه للمنافع والاكتساب. فهذه نعم جليلة وفي كل منها مجال للاعتبار ومتسع للتفكير والنظر، فلما كان من مقصود هذه الآية تعداد النعم، ناسب ذلك عطف بعضها على بعض، لأنه مظنة إطناب وتفصيل، فقيل: ولتبتغوا، والمجرور متعلق بفعل التسخير واستخراج الحلية وجري السفن. =

إذا عرفنا هذا كله أدركنا سر تغاير الأسلوب في الآيتين.

١٠- زمر الكافرين والمؤمنين: نقرأ في التنزيل قول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١].

ونقرأ في شأن المؤمنين: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر:٧٣].

فقد ذكرت الواو في جانب المتقين وحذفت في جانب الكافرين، ذلك لأن الكافرين يجيئون جهنم فيجدونها مغلقة الأبواب فينتظرون، وما أسوأ ما ينتظرون!

أما المؤمنون فيجيئون إلى الجنة وقد فتحت أبوابها، وهذا ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾ [ص:٥٠].

فالواو هنا واو الحال، جاءت تؤدي رسالة وتبين أمراً لا بد من بيانه.

١١- حرف التوكيد في القرآن الكريم: الناظر في الآيات الكريمة يجد أن بعض هذه الآيات تارة يجيء مؤكداً ببعض الحروف، وتارة خالياً من هذا التأكيد، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ۝١٦٥﴾ [الأنعام:١٦٥].

= أما آية سورة الملائكة، فبنيت على إبداء القدرة وجليل الحكمة... فهذا مقصود به الاعتبار والتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك، إبداء النعم وجليل الإحسان... ثم تجرد باقي الكلام للتعريف بالأنعام والامتنان. فقال: ﴿وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فتعلق المجرور الذي هو لتبتغوا باسم الفاعل المجموع، أي سخره للابتغاء من فضله، ألا ترى أن مخر السفن كأنه ليس بشيء إلا الابتغاء»، ٢/ ٢٩٦.

ونقرأ في سياق الحديث عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف:١٦٧].

فانظر كيف أكدت المغفرة والرحمة باللام في الآيتين ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لكننا نجد أن آية الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ خالية من اللام. أما آية الأعراف فليست كذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾.

والمتدبر للسياقين يدرك سر ذلك.

آية الأعراف: كانت حديثاً عن بني إسرائيل وما أنعم الله به عليهم، وكيف بدلوا هذه النعم وكفروها، وكيف حاربوا الله وأنبياءه، وعصوا رسله.

جاءت هذه اللام إذن لتؤكد للمؤمنين ما ينتظر أولئك اليهود من عاقبة سيئة ولا ننسى أن الآية مكية، والمؤمنون المستضعفون في مكة في أمسّ الحاجة إلى ما يطمئن قلوبهم، وهم يلاقون العنت والشدة والمشقة.

أما آية الأنعام: فلم تكن في سياق خاص لكن سياقها كان عاماً، فهي ليست بحاجة إلى هذا التأكيد.

١٢- نقرأ في سورة الواقعة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة:٦٣]، ثم نقرأ قول الله تعالى عقب الحديث عن (الماء) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠]. ونحن نعلم أن قدرة الناس فيما يظنون على التحكم بالزرع أكبر من قدرتهم على التحكم في أمور الماء، لذلك جاءت هذه اللام المؤكدة، فيما يظن الإنسان أن له قدرة عليه، وهو الزرع، ولم يكن لها حاجة فيما يعترف بعجزه عنه، وهو الماء. وتلكم هي دقة القرآن الكريم.

١٣- نون التوكيد في القرآن الكريم: حتى (نون) التوكيد نفسها تذكر في كتاب الله تارة، وتحذف أخرى.

لنقرأ هاتين الآيتين في سياق الحديث عن تحويل القبلة، وما لقيه المؤمنون من السفهاء يهوداً، ومشركين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٤٧-١٤٨].

وفي سياق الحديث عن خلق عيسى عليه السلام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آل عمران:٦٠].

ارجع إلى نفسك باحثاً في سر وجود (النون) في الآية الأولى، دون الثانية وستجد -والله أعلم- الإيجاز والإعجاز.

فآية البقرة جاءت في سياق خاص بالمؤمنين فتألب أعداؤهم عليهم، كل يريد أن ينال منهم، اليهود من جهة، ومشركو العرب من جهة، كان لا بد إذن من هذه النون.

أما آية آل عمران، فليس الأمر فيها كذلك. السياق كله عن بني إسرائيل وليس ذا صلة مباشرة بهذه الأمة.

ومثل هذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، ونرجو أن يكون ما ذكرناه كافياً ليقاس عليه.

المبحث الثاني
استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة

تحدثنا عن وجود الحرف وحذفه، وقد نجد مظهراً آخر من مظاهر الإعجاز في الحرف القرآني، وأعني به استعمال أحرف متعددة في مواضع متشابهة متقاربة. من ذلك:

١- ما جاء في سورتي (الحج) و(المؤمنون) حديثاً عن خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [الحج:٥] وإلى جانب هذه الآية الكريمة نتلو قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

فنحن نرى أن هناك أطواراً لم يستعمل القرآن فيها الحرف إلا حرف التراخي (ثم) وهذه الأطوار، طور التحول من سلالة الطين إلى نطفة، وطور التحول من النطفة إلى العلقة، وأمر (ثم) ظاهر في هذين الطورين؛ لأنهما مختلفان من حيث الطبيعة والخاصية والعنصر، فشتان ما بين التراب (السلالة من طين)، وبين النطفة (الحيوان).

أما النطفة والعلقة، فربما يظن أنهما شيء واحد أو قريب بعضهما من بعض، ولكن بينهما بَوْناً وفرقاً، إذ النطفة من خصائص أحد المتزاوجين، وهو الذكر، وأما العلقة فلن تكون كذلك إلا إذا اشتركا فيها جميعاً.

أما التحول من علقة إلى مضغة وما بعده، فتارة استعمل فيه (ثم) كآية الحج، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ... ﴾ إلخ، وتارة استعملت فيه (الفاء) آية المؤمنون

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ...﴾. وهذا أمر يدعو بحق إلى التساؤل. فلماذا هذا التغاير.

أما استعمال (الفاء) فلأن الطورين ليس بينهما فرق، حيث العنصر، والخصائص، وأما استعمال (ثم) في آية الحج فلأنها جاءت في سياق إثبات البعث، الذي هو أدل على القدرة الإلهية، فالمقام مقام تفصيل.

وأنقل هنا كلمة قصيرة لصاحب كتاب «الإسلام والطب» الدكتور حامد الغوابي: وقد يسأل سائل: لماذا قال الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ثم في هذه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ فنجيب بأن الله تعالى هنا يبين أدوار النشأة بتسلسل متبوع من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ليبين الأطوار التي مرّ بها الإنسان، فالنطفة تمر بأطوار، والعلقة لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تنقسم في أدوار، أما في الآية السابقة فقد أرانا الله نصيب كل دور، ووقت كل طور، فجاء بالعطف بالفاء ليبين قصر الدورة وبالعطف بـ (ثم) ليبين التعقيب مع التراخي، أي طول هذا الطور[1].

٢- وفي سورة البقرة يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة:١٣٦]، وفي سورة آل عمران يقول سبحانه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ [آل عمران:٨٤]. فنحن نرى أنه عبَّر بـ (إلى) حينما كان الخطاب للأمة؛ لأن القرآن إنما أنزل إليهم، وتجيء (على) حينما كان الخطاب للرسول ﷺ ، لأن القرآن إنما أنزل عليه وحده.

(١) الدكتور حامد الغوابي، بين الطب والإسلام، طبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٧، ص٢٦.

٣- ومن هذا القبيل ما نقرؤه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾ [النساء:٥] وبعدها بآيتين نقرأ قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء:٨].

فلقد عبّر بحرف الجر (في) في الآية الأولى لغرض رائع، وهدف بديع، ذلك أن إعطاء أولئك من المال لا ينبغي أن يكون من أصله وعينه، وإنما من ربحه وثمرته فهي دعوة لاستثمار المال واستغلاله فيما يحل، هذه الدعوة العريضة -دعوة استثمار المال- حمل لواءها هذا الحرف وحده، ومن هنا قلت: إن لكل حرف قرآني رسالة يؤديها، وهذا لا يمكن أن يتصور في الآية الأخرى -آية تقسيم التركة- ليأخذ كل نصيبه الذي يستحقه[1].

٤- ونقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] ولم يقل: (علينا) فوضع اللام هنا مقصود، متفق مع نفسية المسلمين الذين يعدون كل ما مِنَ الله تبارك وتعالى خير ونعمة.

٥- وحينما نقرأ سورة الفتح نجد ربنا تبارك وتعالى يمتنّ على نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بمنن كثيرة، منها إنزال السكينة، وهذه المنّة تذكر مرات ثلاث:

إحداها: تعدي الإنزال بـ (في).

واثنتان: بـ (على).

---

(١) محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد، مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ج١، ص٢٤٧.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤]، ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:١٨].

والآية الثالثة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٦].

والمتتبع لأحداث الحديبية يدرك ما أصاب المسلمين من هزات، وما أقلقهم من أحداث، كان أولها، حينما صدهم المشركون عن البيت، ثم تلا ذلك ما أشيع عن قتل عثمان رضي الله عنه وما أعقب ذلك من بيعة الرضوان، ولعل أشدها ما كان عند إبرام الصلح فلقد كان المسلمون بحق بحاجة ماسة إلى هذه السكينة في هذه المواطن الثلاثة، لذا أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين حينما صدوا عن البيت بسبب حمية الجاهلية، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٦]. فالمؤمنون يذكرون مع الرسول ﷺ لانزعاجهم جميعاً من هذا الصدّ، لكنهم خصوا بهذه «السكينة» عند بيعة الرضوان كرامة من الله، في هذين الموضعين كما رأينا في الآية الكريمة: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ عدّى الإنزال بـ (على)، أما الموضع الأخير، ونعني به عند إبرام الصلح، وقد وجد المسلمون في أنفسهم من القلق والألم والاضطراب، فلقد عدّى الإنزال بـ (في)، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾، ولقد كان المسلمون بحق بحاجة إلى السكينة تتغلغل في قلوبهم في هذا الموطن عند إبرام الصلح.

ونحن نعلم الفرق بين الحرفين، فإن (في) يدل على الظرفية فهو أكثر تغلغلاً في القلوب، ولذا عبّر القرآن عنه وهو يحكي لنا حنق فرعون وحدّته على السحرة ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١].

والمتتبع لآيات سورة الفتح أظنه يوافقني على هذا الاستنتاج، من وضع كل حرف في الموضع الذي يناسبه حيث جاء حرف (في) في إحدى الآيات الثلاث، وهو أشد هذه المواضع على المسلمين، وهو إبرام الصلح.

وإذا تابعنا مسيرتنا ونحن نتحدث عن رسالة الحرف فسنجد أسراراً عظيمة ينبئ عنها هذا الحرف.

ولنقرأ قوله سبحانه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ [المعارج:١]، ونحن نعلم أن السؤال يتعدى بـ (عن)، قال تعالى: ﴿ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [النازعات:٤٢]، فلماذا عدل عن هذا الحرف، ولم يقل: «سأل سائل عن عذاب واقع».

ومعرفة السياق تطلعنا على ذلك السر، وتلك الروعة، أن السؤال عن الساعة كان عن زمانها، وهكذا السؤال عن الأهلة كان عن سبب صغرها وكبرها.

أما السؤال في الآية التي معنا فلم يكن سؤالاً عن نوع العذاب، ولا عن زمانه وإنما كان طلباً لهذا العذاب، ودعاءً لإتيانه، وسبب النزول يؤيد هذا.

فالسائل هو النضر بن الحارث، كما روى النسائي وجماعة، وصححه الحاكم عن ابن عباس، وروى ذلك عن ابن جريج والسدي والجمهور حيث قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال:٣٢][1].

ولنقرأ قوله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ [يوسف:١٠٠].

---

(١) روح المعاني للألوسي، ج٢٩، ص٥٥.

ونحن نعلم أن الإحسان يتعدَّى أكثر ما يتعدى بـ (إلى) قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]، وقد قالوا: إنه عدّى بـ (الباء) هنا لتضمنه معنى اللطف.

ويظهر لي وجه آخر، وهو أن التعدية بـ (إلى) إنما تشير إلى الغاية، أما التعدية بـ (الباء) فإنها تفيد معنى التدرج بالإحسان ليستغرق الأوقات جميعاً وأفعال الخير جميعاً، ولذا جاء في التنزيل ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة:٨٣] ولم يقل: «إلى الوالدين»، ونحن نعلم أن الإحسان بالوالدين يختلف عن أي إحسان آخر، وهكذا كان الإحسان بيوسف عليه السلام بالمنن الكثيرة واحدة تلو الأخرى.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال كذلك: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن:٢٦]، وفي آية ثالثة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧] فحينما كان الحديث عن عباد الرحمن، وعندما كان الحديث عن الفناء، استعمل الحرف (على) لأن المقام في الآيتين ينافي الاستقرار، فعباد الرحمن لم يتخذوا من الأرض مقراً، لأنهم عرفوها ممراً، ومع أنهم الأعلون إلا أنهم يمشون هوناً غير مستعلين ولا متفاخرين.

وحينما كان السياق نهياً عما لا يليق ولا ينبغي، ذكر الحرف (في)، ودليل ذلك ما جاء قبل هذه الآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣١-٣٦]، كما يدل لذلك ما جاء في خاتمة الآية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ فكأن

هذا الماشي أراد أن يجعل من الأرض مستقراً له، يغوص في باطنها، ويشمخ على ظاهرها.

وشبيه بهذا قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١]. فانظر كيف جيء بـ (الباء) في قوله ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ وجيء بـ (اللام) في قوله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن كلاً من الإيمانين يختلف عن الآخر، فهو تصديق بالله تبارك وتعالى، واطمئنان للمؤمنين، وركون إليهم.

وأخيراً يجدر بنا أن نقف عند هاتين الآيتين من كتاب الله، ويعلم الله أنني قد وقفت وأطلت الوقفة وهرعت إلى كتب التفسير قديمها وحديثها، وما كتب عليها من تعليقات وشروح وحواشٍ، فلم أحظ بشيء، وكأنهم -رحمهم الله تعالى- يعدّونها قضية بدهية، ولعلك بشوق لمعرفة هاتين الآيتين، ولن أطيل عليك، فإحداهما: قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ [البقرة:٢٣٤]. والآية الثانية: قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ ﴾ [البقرة:٢٤٠].

إذا نظرنا في الآيتين الكريمتين، وجدنا أن بينهما فروقاً في التعبير من أوجه:

أولاً: الآية الأولى عبّر فيها بـ (إذا) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾، والثانية، عبّر فيها بـ (إن) ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾.

ثانياً: أن المعروف جاء معرّفاً في الآية الأولى، منكراً في الثانية.

ثالثاً: أن الآية الأولى ذكرت فيها (الباء) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، والثانية: ذكرت فيها (من) ﴿مِن مَّعْرُوفٍ ﴾.

والوجهان الأولان تسهل الإجابة عنهما، لأن الآية الأولى[1] تلزم المرأة ببلوغ الأجل المحدد لها بأربعة أشهر وعشرة أيام، لذلك جاء التعبير بـ (إذا)، أما الآية الثانية: فلم تكن تلزم المرأة أن تبقى حولاً في بيتها، إلا أنها إن خرجت فلا نفقة لها، لذلك كان التعبير بـ (إن).

أما الوجه الثاني: وهو تعريف المعروف، وتنكيره، فإنه نكّر في الآية الثانية، لأنها كانت الأولى نزولاً، وعرّف في الأولى لأنها كانت متأخرة في النزول فكأنه معروف معهود للمخاطبين، وقد أشار الشيخ الجمل لهذا الوجه في حاشيته على الجلالين[2].

أما الوجه الثالث: وهو ما يهمنا لأننا بصدد الحديث عنه، وهو مجيء (الباء) في الأولى، و(من) في الثانية، فهو ما وقفني كثيراً.

والسبب الذي يلوح لي -والله أعلم بمراده- للتفرقة بين الحرفين، واختصاص كل موضع بحرف منهما:

إن الآية الأولى عامة في ما تبيحه للمرأة، ولا كذلك الثانية، بيان ذلك:

أن الآية الأولى تبيح للمرأة إذا بلغت الأجل الذي حدد لها، وهو ما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فإنها يمكنها أن تفعل كل شيء حرم عليها بسبب العدة سواء كان التزين أم الخروج أم الزواج.

أما الآية الثانية: وهي الأولى نزولاً فإنها تبيح للمرأة الخروج قبل تمام الحول وهذا الخروج يبيح لها بعض ما كان محرماً بسبب العدة، وهذا معنى قوله سبحانه:

---

(١) الآية الأولى ناسخة للثانية، وإن كانت متقدمة عليها في ترتيب المصحف، وهذا دليل على أن الترتيب توقيفي.

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي، الشهير بالجمل، ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ج١، ص١٩٦.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ إلا أنه لا يبيح لها الزواج إلا بعد تمام الحول، الآية التي ذكرت فيها (الباء) إذن تبيح للمرأة كل شيء محرم بسبب العدة، والزواج منه بالطبع.

الآية التي جاءت فيها كلمة (من) لا تبيح لها الزواج.

لعلنا بعد هذا ندرك سر استعمال كل حرف في الموضع الذي استعمل فيه.

ولله المنّة والفضل. هذا ما يبدو لي في فهم هذين الحرفين في كتاب الله تعالى.

وهكذا كل حرف في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ﴾ [فصلت:٤١-٤٢]، ولنكتف بما ذكرناه وليقس ما لم يقل على ما قيل، وحسبنا الله ونِعْم الوكيل.

ومن أسرار الحرف في كتاب الله تعالى مجيء اللام تارة، وإلى تارة أخرى. نقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢]، وفي السورة نفسها نقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ﴾ [الزمر:٤١]. وقد ذهب الكثيرون إلى أن الحرفين بمعنى واحد، ولكننا إذا نظرنا إلى نظم الآية وسياقها، وجدنا الأمر على غير ما ذكروه، بيان ذلك:

أن الآية الأولى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر عقبها ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ فهو أمر له ﷺ بالعبادة، أما الآية الثانية التي ذُكِرَ فيها (على) فقد ذكر فيها إرشاد الناس وتعليمهم، وهكذا تجد أن كل حرف جاء في السياق الذي يقتضيه.

ومن هذا القبيل، هاتان الآيتان الكريمتان ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل:٣٣]. وقد ذهب كثيرون إلى أن كلا الحرفين ينوب عن الآخر، ولكننا نلمح من السياق والمعنى أن

لكل من الآيتين نظمها الخاص بها. فالآية الأولى تثبت أن الأمر ثابت لله وحده، لا يشاركه فيه غيره. أما الآية الثانية فإذا نظرنا في سياقها، وجدنا أن لها معنى آخر؛ فملكة سبأ حينما جمعت الملأ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، فهي لا تشك في أن الأمر لها هي، وهم لا يشكون كذلك، ولذا قالوا لها مجيبين: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل:٣٣]، فهم لا يريدون أن يبينوا أن الأمر ثابت لها، فهذا لا تجهله هي، ولا ينازعون هم فيه كذلك، وإنما يريدون أن يبينوا -والله أعلم بمراده- أننا مهما أبدينا من آراء، وأيّاً كانت المشورة التي نشير بها، فإن نهاية ذلك كله إنما هو راجع إليك أنتِ، فأداؤنا جميعاً، وأقوالنا ومشوراتنا، ليست شيئاً مذكوراً، فأنتِ صاحبة القرار الأخير.

وهكذا ندرك أن كلاً من الحرفين أعطى ما لم يعطه الآخر.

ومن هذا ما نجده بين اللام في مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل:٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال:١١]. فالآية الأولى التي ذكر فيه اللام وما يشبهها، جاءت تبين أن الله أنزل الماء من أجلهم، لتحيا به الأرض، وليشربوا هم وأنعامهم. أما الآية الثانية فجاءت حديثاً للمؤمنين في بدر، وإنزال الماء في هذا الوقت لم يكن لأجل إحياء الأرض وإنباتها، وإنما كان كما نطقت الآيات، وكما ذكرت الروايات من أجل تطهيرهم، ولكي تكون الأرض صلبة تحت أرجلهم، قل لي بربك أي دقة وأي روعة، تلك التي تلمسها وتحس بها، وأنت تتلو آيات الكتاب الكريم.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف:١٥]، ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

وهكذا تجد الآيات التي جاء فيها الوحي جاءت على هذا النمط، ذكر فيها حرف الجر (إلى)، ولكن آية واحدة في كتاب الله وجدناها تخرج عن هذا النمط، ويخالف فيها ذلكم السياق، حيث لا يتعدى الفعل فيها بـ (إلى)، وإنما يذكر حرف آخر وهو اللام، وهذه الآية هي قوله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة:١-٥].

وما نظن أن اللام و(إلى) يتعاقبان -كما قيل من قبل- ولكننا إذا أنعمنا النظر في الآيات، وجدنا هذه الآية دون غيرها، كان الوحي فيها للجماد، وهي الأرض، أما غيرها من الآيات فكان الوحي إما للأنبياء عليهم السلام، وإما لغيرهم من العقلاء، وإما لغيرهم من ذوي الحياة كالنحل مثلاً. وهكذا نجد أن تغير الحرف إنما جاء يشير إلى أمر وقضية، حري بها أن تتدبر.

الوحي للجماد عُدِّي باللام، ومنه قول الراجز: وحى لها القرار فاستقرت، وذلك أن الأرض سخرت دون أن يكون لها جهد في هذا الوحي، أما غير الجماد فليس كذلك؛ لأن له جهداً فيما أوحي له، سواء كان هذا الجهد فكراً أو تدبيراً، كما هو من العقلاء، أو كان تسخيراً وإلهاماً كما هو لغير العقلاء، كما تفعل النحل.

وإذا عرفت هذا كله استطعت أن تدرك أن قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان:٢٩] يختلف عن قوله سبحانه من حيث المعنى ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢]، وما على الباحثين ذوي الاختصاص إلا أن يقفوا مع الآيات، فيما ترشد إليه من أسرار، وفيما تفيضه من خير، وفيما تفضي به من وشوشات للعلماء بديعة شيقة، لا ليكتموها في أنفسهم، وإنما لينشروا عبقها بين العالمين.

الفصل السادس

الجملة القرآنية

ومن أجل أن تتذوق حلاوة الإعجاز، وتحس بها إحساساً لا مجال للشك فيه، فإني سأختار لك جملاً تغيرت فيها صورة النظم تغيراً يقتضيه المقام، ويحتمه السياق، ويتطلبه المعنى.

فمن ذلك التأكيد. ولتعلم أنه إنما يؤتى به حينما يكون له ضرورة، وأدوات التأكيد كثيرة ذكرت في كتب البلاغة، من هذه الأدوات: إنّ، واللام، وضمير الفصل، وهذا كله في الأسماء، أما تأكيد الأفعال فيكون بنون التوكيد، وقد، وغير ذلك من الأدوات التي ذكروها في كتبهم، والتي يدلّ عليها الاستقراء. وسنحاول أن نقفك مع بعض النصوص من كتاب الله تعالى؛ لتدرك بنفسك قضية الإعجاز بيِّنة ظاهرة.

ومثل التأكيد الحذف والذكر؛ ذلك أن القرآن لكريم نجد فيه كلمات وجملاً ذكرت تارة، ولكنها حذفت في موضع آخر، وكان لهذا الذكر أو ذلك الحذف، أسبابه ودواعيه، وموجباته ومقتضياته، ولا تظنن أن هذه الأسباب والدواعي جمالية تخص اللفظ، ويحسن بها الإيقاع، ويكون للجرس فيها حلاوته، أقول: لا تظنن أن هذه الأسباب لفظية تخص الإيقاع وحده، إنما هي مع ذلك أسباب دعا إليها المعنى. هي موضوعية -إذن- ولذا فنحن حينما نتحدث عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فإننا لا نقف عند جمال الصورة، وتأثير الجرس، فتلك قضية مع ما لها من أثر إلا أنها ليست الأساس الذي نرتكز إليه في تقرير الإعجاز، فالقرآن كتاب الحياة والأحياء ما دامت وما داموا على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، وأصقاعها

وأرجائها، والإحساس بالصورة قد يختلف من قوم إلى قوم، ألا ترى إلى ما ذكره ابن سنان في بيت المتنبي:

كأنَّ العيسَ كانتْ فوقَ جَفْنِي مُناخاتٍ فلما ثُرْنَ سَالا

قال: وقد حُكِيَ أن بعض ملوك الروم، وأظنه نقفور، سأل عن شعر المتنبي، فأُنشِدَ له بيت المتنبي، وفسّر له معناه بالرومية، فلم يعجبه، وقال كلاماً معناه: ما أكذب هذا الرجل؛ كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان؟[1].

إنما الشأن في الإعجاز قضية النظم، ذلك الذي لا يتم المعنى إلا به، وإذا كانت قضية الصورة تخص بالجانب النفسي والعاطفي؛ فإن أمر النظم، يتعلق بالجانب الفكري والنفسي معاً، وإذا كانت قضية الصورة تختلف باختلاف الناس من حيث قوة التأثير وجودة التعبير؛ فإن أمر الفكر ليس كذلك؛ لذلك كان النظم فلك الإعجاز لأن الله لم يجعل كتابه لأمة واحدة وللسان واحد.

ومثل الحذف والذكر التقديم والتأخير، والفصل والوصل، وأسلوب القصر، والتعريف والتنكير، وكل ما تشمل عليه نظرية النظم، ولا تحسبن أني سأسلك بك هذا المسلك، فأحدثك عن هذه القواعد، فذلك شأن الدراسة البلاغية، وإنما المسلك الذي سأسلكه بك ولك إن شاء الله، أن أختار لك بعض الجمل القرآنية الكريمة مقارنة بما يشبهها، وذلك لتدرك بفكرك وتلمس بحسك، أن مثل هذا الإبداع لا يقدر عليه البشر، وسوف لا أقتصر لك على ما سجله القوم في كتبهم، بل أكثر ما أذكره لك ما فتح الله به لنا بكرمه وفضله.

---

(١) سر الفصاحة، ص٤٦.

المبحث الأول
التأكيد

١ - يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤].

هاتان آيتان من كتاب الله تعالى، ختمت الأولى بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ وختمت الثانية بقوله سبحانه: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾، وما أظن الفرق بين الجملتين خافياً عليك، ففي الجملة الأولى جاء التأكيد بضمير الفصل (هو)، وضمير الفصل هذا إنما يؤتى به للتأكيد ولفوائد بلاغية ذُكِرَت في كتب القوم، فإذا أردت أن تؤكد على أن الإسلام هو علاج الأمة من أمراضها جميعاً، فإنك تقول: «الإسلام هو الصلاح» فتأتي بهذه الكلمة «هو».

أما الفرق الثاني بين الجملتين فهو أن الجملة الأولى جاء فيها الخبر معرفاً ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾، وليست كذلك الجملة الثانية، وتعريف الخبر يفيد الاختصاص والحصر، ألا ترى أنك تتذوق الفرق بين قولك: «الله ناصر» وبين قولك: «الله هو الناصر»؛ لأنك في الجملة الأولى كل الذي أثبته بأن الله يكون منه النصر، إلا أنه لم يُفهم من هذا القول أن غير الله لا ينصر، أما الجملة الثانية فإنها لا تثبت أن الله ناصر فحسب بل تثبت أكثر من هذا وهو أن النصر من عند الله وحده، وأنه لا ناصر إلا هو تبارك وتعالى.

وبعد أن عرفت هذا، يمكنك أن تتساءل عن سر النظم في الآيتين الكريمتين، فإذا عرفت أن الجملة الأولى كان السياق الذي تحدثت عنه مخاطبة أولئك المسرفين

على أنفسهم، الخائفين، القانطين. وأن الجملة الثانية إنما جاءت حديثاً عن المؤمنين، الذين لم يكن منهم كبير خطأ ولا عظيم ذنب، ولا كثير معصية، رقص قلبك. واطمأنت نفسك أن هذا القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم قل لي بربك هل يمكن أن يكون هذا النظم لأمة دون أمة، أم أنه معنى يشترك فيه كل ذي فكر؛ لأنه ليس حديثاً عن جمال الصورة وحدها التي تحدث عنها علماء البيان.

٢- يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف:٢]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر:١] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان:٣]، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

قف مع هذه الآية الأخيرة وستجد أن نظمها يختلف عن الآيات السابقة، فهذه الآية الكريمة كثرت فيها التأكيدات، ولعلك تلحظ هذا، ففي الجملة الأولى ذكر ضمير الفصل (نحن) بعد (إن) واسمها، الذي هو ضمير المتكلم سبحانه، وفي الجملة الثانية منها ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ذكر مع (إن) واسمها لام التأكيد، ثم جيء بهذه الجملة الاسمية ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، وبالجملة فقد أكدت هذه الآية الكريمة بمؤكدات كثيرة، وكانت هناك عناية كبيرة بشأنها.

وحينما تنعم النظر في الآيات وفي الموضوعات القرآنية، تدرك سر ذلك، فهذه الآية الكريمة جاءت تتحدث عن شأن خطير من شؤون هذه الأمة، بل هو أعظم شؤونها، ذلكم الشأن هو تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ هذا الكتاب، فلم يكله إلى الناس ليحفظوه كما كان ذلك في الكتب السابقة، وفي هذا إقامة الحجة على الأمة، فالأمم إن بدلت وغيرت فذلك لتبدل كتبها، ولكن القرآن باقٍ لا يتغير، فأي عذر

للأمة التي تدّعي الإيمان به دون أن تعمل. الآية الأخيرة -إذن- لم تأت حديثاً عن إنزال القرآن فحسب كالآيات السابقة، وإنما جاءت تحمل في أثنائها قضية من أخطر، بل هي أخطر قضايا الأمة.

٣- يحدثنا القرآن الكريم عن أبينا إبراهيم عليه السلام، وهو يدعو قومه ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٧٥-٨٢].

إننا ونحن نتدبر هذه الآيات الكريمة، نلحظ أمراً لا بد أن نقف معه؛ هذا الأمر يظهر في وجود ضمير الفصل مقترناً ببعض الأفعال دون بعضها الآخر، فقد جاء هذا الضمير مقترناً بالأمور التالية: الهداية، الإطعام والإسقاء، الشفاء. أما الخلق، والإماتة والإحياء، والمغفرة، فجاءت خالية عن هذا الضمير، ولم يكن ذلك ناشئاً عن التفنن في العبارة، أو الاكتفاء بذكره في بعض المواضع دون بعضه الآخر؛ وإنما جاء ذلك لغرض وهدف؛ ذلك أن قضية الخلق، والإماتة والإحياء، والمغفرة، لا ينازع فيها قوم إبراهيم عليه السلام، فلا يستطيعون أن يدّعوها لأصنامهم التي يعبدونها ويعكفون عليها ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء:٧١] فلم تكن هذه القضايا بحاجة إلى التأكيد بهذا الضمير، أما الأمور الأخرى وهي الهداية، والشفاء، والإطعام والسقيا، فهي مما يدّعون أن لأصنامهم فيها شأناً، فهم يطلبون منها الهداية والتوفيق والشفاء من أمراضهم، وإذهاب الفقر عنهم، ولذلك وجدناها مقترنة بضمير الفصل، لأنها بحاجة إلى التأكيد، الذي يزيل شبهات النفس، ويجعل هذه الأمور جميعاً من شأن الله تبارك وتعالى وحده.

٤- يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم:٤٢-٥٠].

وإذا أنعمت النظر في الآيات الكريمة، وجدت أن الخلق والإهلاك جاءا خاليين من ضمير الفصل، وما ذلك إلا لأن أولئك لا ينازعون في قضية الخلق ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، كما أنهم لا ينازعون في قضية الإهلاك، فهي من الأمور المستقرة في أذهانهم، والتي يتناقلها أجيالهم بعضها عن بعض. أما الأمور التي جاءت مقترنة بهذا الضمير فلم تكن كذلك فالإضحاك والإبكاء أمرهما ظاهر، وكذلك الإماتة والإحياء ذلك أنهم كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤].

ولعلك تتساءل ما الفرق بين هذه الآية وبين قول إبراهيم عليه السلام، ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء:٨١]، حيث اقترنت هذه بضمير الفصل، ولم تقترن الأولى؟ وهو تساؤل في محله. والجواب عن ذلك -والله أعلم- أن ذاك ورد على لسان إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم عاين إحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٢٦٠] فأمر الإحياء والإماتة عنده عليه السلام بدهي مشاهد، أما الآية التي معنا فلقد جاءت بادئ ذي بدء تقريراً لأولئك القوم، فكانت بحاجة إلى هذا التأكيد، كذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم:٤٩]، والشِّعرى كوكب كانوا يعبدونه في الجاهلية، فهم بحاج إلى أن يبين لهم أن هذا المعبود إنما هو مربوب ومخلوق لله تبارك وتعالى.

٥- وفي كتاب الله تعالى آيتان تؤكدان قَصْرَ النصر وحصره على أنه من الله وحده لا دخل لأحد فيه. تقول إحدى الآيتين: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦].

وتقول الآية الأخرى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال:١٠]، ونحن نعرف أن آية الأنفال كانت أسبق نزولاً وأنها تتحدث عن بدر، وهي أول معرك يخوضها المسلمون مع عدوهم، وهم أحوج ما يكونون إلى ما يطمئن نفوسهم، ويثبت قلوبهم.

ولما كانت البلاغة ذات صلة عميقة بعلم النفس، بل كان الغرض منها مراعاة مقام المخاطَبين والقدرة على التأثير في نفوسهم، وجدنا آية الأنفال يأتي فيها ذلك التأكيد بـ (إنّ) وهو ما تخلو منه آية آل عمران، ولا عجب فهي كلمات الله ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

وأظن ذلك كافياً في هذا المقام، لأنه ليس غرضنا الجمع والاستقصاء، وإليك نمطاً آخر لا تقل فيه روعة الإعجاز عما سبق.

المبحث الثاني
الحذف والذكر

١- قال تعالى بخصوص الزوجين اللذين لا يستطيعان مواصلة الحياة الزوجية: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء:١٣٠]، وقال تعالى يخاطب المؤمنين ليحافظوا على شخصيتهم وعقائدهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة:٢٨].

وأظنك تتساءل كما تساءلت أنا من قبلك، لماذا ذكر في هذه الآية قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ ولم يذكر في الآية السابقة؟ مع أن كل شيء بمشيئته سبحانه؟ والذي يلوح لي -والله أعلم بما ينزل- أن الآية الأولى جاءت خطاباً لبعض الأفراد الذين تعسر عليهم مواصلة المسيرة مع أزواجهم، رجالاً كانوا أم نساءً، فأراد الله تبارك وتعالى أن يبين لهم سعة فضله وواسع رزقه، وعظيم تيسيره، أما الآية الثانية فجاءت خطاباً للأمة، والأمة لا بد أن تتعود التضحية، للمحافظة على عقائدها ومقدساتها مهما كلَّفها ذلك من ثمن، وقد يؤدي بها ذلك إلى أن تُحرَم بعض المكاسب، وتتحمل كثيراً من الأعباء، ولذا لم يذكر فعل المشيئة هنا، فانظر إلى الروعة العظيمة في كتاب الله، ولقد قلت لك: إن الإعجاز البياني ليس حديثاً عن جمال الصور وروعة التعبير فحسب؛ بل هو مع ذلك يشتمل على سمو التوجيه، فهو ينتظم شؤون الحياة كلها.

وهذه آية أخرى نستأنس بها لهذا الاستنتاج، ونستعين به على ما ذهبنا إليه، هي قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور:٣٢] فهذه الآية كما نرى لم تقيد

بالمشيئة، لأنها حديث عن شؤون بعض الأفراد والأُسَر؛ فهي شبيهة بالآية الأولى ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ إلا أن تلك الآية في شأن الزوجين، وهذه تأمر بتزويج الأيامى، والأيّم من لا زوج له ذكراً أو أنثى.

٢- نقرأ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤]، وإلى جانب هذه الآية الكريمة نقرأ في سورة الرعد: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد:٣] .

ونظرة متأنية للآيتين الكريمتين نجد في كلتيهما هذه الجملة الكريمة ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ ولكن آية الأعراف عقبت بقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾، ولم نجد هذه الجملة الكريمة في آية الرعد، وهذا يدعونا إلى التساؤل والبحث، تُرى هل كان ذلك لأن آية الأعراف نزلت أولاً، أما آية الرعد فنزلت متأخرة، فأكتفي بما ذكر في سورة الأعراف؟ ونزول سورة الرعد بعد سورة الأعراف، من الأمور المعروفة عند القوم؟ قد يكون ذلك، ولكننا مع ذلك نتلمس سبباً آخر.

ورجوعاً إلى الآيتين مرة أخرى نجد أن كلاً منهما تحدثت عن موضوع غير الذي تحدثت عنه مضارعتها؛ آية الأعراف، تحدثت عن بدء تكوين هذا العالم ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يونس:٣]. أما آية الرعد فلقد كان حديثها عن العالَم بعد استقراره عن الأرض بعد أن هُيِّئَتْ للإنسان، وبعد أن أخرج الله منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعاً لكم ولأنعامكم، وبعد ، جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين.

كل آية إذن -لها موضوعها الخاص بها- وإذا صح ما يقوله العلماء من أن حركة الأفلاك قبل استقرار العالم على ما هو عليه، كانت بسرعة هائلة أكثر مما هي عليه الآن بكثير، أقول: إذا صح ذلك فإن الآية تجمع إلى جانب الإعجاز البياني، إعجازاً علمياً كذلك.

والحق أن الإعجاز لبياني -كما قلت لك من قبل- إذا كان مختصاً بالنظم فهو عام يشمل مناحي كثيرة متعددة، فإذا كانت هذه الآيات تشتمل على الإعجاز العلمي مع البياني، فإن الآيات الأولى رأينا فيها مع الإعجاز البياني، إعجازاً اجتماعياً كذلك، يتمثل في وضع الأمة أمام مسؤولياتها الخطيرة.

٣- في سورة النساء نقرأ قول الله عز وجل: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء:٤]. والهنيء: ما يستطاب ويستلذ، والمريء: ما حسنت عاقبته، وجمع بينهما لأن الواقع والمشاهد يقضيان بأن شيئاً ما ربما يستطاب، ولكن لا تكون عاقبته حسنة.

وإلى جانب هذه الآية الكريمة، نجد ربنا يخاطب في أكثر من آية أهل الجنة: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المرسلات:٤٣]، ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة:٢٤]. وأهل الجنة -كما نعلم- كلما يستلذ عندهم ليست له عاقبة وخيمة، لذا لم نجد هنا كلمة (مريئاً)، إذ لا داعي لذكرها.

وهكذا يقتصر القرآن العظيم في استعمال الكلمات، فلا يذكر إلا ما تدعو إليه الحاجة، ويقتضيه المقام.

٤- يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ [النساء:١٩] مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ [الإسراء:٣٤]، ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات:١١]، ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢].

ولكن آية النساء جاء نسقها غير هذا كله، فلم يقل فيها: «لا ترثوا النساء كرهاً».

ولقد وقفت عند هذا النص الكريم أبحث عن سر التغاير، وبضم الآيات التي تضارع هذه الآية بعضها إلى بعض، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٢٩]. اهتديت -والله أعلم، ولله الحمد والمنّة- إلى أن هذه الكلمة إنما تجيء بجانب الأمور، أو بجانب القضايا التي كان الناس يزاولونها دون أن يروا بها بأساً أو حرجاً، أما غيرها من المنهيات فهي أمور تنفر منها الطباع أو ينكرها العُرف.

ومن هنا: جاءت كلمة (لا يحل) تنبيهاً على نكارة هذه القضايا التي يستسيغونها من غير حرج في أنفسهم.

٥- وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال:١٣]، ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر:٤].

فإحدى الآيتين: اقتصرت على لفظ الجلالة وهي آية الحشر، لأنها تتحدث عن بني النضير، لكن آية الأنفال ذكرت الرسول ﷺ وهي في سياق بدر تتحدث عن أهل مكة، ولا شك أن عداوة أهل مكة كانت عداوة مزدوجة، فهي للإسلام من حيث هو دين، ثم هي بعد ذلك عداوة حزازات وحسد لشخص الرسول ﷺ، وقد حدثنا القرآن عن أهل مكة وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١]، أما عداوة اليهود فللدين أيّاً كان نبيه ورسوله.

٦- ذكر الجهاد كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى أمراً للمؤمنين به تارة، وثناءً عليهم تارة أخرى.

فمن الضرب الأول قوله سبحانه: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

ومن الضرب الثاني قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

وهكذا نجد الآيات الكريمات في كتاب ربنا وهي تذكر الجهاد، تذكر له متعلقين اثنين:

- فهو بالأموال والأنفس من جهة.
- وهو في سبيل الله من جهة أخرى.

كل ما في الأمر أنه قد يتقدم المتعلق الأول كما جاء في الآية الأولى، وقد يتقدم المتعلق الثاني كما جاء في الآية الثانية.

والذين يعنينا الآن ونحن نقف مع هذه الآية الكريمة: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

فعبارة «في سبيل الله» لم تُذكر في هذه الآية الكريمة. وما أظنُّ البحثَ عن السبب يكلفنا كثير فكر، وكبير عناء، فالآية جاءت تتحدث عن الرسول ﷺ وأصحابه البررة الذين شرفوا بمعيته، وهؤلاء لا يكون جهادهم -بالطبع- إلا في سبيل لله وابتغاء مرضاته، ولذا لم تذكر في هذه الآية الكريمة.

أما غيرها من الآيات الكريمات؛ فكانت إرشاداً للمؤمنين أن يخلصوا العمل فلا تشوبه شائبة رياء ليكون مقبولاً عند الله -تبارك وتعالى-.

٧- نقرأ في كتاب الله - تبارك وتعالى هذه الآيات:

١ - قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات:١٥-١٩].

٢ - قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢٥].

فكلمة ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ ذكرت في آيات سورة المعارج، ولم تذكر في آيات سورة الذاريات، وسبب ذلك فيما يبدو لي -والله أعلم بمراده- أن الصفات التي ذكرت في سورة الذاريات؛ لا يبالي أصحابها بالمال الذي ينفقونه، فهم لا يخشون في ذي العرش إقلالاً، وكلما زكت نفس الإنسان كلما تغلب على شحّه، ورضي الله عن سيدنا أبي بكر، وقد قال كلمته الشهيرة المأثورة التي ستظل نبراساً هادياً وقد سأله الرسول ﷺ : ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فيقول: أبقيت لهم الله ورسوله.

أما آية المعارج، فكل ما ذكر فيها المصلون، ولسنا مع بعض المفسرين الذين يرون أن آية المعارج قد قصد بها الزكاة، لأن كلتا السورتين مكية -كما نعلم- ولكنها كلمات القرآن تذكر أن ذكرت لهدف وغاية، وتحذف كذلك لهدف وغاية.

٨- نقرأ في سورة هود قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [هود:٢٠].

وحريّ بالآية الكريمة أن يقف أمامها المتأملون، فلقد جاءت ذات نسق عجيب، ولا غرو؛ فالسورة الكريمة التي جاءت فيها الآية ابْتُدِئَتْ بقوله سبحانه: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١].

لقد نفي عن أولئك السمع والبصر، إلا أن نفي السمع جاء مقروناً بالاستطاعة ولا كذلك البصر، فلم يقل: ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يستطيعون البصر، ولا ما كانوا يسمعون وما كانوا يبصرون.

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه صفة الأولياء، وهم الأصنام. فقوله سبحانه: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ متصل بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وأن قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة معترضة.

ومع ما في هذا القول تفكيك للنظم الكريم، فهو مع ذلك ليس فيه إجابة كافية عن سر التعبير القرآني، بل يبقى السؤال بحاجة إلى الإجابة، حتى هذه الأصنام كما أنها لا تستطيع السمع، لا تستطيع البصر.

والذي يبدو لي -والله أعلم بما ينزل- أن قوله سبحانه: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ حديث عن أولئك الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

أما لماذا ذكرت كلمة (الاستطاعة) بجانب السمع؟ فهذا ما نتلمس أسبابه مستمدين العون من الله، سائلين سبحانه أن يجزي أشياخنا وذوي الخير عنا خيراً.

إن من له أدنى إلمام بتاريخ الدعوة في العهد المكي يدرك أن أولئك المشركين كان القرآن يهيمن على نفوسهم، ويأسر أفئدتهم، ولهذا كانوا يخشون الاستماع إليه، يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ونبأ قراءة الرسول ﷺ سورة فصلت أمام عتبة بن ربيعة حتى بلغ قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣]. فقال له عتبة: كفى يا ابن أخي، أناشدك الرحم، ووضع يده على فمه.

أقول: نبأ هذه القصة وغيرها يطلعنا على السر في الآية الكريمة، فهم لا يستطيعون السمع؛ لما كانوا يجدون للقرآن في نفوسهم من سحر وأثر، وليس كذلك البصر.

كلمة (يستطيعون) في الآية الكريمة إذن جاءت تبين لنا هذه الأبعاد النفسية، والحقائق الكثيرة.

٩- نقرأ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك:١٩].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل:٧٩].

وقفت أمام هاتين الآيتين الكريمتين أتلمس أسرار الإعجاز، فكلمة (فوق) ذكرت في سورة الملك، ولم تذكر في سورة النحل، بل ذكر فيها كلمة ﴿مُسَخَّرَاتٍ ﴾، ويعلم الله أن من أسعد اللحظات، تلك التي يهتدى فيه المسلم إلى سِرٍّ من أسرار إعجاز هذا الكتاب الخالد.

آية الملك جاءت في سياق التهديد والتبكيت، والإنذار والوعيد لأولئك الذين يتعالون على الحق، ولهذا نقرأ قول الله تعالى قبلها: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الملك:١٨].

كلمة (فوق) إذاً جاءت لقصد وهدف، هذ الطير الصغير، هذا المخلوق الضعيف فوقهم، فلماذا التعالي؟!

أما سورة النحل -وهي سورة النِّعَم- فلقد جاءت الآية الكريمة فيها في سياق تعداد نِعَم الله -تبارك وتعالى- كما تشهد الآيات التي قبلها والتي بعدها، ولذا لم يشر للفوقية فيها، بل ذكرت كلمة (التسخير) وتسخير الطير نعمة من نِعَم الله سبحانه وتعالى.

بقي فرق آخر في الآيتين: آية الملك جاء فيها حرف العطف (الواو)، وهو يقتضي معطوفاً عليه وهذا المعطوف عليه فعل فيه تبكيت لأولئك، أي: أغفلوا فلم

يروا؟! أعموا فلم يروا؟! فالاستفهام إنكاري توبيخي، ولكننا لا نجد هذا الحرف في سورة النحل، فتعالى الله علواً كبيراً.

١٠- يقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة:١٩٣]، ويقول سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال:٣٩].

وتتساءل، وأتساءل معك عن سبب التأكيد بكلمة (كل) في آية الأنفال، وتركه في آية البقرة، فإذا عرفنا أن آية الأنفال، جاءت في سياق الحديث عن غزوة بدر، وهي أول غزوة خاض المسلمون غمارها مع المشركين، وتقدم على هذه الآية قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال:٣٨] وهذه إن كان خاصة، إلا أن العبرة بعموم اللفظ -كما يقولون-. أما آية البقرة، فلقد جاء قبلها قوله سبحانه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [البقرة:١٩١].

وإذا عرفنا هذا، أدركنا سر التأكيد في آية الأنفال؛ وهذا السر نوجزه في حكمتين اثنتين:

الأولى: أن آية الأنفال جاءت في سياق أول غزوة من الغزوات، فكان لا بد أن يُبيِّن للمسلمين، أن أمامكم طريقاً طويلاً من الجهاد، فليست مهمتكم تحويل المجتمع العربي وحده؛ إنما أنتم مبعوثون للعالم كله، فلا بد أن يكون الدين كله لله، فلما ذكر هذا التوكيد هنا، لم يكن هناك داعٍ لذكره فيما بعد.

الثانية: أن آية الأنفال تقدمها قوله سبحانه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾، وهو وإن كان خاصَّ السبب، إلا أنه عام من حيث اللفظ، وذلك على العكس من آية سور البقرة، فإن الحديث فيها عن قومٍ مخصوصين، وهم أهل مكة بدليل قوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ ﴾ .

١١- وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى تجد فيها شاهد صدقٍ على الإعجاز، وهما قوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة:١٧-١٨].

تأمل هاتين الآيتين المتجاورتين، وستجد أن الآية الأولى كانت رداً على النصارى، الذين قالوا بألوهية عيسى عليه السلام ، لا لشيء إلا لأن خَلْقَه كان على غير السنن المعروف المألوف من خلق البشر من أب وأم، أما الآية الثانية فكانت رداً على اليهود والنصارى، حيث زعم الفريقان أن لهم صلة خاصة بالله تعالى. جاء في الآية الأولى قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾، ولكن هذه الجملة لم تجِئْ في الثانية، ولعلك تدرك الآن سبب ذلك؛ ذلك أن الآية الأولى تقول لأولئك الذين ادّعوا ألوهية عيسى لأنه خُلق من غير أب، أن لله ملك السموات والأرض وما بينهما، فهو يخلق ما يشاء، فلقد خلق آدم من غير أب وأم، وخلق زوجه كذلك، فإذا خلق عيسى من غير أب، فإن له السلطان، فلا ينبغي أن يكون ذلك الخلق حاملاً لكم على القول بألوهيته، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:٥٩].

أما الآية الثانية، فليس فيها ما يستدعي، وما يتطلب، وما يوجب وجود هذه الجملة الكريمة، ولهذا ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾؛ ليبيّن لهم عظيم قدرته، وبأن له الخلق والأمر، وختمت الثانية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ وهو تهديد ووعيد، ليجازيهم على أعمالهم، فيبطل دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

إن هذا الإبداع المحكم، وهذه الدقة والموضوعية، سواء كان ذلك من حيث اختيار الجملة في موضع دون موضع، أم من حيث ختم الآية بما يناسب المقام، لن تجده في غير هذا الكتاب المعجز.

١٢- ولنتدبر هاتين الآيتين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعٗا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجٗا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر:٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٥].

أنعم النظر تجد أن سيدنا رسول الله ﷺ أُمر بخفض الجناح للمؤمنين في هاتين الآيتين، ولكن إحدى الآيتين ذُكِر فيها قولُه تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ ولا أقول زِيد فيها -معاذ الله-؛ لأن القرآن محكم من الزيادة والنقص، وإذا تأملت أدركت سرّ الإيجاز في الجملة الأولى، وروعة الإعجاز في الآية الثانية؛ ذلك أن السياق لكل من الآيتين اقتضى نظماً خاصّاً، فالسياق الأول كان سياق امتنان وتفضل وإكرام، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعٗا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ فلا يغرنك ما أعطيه هؤلاء من متاع، ولا تحزن عليهم. أما السياق الثاني، فقد جاء في سياق التحذير ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾. ولما ذُكرت العشيرة، وأمر النبي ﷺ أن ينذر هؤلاء الأقربين، فربما يُظَنُّ بأن لهؤلاء الأقربين شأناً خاصاً، آمنوا أم لم يؤمنوا، فكان السياق يتطلب هذه الجملة وهي قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾.

يقول له: لا تبال بأحد، وإنما ينبغي أن تخفض جناحك لمن اتبعك، وإن لم يكن بينك وبينهم قرابة ووشيجة وصلة دم، ورابطة نسب ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

والخلاصة أنه لما ذكرت العشيرة في الآية، والأدنون من الأقارب، كان لا بد من ذكر هذه الجملة ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ أياً كان أولئك المتبعون، عرباً أم غير عرب، من ذوي النسب أم من غيرهم. ذلكم هو القرآن.

وهذا كثير في كتاب الله تعالى، لا يمكننا أن نستقصيه في مثل هذا الكتاب، فإن راقك مثل هذا، ووجدت فيه ما تطمئن له نفسك، فأرجو الله أن يوفقني لأكتب لك كتاباً، أحاول فيه استقصاء كثير من الآيات الكريمة مما يُعرف عند العلماء بالمتشابه من حيث اللفظ، والله الموفق لكل خير.

المبحث الثالث

التقديم والتأخير

١- كثير من الآيات الكريمة ختمت بذكر أسماء الله عز وجل وصفات من صفاته، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يلمس فيها أسرار الإعجاز، ولطائف البيان ظاهرة بيِّنة.

وكثير من هذه الآيات -بل أكثرها- نجدها تجمع بين اسمين أو صفتين لله تبارك وتعالى، ونجد أن بعض هذه الأسماء يطرّد تقديم بعضها على بعض، فكثير من الآيات ختمت بقوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، ولا نجد آية خرجت عن هذا النظم البديع، ليست هناك آية قدمت فيها الحكمة على العزة، فلم نقرأ (إن الله حكيم عزيز)، أو العزة على القوة (عزيز قوي)، كما لم نجد أي آية قدم فيها البصر على السمع (بصير سميع)، ولا نجد آية كذلك قدم فيها خبير على عليم، ذلك لأن الترتيب الطبيعي والمنطق البياني يستلزم ما جاء عليه النظم القرآني.

فإذا اجتمعت العزة والحكمة، فحري أن تقدم العزة لأن الحكمة لن تؤتي ثمارها، ولن تكون لها نتائجها إلا إذا سبقتها العزة، ونقيض العزة الذلة، وما أبعد الذلة عن الحكمة.

لكننا نجد أن القوة قدمت على العزة في مثل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ذلك لأن العزة بدون قوة دعوى لا تثبت أمام الأحداث، ولا تقوى على البقاء.

وكذلك السمع والبصر، نجد السمع يقدم على البصر في القرآن كله، سواء أكان ذلك من أوصاف الله تعالى، أم من أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم، مثل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨].

وكذلك العلم والخبرة، لأن الخبرة أخصُّ من العلم، لذا لم نجد آية جاء فيها (خبير عليم).

لكننا ونحن نتدبر الآيات الكريمة، حيث نجد أن بعض الأسماء الجليلة، قدم بعضها على بعض في بعض الآيات، وأُخر في بعضها الآخر، ولنتدبر نماذج من بعض الآيات الكريمة.

الأنموذج الأول: المغفرة والرحمة:

جميع الآيات في كتاب الله تبارك وتعالى، قدمت فيها المغفرة على الرحمة، لأن المغفرة ستر للذنوب، أما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب، لذا قدمت المغفرة على الرحمة، والتخلية مقدمة على التحلية.

لكننا نجد آية واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى قدمت فيها الرحمة على المغفرة، وهي قوله سبحانه في أول سورة سبأ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [سبأ:٢]، فلِمَ كانت هذه الآية بدعاً من أخواتها؟

إن المتدبر للسياق القرآني يمكن أن ينعم بالحكمة البيانية والموضوعية كذلك، التي جاء عليها نظم الآية القرآنية. إن السياق الذي جاءت فيه سياق القدرة والعلم، سياق العناية بهذه المخلوقات كلها، ما في السموات وما في الأرض، ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ورحمة الله تبارك وتعالى تتجلى لهذه المخلوقات جميعاً، الشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم والجبال، والماء والمرعى، والنار والهواء، كلها تظهر فيها الرحمة، لذا كانت الرحمة جديرة بالتقديم في هذه الآية وحدها من كتاب الله.

أما غيرها من الآيات والتي قدمت فيها المغفرة على الرحمة، فقد ذكرت كلها في سياق ذنوب العباد، أو في سياق تقصيرهم فيما أُمروا به. أما الآية التي قدمت فيها

الرحمة على المغفرة، فليس فيها شيء من هذا كله، لا من ذنوب العباد، ولا من تقصيرهم فيما أُمروا به.

أرأيتم إلى هذا البناء المحكم وهذا النظم البديع؟

الأنموذج الثاني: العلم والحكمة:

أكثر الآيات الكريمة جاءت على هذا النظم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أو ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ولكننا نجد بعض الآيات قدمت فيها الحكمة على العلم، قال تبارك وتعالى يحدثنا عن أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء، أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات:٢٩-٣٠].

والمتأمل في السياق، والمتدبر للآيات الكريمة، يجد أن هذا التقديم أو التأخير كان أمراً يحتمه المعنى ويتطلبه الموضوع، وتقتضيه الحكمة، فأما تقديم العلم على الحكمة، فأظنه ظاهراً لا يحتاج إلى بيان، إذ من مقتضيات الحكمة أن يسبقها العلم، وإليكم بعض هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٦] وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات:٧-٨].

أما تقديم الحكمة على العلم فنجد أن الموضوعات التي جاء فيها هذا النظم، كانت الحكمة فيها هي الأساس، فبشارة إبراهيم وامرأته بالغلام، حيث يتعذر الحمل والإنجاب ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

[هود:٧٢] أمر لله فيه حكمة ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات:٣٠].

ولا نود أن نستقصي هنا فنقف مع كل آية، وما على القارئ إلا أن يتدبر الآيات، ليدرك بذوقه وإحساسه وفكره وعقله دقة النظم، وسمو المعنى.

الأنموذج الثالث: المغفرة والحلم:

ختمت بعض الآيات الكريمة بهذين الاسمين الجليلين، تارة تتقدم المغفرة، وأخرى يتقدم الحلم، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:٢٣٥]، وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١].

تدبر الآيتين الأوليين، وهما مدنيتان، تجد فيهما -وهما خطاب للمؤمنين- تحذيراً من مخالفة حدود الله، والخروج على شرعه؛ لذلك قدمت فيهما المغفرة، والمغفرة ستر الذنب كما قلت.

وتدبر الآيتين الأخريين -وهما مكيتان، وليستا خطاباً للمؤمنين- تجد أنهما تتحدثان عن العناية الربانية، فالله سبحانه لا يعجل العقوبة للناس، وهذا هو المراد بالحلم. إن سياق الآيتين الأخريين بعيد عن سياق الآيتين الأوليين، كذلك كان نظمهما غير نظمهما.

إن التقديم والتأخير في فواصل الآيات التي ذكرت فيها أسماء الله وصفاته، موضوع حري بالدرس، بل يستحق مؤلفاً خاصاً له فهو جدير بهذا، وسيجد الباحثون أسراراً مليئة بالحكم والفوائد.

٢- يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦]، ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ويقول سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ [الشورى:٩].

وأظنك أدركت سر النظم؛ ففي الآية الأولى جاء لفظ الجلالة خبراً، ولكنه في الآيتين الثانية والثالثة كان مبتدأ، وسر ذلك التغاير، أن الآية الأولى جاءت في سياق أولئك الذين جعلوا معبوداتهم أولياء، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٥-١٩٦]، تقول الآية لأولئك: إن أولياءكم هذه المعبودات المتعددة، أما أنا فوليي الله. والفرق بين الجملتين، أن قولنا: ﴿وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ مفهومها وليي الله لا غيره، أما الجملة الثانية ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾ فمعناها ومفهومها الله وليي لا وليكم أنتم.

ولأضرب لك مثلاً ييسر لك هذا المعنى. تقول لمن يعتقد أن أخاك محمد، لا أحمد وهو يعرفهما: «أخي أحمد، وليس محمداً»، ولكنك تقول لمن يعرف أحمد، ولكنه لا يعرف أنه أخوك، وإنما يظن أنه أخ لغيرك، أو يظن أنه ابنك: «أحمد أخي» أي: ليس أخاً لغيري، وليس ابني. وهكذا تقول: «صديقي خالد» لمن يظن أن صديقك سعيد، ولكنك تقول: «خالد صديقي» لمن يظن أنك لا تعرفه، أو أنه خصمك.

وأظنك الآن تفهم الفرق بين نظم الآيتين الكريمتين، فقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي: وليي الله وحده، وليس لي ولي من معبوداتكم التي ارتضيتموها، أما قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فمعناه أنه ليس ولي الكافرين، ويدل لهذا الآية الكريمة نفسها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧] وهكذا تفهم الآية الثالثة ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ أي: الولي الكامل الذي لا يتخلى عن عبده.

٣- قال تعالى يأمر المؤمنين بالتوكل عليه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢]، ويقول آمراً نبيه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٨]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب:٣].

والمنعم في النظم القرآني يجد قضية حرية بالتدبر، جديرة بالتأمل؛ فحينما يكون الخطاب لهذه الأمة ولغيرها، يقدم لفظ الجلالة، وحينما كان الخطاب للرسول ﷺ خاصة قدم فعل التوكل -كما رأينا من قبل-.

فإذا عرفنا أن النظم الأول، إنما يجاء به للحصر والاختصاص، أي على الله توكلوا لا على غيره؛ أدركنا روعة النظم في كتاب الله تعالى، فما أحوج الناس الذين كثيراً ما توسوس لهم شياطينهم، وتسول لهم نفوسهم، ما أحوجهم إلى أن يؤكد لهم هذا المعنى، فيتبينوا أن التوكل ينبغي أن يكون على الله وحده، حتى لا تنازعهم نفوسهم الاعتماد على غيره تعالى.

أما الرسول ﷺ ، وهو الذي أكرمه الله بالنفس الزكية الطاهرة، والذي لا يحوم حوله الشيطان؛ لأن الله أعانه عليه فأسلم، فلا حاجة له بهذا التخصيص والقصر، فلا حاجة أن يقال له: «على الله توكَّلْ». ومن هنا رأينا التغاير في هذين الأسلوبين، التغاير في النظم في الآيات التي تلوتها عليك من قبل، وهكذا تجد لفتات الإعجاز في كتاب الله، لا تخلو منها آية، ولا يفوتها موضع.

٤- يقول الله تبارك وتعالى متفضلاً على هذه الأمة مبيناً منزلتها بين الأمم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، ويقول سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:٤١]، ويقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩]، ويقول: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨].

قف أمام هذه الآيات الكريمة، وستجد أن الآية الأولى والثانية أخّر فيهما لفظ شهيد، ولكنه قدم في الثالثة والرابعة، وحاول أن تكشف اللثام عن ذلك الوجه المشرق، الذي يتفجر نوراً وحكمة. وسأحاول أن آخذ بيدك، لأفتح لك الباب الذي تلج منه.

إن قوله سبحانه: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بيان لشأن هذه الأمة، بشهادتها على غيرها من الأمم، ولكن ليس معنى هذا أنه ليس على هذه الأمم شاهد غير هذه الأمة، فأنبياء كل أمة وصالحوها سيشهدون عليها، شهادة هذه الأمة -إذن- على غيرها من الأمم ستكون واحدة من شهاداتٍ كثيرة. ولكن لو قيل: «لتكونوا على الناس شهداء» لكان معنى هذا أنهم هم الذين يشهدون على الناس، لا غيرهم، وليس الأمر كذلك كما عرفت- فإن نبي كل أمة شاهد عليهم.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ -إذن- ليس فيه تخصيص لهم بأنهم وحدهم يشهدون على الناس، كل ما فيه أنهم سيكونون من جملة الشهداء على الناس، ولذا لم نجد في كتاب الله تعالى آيةً واحدة تقول للمؤمنين: «لتكونوا على الناس شهداء».

أما قوله سبحانه: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فمعناه أن شهادة النبي ﷺ ، خاصة بكم أنتم، فلن تشهد عليكم الأمم كما شهدتم عليها، وأرجو أن تكون قد أدركت الفرق الدقيق في النظم الكريم، فكونهم شهداء على الناس مدح لهم، وكون الرسول عليهم شهيداً مدح لهم كذلك، لاختصاصهم بشهادته عليه وآله الصلاة والسلام، ولو قال لك: «ويكون الرسول شهيداً عليكم» لكان مدحاً للرسول ﷺ .

ويمكنك أن تصل الآن إلى ما نريد عن سر اختلاف النظم في الآيات الكريمة، ففي الآيتين الأوليين كان المقصود الثناء على الأمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وكان هذا الثناء من جهتين اثنتين: كونهم يشهدون على الناس من جهة، وكون الرسول عليهم شهيداً من جهة ثانية، أما الآية الثالثة والآية الرابعة فكان السياق فيهما غير ما تقدم، فالآية الثالثة ثناء على الرسول ﷺ والآية الرابعة ثناء على المؤمنين وثناء على الرسول ﷺ ، وأرجو أن تتدبر الآيات مرة أخرى لتدرك سر ما قلته لك، والله أعلم بما ينزل.

وكذلك الآية الثانية، ويشهد لذلك ما جاء في الحديث وقد طلب الرسول ﷺ من ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن، فتلى عليه من سورة النساء، ولما وصل إلى هذه الآية بكى الرسول ﷺ وقال: حسبك.

٥- نقرأ في وصف المنافقين، وفي وصف الكافرين، هاتين الآيتين في سورة البقرة: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة:١٨]، ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة:١٧١].

وتقديم الصم هنا جاء في غاية الإحكام، لأن بداية ضلال أولئك الأقوام، حينما أصاخوا بسمعهم عن آيات الله تتلى عليهم.

ونقرأ في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء:٩٧]. لقد تغيرت الصورة

هنا، لذلك تغير معها نسق القول، ذلك لأن السماع لم ينفع أولئك الناس ولا يعود عليهم بخير، ثم إن العمى هو من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة عليهم في ذلك اليوم(١).

٦- ونقرأ قول الله تعالى يحث المؤمنين على العدل والقسط ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النساء:١٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة:٨]. فإذا عرفنا أنَّ هذه الآية نزلت في شأن العدل مع أعداء الإسلام، وأن الأُولى نزلت في شأن تحقيق العدل مع ذوي الرحم، أدركنا سر النسق في الآيتين الكريمتين. فالعدل مع الأعداء ربما يظن أنه من الأمور المستحسنة التي يتقرب بها إلى الله فتقدم فيه كلمة ﴿لِلَّهِ﴾ ولا كذلك الآية الأولى؛ لأن القسط فيها هو الأهم.

٧- ونقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال:١١]، وفي مقابلها ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران:١٥٤].

فإذا عرفنا أن آية الأنفال كانت في بدر، وأن آية آل عمران في أُحد، وعرفنا أن حاجة المسلمين في بدر كانت إلى الراحة والنوم، أما في أُحد فلقد كانت حاجتهم بعد أن أصابهم ما أصابهم إلى الأمن والطمأنينة، أدركنا سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتين.

---

(١) وهناك فرق آخر وهو أن هذه الآية التي تتحدث عن يوم القيامة تحمل على حقيقتها، فهم يحشرون كذلك، يفقدون هذه الحواس الثلاث. أما آيتا البقرة، فالمقصود منها التشبيه، لأن الكافرين والمنافقين لم يكونوا كذلك، لكنهم لم يستعملوا حواسهم فيما هو خير فكأنهم لا حواس لهم.

٨- قول الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

فآية الكهف جاءت إثر الحديث عن الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين محفوفتين بنخل وبينهما زرع. فتقديم المال إذن يتسق مع السياق، لأن الحديث عنه. والآية الثانية جاءت تتحدث عن مراتب الأمور المزينة، وأن منها ما يكون الدافع له الغريزة والعاطفة معاً، وهو القسم الأول ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، أو من العاطفة والنفس وهو القسم الثاني ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾، أو من النفس وحدها، وهو القسم الثالث ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، وجمعت الشهوات لما بينها من اختلاف[1].

فإذا عرفنا هذا أدركنا سر التقديم والتأخير في كلام العليم الخبير.

٩- وما دمنا قد تحدثنا عن المال والبنين، فلنتحدث عن الأموال والأنفس:

نقرأ قول الله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١١]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، فالآية الأولى، وكثير مثلها في كتاب الله تعالى إنما تتحدث عن الجهاد في دور الإعداد، ومن مقدماته الضرورية المال. لكن الآية الثانية تتحدث عن القتال في معمعة الوغى، لذلك قدمت النفس بدليل: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

١٠- الجن والإنس: نجد الآيات التي ذُكر فيها الجن والإنس، يقدم فيها ما يستدعي السياق تقديمه، فعند التحدي بالقرآن قدم الإنس، لأنهم هم المقصودون

(١) مصطفى صادق الرافعي، رسائل الرافعي، جمع وترتيب: محمود أبو ريّة، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٦، ص٢٣٣ وما بعدها.

بالتحدي، وحين كان التحدي بالنفوذ من أقطار السموات والأرض قدّم الجن لأنهم أقدر على ذلك: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٨]، ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن:٣٣].

وقد يكون التقدم تقدماً زمنياً: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقد يكون التقدم دليلاً على الفضل والشرف: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن:١٤-١٥].

١١- المغفرة والرحمة: الآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى تحدثنا عن كرم الله على عباده، فهو يغفر ذنوبهم وإساءتهم ويرحمهم، وهذه الآية تقدمت فيها المغفرة على الرحمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [البقرة:١٨٢]، وقد تُقَدَّمُ المغفرة على الحلم ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٣٥].

وعلى العكس من ذلك نجد آية واحدة قُدِّمَتْ فيها الرحمة على المغفرة، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [سبأ:٢]، وهي الآية الوحيدة في كتاب الله تعالى التي قدمت فيها الرحمة، وذلك لأنها ذكرت في سياق القدرة والعلم، فكانت الرحمة جديرة بالتقدم.

أما الآيات الكثيرة التي قدّمت فيها المغفرة، فإنها تذكر في سياق ذنوب العباد وتقصيرهم فيما كلفوا به.

١٢- الصبر والتقوى: ومثل هذا ما جاء في سورة آل عمران خطاباً للمؤمنين لتعليمهم وإرشادهم كيف يقفون من أعدائهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً

﴿مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨]، فيقدّم الصبر هنا؛ لأن له أكبر الأثر في تغلب المؤمنين على أعدائهم، وإلى جانب هذه الآية الكريمة نقرأ قول يوسف لإخوته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠]، فسياق الآية هنا عام، وهو بعيد عن الحرب وأوزارها، لذلك كانت التقوى الأساس الذي ينبغي أن يبنى عليه كل شيء.

١٣- ونقرأ في آخر آية من سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح:٢٩]. ولكننا نقرأ في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

ولما كان سياق سورة الفتح، سياق الجهاد ومجالدة الأعداء، ولما كان سياق آية المائدة: النهي عن موالاة اليهود والنصارى، قدّم في كل آية ما يتفق مع سياقها، ويلائم موضوعها، ويتناسب مع المقام الذي جاءت فيه. فقدمت الشدة على الكفار في سورة الفتح، وقدمت الذلة على المؤمنين في سورة المائدة التي جاءت تنهى المؤمنين عن أن يوالوا أعداء الله ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

١٤- موسى وهارون: الآيات التي تحدثت عن السَّحَرة حينما ألقوا وجوههم سجّداً لله، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، تحدثنا بعض هذه الآيات أنهم قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨] وبعضها: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٧٠]. وهي من أقوى ما يستشهد به القائلون على وجود السجع في كتاب الله تعالى، وهذا ليس من غرضنا بالطبع. لكن ما أود تقريره من تقديم هارون في الآية الكريمة وتأخيره في جميع الآيات أقول:

ما أودّ تقريره أن تقديم هارون على موسى كان في هذه السورة وحدها، والسبب الذي أختاره في ذلك -والله أعلم بمراده وبأسرار كتابه- يتلخص فيما يلي:

سورة طه هي السورة الوحيدة التي حدثتنا عما حصل لموسى عليه السلام من خوف، وكان حرياً به أن لا يكون منه ذلك، فهارون أولى به منه، لأنه لم يشاهد ما شاهده موسى، ولم يشرف بمناجاة الحق، قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه:٦٧][1]، فكان حرياً به أن يكون رابط الجأش، ثابت الجنان.

من أجل ذلك يلوح لي أن هارون عليه السلام قدّم في هذه السورة، وهي قيمة قرآنية عظيمة، حري بنا أن نقف عندها ونتدبرها، وهي تقدير كل عامل بعمله.

١٥- السموات والأرض: بعض الآيات الكريمة قدّمت فيها السموات على الأرض، وبعضها الآخر قدّمت فيها الأرض على السماء.

فمن الأول: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ:٣].

ومن الثاني: قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١]. فهذه الآية الكريمة تتحدث عن أعمال أهل الأرض، وشهادة الله عليهم وإحصائه لأعمالهم فكان اللائق بها أن تقدم فيها الأرض على السماء لأن أهلها هم المقصودون بالخطاب.

---

(١) ولقد ذكر في أول السورة الكريمة من أنه عليه السلام نُهي عن هذا الخوف حينما ألقى العصا ﴿ وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه:٢١] وهكذا جاء في سورتي: النمل والقصص، بل ذكر في سورة النمل: ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل:١٠] فما كان من شأنه عليه السلام أن يكون منه هذا الإيجاس حينما ألقى السحرة ما ألقوا.

أما الآية السابقة فجاءت لإثبات البعث، وبيان قدرة الله تبارك وتعالى، فكان حرياً أن تقدم السموات؛ لأنها أعظم من الأرض، وأدلّ في خلقها على القدرة.

وهكذا نجد الآيات التي قدّمت فيها السموات أو الأرض لكل سياقها الذي يقتضي التقديم والتأخير.

١٦- ومن روعة الإعجاز في كتاب الله تعالى في تقديم الكلمة أو تأخيرها ما نقرؤه في هذه الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وفي آية ثانية: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء:١٠٣].

ففي هاتين الآيتين كان هذا الترتيب القيام أولاً، والقعود بعد ذلك، والحالة الثالثة ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ و ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾. ولكننا نقرأ في آية أخرى ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس:١٢].

إنه والله الإعجاز الذي يأسر اللب ويرقص له القلب، لقد قدم في الآية الأولى والثانية ما يقتضيه المقام، ولا شك أن أفضل العبادة حينما يطيل الإنسان القيام، أما الآية الثالثة: فإنها تحدثت عن الإنسان في حالة الضر. ولذا بُدِئ بالحالة الأخيرة، وهي كونه على جنبه لأن هذا هو الذي يتناسب مع الضر الذي هو فيه.

وأختم هذا المبحث بكلمة ذكرها صاحب المفتاح رحمه الله في باب التقديم والتأخير يقول: «ولله درّ أمر التنزيل، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة، بحسب مقتضيات الأحوال، ولا ترى شيئاً منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف، إلا عثرت عليه مراعًى فيه من ألطف وجوه. وأنا

ألقي إليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها فيما عسى يظلم عليك من نظائرها، إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك، ومطارح فكرك، منها:

أنْ قال عَزّ مِن قائل في قصة موسى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [القصص:٢٠] فذكر المجرور بعد الفاعل، وهو موضعه. وقال في قصة رسل عيسى عليه السلام ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ [يس:٢٠] فقدم لما كان أهم. يبين ذلك أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية والرسل، أنهم أصروا على تكذيبه، وانهمكوا في غوايتهم مستشرين على باطلهم، فكان مظنة أن يلعن السامع على مجرى العادة، تلك القرية قائلا: ما أنكدها تربة، وما أسوأها منبتاً، ويبقى مجيلاً في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاصٍ منبت خير، منتظراً لمساقِ الحديث. هل يلم بذكره؟ فكان لهذا العارض مهماً، فكما جاء موضع له صالح ذكر بخلاف قصة موسى.

ومنها أن قال في سورة المؤمنون: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ [المؤمنون:٨٣]. فذكر بعد المرفوع وما تبعه المنصوب وهو موضعه، وقال في سورة النمل: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ [النمل:٦٨] فقدم لكونه منها أهم. يدلك على ذلك أن الذي قبل هذه الآية ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النمل:٦٧]. والذي قبل الأولى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ [المؤمنون:٨٢] فالجهة المنظور فيها هنا هي كون أنفسهم تراباً وعظاماً، والجهة المنظور فيها ههنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم تراباً لأجزاء. هناك من بناهم على صورة نفسه ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تبعيد البعث، فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد إلى ذكره، فصيره هذا العارض أهم.

ومنها أن قال في موضع من سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون:٢٤] فذكر المجرور بعد صفة الملأ وهو موضعه كما تعرف، وفي موضع آخر منها: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ [المؤمنون:٣٣] فقدم المجرور لعارض صيره بالتقديم أولى، وهو أنه لو أخّر عن الوصف، وأنت تعلم أن تمام الوصف بتمام ما

يدخل في صلة الموصول وتمامه: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون:٣٣] لاحتمل أن يكون من صلة الدنيا، واشتبه الأمر في القائلين، أهم من قومه أم لا؟

ومنها أن قال في سورة طه: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٧٠]، وفي الشعراء: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء:٤٨] للمحافظة على الفاصلة، ولنقتصر من الأمثلة على ما ذكر، فما كان الغرض إلا مجرد التنبيه دون التتبع لنظائرها في القرآن، وتفصيل القول فيها»[١].

وما ذكره صاحب المفتاح على كثرة فوائده، وعلى جلالة قدر قائله، يحسن بنا أن نوضحه، ويجمل بنا أن نقربه للقارئ، حتى يكون داني القطوف، يسير الجني، سهل التناول.

ذكر السكاكي رحمه الله آيات من كتاب الله، قدّمت فيها الكلمة تارة وأخّرت أخرى، لتكون أنموذجاً للمتدبرين.

الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس:٢٠]، وفي موضع آخر: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠].

فآية القصص -كما رأينا- قدمت فيها كلمة (رجل) لكنها أخّرت في سورة يس ولا شك أن هذا التقديم والتأخير، لم يكن من باب التفنن في القول كما توهمه بعضهم -سامحهم الله-[٢] وإنما كان لحكمة بيانية متعلقة بالنظم، والنظم كما نعلم، ترتيب الألفاظ في النطق إثر ترتيب معانيها.

---

(١) الإمام أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، كتاب: مفتاح العلوم، ص٢٣٨-٢٣٩، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) روح المعاني، للآلوسي، ج٢٢، ص٢٢٦.

آية القصص جاءت في سياق قصة موسى عليه السلام وقد وكز القبطي فقضى عليه فتربص به القبط، وبيتوا له أمراً، وائتمروا به شراً، ولم يكن يدر بخلد أحد من الناس أن واحداً من أولئك القوم يخرج على إجماعهم ليسرّ لموسى ما اجتمعوا عليه.

الذي يستدعيه السياق إذن، أن يكون الحديث عن هذا الرجل بقطع النظر عن أن يكون من أقصى المدينة أو أدناها، لذلك قدّم في الآية الكريمة ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ . الرجل هنا هو محط الأنظار، وغاية القصد، ولم يكن الأمر كذلك في سورة يس، فالسياق هناك يتحدث عن قرية جاءها المرسلون لكنهم كُذِّبوا، ومع محاولات أولئك الرسل، ومحاورتهم -كما تدل عليه الآيات الكريمة ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس:١٣] الآيات- إلا أن ذلك لم يجد شيئاً وكأن أهل هذه القرية، عميّت عليهم الآيات، ليس العجب إذن أن يؤمن رجل منهم، بل العجب أن لا يؤمنوا جميعاً، لذلك قال الله سبحانه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ ليبين أن هذه المدينة لم يؤمن منها أحد، اللهم إلا واحداً من أقصاها.

تقديم الرجل هنا إذن لا تتعلق به فائدة ما، فهو يختلف عما في سورة القصص، وهكذا قدّم في كل آية ما يتلاءم مع السياق، وما يتطلبه المعنى.

أما الآية الثانية التي ذكرها صاحب المفتاح فهي قوله سبحانه حديثاً عن الكافرين المنكرين للبعث: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ وفي موضع آخر ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾. فقد قدّم الضمير ﴿نَحْنُ﴾ في آية، وقدم البعث المشار إليه بقوله تعالى ﴿هَٰذَا﴾ في آية أخرى، وإليك الآيات في كل من الموضعين:

قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ [المؤمنين:٨٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ ﴾ [النمل:٦٧-٦٨].

تأمل في هاتين الآيتين وانظر ما بينهما من فروق.

آية (المؤمنون): ذكرت فيه العظام، بينما آية (النمل) اقتصر فيها على التراب وحده.

ارجع الفكر مرة ثانية، تجد أن آية (المؤمنون) تحدث فيها منكرو البعث عن أنفسهم فحسب، أما آية (النمل) فلقد تحدثوا فيها عن آبائهم كذلك، لعلك بعد هذين الملحظين تدرك السر الذي قدّم فيه البعث المشار إليه بهذا في سورة النمل، لأنهم تحدثوا عنهم وعن آبائهم السابقين من جهة، ولأنهم تحدثوا عن التراب وحده من جهة ثانية، ولا شك أنهم يظنون أن البعث يكون أكثر صعوبة كلما تحللت الأجسام، فبعد أن تؤول إلى تراب، ولم يبقَ فيها هيكل متماسك، تصبح قضية البعث في نظرهم، قضية غير متصورة، وليس الأمر كذلك حينما تكون العظام، وحينما تكون الهياكل على صورها التي كانت عليها في حالة الحياة.

الآية التي لم يذكر فيها العظام قدّم فيها البعث ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا ﴾ فلله درّ التنزيل -كما قال السكاكي رحمه الله-.

والآية الثالثة التي ذكرها أبو يعقوب السكاكي هي قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ ﴾ [المؤمنون:٣٣]. والآية -كما نرجح- حديث عن قوم هود عليه السلام. وفي السورة نفسها وقبل هذه الآية، وقد كان الحديث عن قوم نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المؤمنون:٢٤].

الحديث عن قوم نوح قدّم فيه الاسم الموصول، لكنه أخّر حينما كان الحديث عن قوم هود، يعلل ذلك صاحب المفتاح بما يلي:

لو أنه قدّم الاسم الموصول هنا، لكان لبس في فهم الآية، بيان ذلك: أن الموصول وصلته متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر[1]، فلو أنه قدم الاسم الموصول في الآية الكريمة لكان النظم هكذا: ««قال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه» وصلة الموصول هي قوله: «كفروا وكذبوا وما بعده» إلى قوله: «في الحياة الدنيا» لأن بعضها معطوف على بعض، فقوله: «من قومه» يمكن أن يكون تابعاً للحياة الدنيا، أي: أترفناهم في الحياة الدنيا، وكان هذا الإتراف الذي حصل لهم -أي لهذا الملأ- كان من قوم هود، فيحتمل أن القائلين هذا القول ليسوا من قومه، من أجل هذا قدّم الجار المجرور «من قومه» على الاسم الموصول وصلته. هذا ما ذهب إليه السكاكي، وهو واحد من أقوال متعددة في تفسير الآية، وهذا القول يتأتى إذا جعلنا (الواو) في قوله: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ عاطفة. أما إذا جعلناها (واو الحال) فلا يرد هذا الاحتمال، لأن المعنى حين ذاك: «وقد أترفناهم في الحياة الدنيا» فلا تكون داخلة في صلة الموصول.

ويظهر لي في الآية وجه آخر، وهو أن التقديم هنا يقصد منه، أن الملأ من قوم هود كانوا قسمين: كافرين ومؤمنين، وليس الملأ من قوم نوح كذلك، والذي رجّح هذا التأويل، ما جاء في سورة الأعراف حديثاً عن قوم هود عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٦٦].

والآية الرابعة والأخيرة التي ذكرها صاحب المفتاح، هي قوله سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٧٠]، وبيّن أن تقديم هارون هناك كان مراعاة

(١) حينما تكلم علماء البلاغة عن الجمل وذكروا أن ركني الجملة المسند إليه والمسند، وأن ما عدا ذلك من القيود استثنوا صلة الموصول فلم يجعلوها قيداً لأن الكلام لا يتم بدونها.

للفواصل. وقد قدّمت القول في هذا، وأحب أن أنبه قبل أن أتجاوز هذه القضية إلى أن ما يقوله بعض علماء التفسير، وبعض علماء البلاغة من أن التقديم أو الحذف قد يكون من أجل مراعاة الفواصل قول لا نرتضيه، ولا ينبغي أن يقبل، نحن لا ننكر روعة الإيقاع وجماله في كتاب الله، إنما الذي ننكره ألا يكون مع جمال الإيقاع أمر آخر يتصل بالنظم، يستمد من المعنى مقوماته، فإذا قال تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه:٦٥]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف:١١٥]، وإذا قال تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٧٠]، وإذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى:٥] إلى آخر الآيات.

فليس التقديم في قصة موسى من أجل الفاصلة، وليس الحذف في سورة الضحى في قوله: ﴿قَلَىٰ﴾ و﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ و﴿فَهَدَىٰ﴾، وليس العدول إلى قوله: (ترضى) بدل يرضيك، ليس ذلك كله من أجل الفاصلة -كما يقول بعض العلماء- سامحهم الله-إنما لذلك كله أسراره البيانية، ويأتي جمال الإيقاع وذلك حتى تتم لهذا الكتاب أنواع الحسن، وأسباب الملاحة، وعناصر الفصاحة، لفظيها ومعنويها.

رحم الله السكاكي، فمع جلالة قدره وغزارة علمه، إلا أنه قد تأثر في مسألة مراعاة الفاصلة ببعض من كان قبله، وأثر في بعض من أتى بعده.

إن سر التقديم والتأخير في كتاب الله تعالى -كما قلت من قبل- لا يخرج عما للنظم من فوائد واعتبارات، فليست قضية البيان، قضية لفظية نقدم كلمة تارة ونؤخرها أخرى، أو نحذفها تارة ونذكرها أخرى، بل إنَّ وراء ذلك توجيهاً في مجال من مجالات الموضوعات القرآنية، وقيمة جديرة بالعناية، حريةً بالوقوف أمامها والإفادة منها، وإليك هذه الآيات الكريمة.

١٧ - أ- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن

كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة:٢٢].

ب- قال تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [المعارج:١١-١٨].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

هذه آيات من كتاب الله تبارك وتعالى، إذا تدبرتها فستجد أموراً مشتركة بين هذه الآيات، ولكنك ستجد بعد ذلك غير ذلك، ونبادرك القول بأن المجموعة الأولى من الآيات، إنما هي حديث عن شأن من شؤون المسلمين الدنيوية، أما المجموعة الثانية فهي حديث عن الآخرة.

ولنقف أمام المجموعة الأولى أولاً، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء إن استمروا على الكفر، واقتصرت الآية الكريمة على هذين الصنفين دون الابن والزوج، ذلك لأن الولاية لا تكون لهما، فالإنسان دائماً يتولى من يجد فيه الكفاية، ويجده أهلاً لهذه الولاية، ولا ريب أنه يمكن أن يكون ذلك لأبيه أو لأخيه، ولكنه لا يمكن أن يكون لابنه أو لزوجه، ذلك أن المجتمع العربي مهما سما فيه الرجل، فإنه يبقى تابعاً لأبيه، كذلك المرأة لزوجها، ولكن الآية الثانية

التي جاءت ترغب المسلمين في الجهاد، وذكرت هذه الأصناف الثمانية، الخمسة الأولى تتصل بنسب الإنسان أو غريزته، وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، والثلاثة الأخرى تتعلق بشهوته من حيث عاطفته، وهي الأموال والتجارة والمساكن.

ويعنينا الآن هذا الترتيب البديع في الآية الكريمة، حيث بُدِئَ بالآباء، لا لكونهم لهم الولاية في المقام الأول فحسب، ولكن لأن الآباء كثيراً ما يكونون هم المانعين لأبنائهم من الجهاد، سواء كان ذلك بحكم عاطفة الأبوة، أم بحكم سبب آخر، ثم ثنى بالأبناء، ذلك لأن من أعظم ما يحول بين الرجل وبين الجهاد، تفكيره في مصير أولاده. ومن هنا كان الأبناء «مجبنة مبخلة»[1] -كما في الحديث- «إنكما لتُجَبِّنون وتُبَخِّلون»[2]، فهم مُجَبِّنون لأنهم حالوا بين أبيهم، وبين أن يكون شجاعاً جريئاً في ميادين الحق، ومبخلون لأنهم حملوه أن يجمع لهم وأن يدخر، دون أن يكون جواداً. ثم جاء بعد ذلك دور الإخوة، وهو دور في الحقيقة متأخر عن الآباء والأبناء، ومنعهم من الجهاد إنما يكون بسبب من الأسباب الأسرية، فهم حريون بالولاية -كما قلنا من قبل- .

ثم يأتي دور الأزواج، وإنما أتى دورهن متأخراً فيما يبدو لي - والله أعلم بمراده:

١- لأن الأزواج هنا غالباً لا يحلن بين أزواجهم وبين الجهاد؛ لأن الآية خطاب للمؤمنين، وأزواجهن كذلك، بل هن يرغبن الأزواج ليجاهدوا في سبيل الله.

٢- لأن من طبيعة الرجولة عدم الرضا بالتخلف عن الجهاد بسبب النساء.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٧/ ٤٧٩، رقم ١١٠٦٢، وإسناده ضعيف. وانظر: «كشف الخفاء» للعجلوني، ٢/ ٣٣٩، رقم ٢٩١٦. وانظر: «سنن ابن ماجه» الحديث ٣٦٦٦ ولفظه: «إن الولد مبخلَة مجبنة» وهو في مسند الإمام أحمد، ٢٩/ ١٠٤، برقم ١٧٥٦٢، وفيه تمام تخريجه وتنقيده، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٤٥/ ٢٩٣، برقم ٢٧٣١٤ وإسناده ضعيف.

وخامساً يأتي دور العشيرة، وهي التي يمكن أن تحول بين أحد أفرادها وبين الجهاد في سبيل الله، لاعتبارات قبلية واجتماعية. وتكمل الآية بعد ذلك الأصناف الباقية، بهذا الترتيب البديع.

وأما الآية الثانية فلم تأتِ في سياق الجهاد، وإنما جاءت في سياق المودة، فأنكرت على المؤمنين أن تكون منهم مودة لمن حادّ الله ورسوله، فمن المسلّمات البدهية -كما يدل على ذلك النص القرآني- أنه لا يجتمع الإيمان مع موادة هؤلاء المحادين. والأصناف التي ذكرت في الآية لكريمة: الآباء والأبناء الإخوان والعشيرة، والترتيب هو الترتيب في الآية السابقة، إلا أننا لا نجد هنا الأزواج، وما ذلك إلا لأن القرآن لا يأتي بالكلمة إلا إذا كان لها دواعٍ وأهداف تحتم ذكرها. وحينما تنعم النظر تجد أن كلمة الأزواج لا حاجة لذكرها هنا. فالحديث هنا عن المؤمنين بالله واليوم الآخر، وقد لا يكرم الله الأب أو الابن أو الأخ أو العشيرة بهذا الإيمان، فيكونون من المحادين لله ورسوله، لكن ذلك لن يكون من الأزواج أبداً؛ ذلك لأن المؤمن لن تكون زوجه من هذا القبيل. صحيح أن بعض الأزواج قد لا يرغبن في ذهاب أزواجهم إلى الجهاد، لأسباب عاطفية أو اجتماعية، ولذلك ذكرت كلمة الأزواج في الآية السابقة، أما إن يكون الرجل مؤمناً بالله واليوم الآخر، وأن تكون زوجه محادة لله ورسوله، فذلك لن يكون في المجتمع المسلم أبداً؛ ولذا لم تذكر كلمة الأزواج في هذه الآية الكريمة، لأن ذكرها زيادة وحشو يجلّ عنه كتاب الله.

قل لي بربك، ألا تمتع فكرك بمواطن الإعجاز في الكتاب الخالد. ولنأت إلى المجموعة الأخرى، وهي تحدثنا عن شؤون الآخرة، وإذا تأملتها مرة أخرى، وجدت أن آيات سورة المعارج قدم فيها البنون، والزوج، والأخ، والفصيلة، أي: العائلة والعشيرة، أما الآيات الثانية الواردة في سورة عبس فقد قدم فيها الأخ، فالوالدان، فالمرأة والأبناء. ولا شك أنك تتساءل عن سر ذلك، وأرجو أن تعينني من نفسك باليقظة لتتذوق هذا السر بنفسك.

الآية الأولى، من سورة المعارج يقول الله فيها: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ والآية الثانية تقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ لعلك بدأت تدرك أن السياق ليس سواء، فهو أولاً يتحدث عن ما يوده المجرم، حينما يرى العذاب الذي سيصلاه، والقرآن بحقٍّ يصور لنا نفسيته تصويراً تاماً، فهو يتمنى أن يخلص من هذا العذاب، ولو افتدى بأعز الناس عليه، وأحبهم إليه، وأقربهم منه، إنه على استعداد أن يرمي بهم في هذا العذاب، إذا كان ذلك يخلصه وينجيه. ومن هنا بدأت الآية الكريمة بذكر الأبناء، لأنهم هم الذين يحتلون المكانة الأولى، ويَتَبَوَّءُون منزلهم من سويداء القلب، ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾، ثم يأتي دور الزوج (المرأة)، التي اعتادوا أن يحافظوا عليها وأن يبذلوا دونها المهج، ثم يأتي دور الأخ، ثم دور العشيرة. ونجد أن الآية لم تذكر الآباء؛ لأن حبهم ليس مرتكزاً في العاطفة كحب الأبناء، وبخاصة عند أولئك المجرمين.

أما الآية الثانية، فهي تتحدث عن يوم الموقف وأهواله، وما يلاقيه الناس من شدة وصعوبة، يريد كل أن يعرف مصيره، هذا ما تحدثت عنه الآية الكريمة، ولا شك أن أكثر الناس في المهمات والملمات، يأنس أكثر ما يأنس لأخيه؛ لأنه هو الذي يجد ضالته في الحديث معه، في علاج مشكلة من المشكلات، فغالباً ما يكون هذا الأخ أقرب في حل مشكلات أخيه، من أمه وأبيه، وزوجه وولده، فإذا لم يجد في الأخ ضالته المنشودة، ذهب إلى والديه، ثم يأتي دور الزوج والولد. وأظن أن هذا ليس غريباً على كثير منا الآن؛ فنحن نجد أنفسنا حينما يعوزنا الأمر، وتدعو الحاجة لمشكلة أو معضلة، نحدث إخواننا، بل إن كثيراً من المشكلات لا نخبر بها الآباء ولا الأبناء، لأننا لا نود أن نزعجهم من جهة، ولأننا قد لا نجدهم يصدرون عن حل مقبول لنا من جهة أخرى. ولذا بدأت الآية الكريمة -والحديث عن الفرار وهول الموقف- بالأخ، فالأم والأب، فالزوج والولد، وما ذلك إلا لما قاله القرآن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

١٨ - صفات المؤمنين:

أ- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:١٦-١٧].

ب- وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢].

ج- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

إذا تأملت هذه الآيات، وجدتها جميعاً تتحدث عن صفات المؤمنين الذين يحبهم الله ورسوله ﷺ، ولكنك تجد فيها أمرين:

١ - أن بعضها ذكر في بعض الآيات دون بعض، كصفة التوبة التي لم تذكر إلا في آية براءة.

٢ - أن بعضها قد قُدِّمَ على بعض، في بعض الآيات، كالصبر الذي قدم في آية آل عمران على الصدق، ولكنه أخّر عنه في آية الأحزاب.

ولا أود أن أطيل عليك كثيراً، وأرجو أن تفكر وتستنتج، آية آل عمران ذكر قبلها قضيتان اثنتان: كانت الأولى قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣].

وكانت الثانية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤]. وجاءت بعد ذلك هذه الصفات، وما أظن أحداً يماري، بأن قضية الجهاد، والتغلب على الزينة كلتيهما محتاجة أكثر ما تكون إلى الصبر، ومن هنا قُدِّمَ في الآية الكريمة، ولم يذكر فيها من الصفات إلا ما يدعو إليه المقام، وتقتضيه الحاجة، كالصدق، والطاعة، والإنفاق، والاستغفار بالأسحار، الذي يمكن أن تشغل عنه الأنعام والحرث، فلا يكون المؤمن راهب ليل وفارس نهار.

أما الآية الثانية آية براءة، فجاءت بعد ذكر فئات من المنافقين، أو من الذين خالفوا أمر النبي ﷺ في غزوة تبوك، كما ذكر قبلها مباشره قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ﴾ [التوبة:١١١]، وذكر بعدها نهي المؤمنين عن أن يستغفروا للمشركين، ثم توبة الله تبارك وتعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة:١١٧] ولذا تجد أن الصفات في الآية الكريمة بدئت بذكر التوبة، وذكر فيها ما يقتضيه المقام -كما قلنا من قبل-.

أما الآية الثالثة فجاءت إجابة لسؤال بعض النساء، اللواتي سألن رسول الله ﷺ فنزلت، ولذا جاءت تعداداً للصفات التي لا بد أن يتحلى بها المسلمون والمسلمات، فبدأت أولاً بذكر هاتين الصفتين ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ليُبْنَى عليهما بعد ذلك الصفات الرئيسة التي لا بد أن يتحلى بها الرجال والنساء معاً، ولقد لوحظ في كل من هذا الترتيب الذي يناسب سياقها، والله أعلم بما ينزل، وبعد فهذا نمط عجيب النظم، وهو كثير في كتاب الله تعالى، وأرى القلم يود أن يسترسل، ولكننا مضطرون أن نقفه لنأتيك بنمط آخر، ونرجو أن يوفقنا الله لإخراج كتاب، نحاول أن نستقصي فيه كثيراً من هذه الأنماط الكريمة، لتكون تكملة لهذا الكتاب.

المبحث الرابع
القصر

وإليك نمط آخر، مما أمر القرآن فيه بديع النظم، عجيب التأليف:

١ - أ- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ [محمد:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ ﴾ [الحديد:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء:١٧١].

ب- وقال سبحانه: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة:٧٣]، وقال سبحانه: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [المائدة:٧٥].

تدبر هذه الآيات الكريمة، وستجد أن كل واحدة منها جاءت بأسلوب القصر، وهو من الأساليب التي تؤدي غرضاً بيانياً، ولكنك ستجد أن بعضها كانت فيه أداة القصر (إنما)، وبعضها الآخر كانت أداة القصر فيه (ما) و(إلا).

ولا بد أن أطلعك على طرف يسيرٍ مما قرره أئمة البيان، ومما استندوا في تقريره إلى استقراء الكلام البليغ؛ فلقد فرقوا بين أدوات القصر، ويعنينا الآن هاتان الأداتان، (إنما) و(ما وإلا).

فأما (إنما) فيؤتى بها للشيء الذي لا يجهله المخاطب، ولا ينبغي أن يشك فيه، وإنما يراد تنبيهه وتذكيره، كما تقول لمن يعق أبويه، ولمن يؤذي صديقه: «إنما هما أبواك» و«إنما هو صديقك» فهو لا يجهل هذا الأمر، ولا يجوز أن تقول له: «ما هما إلا أبواك»، و«ما هو إلا صديقك».

أما (ما وإلا) فهي على العكس من ذلك، فيؤتى بها لما يجهله المخاطب أو ينكره، تقول لمن ينكر أن علاج الأمة بعودتها إلى الإسلام: «ما دواء الأمة إلا الإيمان»[1].

إذا تمهد لك هذا، فارجع إلى الآيات الكريمة، وستدرك بنفسك روعة الإعجاز، وروعة البيان؛ فالآيات الأولى التي تحدثت عن الدنيا، الأولى في سورة سيدنا محمد ﷺ ، والثانية في سورة الحديد وهما سورتان مدنيتان، خوطب بهما المؤمنون، والمؤمنون لا يرتابون في هذه الحقيقة، أما الآيتان الأخريان، فإحداهما في سورة الأنعام، والأخرى في سورة العنكبوت، والأولى مكية بالإجماع، وكذلك الثانية على أرجح القولين، وهما في سياق الحديث عن غير المؤمنين، لذلك جاءت صورة النظم كما رأيت. (إنما) في الآيتين الأوليين، و(ما وإلا) في الآيتين الأخريين.

أما الآيتان اللتان تحدثتا عن المسيح عليه السلام ، فلقد جاءت الأولى في سياق الإهابة بأهل الكتاب، أن يبتغوا الحق، جاءت في سياق التأنيس لهم وملاطفتهم، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ . أما الآية الثانية فلقد جاءت في معرض الرد عليهم، ومحاجتهم، وكذلك الآيتان اللتان تحدثتا عن وحدانية الله. وما

---

(١) راجع مبحث القصر في البلاغة فنونها وأفنانها.

عليك إلا أن ترجع إلى الآيات مرة أخرى، لتجد مصداقية هذه الحقيقة. ألا تجد أن في هذا تطبيقاً عملياً لقضية الإعجاز البياني؟

ويمكن أن نتساءل هنا ولكن لِمَ قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ والآية خطاب للمؤمنين؟ وعلى القاعدة التي ذكرت، كان ينبغي أن يقال: «إنما محمد رسول»، لأنهم مؤمنون برسالته عليه وآله الصلاة والسلام؟ والحق أن هذه الآية إنما هي شاهدة بصدق على ما قررته لك، وإليك البيان:

الآية -كما تعلم- جاءت في غزوة أُحد، حينما أشاع الكافرون أن النبي ﷺ قد قتل، فجزع المسلمون وتفرقوا فنزل قول الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤] فالآية الكريمة جاءت تقرر المؤمنين، معاتبة لهم على ما كان منهم، تقول لهم: انفرط عقدكم حينما سمعتم أن النبي قتل؟ أليس الرسول بشراً؟ أليس شأن البشر أن يموتوا؟ فإذا أنكرتم أن يقتل النبي أو يموت، فقد أنكرتم بشريته، وذلك أمر لا ينبغي لكم، ولا يليق بأمثالكم، ويدل لهذا قوله سبحانه: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤]. فإذا كنتم مؤمنين أن النبي بشر، فينبغي أن توطنوا أنفسكم على أنه يمكن أن يقتل أو يموت، ألا ترى بعد هذا أنه لا يجوز أن يقول: «إنما محمد رسول قد خلت من قبله الرسل»، لأن الآية ما جاءت تحدثهم عن رسالته ﷺ ، فهذا أمر لا يجهلونه، وإلا فكيف خرجوا معه للجهاد؛ إنما جاءت تلومهم وتعاتبهم على ما فرط منهم، حينما أشيع ما أشيع، وكان منهم ما كان.

٢- وهاتان آيتان من كتاب الله، إحداهما قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩]، والثانية قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨].

وإذا تدبرنا الآيتين نجد أن بينهما فرقين اثنين:

أولاً: هو أداة القصر (إنما) في الآية الثانية، و(لا وإلا) في الآية الأولى. وقد عرفت الفرق بينهما قبل قليل.

ثانياً: الآية الأولى قدّم فيها الفاعل، وهو الواو في (يخشون) والآية الثانية قدم فيها المفعول وهو (الله)؛ وإنما يقدم الفاعل حينما يكون التركيز على المفعول، ويقدم المفعول حينما يكون التركيز على الفاعل. فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨] ففي هذه الآية قدم المفعول وهو (مساجد) وأُخّر الفاعل وهو (من آمن) فالتركيز إذن على الفاعل، فمعنى الآية إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، لا أنتم أيها الكافرون المعرضون عن الحق.

وإذ قرأنا قول النبي ﷺ : «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[1] التي قدم فيه الفاعل، ندرك أن التركيز على المفعول، أي: يأكل الذئب القاصية المبتعدة عن رفيقاتها وأخواتها، لا الملتصقة بهن، فإنه لا يستطيع أكلها.

ومنها تدرك أنه لو قيل: «إنما يعمر المؤمنون مساجد الله» كان المعنى أنهم يعمرون المساجد فقط ولا يعمرون دنياهم ولا بيوتهم، وهذا لا يقصد إليه القرآن، ولو قيل: «إنما يأكل القاصية الذئب» لكان المراد يأكلها الذئب وليس الأسد، وهذا غير متصور بالطبع.

بعد هذا البيان الذي لا بد منه نرجع إلى الآيتين السابقتين، فآية فاطر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ جاء القصر فيها بـ (إنما)؛ لأنها قضية حري أن لا تُجهل، وهو أن العلماء هم الذي يخشون الله أكثر من غيرهم، ثم إن (إنما) هذه تفيد التعريض، فهو تعريض بالذين يدّعون العلم ولا يخشون الله تعالى، كأنهم ليسوا من العلماء في شيء، وقدم فيها المفعول؛ لأن معنى الآية إثبات الخشية للعلماء، أي

---

(١) أخرجه أبو داود، ٥٤٧. النسائي، ٢/ ١٠٦، وهو حديث صحيح من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

العلماء هم الذين يخشون الله حق الخشية، ولو قال: «إنما يخشى العلماء الله» لكان المعنى أن العلماء يخشون الله، ولا يخشون غيره، وهذا لا تقصد إليه الآية الكريمة.

أما آية الأحزاب فقد جاءت في سياق خطير يتصل به ﷺ اتصالاً مباشراً، جاءت حديثاً عن زواجه بزينب رضي الله عنها، زوج زيد الذي كان قد تبناه ﷺ قبل الإسلام، تلك القضية التي أراد أن يستغلها الحاقدون، والتي كان النبي ﷺ يجد في نفسه حرجاً، لأنه سيخرج عن عُرف الناس في ذلك الوقت، فقال الله له ما قص علينا في كتابه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ [الأحزاب:٣٧-٣٩].

قدم الفاعل هنا -إذن- لأنه ليس المقصود أن يثبت أن أولئك المبلغين لرسالات الله يخشون الله أكثر من غيرهم، فتلك قضية بدهية لا تحتاج إلى إثبات، إنما الذي يتطلبه السياق هنا هو أن هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله ينبغي أن يخشوا الله وحده دون النظر إلى غيره، فما بالك أيها النبي تخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

هذا سر تقديم الفاعل. أما استعمال أداة النفي (وإلا) في قوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، فلأن السياق يتطلب ذلك كذلك؛ لأن عدم إقدام النبي ﷺ على هذا الأمر، وإخفائه في نفسه جعله يعامل معاملة المنكر، فجاءت أداة القصر -كما رأيت- فلله در التنزيل.

وأكتفي بما حدثتك به عن الجملة القرآنية، وأرجو أن يكون في هذه الأنماط المتعددة ما يكفيك ويغنيك، كما أرجو أن يكون مقنعاً لكل أولئك الذين يرتابون في أمر الإعجاز، أو يجهلونه. ولأنتقِلْ بك الآن إلى الفقرة القرآنية، ذات الجمل

المتعددة، وسوف أجتزئ لك ولا أطيل عليك إن شاء الله. واعلم أن ما ذكرتُه لك من قبل، وما سأذكره لك فيما بعد، لم يذكر لخصوصية فيه دون غيره من كتاب الله، فالقرآن كله سواء. إنما ذلك هو الذي يَسَّرَه الله تبارك وتعالى. وقد تأتي أنت بشيء آخر، وغيرك يأتي بغير ما أتيتَ به. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفصل السابع

الفقرة القرآنية

إذا كانت كلمات القرآن مختار منتقاة -كما عرفت- وكانت مظهراً من مظاهر إعجازه؛ فإن ترتيب هذه الكلمات -لا شك- أدل على هذا الإعجاز؛ ذلك أن كلمات القرآن هي مما عرفه العرب، ونطقوا به، لكن ترتيب هذه الكلمات بعضها مع بعض، هو الذي ألبسها هذه الحلّة المهيبة القشيبة، فخلع عليها من الأسرار الإلهية، ما أعجز العرب وأدهشهم.

لقد استعمل العرب اسم الإشارة (ذلك)، وعرفوا كلمة (كتاب)، وذكروا (الريب) في خطبهم وشعرهم، وكذلك تحدثوا عن العدل، وكانوا يمدحون الإحسان، ويكرهون الفحشاء، وينفرون من البغي، كل هذه الكلمات لم تكن جديدة على العرب، لأنها من صميم لغتهم، لكن الذي بهرهم هو وضع هذه الكلمات في قوالب يظهر فيها التناسق والتلاؤم، وجمال الإيقاع وجمال التنسيق على السواء، وجمال الإيقاع يرجع إلى الرونق والذوق، وجمال التنسيق يرجع إلى المعنى، فيجتمع للكلام جانبان اثنان: الجانب النفسي، والجانب الفكري معاً.

ومن هنا فحينما طرق سمعهم لأول مرة قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:١-٢]، وقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل:٩٠]، رقصت قلوبهم طرباً، وابتهجت نفوسهم ثناءً وعجباً. ولا تظنن أن بعض جمل القرآن لها هذا الأثر، وهي التي يمكن أن يصدق عليها ذلك النبأ والخبر، بل جمل القرآن كلها سواء.

ولقد ركز الأقدمون على قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ [هود:٤٤] فظن بعضهم أن لها من المزيّة ما لا يوجد في غيرها من الآيات؛ ولذلك اختار أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز آيات أُخر من كتاب الله، كما مر معك في الجزء الأول، وسنختار لك ما ييسره الله تبارك وتعالى. وقد يختار غيرنا غير ما اخترناه نحن، كل الذي نرجوه أن لا يدور بخلدك، وأن لا يستقر في فكرك، أن بعض الآيات والجمل القرآنية تستحق العناية أكثر من غيرها؛ فالقرآن الكريم كله نسق واحد، يمتاز بالوحدة الفنية، كما يمتاز بالوحدة الموضوعية، لا فرق في ذلك بين مكيه ومدنيه، وسيأتيك خبر يقين بعد حين إن شاء الله.

أولاً: وأول ما نختاره لك، أول نجم نزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ وهي الآيات الأولى من سورة اقرأ، فلنتدبر هذه الآيات معاً ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق:١-٥].

تدبر هذه الآيات، وارجع البصر والبصيرة فيها كرتين، ولنقف أولاً مع كلماتها: اقرأ، رب، أكرم، خلق...إلخ، وستجد أن هذه الكلمات خفيفة على اللسان، وفي السمع على السواء، ثم هي بعد ذلك قريبة سهلة ميسرة الفهم، ثم هي بعد هذا وذاك، واضحة الدلالة، وارفة الظلال؛ فهي كلمات معبرة موحية.

إذا تركنا هذه الخصائص الثلاث لهذه الألفاظ مفردة، لننتقل للحديث عنها في جملها، فسنجد الروعة والإبداع، والآيات كما نعلم من سبب نزولها كانت بداية الوحي، وها هو الروح الأمين يطلب من النبي ﷺ أن يقرأ، والنبي الكريم يقول ما أنا بقارئ، ثم بعد الثالثة يقول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، والأمر بالقراءة للنبي الأمي، والأمة الأمية بَشيرُ خيرٍ بما سيفتحه الله على هذه الأمة. ثم إن هذه القراءة إنما

هي باسم ربك، والرب هو السيد المالك المربي، وكم يحمل هذا الاسم الجليل من الإيناس للنبي الذي لم يعتد هذا الوحي من قبل، وهذا هو السر في اختيار كلمة (الرب) دون اسم الجلالة (الله). ثم إن هذا الرب الذي تقرأ باسمه، كثيرُ النِّعَمِ، عظيم المنن، فهو الذي خلق، ولكن أي خلق هذا الذي خلقه، نجد أن الكلمة تذكر مرتين، تذكر أولاً مطلقة غير مقيدة، وتذكر ثانية واقعة على هذا الإنسان، ومعنى هذا أن ربك الذي تقرأ باسمه، المربي المتعهد المالك، والمنعم بنعمة الخلق؛ خلق كل شيء، فهو الذي خلق أنواع المخلوقات مهما تعددت، ولكنه أفرد الإنسان بالذكر، وما ذلك إلا ليبين لهذا الإنسان أنه لم يخلقه سبحانه إلا بعد أن خلق له كل شيء، من أجل أن يتمكن من الحياة على هذه الأرض.

ثانياً: قال تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم:١٧-٢٧].

بدأت هذه الآيات الكريمة بالثناء على الله تبارك وتعالى، واستحقاقه التسبيح والتحميد، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق، والحمد الثناء عليه بما يستحق، وسبحان

الله تملأ الميزان، والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والثناء على الله حريٌّ به أن يستغرق الأزمنة والأمكنة جميعاً، وهذا ما أرشدت إليه الآيات بعبارة موجزة محكمة، أما الزمان ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وهذه الألفاظ تستغرق الزمان كله، وأما المكان ففي قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وبعد هذا الثناء على الله، الذي يستغرق الأزمنة والأمكنة جميعاً، يذكر سبحانه آثار قدرته، التي تتجدد، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهي قضايا كونية ذات صلة وثيقة بالإنسان، ويعبر عنها بالفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وتلك مقدمات للحقيقة الكبرى التي هي البعث والنشور ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد هذا الإجمال يأتي دور التفصيل ولكنه تفصيل يستمد عناصره من هذا الإنسان ومما يدور حوله، أما الآية الأولى فهي تتحدث عن خلق هذا الإنسان، وهو العنصر الرئيس في هذه الحياة، تتحدث عن خلق هذا الإنسان من تراب ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾. والحديث عن خلق الإنسان من تراب، يأتي دائماً في مجال الامتنان وبيان القدرة، أما الحديث عن خلقه من نطفة فيأتي دور التوبيخ والتسجيل على هذا الإنسان، ولا بد أن نسجل هنا ونشير إلى هذه اللطائف في نظم الآية الكريمة.

١- وأول هذه اللطائف هذا التقديم للجار والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٢- هذه الأداة الدالة على التأكيد (أن).

٣- هذا الحرف الدال على التراخي (ثم) سواء كان هذا التراخي زمنياً أم رتبياً؛ لبُعد ما بين التراب والإنسان.

٤- (إذا) التي نلمح فيها عنصر المفاجأة، وما أعظم أن يتحول هذا العنصر الترابي، فتصبح هذه الذرات الميتة، عناصر حية، هذه الذرات الثابتة في مكانها، تصير عناصر بشرية منتشرة، لا تستقر في مكان، وإنما يتجدد انتشارها هنا وهناك.

٥- هذه الجملة الاسمية: أنتم بشر.

٦- ما ختم به الآية وهي هذه الجملة الفعلية: تنتشرون.

وبعد هذا تأتي الآية الثانية وهي خاصة بالإنسان كذلك، وإذا كانت الآية الأولى تتحدث عن عناصر الخلق، فإن هذه الآية الثانية جاءت تتحدث عن نعمة البقاء والاستمرار على هذه الأرض، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. وحري أن نسجل الدقائق البيانية التالية:

١- زيادة على ما تقدم في الآية الأولى نجد قوله سبحانه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾، وذلك كي تكمل النعمة الإلهية، وتتم المنّة الربانية؛ وذلك من أجل أن تكون الطمأنينة والسكن.

٢- قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾، والجعل إنما يكون بعد الخلق؛ لأن فيه معنى التصيير.

٣- كلمة مودة وإيثارها على كلمة «حب».

٤- الجمع بينها وبين الرحمة، وهما ركيزتان لا تتم السعادة الزوجية إلا بهما.

٥- قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ فالخلق من تراب آية، وخلق الأزواج من الأنفس آية، والمودة والرحمة آية، فهذه آيات متعددة.

٦- قوله سبحانه: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ حيث ذكرت مادة التفكير أولاً، وبصيغة المضارع ثانياً؛ أما مادة التفكير؛ فلأن تلك القضايا بحاجة إلى تأمل

واستنتاج وروي، وأما صيغة المضارع؛ فلأن هذا التفكير حري أن يتجدد في مثل هذه القضايا؛ لأن في تجدده إدراكَ دقائق كثيرة، والوصول إلى معارف دقيقة، ولا يزال الإنسان يكتشف جديداً في هذا المجال، وسيظل كذلك.

وأما الآية الثالثة وهي قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فنلحظ فيها روعة البيان فيما يلي:

١- تغير النظم في هذه الآية عن سابقتيها، فلم يقل: «ومن آياته أن خلق السموات والأرض»؛ وذلك والله أعلم لأن خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى تأكيد من جهة، وهو أمر ثابت لا يظهر فيه التجدد والحدوث من جهة أخرى، فالأرض والسموات هي هي، منذ أن استقر الإنسان على الأرض، كذلك اختلاف الألسنة والألوان، فإنهما أمران طبيعيان في هذا الإنسان.

٢- قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وقد تحدثنا عن سر كلمة آيات: في خلق السموات آية، وفي الأرض آية، وفي اختلاف الألسن آية، وكذلك في اختلاف الألوان، وبقي قوله تعالى: ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ وهذه إحدى آيتين[1] في كتاب الله ختمت بهذه الخاتمة، أعني العالِمين وهي جمع عالِم؛ وما ذلك والله أعلم - إلا لأن معرفة هذه القضايا، وإدراك أسرارها؛ أعني طبيعة السموات وطبيعة الأرض ما وفيهما من أسرار، وكذلك اختلاف اللغات، واختلاف الألوان اللذين نشأ عنهما اختلاف الأجناس البشرية، كل أولئك بحاجة إلى علم ومعرفة، فلا يدرك طبيعة ذلك وسره إلا أولئك العالِمون.

(١) والآية الثانية قوله سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

أما الآية الرابعة فهي قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم:٢٣] ولما كان هذان الأمران -أعني المنام وطلب الرزق- أمران جبليان في الناس، وكان كل منهما بحاجة إلى صاحبه، فمن البدهي أن الذي يريد أن يكدح ويطلب الرزق لا بد أن تتهيأ له الراحة الجسمية والنفسية، وللنوم أكبر الأثر في ذلك، أقول: لما كان هذان الأمران كذلك، عبّر بلفظ المصدر -منام وابتغاء- كما في الآية السابقة.

وعلماء البيان يرون أن في الآية من البديع ما يسمونه لفاً ونشراً، فلقد ذكر الله أمرين: المنام والابتغاء من فضله، ثم ذكر ظرفين الليل والنهار، فلا بد أن نرجع كل مظروف لظرفه الذي وقع فيه، والنوم غالباً ما يقع في الليل، والكسب يقع أكثر ما يقع في النهار، فكان المعنى -إذن- ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله في النهار.

هذا ما قرره الأئمة من قبل، وأرى أنه لا بد من تعقيب؛ فمع جلالة القائل، وسداد القول؛ إلا أنني أرى أن في الآية الكريمة من الأسرار ما هو وراء ذلك، وإليك البيان:

إذا وقفنا مع الآيات التي تتحدث عن نِعَم الله بالليل النهار ولا أقول: في الليل والنهار[1] - أي عن الآيات التي تحدثنا أن الليل والنهار هما نعمة من النعم، فإن أول ما يلفت الانتباه جمع القرآن بينهما، نقرأ ذلك في قوله الله سبحانه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان:٦٢]، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ

(١) والفرق بينهما ظاهر، لأن (في) تدل على الظرفية، فمعنى قولنا: «آياته في الليل والنهار» أي: الآيات التي تقع في الليل والآيات التي تقع في النهار، أما القول بالليل والنهار فهو أعم، لأن معناه الآيات التي تكون بسبب الليل، والأخرى التي تكون بسبب النهار.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [القصص:٧٣] ونلحظ من هذه الآية وتلك، ومن الآية التي نحن بصدد الحديث عنها كذلك، أن الله تعالى لم يفصل الليل عن النهار، فلم يأتِ نظم الآية (ومن رحمته أن جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله) وإنما جمع الليل والنهار، ورتب عليهما ما بعدهما من النوم والابتغاء.

وإذا كانت هذه سنّة القرآن التي جرى عليها نظمه المعجز، فلا بد من أمر وراء ما يسميه البديعيون باللف والنشر، ويلوح لي من ذلك حِكمتان:

الأولى: أما الحكمة الأولى فهي أن النظم جاء على ما هو عليه، ولم يفرد الليل بالنوم والنهار بالابتغاء؛ لأن هناك أناساً اقتضت طبيعة ظروفهم أن يعملوا في الليل، وهؤلاء لا بد أن يناموا في النهار، ولو أن نظم الآية لم يكن على ما هو عليه، لخرج هؤلاء عن سياق الخطاب، لأنهم يعملون في الليل لا في النهار، والآية لا بد أن تكون خطاباً لهؤلاء وأولئك.

الحكمة الثانية: وهي أدق وأدل على الإعجاز القرآني. بيان ذلك؛ أن الآية جاءت خطاباً للناس عامة، ولا بد أن تصلح لهم جميعاً، ونحن نعلم بداهة أن الليل حينما يأتي لا يأتي على الدنيا جميعها، وكذلك النهار، أي: الناس جميعاً لا يشتركون في ليل واحد ونهار واحد، فالليل عند قوم نهار عند آخرين، والنهار عند قوم ليل عند آخرين كذلك. وإذا كان ذلك كذلك ظهر لنا السر الرائع، الذي جمع القرآن فيه بين الليل والنهار على حدة، وبين ما يكون فيهما من أمور على حدة.

منامكم بالليل والنهار -وهذا صحيح- لأن نومنا نحن بالليل، ونوم الأمريكيين وغيرهم يكون بالنهار بالنسبة لنا نحن، والعكس صحيح، وكذلك الابتغاء من فضل الله يقال فيه ما قلنا في شأن النوم. هذا الذي يظهر لي في نظم الآية، والله أعلم بمراده، ونرجو أن يكرمنا ويفتح لنا من فضله ورحمته.

وهنا قضية أخرى جديرة بالإشارة إليها كذلك، وهي من أسرار الحرف في كتاب الله، وللحرف القرآني رسالة عظيمة وهي أن الله سبحانه لم يقل: «مناكم في

الليل والنهار» وشتان بين هذين الحرفين الباء و(في)، ويظهر أن المفسرين لم يشيروا إلى مثل هذه القضايا؛ لما اشتهر عندهم من أن حروف الجر تتناوب، وعلى هذا يكون ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ يعني «مناكم في الليل».

ولكن الذي يظهر لي غير ذلك؛ فالله تبارك وتعالى لا يريد أن يبين لنا أن نومنا في الليل، وكسبنا في النهار هو الآية؛ وإنما يريد أن يبين لنا أن الآية إنما تكمن وتظهر في تقسيم الزمان إلى ليل ونهار، فيُجْعَلُ كلٌّ منهما ظرفاً لما يناسب الشعوب والأفراد، ولعلك تدرك الفرق بعد ذلك بين هذين الحرفين، فلو قيل: «ومن آياته مناكم في الليل والنهار وابتغاؤكم من فضله» لكان المعنى أن الآية هي النوم والكسب، وهذه من الأمور البدهية -كما قلت-. لكن الآية جاءت على غير هذا النظم، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ والمعنى أن من آيات الله تعالى التي تستحق أن تتدبروها، هو أنه جعل لكم هذا الزمن ليلاً ونهاراً، فتكون لكم شؤون بسبب وجود الليل، وأخرى بسبب وجود النهار.

وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾ أما الحديث عن الآيات فقد مرّ من قبل، وأما قوله سبحانه وتعالى: (يسمعون)؛ فلأن مثل هذه الأمور -أعني النوم وطلب الكسب ليلاً ونهاراً- لا تحتاج إلى كبير تأمل وكثير تفكير، كل ما تحتاجه أن يكون لك قلب، أو تلقي السمع وأنت شهيد، ذلك لا يحتاج إلا إلى السماع فقط.

أما الآية الخامسة وهي قوله سبحانه: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ [الروم:٢٤] فإنا نلحظ فيها من أسرار البيان ما يلي:

١- فلقد أخذ النظم في هذه الآية سبيلاً غير الذي عرفناه من قبل، ففي الآيتين الأوليين وجدنا التعبير ﴿أَنۡ خَلَقَ﴾ حيث ذكر الفعل الماضي مقترناً بـ (أن)،

وفي الآية الثالثة والرابعة وجدنا التعبير بالمصدر ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ ﴿مَنَامُكُم﴾ ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ أما هنا فيأتي التعبير بالفعل المضارع، خالياً من التأكيد؛ وما ذلك إلا لأن رؤية البرق من الأمور الضرورية التي يدركها الإنسان، ثم هو متجدد بتجدد الأوقات والأزمنة التي تقتضيها طبيعة الأمكنة جغرافياً، وكذلك يقال في إنزال الماء من السماء، وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كل ذلك جاء بصيغة المضارع.

٢- قوله سبحانه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وهما كالمتضادين، ولكنها الحقيقة؛ خوفاً مما يمكن أن يحدث مما لا تحمد عقباه، وطمعاً فيما يرجوه الإنسان مما يكون به قوام حياته.

٣- هذه الدقة في استعمال كل من هذين الحرفين في موضعه، أعني... ﴿وَيُنَزِّلُ﴾.. ﴿فَيُحْيِۦ﴾، حيث استعمل حرف العطف الواو أولاً، والفاء ثانياً، والواو -كما يقولون- لا تدل على ترتيب ولا تعقيب، وهما يفهمان من الفاء، فلماذا ذلك يا ترى نحن نعلم أن رؤية البرق قد لا يعقبها إنزال المطر، وهذا أمر مشاهد؛ فقد يكون إنزال الماء دون أن نرى برقاً، ولكن إحياء الأرض مرتب على إنزال الماء، فانظر إلى هذا النسق البياني.

٤- قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾، أما كلمة «آيات» فلقد عرفت سر استعمالها من قبل، وأما قوله سبحانه: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. فما ذلك -والله أعلم- إلا لأن هذه الأمور، وهي رؤية البرق، وإنزال الماء، وإحياء الأرض، لا تتطلب من الإنسان إلا أن يستعمل عقله ليدرك آثار قدرة الله وعظيم فضله، فلا تحتاج إلى تفكير كالقضية الأولى، ولا تحتاج إلى كبير علم وكثير معرفة كالقضية الثانية.

ثم تأتي الآية السادسة وهي الغاية من كل ما تقدم، وكأنّ كل ما تقدم مقدمات لها وأدلة عليها، وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم:٢٥].

تذكرنا الآية الكريمة بأن من آيات الله تبارك وتعالى، أن يقوم السماء والأرض بأمره، وقيامهما على ما ذهب إليه المفسرون، بقاؤهما بأمر الله إلى أجل مسمى، وهذه بالطبع تختلف عن الآية السابقة في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ لأن أمر البقاء يختلف عن أمر الخلق.

ثم بعد هذا التفصيل لهذه الآيات المشاهدة، التي لا يرتاب فيها أحد، يقول الله سبحانه مبيناً أمر البعث: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وعطف البعث على الأمور المشاهدة، المعلومة بالضرورة للناس، وإلحاقه بها دليل على أنه كذلك ينبغي أن لا يرتاب فيه أحد.

وإذا كنا قد تحدثنا من قبل عن هذه الآيات، من حيث نظم كل واحدة منها مفردة، فلا بد من أن ننظر في الآيات الكريمة من حيث نسقها، أي: مجيئها على هذا الترتيب، وهي قضية ذات أثر وشأن في الإعجاز البياني.

كانت أول آية من هذه الآيات خلق الناس من تراب، أما الآية الثانية فهي خلق الأزواج من أنفسهم ليسكنوا إليها، سواء قلنا بخلق حواء من آدم -كما جاء في بعض الروايات- أم من جنسه حتى لا يكون بينهما تنافر. وبعد هذه الآية ذكر خلق السموات والأرض، وهي من الأمور التي لا يمكن للحياة أن تكون إلا بها. ثم ذكر ما هو ناشئ عن السموات والأرض، وهو إما أمر لازم للإنسان لا يفارقه، وهو اختلاف الألسنة والألوان، أو من الأمور المتجددة وهو النوم والابتغاء من فضله. ثم ذكر من الآيات ما هو أقل حدوثاً من سابقه، وهو قوله: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾. ثم ختمت هذه الآيات بقيام السماء والأرض مسخرتين بأمره، ثم ذكر الغاية من ذلك كله وهي تقرير البعث.

ونجد من هذا النسق أنه بدأ بخلق الإنسان، ثم خلق السموات والأرض، وكل ما ذكر بعد ذلك فهو ناشئ عن وجود الإنسان ووجود السموات والأرض، ألا ترى أن اختلاف الألسنة والألوان، والليل والنهار، ورؤية البرق، وإنزال الماء، وإنبات النبات، كل أولئك أمور ناشئة عن وجود السموات والأرض، ووجود الإنسان على الأرض.

ذلك هو النسق البديع في ترتيب آيات القرآن، وما شملته من قضايا وموضوعات متعددة. وقال أبو حيان: «وبدأ أولاً من الآيات بالنشأة الأولى، وهي خلق الإنسان من التراب، ثم كونه بشراً منتشراً، وهو خلق حي من جماد، ثم أتبعه بأن خلق له من نفسه زوجاً وجعل بينهما تواد، وذلك خلق حي من عضو حي، وقال: لقوم يتفكرون؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالفكر في تأليف بين شيئين لم يكن بينهما تعارف، ثم أتبعه بما هو مشاهد للعالم كلهم وهو خلق السموات والأرض، واختلاف اللغات والألوان، والاختلاف من لوازم الإنسان لا يفارقه، وقال: للعالمين؛ لأنها آية مكشوفة للعالم، ثم أتبعه بالمنام والابتغاء وهما من الأمور المفارقة في بعض الأوقات، بخلاف اختلاف الألسنة والألوان، وقال لقوم يسمعون؛ لأنه لما كان من أفعال العبادة قد يتوهم أنه لا يحتاج إلى مرشد، فنبه على السماع، وجعل البال من كلام المرشد، ولما ذكر عرضيات الأنفس اللازمة والمفارقة، ذكر عرضيات الآفاق المفارقة من إراءة البرق وإنزال المطر، وقدمها على ما هو من الأرض وهو الإماتة والإحياء، كما قدم السموات والأرض، وقدم البرق على الإنزال؛ لأنه كالمبشر يجيء بين يدي القادم ، والأعراب لا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب إلى جانب، وقال: لقوم يعقلون؛ لأن البرق والإنزال ليس أمراً عادياً فيتوهم أنه طبيعة، إذ يقع ذلك ببلدة دون أخرى، وقتاً دون وقت، وقوياً وضعيفاً، فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار، فقال: هو آية لمن عقل بأن لم يتفكر تفكراً تاماً، ثم ختم هذه الآيات بقيام السموات والأرض، وذلك من العوارض اللازمة؛ فإن كلاً من السماء الأرض لا يخرج عن مكانه، فيتعجب من

وقوف الأرض وعدم نزولها، ومن علو السماء وثباتها من غير عمد، ثم أتبع ذلك بالنشأة الأخرى وهي الخروج من الأرض.

وذكر تعالى من كل باب أمرين؛ من الأنفس خلقكم وخلق لكم، ومن الآفاق السماء والأرض، ومن لوازم الإنسان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان، ومن خواصه المنام والابتغاء، ومن عوارض الآفاق البرق والمطر، ومن لوازمه قيام السماء وقيام الأرض»[1].

ولا أود أن أطيل عليك؛ فذلك شأن القرآن الكريم كله، ولكن الآيات التي ذكرتها لك كانت جميعها آيات مكية، ولا بد أن نقف معك مع بعض الآيات المدنية التي تتحدث عن الأحكام. وسأقتصر على موضعين:

الأول: آية الدين، وهي أطول آية في كتاب الله.

الثاني: آيات المواريث.

وإنما اخترت لك هذين الموضعين؛ لأن قضية البراعة، وجمال النسق، وروعة الإيقاع، تختلف من موضوع لموضوع، فليست هي في قضايا التشريع والتقنين، كما هي في أمور القصة والوصف والترغيب والترهيب، ولكن ستجد النص القرآني سواءً؛ وما ذلك إلا لأنه تنزيل رب العالمين.

آية الدين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ

(١) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ج٧، ص١٦٨.

﴿... إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾ [البقرة:٢٨٢-٢٨٣].

وإذا تأملت الآية الكريمة، وجدتها في ترتيبها ونسقها، ونظمها، برهاناً ساطعاً، وحجة قاطعة، على حجية القرآن وإعجازه، وهي أطول آية -كما قلت لك-، والطول -كما تعلم- مظنة لعدم الإتقان، والإحكام، ثم هي قضية من أخطر القضايا شأناً؛ إنها تتحدث عن شؤون الأموال، فليست وصفاً لمظهر من مظاهر الطبيعة، ولا لحدث من أحداث اليوم الآخر، مما تنخلع له القلوب، أو تطرب له الأفئدة. ولنقف مع الآية الكريمة في نظمها.

بدأت الآية بنداء المؤمنين، هذا النداء الذي يشعرهم بما لهم من شأن، وبما عليهم من مسؤولية، وبدأت الآية بهذه الأداة الدالة على تحقيق الأمر ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ هذه القيود الثلاثة لكلٍّ منها موجباته، ومكانته في النظم، وأنا لا أود أن أفسره هنا؛ لذا فإني أعتذر إن لم أقف مع كل كلمة من كلمات الآية الكريمة، ولكن ماذا بعد ذلك؟

بعد هذا الإجمال يأتي دور التفصيل، هذا الدين -إذن- لا بد من أن يُكْتَبَ، ولكن الكتابة لا بد لها من كاتب، وتبدأ الآية تحدثنا عن شؤون الكاتب والكتابة، فهذا الكاتب أولاً لا بد أن يكتب بالعدل، فلا ينبغي أن يميل لطرف على حساب الطرف الآخر، وإنما ينبغي أن يكتب بالعدل للدائن والمدين على السواء. وهذه واحدة. أما الثانية: فكلما يلزمه العدل في كتابته وعدم الميل، فإنه لا ينبغي له كذلك

أن يمتنع عن الكتابة إذا طلبت منه، فكما علمه الله لا بد أن يزكي هذا التعليم، فيجب عليه أن يكتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾.

أما القضية الثالثة التي أشارت إليها الآية الكريمة، فهي قضية تتعلق بالذي عليه الحق، فهو الذي يجب أن يُملي على هذا الكاتب، ذلك لأن المدين هو أولى بأن يُملي ما عليه من حقوق، وكما وجهت الآية الكريمة الكاتب بوجوب العدل، فإنها توجه المدين -أي الذي عليه الحق- بأن يتقي الله ربه. هكذا ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ جمعاً بين هذين الاسمين، فهو الله الخالق الذي لا تخفى عليه خافية وهو ربه الذي رباه فهيأ له من يقضي حوائجه. ولا يبخس صاحب الحق حقه، ولا يبخس منه شيئاً، مهما كان هذا الشيء ضئيلاً أو حقيراً؛ بل ينبغي أن يُملي كل ما عليه.

ثم ذكرت الآية الكريمة قضية، هي من القضايا المهمة ذات الشأن؛ وهي أن من عليه الحق قد يكون سفيهاً، غير محكم العقل، وقد يكون ضعيفاً لصغر أو مرض، وقد لا يستطيع أن يُملي ما عليه؛ لبكم، أو عدم القدرة على الحضور لمكان الكتابة، فما المخرج يا ترى؟ يؤكد القرآن على هذه القضية، فيبين أن هذا المدين، إن كانت فيه حالة من هذه الحالات الثلاث، فإن على وليه أن يُمل بالعدل. وبهذا تكون الآية قد ألمت بشؤون الكتابة من جميع جهاتها، سواء كانت هذه الجهة تتعلق بالكاتب نفسه، أم بمن عليه الحق الذي يُملي للكاتب، أم بوليه حينما يكون إملاؤه متعذراً.

وقضايا الأموال لا تحتاج إلى الكتاب فحسب، فهناك مع الكتابة أمر آخر وهي قضية الشهادة، وهذا ما عرضت الآية الكريمة بعد الكتابة، وفي تقديم الكتابة على الشهادة حكمة ذات نسق بديع. ويجيء الحديث عن الشهادة ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ وهؤلاء الشهداء رجالاً ونساءً لا بد أن يكونوا عدولاً ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾. وكما لا يجوز للكاتب أن يمتنع عن الكتابة، فلا يجوز للشهود كذلك أن يمتنعوا عن الشهادة إذا طلبت منهم ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾.

وإلى هنا يتم كل ما يتعلق بأمر الكُتّاب والشهداء، ولكن ماذا بقي يا ترى؟ يعود الكلام للمؤمنين مرة أخرى، فقد تهيمن عليهم السآمة، ويسيطر عليهم عدم المبالاة فيحول ذلك بينهم وبين الكتابة، وقد يرون أن هذا الدين قليل، ويظنون أن الكتابة إنها تكون للشيء الكبير والكثير، تحذر الآية المؤمنين من مغبة ذلك كله ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وبعد ذلك كله، لا تترك الآية المؤمنين عند هذا الحد، بل تبين لهم الحكمة من ذلك التشريع. لماذا كانت كل تلك العناية في شأن الأموال؟

تبين الآية الكريمة الحِكَم الكثيرة؛ فذلك الأمر أقسط عند الله وأكثر عدلاً، ثم هو أصح وأكثر عوناً على إقامة الشهادة، ثم هو بعد هذا وذاك، أقرب لنفي الريب ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ نعم يُستثنى من هذا الحكم إذا كانت التجارة حاضرة، أي بيعاً ناجزاً فيما بينهم، فإنه لا يُتوهم فيه إضاعة حقٍّ، أو ذهاب مصلحة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

وبعد ذلك كله تبين الآية الكريمة، أن من الأحوط أن يشهدوا إذا تبايعوا، أياً كان البيع ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

بقيت قضية تتصل بما ينبغي أن يتصف به المؤمنون، وهي أنه لا يجوز لهم أن يلحقوا الضرر بالكُتّاب أو الشهداء، بدنياً كان هذا الضرر أم مالياً، مادياً أم معنوياً، ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾. فهي وصية للمؤمنين المتداينين، أن لا يلحقوا الأذى بكاتب أو شهيد، ويذهب بعض المفسرين إلى أنها وصية للكاتب والشهيد أن لا يضاروا الناس بكتابتهم وشهادتهم. فعلى الأول كاتب نائب فاعل، أي لا تضاروا أيها المؤمنون كاتباً ولا شهيداً، وعلى التفسير الثاني: كاتب فاعل، أي لا يضار الكاتب والشهيد المتداينين. ولا شك أننا نرجح الأول ونختاره؛ لأنه المتبادر من

الآية أولاً، ولأن وصية الكاتب والشهيد بالعدل قد مرت من قبل ثانياً، وهناك سبب ثالث وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي إن ضاررتم الكاتب أو الشهيد أيها المؤمنون، فهو فسوق بكم، والله كرّه الفسوق للمؤمنين.

وتختم الآية بأمر المسلمين بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ثم تَمُنُّ عليهم بهذه النعمة الكريمة، نعمة التشريع الذي يحفظ لهم حقوقهم، والتعليم الذي تسمو به نفوسهم، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾. فهو الذي يعلم ما يصلح شؤونكم، أكثر مما تعلمون أنتم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فهذه الجملة - ويعلمكم- جملة مستأنفة، جاءت لبيان نِعَم الله على المؤمنين بهذا التشريع الجامع العادل. ولا تلتفت إلى ما يقوله بعضهم، حينما يقلل من شأن العلم، ويزعم أن العلم لا يكون بالتعلم، وإنما هو بالتقوى فقط، وهذا زعم غير صحيح؛ يرده نظم الآية أولاً، لأن الله يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل «واتقوا الله يعلمكم الله»، ثم كيف يمكن أن تتم التقوى بدون علم، وكما يرد هذا الزعم السنّة المطهرة «إنما العلم بالتعلم»(1).

أما إذا كان المتداينون على سفر ولم يجدوا كاتباً، ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾. أرأيت هذا النظم، كيف جاءت فيه هذه الأحكام مرتباً بعضها على بعض، وقل لي بربك: لو أن علماء القانون، ورجال التشريع، أرادوا أن يعبروا عن هذه المعاني -هم بالطبع لن يستوعبوا ذلك كله- ولكن إن أرادوا أن يعبروا عنها، فأظنك على يقين بأنهم بحاجة إلى فصل كامل من المواد، ولن يبلغوا ما في

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٧/ ٣٩٨ برقم ١٠٧٣٩ من قول أبي الدرداء. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٩/ ٣٩٥، برقم ٩٢٩ من حديث معاوية رضي الله عنه مرفوعاً.
وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني، رقم ٣٤٢.

الآية الكريمة من ألفاظ مختارة منتقاة، وإيجاز، لقد جمعت حقاً بين القصد باللفظ والوفاء بالمعنى، ذلك هو النظم القرآني.

آية المواريث:

قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١) ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ (١٢) ﴾ [النساء:١١-١٢].

﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (١٧٦) ﴾ [النساء:١٧٦].

لا نرتاب أبداً بأن أحداً أياً كان دينه ولغته، وقد عرف أحكام المواريث، وقرأ آيات الكتاب الكريم -آيات المواريث- يساوره شك، بأن ما جاء في القرآن لا يستطيعه أحد من الناس، لا من حيث الإيجاز فحسب، وإنما من حيث هذا الترتيب المحكم، وهذا حقٌّ، لا يماري فيه ذو عقل، فأحكام المواريث التي أصبحت فيما بعد علماً مستقلاً، يسمى علم الفرائض أو علم المواريث، ألفت فيه الكتب، وقعدت

القواعد، وفُصِّلت الفصول، يجمعه القرآن فيما لا يزيد عن آيات ثلاث، ولكنه ليس جمعاً كأي جمع، وليس تأليفاً كأي تأليف؛ وإنما هو نظم يدلك سابقه على لاحقه، ويتبع آخره أوله. ونحن نعلم أن مثل هذه القضايا، وما تتطلبه من أنواع الحساب، وما فيها من اختلاف الأنصبة والتقادير، بحاجة إلى حَيِّزٍ من الكلام ليس بقليل، ومع هذا فهي بعيدة عن أن تجتمع لها صنعة البيان، وحصافة النظم، ولن أطيل عليك، وأرجو أن تستنتج هذا بفكرك. ولكننا ونحن نعيش معاً في رحاب هذه الآيات الكريمة، لا بد أن تدرك أن قضية المواريث، ليس المعجز فيها قضية النظم فحسب، بل أحكامها وجزئياتها كذلك. لم تكن قضية المواريث مما يجهله الناس قبل الإسلام فحسب، بل كانت فوق ذلك مما يخالف رغباتهم وأعرافهم، ولا يتفق مع قواعدهم، جاءت تهدم كل ما بنوه من صروح اجتماعية. كانوا لا يورثون المرأة والصغير، بل يظلمون بعض الأولاد -حتى غير الصغار- لحساب بعضهم الآخر، فجاءت آي القرآن الكريم -لا أقول بدقة النظم فحسب، بل بدقة التقسيم من حيث الورثة والأنصباء. وإليك البيان:

بدأت الآية الكريمة بداية مثيرة مؤثرة هكذا ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ اختيار لفظ الوصية، على غيرها من الألفاظ، كالأمر، والطلب، ذلك أن الوصية لا تكون إلا للأمر بالشيء، ولطلب الشيء الذي فيه عناية، وهذا أمر تدركه بنفسك أنك لا توصي بالشيء، ولا يوصيك غيرك بشيء، إلا إذا كان لهذا الشيء شأن وخطر. ثم يأتي لفظ الجلالة ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهو الاسم الكريم الجليل يؤتى به لتربية المهابة في النفوس، وإشاعة الإجلال والهيبة فيها، وذلك كله مما يستدعي تنفيذ الأمر الموصى به. ثم بعد ذلك ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ والولد يصدق على الذكر والأنثى، لا كما تعوّد بعض الناس أن يطلقوه على الذكر وحده.

ثم ماذا؟ وهذه أول قضية جديدة على القوم، ما كانت تخطر لهم ببال، وهي ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾، هكذا دون أن يقال للأنثى نصف حظ الذكر، ومن

البدهي أنا لا أريد أن أقف معك مع كل كلمة من كلمات الآيات الكريمة، فذلك أمر يخرج عن نطاق هذا الكتاب، ونحن هنا نتكلم عن النظم في آيات الأحكام، وكيف جاءت الجمل آخذاً بعضها بحجز بعض.

بدأت الآية الحديث عن الأولاد، وهم أولى من غيرهم بالتركة، لأنهم غالباً ما يكونون ذوي حاجة من جهة، ولأن طبيعة الإنسان وفطرته، تتفق مع هذه القضية من جهة أخرى، فأكثر من يستحوذ على عناية الإنسان أولاده، ولكن ماذا بعد ذلك يا ترى؟ لقد أعطتنا الآية هذه القاعدة الجامعة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فإذا كان الأولاد ذكوراً فحسب، فالأمر سهل، يأخذون التركة بالتساوي، كذلك إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، فالقضية قد حلت ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. إذن هاتان قضيتان لا تحتاجان بياناً، أعني أن يكون الأولاد ذكوراً فحسب، أو ذكوراً وإناثاً. لكن هناك قضية أخرى، وهي أن يكون هؤلاء الأولاد إناثاً فحسب، فما السبيل وما الشأن؟

تفصل الآيات الكريمة هذه القضية، ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾. وبهذه الجملة الموجزة، نكون قد انتهينا من شأن الأولاد في الميراث، سواء كانوا ذكوراً فحسب، أم إناثاً فحسب، أم زوجوا -صنفوا ذكوراً وإناثاً. قل لي بربك أي كلام وأي متكلم، يمكن أن يوجز كل هذا بجملة واحدة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، نصيب الأولاد على اختلافهم لا يخرج عن هذه الكلمات.

وبعد الحديث عن الفروع -الأولاد- تنتقل الآية نفسُها إلى الحديث عن الأصول، عن الأبوين ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي لكل واحد من أبوي الميت السدس من تركته. ولكن إياك أن تظن أن روعة الآية في نظمها، من حيث الترتيب والإيجاز فحسب، إنما من حيث اختيار الألفاظ في الجملة الواحدة، وما تعطيه هذه الألفاظ من دقة في الحكم، وهدف في المعنى. عد إلى الجملة السابقة

﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ ولم يقل: «ولأبويه الثلث» -لأنه مجموع السدسين- مع أن القرآن كتاب الإيجاز، ولكن أتعرف لِمَ عدل عن هذا النظم ولأبويه الثلث؟ كان ذلك لحكمة رائعة، وغرض رئيس، وسبب جوهري، إنه لو قال كذلك «ولأبويه الثلث» لتوهم أن الأب يأخذ ضعف نصيب الأم؛ لأنه ذكر وهي أنثى، وقد تقدم ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ فأراد القرآن أن ينفي هذا الوهم، وأن يبين أن نصيب الأب والأم من الميت سواء.

ولكن هذا الميت ليست حالاته سواء، فقد يكون له أولاد كما مرّ من قبل، وهنا يكون نصيب كل من أبويه السدس، ولكن قد لا يكون له أولاد، فما هو نصيب والديه يا ترى؟ أهو السدس لكل منهما؟

يقول القرآن في ذلك ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ هذه واحدة، أما الثانية فقد يكون لهذا الميت إخوة وقد لا يكون، ترى إذا كان له إخوة هل يغير نصيب أحد والديه؟ يقول القرآن ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ وهكذا يتغير نصيب الأم كما رأينا.

ولم تنته الآية بعد ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ فتقسيم التركة على مستحقيها بعد الوصية والدَّيْن، وما يلزم الميت من تجهيز، ولكن نحن نعلم أن الدين مقدم على كل شيء، لأنه حقوق الناس، ولكن الآية قدمت فيها الوصية. ولم يقل «من بعد دين أو وصية يوصي بها» ولا تظن أن ذلك جاء لقضية جمالية تتعلق باللفظ؛ لأن إيقاع الآية على ما هي عليه، أوقع في السمع، وأجمل جرساً، ولكن جاء النظم على غير هذا، فقدمت فيه الوصية؛ لأن الدين ما لا مجال فيه للإنكار، والتمنع، ولكن الوصية عادة هي التي يتساهل الناس فيها، ومن أجل ذلك قدمت، ثم قال سبحانه: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ ولما كانت هذه الآية تحدثت عن صنفين من الورثة، الآباء والأبناء، بيَّن الله تعالى أن الآباء والأبناء،

لا ينبغي أن يظلم أحدهما على حساب الآخر ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾. وقد يكون هذا النفع دنيوياً، وقد يكون أخروياً، وقد يكون كليهما، فكم من واحد نفعه والداه أكثر من ولده، والعكس صحيح. وكم من واحد ينفعه صلاح أبويه، كما شهدت بذلك الآيات الكريمة، أو ينفعه صلاح أولاده، كما شهدت الآثار الصحيحة بذلك.

وخُتمت الآية بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ وهكذا بدئت الآية بلفظ الوصية، وختمت بلفظ الفريضة، ولكن الورثة ليسوا الآباء والأبناء فحسب، فهناك الأزواج، وصلة الزوجية من الصلات ذات الشأن، التي أحاطها الإسلام بعنايته وخصّها برعايته؛ لذا جاءت الآية الثانية تكمل أحكام المواريث، فما هو نصيب كل من الزوجين من الآخر؟

تقول الآية الكريمة ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ ومعنى هذا أن للرجل نصف ما تركت زوجه، ولكن قد تكون هذه المرأة أنجبت منه أو من غيره، فهل له النصف على كل حال؟ يقول القرآن: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ لهن -وليس لكم- لأن هذه المرأة قد يكون لها أولاد من غير هذا الزوج الوارث، فمن الممكن أن تكون طلقت، أو توفي عنها زوجها الأول، بعد أن أنجبت منه. النصف للزوج إذا لم يكن لهن ولد. أما في حالة وجود ولد لهذه المرأة يقول القرآن: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ وهكذا يتحول نصيب الرجل من امرأته من النصف إلى الربع، في حالة وجود ولد منه أو من غيره. ولكن هذا إنما يكون بعد أن تؤدَّى الحقوق الأخرى من التركة -كما مر من قبل- ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

هذا عن نصيب الرجل، فماذا عن نصيب المرأة: تقول الآية نفسُها ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ سواء كان هذا الولد، من هذه المرأة، أم

من غيرها من النساء ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ وسواء كانت واحدة، أم اثنتين، أم ثلاث، أم أربع، فهن مشتركات في الثمن في حال وجود أولاد للزوج، أو في الربع إن لم يكن له ولد، وهذا بالطبع ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

وإلى هنا يتبين لنا نصيب الآباء والأبناء، إذا كان للميت آباء وأبناء، ونصيب الأزواج كذلك. ولكن بقيت حالة حريّ بها أن تُبيَّن. فقد لا يكون للميت ولد ولا والد، هذا من جهة. وقد يكون له إخوة من أمه فقط. ما دام الحديث عن الأزواج. تبين الآية هذه المسألة ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ الكلالة من لا ولد له ولا والد، أي ليس له أبناء ولا آباء، ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ - إن كانوا من الأم فحسب ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ ولكن هذا ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾.

ونلاحظ أن هذه الكلمة ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ لم تأت في الآية الأولى حينما كان الحديث عن الآباء والأولاد، ولكنها جاءت هنا، حينما كان الحديث عن توريث الأزواج، وعن الكلالة الذي لا ولد له ولا والد؛ لأن هذا يكون في حالة نفسية، ربما تدفعه إلى أن يمنع أصحاب الحقوق حقوقهم، فيتصدق بمالِه كله أو يوصي به، كما أن بعض الأزواج يحاولون منع أزواجهم حقوقهن؛ فكان لا بد من مجيء هذه الجملة القرآنية هنا ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾؛ ليبين أنه لا يجوز ولا يصحّ له أن يضرّ بأصحاب الحقوق، فيمنعهم حقوقهم، قل لي بربك أليست هذه كافية في تقرير الإعجاز القرآني؟ بلى والله.

وتختم الآية بقوله ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ ختمت الآية الأولى بقوله ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فجمعت بين الوصية في أولها، والفريضة في آخرها، ولكن هذه ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَصِيَّةً﴾، وقد عرفنا أن الوصية إنما تطلق

على الأمر ذي الشأن والخطر، ولئن كان الناس يجمعون لأبنائهم، ويبرون آباءهم، فإن بعضهم يحاول أن يتهرب من توريث الأزواج، أو الإخوة لأم، من أجل هذا ختمت الآية الثانية بقوله سبحانه: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، كما أن الآية الأولى خُتمت بقوله: ﴿حَكِيمًا﴾، ختمت هذه الآية بقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾؛ فحكمته سبحانه في توزيع التركة لأصحابها، لا يصل إليها أحد من خلقه، وحلمه على أولئك الذين يتهربون من إعطاء الناس حقوقهم عظيم.

ثم جاءت الآية الأخيرة في سورة النساء، تفصل آخر قضية من قضايا التوريث، وهي قضية الكلالة، جاءت آخر أية في سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ هكذا بلفظ الإفتاء، والإفتاء لا يكون إلا للقضية ذات الشأن كذلك. وتبين الآية ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، وهنا لا بد أن نقفك على شيء من روعة النظم في كتاب الله. فحينما تحدث عن البنات في الآية الأولى بقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ نجد أنه ذكر نصيب ما فوق الثنتين، ابتداءً من الثلاث والأربع إلى غير ذلك، ونصيب الواحدة، فما فوق الثنتين لهن الثلثان، والواحدة لها النصف، ولكن ما نصيب الاثنتين يا ترى؟ لم تذكره الآية الأولى، ولكن هذه الآية التي تحدثت عن الأخوات، ذكرت نصيب الأخت الواحدة، ونصيب الأختين ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾. ولم تذكر الآية ما فوق الأختين.

الآية الأولى -إذن- ذكرت ما فوق الثنتين من البنات ولم تذكر حكم الثنتين، وهذه الآية ذكرت حكم الثنتين من الأخوات، ولم تذكر حكم ما فوقهما. وهكذا يؤخذ من كل آية حكم، فنصيب الابنتين الذي لم يذكر في الآية الأولى، نقيسه على

نصيب الأختين الذي ذكر في هذه الآية، أما نصيب الأخوات من الثلاثة فما فوق الذي لم يذكر في هذه الآية، فتأخذ من الآية الأولى. وهكذا تجد النظم القرآني، يجمع بين القصد باللفظ، والوفاء بالمعنى.

أما إذا كانت الكلالة ميتة، أي: ليس لها ولد، ولها أخ، فهو يرثها. وهكذا تبين هذه الآية الكريمة أن الأخ يرث أخته، وأن الأخت تأخذ نصف مال أخيها، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان، أما إذا كانوا أكثر من ذلك رجالاً ونساء، ذكوراً وإناثاً، فللذكر مثل حظ الأنثيين. ولا تنس أن هذا هو حكم الكلالة. كما تقدم من قبل. وتختم الآية بقول الله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ۝١٧٦﴾ .

هذه آيات المواريث من حيث النظم، تدبرها مرة أخرى ويقيني أنك ستزداد يقيناً، بأن هذا النظم، من حيث الترتيب، والإيجاز، واختيار الألفاظ، آية باهرة، وعلامة صدق على هذا الإعجاز البياني.

ولكن بقي في آيات المواريث الكثير الكثير، بقي الحديث عن هذه الأحكام التي بينت، ولماذا اختيرت؟ ولماذا كانت موزعة هذا التوزيع؟ تلك قضية لن نمسها نحن هنا، لأننا نتحدث عن الإعجاز البياني، الذي يتعلق بالنظم واختيار الكلمات، لكننا نعدك إن شاء الله -ونسأل الله أن يوفقنا للإيفاء بالوعد - أن نحدثك عن هذه وغيرها، في الجزء الثالث من هذا الكتاب، الذي خصصناه للإعجاز التشريعي والعلمي[1].

أظن أن الحديث عن القطعة أو الفقرة القرآنية، يكفيك. وننتقل الآن للحديث عن السورة القرآنية.

(١) وقد توفي رحمه الله ولم يكمل هذا الكتاب.

الفصل الثامن

السورة القرآنية

«السورة تهمز ولا تهمز. فمن همزها جعلها من أسأرت، أي: أفضلت، من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهلها، ومنهم من شبهها بسور البناء، أي: القطعة منه، أي: منزلة بعد منزلة، وقيل: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، أو من السوار لإحاطته بالساعد، وعلى هذا فالواو أصلية، ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة؛ لأن الآيات مرتبة ترتيباً متناسباً، وقيل: لتركيب بعضها على بعض من التسور بمعنى التصاعد والتركيب، ومنه ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾ [ص:٢١] أي: نزلوا عليه من علو، وقيل: لعلو شأنها وشأن قارئها. والسورة المنزلة الرفيعة. وهي في الاصطلاح: قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة، وأقلها ثلاث آيات. أو هي الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ»[1] وهذه السور قد تطول وقد تقصر.

وقد قسمت سور القرآن إلى: الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصل؛ فالطوال جمع طولى وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال، والمئين ما زادت على المئة آية أو تقاربها والمثاني وهي السور التي آيها أقل من مائة لأنها تثنَّى، أي: تكرر، والمفصل: ما فصلت فيه السور، وهو أواخر القرآن، ومحل هذا كتب علوم القرآن.

---

(١) فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم، د. أحمد السيد الكومي ود. محمد أحمد يوسف القاسم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية.

والذي يعنينا الآن ما نحن بصدده هو أن السورة القرآنية، مع طولها أو قصرها، ومع تعدد ما تحدثت عنه من قضايا، فإن هناك صلة مشتركة بين أجزائها، ولكن ترى هل يمكن أن نعدها ذات موضوع واحد، وأن نلمس الوحدة الموضوعية في هذه السورة ظاهرة تامة، بيِّنة؟ أم أنه لا داعي لذلك كله، ويكفي أن تكون موضوعات السورة الواحدة، غير متنافرة فيما بينها.

قال بكل منهما جماعة من العلماء والفريقان متفقان على حُسْن نسق السورة، وبديع نظمها، وقد تقدم لنا في الجزء الأول، فعرفنا أن من الفريق الأول الباقلاني رحمه الله من الأقدمين، وأستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله من المحدثين.

وعذر الفريق الثاني -فيما يبدو لي- هو ما ظنوه أن إدراج قضايا السورة الواحدة، ضمن موضوع واحد، قد يؤدي إلى شيء من التكلف والتصنع، مع أننا نعذر هذا الفريق، لكن الذي نراه ونحن به متيقنون، هو أن لكل سورة موضوعها وشخصيتها، وهذا ما سنحاول أن نبينه في هذا الفصل إن شاء الله.

تحدث الدكتور محمد عبدالله دراز -كما عرفت- عن الوحدة الموضوعية في سورة البقرة، ومن قبله تحدث الباقلاني حديثاً مقتضباً عن بعض السور[1]. وسأحاول هنا أن أختار لك بعض السور الكريمة، لنتشرف بدراستها أنا وأنت.

هاتان سورتان من كتاب الله، إحداهما تسمى سورة الفرقان، والأخرى تسمى سورة الملك، وهما ذواتا بداية واحدة امتازتا بها عن جميع سور القرآن؛ إذ كل منهما ابتدأت بهذه الجملة الكريمة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾، لكن السورة الأولى جاء فيها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ والثانية جاء فيها ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾، وسنحاول أن نقف مع كل منهما،

---

(١) راجع الجزء الأول.

مجملين القول، موجزين ما أمكن الإيجاز، وأرجو أن تقف مع هذه السورة في كتاب الله تعالى، حتى يكون لك شرف النظر في المصحف، مع شرف التلاوة والتدبر.

سورة الفرقان:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ
مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ
فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ
وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ
مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ
نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ
سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل
لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ
سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ
ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ
ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا
مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي
هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ
وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا
تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ
وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟
مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)
وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)
يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (٣٠)
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ
بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ
شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ
وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا
كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)
وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا
تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (٤١)
إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ
مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا
يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ

جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا
بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٥٧)
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨) ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا
(٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠) تَبَارَكَ
ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا
وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (٦٤)
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا
مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا
(٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا (٧٤) أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا (٧٥)
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾ [سورة الفرقان].

ابتدئت كما قلنا بما يدل على جلال الله وعظمته، وكثرة خيره ﴿تَبَارَكَ﴾. ولكن الخير الذي ذكر به الناس هنا، إنما هو إنزال الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيراً

وما ذلك إلا لأن أولئك يحتاجون إلى الإنذار، لإعراضهم عن الحق. السورة الكريمة -إذن- تحدثنا عن عظمة المُنْزِل، تبارك وكثر خيره، ونما فضله، وزادت آلاؤه، وعظمت نعماؤه. ثم تحدثنا عن روعة المنزَّل، وهو الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والظلمة والنور، وعن عظمة المنزَّل عليه ﷺ، فهو عبدالله، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً، هذا ما تتحدث عنه الآية الأولى. ثم ماذا بعد ذلك؟

تتحدث الآيات بعد ذلك عن شأن الخالق المُنْزِل، الذي له ملك السموات والأرض، ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، مع ذلك فلم يقدره هؤلاء المُنذَرون حق قدره، فآذوه، وادعوا له ولداً، وعبدوا غيره، وأولئك لا يملكون لأنفسهم شيئاً ما، لا ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً. ولكن أولئك المُنذَرون لم تكن فريتهم على الله وحده، بل كانت هذه الافتراءات، هذا التجني على القرآن المنزَّل، والرسول المُنزَّل عليه، فإذا كانوا أولاً قد ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان:٣]، فلقد قالوا ثانياً عن القرآن: إنه إفك ﴿ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان:٤]، وقالوا ثالثاً عن هذا القرآن: إنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥]، ثم قالوا رابعاً عن الرسول ﷺ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان:٧-٨].

وقالوا خامساً: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان:٢١] وقالوا سادساً: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ [الفرقان:٣٢]، وقالوا سابعاً: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ﴾ [الفرقان:٤١-٤٢] وهكذا اتخذوا آلهتهم أهواءهم، ولم تزدهم النعم إلا كفوراً وجحوداً، وهم في الحقيقة ليسوا

إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً. فهم أولاً لم يأخذوا العبرة من التاريخ الماضي، وهو ما أصاب الأمم من قبلهم، وهذا ما تحدثت عنه الآيات ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الفرقان:٣٥]، ثم لم يأخذوا العبرة من هذا الكون، وما فيه من آثار القدرة، وما اشتمل عليه من نِعَم، وهو المشار إليه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان:٤٥].

وبعد هذه الآيات جميعاً من التاريخ ومن الكون، يصدع القرآن تثبيتاً وتسلية للنبي الكريم ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان:٥٦] فهو لا يسألهم من أجر وإنما أجره على الله؛ ولا يبالي بهم، فليتوكل على الحي الذي لا يموت، مسبحاً بحمده، وكفى به سبحانه خبيراً بذنوب عباده، فلن يعجزوه، كيف وقد خلق السموات والأرض وما بينهما، ولكنه الرحمن، عظيم الرحمة، مع ذلك يأبون أن يعبدوه ويسجدوا له، فتبارك الله الذي ظهرت آثار رحمته في خلقه في هذه البروج التي جعلها في السموات، والشمس والقمر المنير، من أجل هؤلاء وغيرهم، وفي الليل والنهار الذي جعله خلفة لم أراد أن يذكّر أن أراد شكوراً.

والسورة الكريمة في ذلك كله، تَرُدُّ كلَّ واحدة من هذه الشبهات، رداً بليغاً محكماً.

١ - ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦].

٢ - ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان:٩].

٣ - ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان:١٠].

٤ - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

٥ - ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٢١-٢٢].

٦ - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣].

٧ - ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان:٥٧].

وتختم السورة الكريمة بذكر عباد الرحمن، الذين لهم جنات الخلد كما وعد المتقون -كما جاء في أول السورة- تذكر عباد الرحمن وصفاتهم، بعد أن ذكرت أولئك الذين قالوا وما الرحمن، وترتب صفاتهم ترتيباً بديعاً، فهم الذين حسُنت معامتهم للناس، ويخشون الله، وزكت نفوسهم، وتفصل الآيات هذه الأمور الثلاثة -أعني خشيتهم لله، ومعاملتهم للناس، وصفاء نفوسهم- وتختم السورة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان:٧٧].

ألا ترى معي بأن أجزاء هذه السورة متصل بعضها ببعض، اتصالاً وثيقاً محكماً، وأنها بحق سورة الفرقان، فاسمها عنوان يدل على موضوعها خير دلالة، كيف لا؟ أليست هي السورة، التي ذكرت هذه الشبهات الكثيرة المتعددة، وردتها جميعاً ذلك الرد التام؟ وقد يكون رد الشبهة الواحدة، متعدد الجوانب، متفرع

الأهداف، ثم تبين الفرق بين أولئك الفريقين الضالّ والمهتدي، بين أصحاب النار وبين أصحاب الجنة وهم خير مستقراً وأحسن مقيلاً.

تلكم سورة الفرقان، ذات الوحدة الموضوعية الكاملة، لقد كانت فرقاناً بحق، بددت شبهات الباطل، وردت كل ما يلقيه شياطين الإنس والجن، وفقت بين الفئات الخيّرة، وبين الفئات الشريرة. إن السورة من أولها إلى آخرها نسق واحد، وموضوع واحد، وأن اسمها خير عنوان لها، وخير دليل عليها، ففيه براعة استهلال كما يقول علماء البديع.

سورة الملك:

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ
مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا
وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا
وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ
قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى
مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ

إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾
أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا
فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الملك].

ابتدئت هذه السورة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك:١] وإذا كان موضوع السورة الأولى الفرقان، وكان ذلك ما يجعلها تمتاز عن غيرها، فإن موضوع هذه السورة الملك، والملك يدل على القدرة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾. وإذا أنعمت النظر في السورة الكريمة، وجدتها فيما عرضت له من آيات، لا تخرج عن هذا الموضوع، موضوع الملك، والقدرة الإلهية. وإليك بيان ذلك، والله المستعان.

بعد هذا الإجمال الذي نجده في قوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يأتي دور التفصيل، ومن أول هذه المظاهر، مظاهر الملك، وأدلة القدرة، قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢] والموت والحياة أمران ليسا خاصين بالإنسان، بل تشترك فيهما أصناف هذا الكون، علويه وسفليه، حتى الكواكب يموت بعضها ويتلاشى، ليحل محلها غيرها. نعم ذلك مما لا مجال فيه لريب. وبعد بيان هذا الأثر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ تنتقل السورة إلى قضية أخرى من قضايا الملك والقدرة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك:٣-٥].

وبعد أن تتحدث السورة عما يتعلق بهذه الآية، أعني تزيين السماء، وجعلها رجوماً للشياطين، وماذا أعد لهم وللكافرين، وكيف سيلقون في جهنم، وماذا سيكون لهم، وماذا سيقولون، وأين أولئك من الذين يخشون ربهم بالغيب، ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الملك:١٣] بعد أن يستوفي الحديث عن هذه الآية العظيمة، تنتقل السورة الكريمة إلى نمط آخر من أنماط القدرة والملك، وأرجو أن تظل معي في ذهنك، لنتذوق معاً حلاوة الإبداع، ولنقبس معاً من نور النظم، ولنشرب معاً من رحيق الآيات. قلت: تنتقل السورة إلى نمط آخر من أنماط القدرة، ولكنه الآن ليس حديثاً عن تلك السموات التي أظلت الإنسان، وإنما هو الآن حديث عن هذه الأرض التي أقلّته ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥] ولا يغرنك إمهاله، فما دامت السموات والأرض من آثار قدرته، فكيف تأمنون عقابه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك:١٦-١٧]. وأنتم تدركون ما كان لغيركم، مما كان قبلكم من المكذبين.

وهذا نمط رابع من أنماط القدرة، غير ما تقدم من الموت والحياة، والسموات، والأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ [الملك:١٩] فكيف يدعي بعد ذلك أن هناك ناصراً أو رازقاً غيره، ترى أيكون شأن المهتدين كالضالين ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك:٢٢].

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد بينت كل ما يحيط بهذا الإنسان من موت وحياة، وخلق السموات والأرض، وتزيين السموات، وجعل الأرض ذلولاً، ثم في تلك المخلوقات التي يرونها كالطير، إلى ما أصاب الأمم السابقة المكذبة، وهنا يأتي دور الحديث عن الإنسان نفسه، عن آثار القدرة العظيمة في تكوين هذا الإنسان ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى

ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الملك:٢٣-٢٤]. فانظر إلى هذا الاستيعاب والشمول من جهة، ثم انظر إل هذا الترتيب الرائع البديع من جهة أخرى.

وتستمر السورة الكريمة، تبين آثار القدرة العظيمة، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك:٢٨-٣٠] وتخص الماء، وهو أسهل وأيسر ما يجده الإنسان، وهو كذلك أكثر ما يحتاج إليه.

أرأيت إلى السورة الكريمة في موضوعها، وفي وحدتها، وفي اسمها الذي هو عنوان لها كذلك.

سورة غافر:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ

ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا
مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو
ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا
ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ
مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞
أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت
تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ
﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ
وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ
كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ
هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن
جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ
مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا

عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (٣٦) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ
(٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ
سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا
مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧)
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى
ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ
رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠) إِنَّا
لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ
مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ
لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ
كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ
وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ
يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾
مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم
بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن
لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [سورة غافر].

وإليك سورة ثالثة، وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة غافر. هذه السورة الكريمة جاءت عقب سورة الزمر، التي ختمت بذكر المتقين، الذين حمدوا الله أن أورثهم الأرض يتبوَّءُون من الجنة حيث يشاؤون، وبقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر:٧٥]. بدئت السورة الكريمة بقوله سبحانه: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر:١-٣]. وبعد هذه الصفات الكريمة العظيمة، لله الكريم العظيم، التي تدل على عظيم آياته، وباهر قدرته، فهو العزيز العليم، وإذا كان غافر الذنب، وقابل التوب، فمعنى ذلك أن هناك أناساً يذنبون ويتوبون، وإذا كان شديد العقاب، فمعنى هذا أن هناك أناساً يستحقون هذا العقاب.

بعد هذه المقدمات تنتقل السورة الكريمة، إلى موضوعها الذي مهدت له هذه المقدمات ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾ [غافر:٤]. إن الحق أبلج واضح، ظاهر بيِّن. ولكن أناسا زُيِّن لهم الباطل، فأبت أنفسهم أن تنصاع لهذا الحق، وغرّهم ما هم فيه من سعة في الرزق، أو رفعة في المنصب، أو كثرة في العشيرة. وهؤلاء موزعون على الأزمنة والأمكنة جميعاً، فليس أولئك الذين تدعوهم أيها النبي هم الذين يجادلون في الحق وحدهم؛ وإنما قبل هؤلاء أمم كثيرة، ابتداءً من قوم نوح، وهو أول نبي أرسل للناس، والأحزاب من بعدهم من أقوام الأنبياء عليهم السلام، أولئك جميعاً جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾ [غافر:٥-٦].

ثم عرضت الآية بعد ذلك للفئة الخيّرة، أولئك الذين آمنوا ورضي الله عنهم، فحملة العرش من الملائكة، المسبحون بحمد ربهم، والمؤمنون به، يستغفرون لهم، وتبين لنا الآيات هذا الدعاء الجامع الخيّر الذي يدعو به الملائكة للمؤمنين، ولكن ليس لهم فحسب، وإنما لآبائهم وأزواجهم وذرياتهم كذلك. وتحدثنا السورة عن أولئك وعما سيلقون في «يوم الآزفة» ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]، ذلكم هو يوم التلاق ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

وبعد إنذارهم بهذا اليوم يبين سبحانه آثار عزته وعلمه، فإذا كان من آثار هذه العزة أن الملك له وحده، فإن من آثار هذا العلم أنه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر:١٩-٢٠]. ولم يغفل أولئك المشركين الذين يسيرون في الأرض، لينظروا عاقبة الأمم من قبلهم؟ وقد كانوا أكثر منهم قوة، فلم يغنِ عنهم ذلك شيئاً؟ هؤلاء الذين أتتهم رسلهم بالبينات، ولكنهم كفروا وأعرضوا، فأخذهم الله القوي، الشديد العقاب. وذكرت الآيات أمة من هذه الأمم، وهم الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤] ولكنهم وقد جاءتهم الآيات بيّنات جادلوا في الحق، فقال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦] وقال موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧].

ثم تتفرد السورة الكريمة بقصة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، وتحدثنا عن ذلك الجدل القوي، الذي كان بينه وبين قومه، بأسلوب أخّاذ، ثريّ بإيقاظ العواطف والمشاعر، وبالإيقاع الجميل المنعش، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ

ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر:٢٧-٢٨]. ولكن فرعون يستمر في جدله وخصومته ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافر:٢٩-٣٣] ولكن ذلك لا يجدي، فمن سنن الله أنه يضل كل مسرف مرتاب ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ ﴾ [غافر:٣٥]. ويستمر الرجل المؤمن في نصح قومه قائلاً: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) ﴾ [غافر:٣٨] ﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) ﴾ [غافر:٤١] ويستمر بخطابه لهم ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر:٤٤].

وبعد أن يبين القرآن ما حل بفرعون وآله تقول الآيات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٥٦) ﴾ [غافر:٥٦]، وبعد أن بينت آيات من التاريخ، ومن أخبار الأمم، تذكر آيات كونية تحيط بهذا الإنسان، ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾ [غافر:٦١]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر:٦٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [غافر:٦٧]. وكان حرياً بهم أن يؤمنوا بهذه الآيات الكونية التي لا يستطيع أن ينكرها أحد، ولكن الذي لا يتأثر من التاريخ، ومن أخبار الأمم، لا يتأثر بما حوله من

الكون كذلك، ولذا نقرأ بعد ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [غافر:٦٩].

وبعد أن تحدثنا الآيات عما يحل بأولئك، تبين للرسول ﷺ أن هذا شأن أهل الباطل، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] ولكن سنة الله لا تتخلف بإهلاك المبطلين.

ثم تبين السورة الكريمة نعماً كان حرياً بهم أن يشكروها ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [غافر:٧٩-٨٢]. وتبين السورة الكريمة آخر ما تبين، أن أولئك كان الدافع لهم لهذا الجدل، أنهم فرحوا بما عندهم من العلم، ولكن ذلك لن يغني عنهم شيئاً حينما يأتي بأس الله، وتلك سنّته سبحانه التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون.

أنعم النظر في السورة الكريمة، وحبذا أن تتلوها من المصحف، لترى كيف جاء نسقها نسقاً تاماً، وكيف أنها جاءت تبين آثار العزة والعلم، اللذين بدئت السورة بهما، وكيف أنها بنيت على الرد على أولئك الذين يجادلون في الحق، وانظر إلى كلمة الجدال، كم ذكرت؟ وأين ذكرت؟ وستجد أنها مع كثرة ذكرها، فإنها ذكرت في كل مرة حيث يجب أن تذكر.

هذه سورة غافر، أو سورة المؤمن، غافر الذنب وقابل التوب، لأولئك المؤمنين، وشديد العقاب لهؤلاء المجادلين، ألا ترى أنك يمكن أن تجعل موضوع السورة -إذن- موضوعاً واحداً، ينتظم أولئك المجادلين على اختلاف فئاتهم وأعصارهم؟

ألست معي بعد ذلك أن لكل سورة موضوعها وشخصيتها؟ وكنت أود أن أزيدك الحديث، فأظنه يروقك ويحلو لك، ولكني مع ذلك لا أريد أن أطيل عليك، وأعدك في آخر هذا الباب إن شاء الله أن أقف معك أمام سورة أو سورتين، في تحليل فني يجمع بين الموضوعية والبيان.

والسور التي اخترتها لك مكية، ولا شك أن الترتيب فيها أقل ظهوراً منه في السور المدنية، بل هو أكثر خفاءً وأحوج ما يكون إلى التفكير والاستنباط؛ ذلك لأن السور المدنية، جاءت تعالج قضايا الأحكام، ذات الشأن في المجتمع المسلم، ولذا فالترتيب فيها أيسر، وأكثر ظهوراً، وقد لا يحتاج إلى كثير فكر، ومع ذلك فسأختار لك سورة مدنية، ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، تلك هي سورة الأحزاب.

سورة الأحزاب:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ
ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ
ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟
ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن
مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ
وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ
مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ
مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ
ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا
وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ
وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ
دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟
عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن
فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ
إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ
ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ
فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ
ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ
أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا
زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ
ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ
بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞
وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا
﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى
قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى
بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ
وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ
كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ
إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ
زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟
مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ
فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ

أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ
خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ
النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا
﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ
إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا
فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا
رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا
أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾
مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن
قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا
يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ
فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا
﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا
﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا
وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

وهذا هو اسمها الذي سميت به، بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب:١-٣] ونفهم من اسم السورة ومن مقدمتها، أنها جاءت تعالج بعض الشؤون، ذات الصلة بالكافرين والمنافقين معاً، وهذا ما سنجده في نظم السورة الكريمة، والكافرون والمنافقون كانت له معارك مع الإسلام والمسلمين ولا زالت،

إلا أن معارك الكافرين كان يغلب عليها الطابع العسكري، ومعارك المنافقين كان يغلب عليها الطابع الفكري والاجتماعي، وهذا ما نجده في السورة الكريمة.

مهدت السورة الكريمة لقضية اجتماعية أراد أعداء الإسلام أن يجدوا فيها مغمزاً ومطعناً، وهي قضية التبني، الذي كانت له أحكامه في الجاهلية، فذكرت السورة الكريمة تقدمة وتوطئة لهذه القضية ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب:٤-٥]. وبعد هذا التقرير تحدثت السورة عن منزلة النبي ﷺ بين المؤمنين، ومنزلة أزواجه كذلك، كما عرضت لقضية التوارث التي كانت معروفة في الجاهلية، وفي أول الهجرة ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب:٦].

ومهدت بعد ذلك لأخذ الميثاق من النبيين أولي العزم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧]، ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن قضية من القضايا العسكرية والسياسية معاً، تلكم هي غزوة الأحزاب، وما نظن أن هناك غزوة من الغزوات اشترك فيها عنصرا الكفر، سواء كان هذا الكفر وثنياً أم كتابياً، أقول: ليس هنا غزوة اشتركت فيها هذه العناصر جميعاً كغزوة الأحزاب. تحدثت السورة الكريمة حديثاً مستفيضاً عن غزوة الأحزاب، وعن موقف المنافقين الذين قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢] إلى غير ذلك من أقوالهم الشنيعة، ووصف دقيق لأحوالهم، وما يتصفون به من جبن وشح، وقارنت بينهم وبين المؤمنين الذين قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ [الأحزاب:٢٢].

ولما انتهى الحديث عن غزوة الأحزاب، بنصر الله للمؤمنين، انتقلت السورة إلى قضية أخرى، قضية ذات صلة خاصة بالنبي ﷺ ، حاول مرضى القلوب أن يستغلوها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩].

وأمرت الآيات الكريمة، أزواج النبي ﷺ -رضي الله عليهن- أن يتصفن بما يليق بهن من صفات الخير، وما هي الصفات التي ينبغي أن تتوفر للمسلمين والمسلمات، وأنه لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وتحدثت الآيات عن قضية زيد بن حارثة رضي الله عنه وزواج النبي ﷺ من زينب رضي الله عنها وهي التي مهّد لها في أول السورة الكريمة -كما قلنا من قبل-. واستمرت الآيات تتحدث عن هذه الشؤون الخاصة بالنبي ﷺ وأزواجه، وماذا يجب على المؤمنين في هذا المضمار، وختم هذا السياق بهذه الآيات الكريمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦-٥٩].

وبعد انتهاء هذا السياق، حذرت السورة الكريمة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين في المدينة، بأنهم إن لم يقلعوا عن أذاهم، وإن لم ينتهوا عن إرجافهم، فستكون النهاية التي لا مجال فيها لرحمة أو أمل، ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠]. وبينت ما أعد الله لهم في الآخرة، وبأن مما سبب لهم هذه العقوبة، رضاهم بالضعف، ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨]، ثم حذرت المؤمنين من أن يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأمرتهم أن يتقوا الله وأن يقولوا قولاً سديداً. ثم ختمت ببيان شأن الأمانة. والأمانة تشمل عناصر هذا الدين، وبخاصة ما جاء في هذه السورة الكريمة ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣]. تلك هي سورة الأحزاب، عنوانها يدل عليها، ثم مقدمتها كذلك، وهكذا ندرك أن هناك وحدة موضوعية في هذه السورة، فلقد جاءت تعالج شأن المنافقين والكافرين، في معاركهم العسكرية والاجتماعية معاً، وختمت بتحذير المؤمنين، وبأمرهم بتقوى الله، وبالقول السديد، وبالحديث عن عظم الأمانة.

يقول الدكتور محمد محمد أبو موسى عند تفسيره لسورة الأحزاب: «ويحاول بعض الباحثين أن يحدد لكل سورة من سور الذكر الحكيم موضوعاً عاماً تدور حوله آياتها، ثم بعد ذلك يجتهد في بيان مناسبات الآيات بعضها لبعض في ضوء هذا الغرض العام، وقد يهدي البحث في هذا إلى ما تطمئن إليه القلوب، وقد يكون غير ذلك، والقول في هذا الباب نذر يسير، وذلك لصعوبة خوضه ودقة مسلكه ويسمى علم هذه الدراسة علم المناسبة، وهو من أجلّ علوم القرآن.

ومن هؤلاء العلاّمة الشيخ محمد بن علي بن محمد المعروف بالتهانوي، وهو من علماء المسلمين في الهند، وقد قال في تحديد موضوع سورة الأحزاب: «في جميع هذه السورة ذب عن رسول الله ﷺ، فما أوذي به من أنواع الإيذاء، قتال الأحزاب له، ومعاونة المنافقين لهم، وطعن المنافقين في نكاحه ﷺ بزينب رضي الله عنها، وطلب الأزواج الزيادة في الإنفاق، واشتغال بعض المسلمين بالأحاديث في بيته ﷺ، ونحو

ذلك مما تأذى به النبي ﷺ ، فهذا القدر هو المقصود الأصلي من السورة، وما سوى ذلك فهو إما توطئة لبعض ما هو المقصود، وإما مكمل له، يظهر كل من التأمل في النظم الكريم»[1]. انتهى كلامه رحمه الله.

ويقول الأستاذ محمد بن كمال المعروف بابن شهيد ميسلون في محاولة له في هذا الباب: «وهي -أي سورة الأحزاب- من السور التي تباعدت أغراضها، ولكن المتأمل يظهر له التناسق في هذه السورة بأنها صورة عما يعرض لحياة مؤمن متعبد، وعلى رأسها حياة الرسول الأعظم، فكان ذلك رباط معانيها وموضوع وحدتها»».

ومعذرة إن لم أقف بك على روعة النظم في آيات السورة الكريمة، وفيما قبلها، فذاك أمر مع جلالة قدره، لكنه يطول بنا بيانه، وغرضنا الآن أن نتحدث عن نظم السورة الواحدة، وكيف أنها ينتظمها موضوع واحد، يشملها من أولها حتى آخرها.

---

(١) من أسرار التعبير القرآني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الفصل التاسع

بين السورة والسورة

إذا كان ترتيب السور توقيفياً -وهذا هو الأرجح- فإن من شأن هذا، أن يبحث العلائق والصلات بين السورة وأختها، وإذا كان ترتيب الآيات في السورة الواحدة من مظاهر الإعجاز -كما يقول كثير من الأئمة، وكما أقمنا لك عليه الدليل فيما مضى- فإن من المسلَّمات، أن يكون ذلك في ترتيب السور بعضها مع بعض. وإذا كان ترتيب الآيات في السورة الواحدة، بحاجة إلى تدبر، وحذق، واستنباط؛ فإن ذلك في ترتيب السور أكثر لزوماً وأدعى للتدبر.

ولقد عنى بعض المفسرين في بيان الصلات بين السور القرآنية، ولما كانت تلك أمورٌ اجتهادية، وجدنا ذلك يختلف بين مفسر وآخر، وربما يوفق المفسر الواحد، لاستنباط هذه الصلة في موضع أكثر من موضع آخر، وهذ العلم سموه «علم المناسبة» وسأضرب لك بعض الأمثلة مما أكرمني الله باستنتاجه، ثم أمثل لك بشيء مما ذكره الأئمة رحمهم الله.

١- بين سورتي النور والفرقان:

ولأختر لك أولاً سورتين، إحداهما مدنية والأخرى مكية؛ لأن استخراج المناسبة بينهما أعسر، من كونهما مكيتين، أو مدنيتين، وهما سورة النور وسورة الفرقان، والأولى مدنية بإجماع، والثانية مكية كذلك.

والذي يقرأ السورتين يظن لأول وهلة، أن لا صلة بينهما ألبتة، وأن لا رابط بينهما، إلا أنّ كلاًّ منهما قرآنٌ يتلى، ولكنك حينما تنعم النظر في السورتين الكريمتين،

وترجع البصر كرتين، ينكشف اللثام، وتتفتق الأكمام، عن ثمر شهي، وأريج زكيّ، ولتقطف هذا الثمر بيدك، ولتشم هذا الأريج أنت.

أظنك تعرف موضوع سورة النور، وهي السورة التي أمرنا أن نعلمها نساءنا وبناتنا، فهي السورة التي ذكرت فيها فرية الإفك، وبرئت فيها أم المؤمنين السيدة عائشة، الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها. سورة النور -إذن- هي السورة التي جاءت ترد تلك الشبهات التي أُثيرت حول إحدى أزواج النبي ﷺ، والتي كانت إثارتها إيذاء له ﷺ. أما سورة الفرقان، فلقد حدثتك عن موضوعها من قبل، وهي السورة التي جاءت تكرُّ على شبهات المعرضين عن الحق، لتردها واحدة واحدة، وأظنك بدأت الآن تدرك هذه الصلة القوية، والمناسبة المحكمة بين السورتين الكريمتين. كلتا السورتين ترد شبهة، وتقيم حجة، وتبدد باطلاً، إلا أن سورة النور كان ما ردته من الشبهات، يتصل بالنبي الكريم ﷺ، من حيث أهله وبيته وهي ما أثاره المنافقون، أما سورة الفرقان فكان ما ردته من الشبهات يتصل بالنبي الكريم من حيث دعوته ورسالته وكتابه، وهو ما أثاره الكافرون.

٢- بين سورتي التحريم والملك:

وإليك مثالاً آخر، ولأختره كذلك، من سورتين مختلفتين نزولاً، ولتكونا سورتي التحريم والملك، ذلك لأنني حدثتك من قبل عن سورة الملك مع سورة الفرقان، فليكن الحديث متصلاً عنهما هنا كذلك.

سورة الملك مكية -كما علمت- أما سورة التحريم فهي مدنية، ولقد علمت من قبل أن سورة الملك كان موضوعها قدرة الله تبارك وتعالى، وكان حديثها عن آثار القدرة الإلهية، فارجع إلى ذلك إن شئت. فماذا كان موضوع سورة التحريم يا ترى؟ أود أن أرجع بك إلى السورة السابقة لسورة لتحريم، وهي سورة الطلاق، ولا شك أن كلتا السورتين -أعني الطلاق والتحريم- تحدثتا عما يخص النساء، فسورة الطلاق بُنيت من أولها إلى آخرها على ذلك، بل إن اسمها يدل عليها، فلقد سميت

سورة النساء القصرى تمييزاً لها عن سورة النساء. وكذلك سورة التحريم بُنيت على هذا من أولها إلى آخرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم:١] وفي آخر السورة يضرب الله مثلين أحدهما للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، والآخر للذين آمنوا بامرأة فرعون ومريم. هذا من حيث الصلة بين السورتين.

ولكن بقي أمر آخر، ذلك أن سورة الطلاق ختمت بهذه الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق:١٢] فلقد ذكرت صفتين لله تعالى: العلم والقدرة، ولما كان العلم أسبق من القدرة من حيث المتعلق؛ لأن الله يعلم الأشياء قبل أن يوجِدها، شاء الله أن تكون السورتان التاليتان لهذه السورة -أعني سورة الطلاق- تختص كل منهما ببيان أثر صفة من هاتين الصفتين، فجاءت سورة التحريم تبين لنا إحاطة علمه تبارك وتعالى بكل شيء، وسورة الملك تبين لنا آثار قدرته، أما سورة الملك فلقد حُدِّثْتَ عنها، وأما سورة التحريم فيكفي أن تقرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم:١-٣].

وهكذا نجد أن السورة الكريمة قامت على هذا الأساس، وهو بيان علمه تبارك وتعالى.

٣- بين سورتي الحديد والمجادلة:

وإليك مثالاً آخر، ولكن الآن بين سورتين مدنيتين، ولتكونا سورتي الحديد والمجادلة. ففي سورة الحديد بيَّن فيها عِظَم ملكه تبارك وتعالى، ثم انتقلت السورة بعد مشهد من مشاهد يوم القيامة، لحث المؤمنين على الخشوع، وقد ذكرت المؤمنين

والمنافقين وما يحدث لهم، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٥-١٦]، ثم ذكرت في آخرها اتباع عيسى ابن مريم عليه السلام وما ابتدعوه من الرهبانية.

وجاءت سورة المجادلة بعد ذلك، تبدأ بحكم من أحكام الزوجية ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١-٣]، ثم فصلت في الحديث عن المنافقين وغيرهم، فأنت تجد أن الصلة بين السورتين ذات إحكام ظاهر، فإذا كانت سورة الحديد تحدثت عن الرهبانية، فقد جاءت سورة المجادلة تتحدث عن أحكام الزوجية، ثم جاءت بعد ذلك تفصل ما أجمل في سابقتها.

٤- بين سورتي النبأ والنازعات:

وإليك مثالاً آخر، ولكنه هذه المرة بين سورتين مكيتين، خذ سورة النبأ والنازعات، وستجد أن كلتا السورتين جاءت تتحدث عن البعث، ولكنك حينما تنعم النظر، ستجد أن الترتيب بينهما عجيب، حيث فَصَّلَتْ كل منهما ما أجملته الأخرى، فلقد فصلت سورة النبأ في الأدلة المقامة على البعث، كما فصلت الحديث عن ذلك اليوم، ولكنها أجملت ما سيصيب الناس من آثار ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ:١-٥]. ولكن الإجمال في الأدلة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ:٦-٧]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ:١٦]، ثم تحدثت عن طبيعة اليوم ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ:١٧-٢٠]، ثم بينت ما سيكون لكل فريق من

الفريقين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ:٢١-٢٢] إلى قوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ:٣٠]، ثم بينت ما أعد للمتقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [النبأ:٣١].

أما سورة النازعات فلقد أجملت ذلك كله، إلا أنها فصلت بعض الأمور ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات:٦-٧]، كما ذكرت ما أصاب المعرضين من قبل ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات:١٥]. أما جزاء الطاغين فلقد كان مجملاً ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وكذلك جزاء المتقين ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات:٤٠]. وأظنك حينما تتأمل السورتين جيداً، وأنت تتلوهما من كتاب الله، ستكون الصورة أكثر وضوحاً في نفسك.

٥- سورتا الضحى والشرح وما بعدهما:

ولتأخذ هذه السور الكريمة، سورة الضحى والشرح، فلقد كانت كلتا السورتين تتحدث عما أنعم الله به على سيدنا رسول الله ﷺ، إلا أن النعم التي ذكرت في سورة الضحى، أساس لما ذكرت في سورة الشرح، ففي سورة الضحى بعد أن منّ الله على نبيه بأنه ما ودّعه وما قلاه، والتوديع الترك، والقلى البغض ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى:٤-٥]. امتن الله عليه بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى:٦-٨]، وهذه النعم لا بد أن تُشكر ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:٩-١١].

وبعدها في سورة الشرح، أنعم الله عليه بشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وهذه بالطبع إنما هي ناتجة عن النعم التي قبلها، وهي الإيواء، والهداية،

والإغناء، وجاءت بعدها سورة التين، فكانت نعماً ذكرت فيها نعمة الله على هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وبخاصة هذا المؤمن ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٥-٦]، وبعدها جاءت سورة العلق، ذكرت فيها نعم الله على هذا الإنسان من الخلق، خلقه من علق، وتعليمه بالقلم، وتعليمه ما لم يعلم. ثم جاءت سورة القدر بعد سورة اقرأ، لتبين أن الذي أمر النبي ﷺ بقراءته، أُنزل في ليلة القدر.

وأنا لا أود في هذا الفصل أن أذكر لك الكتاب الكريم كله، وإنما أكتفي بالمثال -كما رأيت في الفصل السابق- وأظنك -إن تأملت- فبإمكانك أن تستنتج كثيراً من الصلات بين السور القرآنية. وسأنقل لك شيئاً مما قاله المفسرون تتبين منه أن أمر المناسبة أمر توفيقي اجتهاديّ، يقول الشيخ طنطاوي جوهري عن صلة آل عمران بالبقرة: «اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة البقرة، ألا ترى أن لفظ البقرة، يدل على بقرة بني إسرائيل التي ذُبحت لإظهار القتيل، وأن القصة التي تخللت السورة هي قصة بني إسرائيل، وقد قدمت لك في البقرة، أنها مرتبة ترتيباً تاريخياً على حسب العصور، فترى أن أول البقرة اشتملت على قصة بني إسرائيل لما كانوا في مصر، ثم الخروج منها، ثم ذكر أزمان حكم الشيوخ السبعين، ثم جاء في أواخر السورة فذكر ملكهم بعد أن كانت حكومتهم شورية، فملَّك الله عليهم طالوت، ثم داود وسليمان، واستفحل ملكهم كما أوضحته هناك. وليس بعد هذا التاريخ إلا خروج عيسى ابن مريم، فجاءت سورة آل عمران التي تلي قصة بني إسرائيل السابقة، فانظر كيف كان لفظ البقرة دالاً على قصة بني إسرائيل، كما أن آل عمران رمزاً إلى قصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى. ثم إن أول البقرة وآخرها مشابهاً لأول آل عمران وآخرها، فابتداء البقرة بالإيمان والغيب، وذكر الكتب السماوية، وهكذا افتتاح آل عمران. وختم البقرة بأن النبي ومن معه قد آمنوا بالله وجميع الكتب السماوية، وختم آل عمران بمدح التفكر في خلق السموات والأرض، وأن هؤلاء

المفكرين يقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران:١٩٣]، فهنا قالوا: آمنا، وفي البقرة قالوا: آمنا».

ويقول الشيخ عن صلة سورة النساء بآل عمران: «ولما كان ما ورد في آل عمران من أحوال الإسلام، لا يعدو في مجموعه جهاد الأعداء، ودفعهم عن الأوطان، والذب عن حياض الدولة وحراسة الملة، ناسب أن يؤتى عقبها بما يصون البلاد في داخلها، من القوانين المسنونة لصيانة الأموال والأعراض، ونظام الأسرات ، من قسم التركات وحفظ الزوجات وتبيان المحرمات، وحفظ الأنفس من القتل، ونظام القضاة والقضايا والمحامين المدافعين عن المدعى عليهم والصلح بين الأزواج، والصداق، والشهادات، وأداء الأمانات، وإغاثة المستضعفين، وما أشبه ذلك مما قرأته مجملاً وستعرفه مفصلاً، فكان تسميتها بالنساء أقرب، لأن المسألة ترجع إلى أمر الأسرات والأحوال المنزلية، وحفظ العائلات والنساء أس المنازل، كما أن الرجال أساطين الحروب والأعمال الخارجية»[1].

ويقول صاحب المنار عن صلة آل عمران بالبقرة: «وجه الاتصال بين هذه السورة -أي آل عمران- وما قبلها -أي البقرة- من وجوه (فمنها) أن كلاً منهما بدئ بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به، ففي السورة الأولى ذكر أصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن به، والمناسب في ذلك التقديم، لأنه كلام في أصل الدعوى، وفي الثانية ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، والراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ويقولون: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران:٧] المناسب فيه التأخير، لأنه فيها وقع بعد انتشار الدعوى (ومنها) أن كلاً منهما قد حاجّ أهل الكتاب، ولكن الأولى أفاضت في محاجة اليهود واختصرت في محاجة النصارى، والثانية بالعكس، والنصارى متأخرون عن اليهود

(١) الجواهر في تفسير القرآن، ج٤، ص٣٤.

في الوجود، وفي الخطاب بالدعوة إلى الإسلام، فناسب أن تكون الإفاضة في محاجتهم في السورة الثانية. (ومنها) ما في الأولى من التذكير بخلق آدم، وفي الثانية من التذكير بخلق عيسى، وتشبيه الثاني بالأول في كونه جاء بديعاً على غير سنّة سابقة في الخلق، وذلك يقتضي أن يذكر كل منهما في السورة التي ذكر فيها (ومنها) أن في كل منهما أحكاماً مشتركة كأحكام القتال ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أن ما في الأولى أحق بالتقديم وما في الثانية أجدر بالتأخير (ومنها) الدعاء في آخر كل منهما فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين لأن معظمه فيما يتعلق بالتكليف وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها. وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة (ومنها) ما قاله بعضهم من ختم الثانية بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها. ذلك أنه بدأ الأولى بإثبات الفلاح للمتقين وختم الثانية بقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠]»[1].

ويقول عن صلة النساء بآل عمران: «ومن وجوه الاتصال بينها وبين ما قبلها: أن هذه قد افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك، من الأمر بالتقوى، وهو ما يسمى في البديع تشابه الأطراف، وفي روح المعاني: أن هذا آكد وجوه المناسبات، وفي ترتيب السور (ومنها) محاجة أهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً في كل منهما. (ومنها) ذكر شيء عن المنافقين في كل منهما وكونه في سياق الكلام عن القتال (ومنها) ذكر أحكام القتال في كل منهما (ومنها) أن في هذه شيئاً يتعلق بغزوة أُحد التي فصلت وقائعها وحكمها، وأحكامها في آل عمران، وهو قوله تعالى في هذه السورة ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ [النساء:٨٨] كما سيأتي في موضعه وكذا ذكر شيئاً يتعلق بغزوة (حمراء الأسد) التي كانت بعد (أُحد) وسبق ذكرها في آل عمران كما تقدم، وذلك قوله تعالى في هذه السورة ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ [النساء:١٠٤].

---

(١) تفسير المنار، ج٣، ص١٥٣.

وقد ذكر هذا الوجه وما قبله في روح المعاني، وأما الوجوه الأخرى وهي ما تتعلق المناسبة فيها بمعظم الآيات فلم أرها في كتاب ولا سمعتها من أحد»[1].

ويقول السيوطي عن صلة سورة الكوثر بسورة الماعون: «ومن لطائف سورة الكوثر، أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها في مقابلة البخل ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر:١] أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿ فَصَلِّ ﴾ [الكوثر:٢] أي: دُمْ عليها، وفي مقابلة الرياء ﴿لِرَبِّكَ ﴾ [الكوثر:٢] أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون ﴿ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢] وأراد به التصدق بلحم الأضاحي»[2].

(١) تفسير المنار، ج٤، ص٣٢٢.

(٢) الإتقان للسيوطي، ج٣، ص٣٨١.

الفصل العاشر

القرآن في مجموعه

بعد الفصول التي قدمناها لك، الجملة القرآنية والفقرة القرآنية، والسورة القرآنية، وبين السورة والسورة، نرى لزاماً علينا، وإتماماً للفائدة، أن نختم هذه الفصول بفصل نتحدث فيه عن القرآن في مجموعه، وكان من الممكن أن نكتفي بما ذكرناه، إذ ما ذكر لا يدع مجالاً لمرتاب في إعجاز هذا الكتاب، لولا أننا وجدنا بعض القضايا أثارها بعض الكاتبين، ومنهم أئمة مشهود لهم، بطول الباع ورسوخ القدم. ونبادرك القول، بأنك لو نظرت إلى القرآن كله، لوجدته نسقاً واحداً من حيث آياته، وموضوعاته على تنوعها وتعددها، فإذا أخذت القصة القرآنية، وجدتها مجملة في سورة، مفصلة في أخرى؛ فقصة نوح أجملت في سورة يونس، وفصلت في سورة هود، وقصة موسى على العكس من ذلك. وهكذا تجد أن كل سورة ذكرت فيها القصة، بما يتناسب ويتلاءم مع موضوعها[1].

فإذا أخذت قضايا الأحكام، فإنك ستجدها قد وزعت توزيعاً عادلاً، فمع أن أكثرها في السور المدنية، إلا أنك تجد أن بعض هذه الأحكام، ذات الموضوع الواحد، وزعت في سور حسب ما يقتضيه المقام لكل سوره؛ فقضايا الطلاق مثلاً، وما يتعلق بها ذكر الكثير منها في سورة البقرة، ولكن بعض الأحكام ذكرت في سورة الطلاق، وكذلك في سورة الأحزاب. كل ذلك مما تمليه المناسبات، وأسباب النزول. كذلك أحكام الجهاد، وآيات الخمر، وآيات الربا، كان فيها أمر التدرج بيِّناً ظاهراً، فآيات القتال مثلاً بدئت بقوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُـلِمُوا۟

(١) راجع كتابنا: القصص القرآن في إيحائه ونفحاته.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج:٣٩]، ثم جاءت آيات سورة البقرة ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٠]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ [البقرة:٢١٧]. واستمرت آيات القتال في النزول، بما تتطلبه المواقف المتعددة، إلى أن نزلت سورة براءة. وآيات الربا مثلاً، بدأت بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم:٣٩]، كذلك آيات الخمر، كانت الإشارة الأولى لها في قوله سبحانه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ [النحل:٦٧]، حيث وصف الرزق بالحسن، وخلى السُّكْر من هذا الوصف، وهي آيات مكية، إلا إذا استثنينا آية الحج على القول بمدنيتها، ثم تدرجت الآيات بعد ذلك، إلى أن جاءت الآيات القاطعة، بتحريم الربا والخمر.

أما ما يختص بأعداء الإسلام، وخصوم المسلمين، من أحكام وأخبار، فلقد كان الأمر فيه عجيباً من حيث الدقة، والتربية، والإحكام، حيث وزعت هذه كلها توزيعاً مناسباً، تظهر فيه الحكمة والتربية -كما قلت-. ومثال على ذلك: سورة البقرة حيث كان الحديث فيها عن بني إسرائيل مستفيضاً شاملاً، وبعد أن انتهى الحديث عنهم ذكرت جملة من الأحكام التي تخص الجماعة المسلمة، كالقصاص والوصية، والصيام، والجهاد، والحج، وأحكام الأسرة، وأحكام المال، لكن سورة النساء اتخذت سبيلاً آخر، حيث ذكرت فيها جملة من الأحكام أولاً، ثم جاء الحديث عن أهل الكتاب، وإذا أنعمت النظر وبحثت عن السبب، وجدت ما يطمئن القلب ويأخذ باللب، ففي سورة البقرة، ذُكِر بنو إسرائيل، من حيث نِعَم الله عليهم، وكفرهم لهذه النعم، وعقوبة الله لهم، وكان ذلك كله توطئة لذكر ما يخص الجماعة المسلمة من أحكام، ليكون ذلك باعثاً لهم على التمسك بها، وتنفيذها، وعدم مخالفتها؛ فلقد ذكر أولاً ما حل بأولئك الذين جحدوا نعم الله، وخالفوا أوامره، ليكون درساً للمؤمنين فيما يتبين لهم، ويكتب عليهم. ثم الحديث عن بني إسرائيل في سورة البقرة، كان عن المتقدمين على بعثة النبي ﷺ.

أما سورة النساء فلقد ذكرت الأحكام أولاً، الخاصة بالمسلمين، ثم ذكرت طرفاً من أهل الكتاب، ثم أمرت بالجهاد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء:٧١]. ولكن أهل الكتاب الذين ذكروا في سورة النساء، لم يكونوا من المتقدمين الذين كانوا قبل بعثة النبي الكريم ﷺ ، وإنما أولئك الذين كانوا يتعايشون مع المسلمين. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن أهل الكتاب الذين ذكروا في سورة النساء، لم يذكروا من حيث نعم الله عليهم، ومخالفتهم، وجحودهم -كما رأينا في سورة البقرة- وإنما من حيث عداؤهم للمسلمين وحسدهم لهم. سورة النساء -إذن- ذكرت الأحكام أولاً، ثم حذرت المؤمنين من اليهود، ثم أمرتهم بالجهاد، لتبين لهم أن أمر الجهاد، إذا أراد المسلمون أن ينتصروا فيه، فهو منوط بأمرين اثنين:

الأول: اتباع الأحكام.
والثاني: الحذر من الأعداء.

وليس كذلك سورة البقرة، بل كان لا بد فيها من ترتيب غير هذا. وهكذا لو استقرأت القرآن الكريم كله، لوجدت هذه التربية المحكمة الدقيقة.

أما قضايا العقيدة، وقد وزعت أكثر ما وزعت على القرآن المكي، فلقد كانت خاضعة كذلك لهذا الإحكام الذي حدثتك عنه من قبل، وهكذا الموضوعات القرآنية جميعها، كانت كلها سواء من حيث النظم، والدقة، والإحكام، والروعة الفنية.

وما نظن أحداً من المسلمين ينازع في شيء من هذا، فهم مجمعون على أن القرآن بلغ الغاية في ذلك كله، لكن الذي نازع فيه بعضهم، من حيث الكلمات والجمل القرآنية، أهي في الفصاحة سواء؟ أم بعضها أفصح من بعض؟ والجمل أهي في البلاغة سواء؟ أم بعضها أبلغ من بعض؟ وقد حدثناك في الباب الأول عن طرف من هذا، وبيّنا لك أن الباقلاني، والجرجاني، والخطابي، وغيرهم، يرون أن

القرآن نسق واحد، فلا مجال للتفاوت فيه، وهذا ما قررته لك من قبل، حين حدثتك عن الكلمة والجملة وغيرها. ولكن بعض العلماء انتحى ناحية أخرى، حيث زعم أن بعض الكلمات القرآنية أفصح من بعض، وبعض الجمل أبلغ من بعض، فهم مع إجماعهم أن القرآن كله فصيح بليغ، إلا أن أولئك رأوا أن هذه الفصاحة والبلاغة تتفاوت. وسنعرض لثلاثة نفر وهم: ابن سنان الخفاجي، والزمخشري، والبارزي. وسنبدأ الحديث عن ابن سنان والبارزي، وسنؤخر الزمخشري لشدة عتبنا عليه، فهو بحق شيخ من شيوخ البيان، وستكون مناقشتنا له أشد وأقسى. وكما يقولون: ولكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة.

أولاً: البارزي:

يقول البارزي في أول كتابه «أنوار التحصيل في أسرار التنزيل» -كما ينقل عنه السيوطي في الإتقان- «اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزءي الجملة -قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معاني الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلك عتيد حاصل في عمل الله تعالى، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن:٥٤]، لو قال مكانه: «وثمر الجنتين قريب» لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ [العنكبوت:٤٨] أحسن من التعبير بـ «تقرأ» لثقله بالهمزة، ومنها ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] أحسن من «لا شك فيه» لثقل الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب، ومنها ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ [آل عمران:١٣٩] أحسن من «ولا تضعفوا» لخفته،

و﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم:٤] أحسن من (ضعف)، لكون الفتحة أخف من الضمة، ومنها ﴿ ءَامَنَ ﴾ [البقرة:٦٢] أخف من صدّق، ولذا كان ذكره أخف من ذكر التصديق، ﴿ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف:٩١] أخف من «فَضَّلك الله»، ﴿ وَءَاتَى ﴾ [البقرة:١٧٧] أخف من أعطى، ﴿ وَأَنذِرْ ﴾ [الشعراء:٢١٤] من خَوِّف، و﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٤] أخف من «أفضل لكم»، والمصدر في نحو ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:١١]، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يوسف:٣]، أخف من مخلوق، والغائب، و﴿ تَنكِحَ ﴾ [البقرة:٢٣٠] أخف من تتزوج، لأن (فَعَل) أخف من (تفعّل)، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر، ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة، والغضب والرضا، والحب والمقت في أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة، لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام، كأن يقال: يعامله معاملة المحب والماقت، فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة لخفته واختصاره، وابتنائه على التشبيه البليغ، فإن قوله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥] أحسن من فلما عاملونا معاملة المغضب، أو فلما أتوا إلينا ما يأتيه المغضب»(١).

ولا يشك من يقرأ هذا النص، بأن خفة الكلمة وعدمها كان الأصل الذي يستند إليه البارزي رحمه الله ، ومع تقديرنا لما ذكره من خفة الكلمة القرآنية على اللسان، لكننا لا نسلم له أن ذلك هو السبب الوحيد الذي من أجله تستعمل كلمة مكان كلمة، فنحن لسنا مع البارزي فيما ذهب إليه، من أن الريب استعمل مكان الشك لخفته، وعدم الإدغام فيه، ولو كان الأمر كذلك لا ينبغي أن تذكر كلمة شك في القرآن ألبتة، والأمر ليس كذلك، ولسنا معه كذلك في أن القرآن الكريم استعملت فيه كلمة تتلو في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾

---

(١) الإتقان، ج٢، ص١٢٥.

[العنكبوت:٤٨] لأنها أخف من كلمة تقرأ فحسب، فإن مع الخفة سبباً آخر، فهناك فرق في المعنى بين التلاوة القراءة.

وكذلك في كلمة الوهن والضعف، والإيمان والتصديق، والإعطاء والإيتاء، والإنذار والتخويف، فإننا نجد هذه الكلمات جميعاً استعملت في كتاب الله، قال تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾ [القيامة:٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الكوثر:١]، ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥]. والحق أن هناك فروقاً بين هذه الكلمات، فالإعطاء ليس هو الإيتاء، والإنذار يختلف عن التخويف.

إن الكلمات التي ذكرها البارزي، مفضلاً بعضها على بعض، نجدها جميعها في كتاب الله تعالى، فاضلها ومفضولها -كما ذكر- ولو أن الأمر كما قال، ما كان ينبغي أن تذكر الكلمات المفضولة، وأن بين الشك والريب فروقاً لا فرقاً واحداً، وكذلك الإعطاء والإيتاء، والإنذار والتخويف، والإيمان والتصديق، والدنو والقرب، والجنى والثمر، فالريب ما فيه تهمة وما تضطرب فيه النفس، والشك ليس كذلك، والإنذار لا بد فيه من الإعلام والتخويف مع مُهْلةٍ، والجنى أخص من الثمر، وكذلك الدنو والقرب.

وإذا كانت تتلو أخف من تقرأ -كما يقول- فلماذا استُعملت هذه الكلمة في كتاب الله ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء:١٠٦] ولماذا استُعملت كلمة التفضيل ما دامت كلمة الإيثار أخف بالاستعمال ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النحل:٧١]. وكذلك الوهن والضعف، هل كلّ ضعف يسمى وهناً؟ الذي ندركه من الآيات الكريمة غير هذا.

لقد جاء الضعف في كتاب الله تعالى مقابل القوة، لكن الوهن جاء في مقابلة العلو، قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾

[الروم:٥٤]، وفي الحديث «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقد يكون الوهن ضعفاً من حيث الخلقة. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤].

وعجيب من البارزي أن يعد كلمتي «خير لكم» و«أفضل» سواءً في الدلالة والمعنى، والحس يشهد بما بينهما من فرق واضح، وهكذا فليس ما قرره البارزي جديراً بالبروز»[(٢)].

ثم نحن لسنا مع البارزي كذلك فيما قرره من أن الرحمة والرضا، والغضب والحب والمقت، التي استعملت في أوصاف الله تعالى، ليست على حقيقتها، وإنما كان الداعي والهدف إليها الاختصار، نحن لا نود الآن أن نقحم هذا الكتاب بالحديث عن المذاهب الكلامية، فذلك ليس محله هنا، ولكن ما دام الله تبارك وتعالى وصف نفسه بهذه الأمور، فنحن لا نرى داعياً لتأويلها، ما دامت لا تتعارض مع مسلَّمات العقل وبدهيّاته؛ ولذا فإن علماء السلف، وكثيراً من علماء الخلف -إن صح هذا التعبير- لا يؤولون هذه الأوصاف، كما أولها البارزي. إن من أخطر الأمور والقضايا أن نخضع البيان القرآني للمشادات والاختلافات المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، أو نحوية، مما يذهب برونق البيان، وسناء البراعة.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب: القدر، باب: الإيمان للقدر والإذعان له، صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، ص٢١٥.

(٢) راجع بحثنا الكلمة القرآن وجهود علماء البيان.

مناقشة بعض المحدثين:

د. فتحي عامر:

ويشبه ما ذهب إليه البارزي، ما نجده عند بعض الكاتبين المحدَثين، وهم يتحدثون عن فصاحة ألفاظ القرآن، وكونها مختارة منتقاة، موحية معبرة، هادفة مؤثرة، ولكنهم يأتون بما لا ينبغي من القول، يقول الدكتور فتحي عامر: «واستمع إلى قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩]، تجد أنه اختار ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ بدل «يذيقونكم» مثلاً، لأن معنى الأول يولونكم إياه، ويريدونكم عليه، وهذا المعنى لا يوجد في «يذيقونكم».

واختار كذلك [(يَذْبَحُونَ) وهي قراءة شاذة] أو ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدلاً من «يَقْتُلُون» مثلاً أو يُقَتِّلُون بالتضعيف لعين الكلمة، لأن الفعل الأول يدل على كثرة من ذبح فرعون من بني إسرائيل وعلى أنه كان يعاملهم معاملة البهائم من إهدار قيمهم، وخنق كبريائهم حيث حادوا عن طريقه[1] الضال إلى طريق موسى المستقيم، وهذا المعنى لا يوجد في «يقتلون» من غير تضعيف العين أو بتضعيفها»[2].

وكنا نرجو للكاتب أن يكون أكثر تدبراً، وأوعى استيعاباً عند الآيات الكريمة، وأن لا يقف عند أقوال الآخرين، ولو أنه فعل ذلك لوجد أن الأمر على غير ما قرر؛ ذلك أن كلاً من كلمتي «يُذبِّحون» و«يُقَتِّلون» وردت في كتاب الله تعالى. إليك بيان ذلك:

---

(١) المعلوم أن فرعون كان يفعل هذا قبل مجيء سيدنا موسى عليه السلام واتباع بعض بني إسرائيل له، فعجب من الكاتب أن يقرر هذا.

(٢) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن، ص١٣٤.

كلتا الكلمتين تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، ولقد ورد ذلك في عدة سور من كتاب الله.

١- في سورة البقرة نقرأ قول الله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (٤٩)﴾ [البقرة:٤٧-٤٩] وهي الآية التي ذكرها الكاتب.

٢- في سورة الأعراف: يحدثنا القرآن أنه بعد أن أغرق الله فرعون وجاوز الله ببني إسرائيل البحر، أتوا على أقوام يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا من موسى عليه السلام، أن يكون لهم مثل هذه الأصنام ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٤٠) وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (١٤١)﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤١].

٣- في سورة إبراهيم أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (٦)﴾ [إبراهيم:٦].

هذه آيات ثلاث ذكر فيها التذبيح والتقتيل، فلم يقتصر القرآن الكريم على واحدة، منها -كما قرره الكاتب- ولعلك أيها القارئ تتساءل: لم ذكر هذان الفعلان؟ والذي يظهر لي -والله أعلم بما ينزل- أن الملأ من آل فرعون قساة القلوب، غلاظ الأكباد، الذين استخفهم سيدهم فأطاعوه، كانوا يتفننون في إيذاء

بني إسرائيل، والتنكيل بهم -ومثل هذا التفنن في التنكيل في إيذاء المسلمين، نجده اليوم من العدو ومن ذوي القربى، وإن كان ذووا القربى أشد مضاضة، وأكثر إيذاءً فتارة كانوا يذبّحون هؤلاء الأبناء، وتارة كانوا يقتّلونهم بوسيلة غير الذبح. ووسائل القتل كثيرة، لا تقتصر على الذبح وحده، فحدثنا القرآن عن هاتين الطريقتين، اللتين تزهق بهما النفوس، الذبح تارة، والقتل أخرى. هذا عن وجود الكلمتين في كتاب الله، وكأني بك تجد في هذا القول ما يقنعك، اختيار الكلمتين في كتاب الله، كان الهدف منه بيان غلظة القوم وقسوتهم وتفننهم السيئ في الإيذاء وإزهاق النفس، ولكن كأني بك يتشوف فؤادك إلى المزيد من أسرار الكتاب الخالد، مما يمتع النفس ويرهف الحسن، وكأني بك تتساءل سؤالاً آخر بعد أن عرفت الإجابة عن السؤال الأول، وهو لم ذكر التذبيح تارة والتقتيل أخرى؟ أقول: كأني بك تتساءل: ولكن لم اختص كل من التذبيح والتقتيل بالموضع الذي ذكر فيه من كتاب الله، أي لم اختصت سورة الأعراف بالتقتيل، وذكر التذبيح في السورتين الأخريين، والحق أنه سؤال حري بالإجابة، فلقد تشوفت له نفسي، كما تشوفت له أنت، ولكن لكي تدرك الإجابة، لا بد أن نشحذ الهمة معاً، ونعلو القمة كذلك، لا بد من أن نصْعد إذا أردنا أن نسعد بالآيات وأسرارها، وتفتيق الأكمام عن أزرارها، ولكن حذارِ من السآمة والملل، وليكن التأني زادك.

لنتأمل الآيات معاً، سورة البقرة كان الخطاب فيها من الله تبارك وتعالى، ولكنه لم يكن لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن موسى ﷺ، وإنما كان لبني إسرائيل الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ. أما سورة الأعراف وسورة إبراهيم ﷺ فالخطاب كان من موسى ﷺ. ومن البدهي أنه كان لأولئك القوم الذين كانوا معه[1]، سورة البقرة -إذن- تختلف عن السورتين الأخريين، إن الإنعام فيها

(١) وهذا لا يتناقض مع ما قررناه لك من قبل، من أن الحديث عن بني إسرائيل في سورة البقرة، كان لأولئك المتقدمين على بعثته ﷺ، لأن الأحداث التي ذكرت فيه جميعاً من تذبيح الأبناء، =

كان موجهاً من الله مباشرة، وإن المخاطبين فيها بنو إسرائيل من أحفاد الذين كانوا مع موسى عليه السلام الذين كانوا في عهد النبي ﷺ.

ولكن بقي أن نعرف الفرق بين آيتي الأعراف وإبراهيم، وعودة إلى السياق، تجد أن آية الأعراف كانت عقب إغراق فرعون وآله مباشرة، أي من قبل أن تجف أقدام بني إسرائيل من الماء[1]. أما آية إبراهيم عليه السلام، فالذي يظهر من سياقها أنها إنما كانت بعد معاناة، وشدة وبأس وإيذاء لاقاه عليه السلام من أولئك. وإذا شرفنا بتلاوة الآية السابقة مرة ثانية، وقرأنا الآيات التي بعدها، هي قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٧-٩]. هذا السياق يدلنا على أن موسى عليه السلام، إنما قال ما قال، بعد أن طفح الكيل، وبلغ السيل الزُّبى، ويشهد لها أسلوب الآية نفسها ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ بهذه الواو التي خلت منها الآيتان الأُخريان، والفرق ظاهر بين وجود الواو وتركها؛ فقوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٩] بلا واو معناه أن سومهم سوء العذب يشتمل على تذبيح الأبناء. أما قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ ﴾ [إبراهيم:٦] فالمعنى يختلف فيه عن سابقه، ففي هذه الآية أمور ثلاثة، كل منها غير الآخر، الأول سوم سوء العذاب، والثاني تذبيح الأبناء، الثالث استحياء النساء، وهذا ما جاء في سورة إبراهيم عليه السلام، وهذا ما ذكّر فيه موسى قومه في هذه السورة،

= وفَرْق البحر، وتظليل الغمام، لم يكن لأولئك الذين كانوا على عهده ﷺ وإن كان الخطاب بقوله: «يا بني إسرائيل» خطاباً لأحفادهم.

(١) راجع هذا الموضوع في كتابنا «القصص القرآني إيحاءاته ونفحاته».

ذكّرهم بما كان يفعله فرعون، يسومهم سوء العذاب أولاً، بالإذلال والضرب والإهانة، ويذبح أبناءهم ثانياً، وثالثاً يبقي البنات على قيد الحياة، وهذا معنى يستحيي، حتى يصرن نساء للخدمة والإهانة.

أظنني قد أطلت عليك، ولكن لا تضجر، فما أحسن المتعة في ظل الكتاب الخالد، التذبيح -إذن- ذكر في موضعين: في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم ﷺ، أما اختياره في سورة إبراهيم فظاهر؛ لأن موسى ذكّر به قومه، بعد أن أعيته الحيلة في هدايتهم، وكاد ينفد صبره، فذكر لهم ما يهولهم، ولا شك أن اختيار كلمة التذبيح في هذا المقام، يتناسب تماماً مع الهدف الذي أراده موسى ﷺ، والظرف الذي تحدث فيه.

ولقد عرفت من قبل، أن آية إبراهيم تختلف عن الآيتين السابقتين، أسلوباً وسياقاً. أما أسلوباً فلقد ذكرت فيها الواو، وأما سياقاً فلقد جاءت بعد معاناة كثيرة وجدها موسى ﷺ منهم.

أما اختيار فعل التذبيح في سورة البقرة، فالخطاب -كما قلنا- فيها كان موجهاً لأولئك الذين كانوا في عهد النبي ﷺ ولا بد من أن يدرك هؤلاء الأحفاد، ما كان يلاقيه الأجداد، ليذكروا نعم الله، وليتركوا العناد.

ويسهل علينا أن ندرك الآن، لم اختير التقتيل في سورة الأعراف؟ ذلك لأن تذكير بني إسرائيل بهذه النعم، كان بعد إنجائهم من آل فرعون مباشرة، فلم يكونوا قد أحدثوا من الجرائم ما يستدعي توبيخهم، إلا تلك.

وهكذا تجد أن اختيار الكلمة في القرآن الكريم، إنما هو نتيجة أهداف متعددة، وظروف، لا لأن هذه الكلمة أفصح من تلك، فكلمة يذبحون في موضعها ليست أفصح من كلمة يقتلون، ولا أشد مناسبة، وأكثر تلاؤماً، وكذلك كلمة يقتّلون. ومثل هذا ما ذكره البارزي من كلمات كثيرة، فكلمة الريب في موضعها ليست أفصح من كلمة الشك في موضعها، بل إن كلمة الشك جاءت في سياق لا ينبغي أن تكون معه كلمة الريب -كما مر معك من قبل- وهكذا كل ما ذكره

البارزي وغيره، حريٌّ أن نُعمل فيه الفكر، إذا أردنا أن نحسن التمييز بين التبن والتبر، والله ولي كل أمر.

ثانياً: ابن سنان الخفاجي:

يقول: «فإن قيل كلامكم الماضي يدل على أن في القرآن ما بعضه أفصح من بعض، وفي الناس من يخالفكم ويأبى ذلك، فما عندكم فيه؟ قلنا: أما زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة، فالأمر فيه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة، وشدا شيئاً يسيراً، وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:٣٤]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ ﴾ [سبأ:٥١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٧٩]. وأمثال هذا ونظائر كثير.

فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى، وإنما تدخل الشبهة في هذا، ومثله على الأعاجم من الفقهاء والمتكلمين لجهلهم بهذه الصناعة، وعدم فهمهم لقوانينها.

... وليت شعري أي فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسنُ وأصبح من الآخر، وبين أن يحدث كلامين أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرق بينهما إلا مقترح؟

ثم ليس أحد ممن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض يتمنع من القطع على أن القرآن في لغته أفصح من التوراة في لغتها والإنجيل في لغته، والزبور

في لغته، لأن تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى. فما المانع من أن يكون بعض كلامه الذي هو القرآن أفصح من بعض حتى تكون آية منه أفصح من آية، والجميع كلام الله، وما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل، وإن كان الجميع كلام الله، وهذا لا يخفى على محصل.

فإن قيل: الذي يمنع أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض. القول بأن قدر كل سورة من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوه في الفصاحة، وما كان خارقاً للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا، أولاً: إن الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب من معارضته، وإن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف، وهذا هو المذهب الذي يعوِّل عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم، وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره، فالسؤال على هذا المذهب ساقط. ثم لو سُلِّم أن وجه الإعجاز هو الفصاحة لم يمنع أن يكون كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، فإن نبياً لو أظهر الله على يده مُعْجِزاً -وهو حمله ألف رطل- لم يمنع أن يُظهر على يده أو يد نبي غيره مُعْجِزاً آخر، وهو حمل ألفي رطل، فيكون المعجز أن أحدهما أعظم من الآخر، مع كون كل واحدٍ منهما معجزاً»[1].

ولا بد أن نناقش ابن سنان، وقد تمحل في كثير مما ذهب إليه، وأول ما نقرره هنا أننا في الفصول السابقة، رأينا أن القرآن كله، من حيث الكلمات والجمل، والقطع والسور، نسق واحد في الصنعة البديعة، وعلم فرد في المنزلة الرفيعة، وحجة واضحة، ومنطق سوي، في كل ما قرره من موضوعات الشريعة، ولقد رأينا أن الكلمة تستعمل في موضع، ويستعمل غيرها في موضع آخر، فتكون كل منهما واسطة العقد، ورأينا أن الجملة يحذف جزؤها، أو يقدم، أو يؤكد في موضع،

(١) سر الفصاحة، ص٢١٢-٢١٥.

وتكون غير ذلك في موضع آخر، فتكون كل منهما أحلى من الشهد، وأن السورة الكريمة يقدم فيها موضوع، ويؤخر في أخرى، فتكونان سواء في جمال واعتدال القدّ، وهما سواء كذلك في إقناع العقل وإزالة الوجد.

أما ادعاؤه بأن العلماء استحسنوا جملاً أو آيات، فخصوها بالذكر، فليس ذلك بالمرضي من الكلام؛ ذلك لأن ما استحسنه العلماء، لا يدل على أن غيره مفضول، وإنما ظهر الحسن لبعضهم فيما استحسنوه، فنقله غيرهم عنهم، وقد نقل غيرهم غير ما نقلوه، ونحن واجدون في كل جملة ميزتها، ولكل فقرة من البلاغة ركيزتها، فقوله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [هود:٤٤]، لا يقل عنه بياناً ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣]، وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقوله: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾ [البلد:١١-١٢]، وقوله: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ [البقرة:٢٤١]، وقوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد:١]، وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة:٩١]، وقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ ﴾ [يونس:١١]. كل هذا وغيره من كتاب الله سواء.

أما ادعاؤه أن التوراة والإنجيل كلام الله، والقرآن أفصح منهما، فلا مانع أن يكون بعض كلام الله في القرآن أفصح من بعضه الآخر، فقول غريب، وادعاء عجيب؛ ذلك لأن أحداً لم يدّع -حتى أصحاب هذه الكتب- بأنها معجزة.

وأما تمثيله بالنبي يحمل ألف رطل تارة، وألفي رطل هو أو غيره تارة، فهذا من المنطق الصوري الجدلي، الذي لا يجوز أن يكون منطق المتحدثين عن القرآن، كما لا يجوز أن يكون منطق الأدباء، وأصحاب الصنعة البيانية، فهو بعيد عما نحن فيه. وإذا أردنا أن نرد على ابن سنان بنوع منطقه، وأن نجابهه بمثل سلاحه، قلنا له: هذا

قياس مع الفارق، وهكذا نجد أن تمسك ابن سنان برأيه هذا، يصل به إلى ما لا تحمد عقباه، وصل به إلى القول بالصرفة، وقد حدثناك عنه بما فيه الكفاية في الجزء الأول، ويا ليت ابن سنان جاء لنا ببعض الأمثلة كما سنرى عند الزمخشري، ولكنه لم يفعل، والخيرة فيما اختاره الله.

ثالثاً: الزمخشري:

قلت من قبل: أن عتبنا على الزمخشري أشد من عتبنا على غيره؛ ذلك أن الزمخشري الذي يملك أساليب البيان، فنضدها لنا فكره، وخطها يراعُه، كان جديراً به أن لا يدع الكلام، ليقتنص كل منه ما يشاء. وغني عن القول أن حديثنا مع الزمخشري وعنه، ليس لتفضيل كلمة على كلمة -كما رأينا من قبل- وإنما لكون آية أبلغ من آية، أو نظم أبلغ من نظم.

وأحب أن أبادرك القول هنا، بأن البلاغة إنما هي مراعاة مقتضى الحال، بتحقيق أن لكل مقام مقالة، فقد يكون الوعد في موضع أبلغ من الوعيد في موضع آخر، والعكس صحيح، وقد يكون التلطف في موضع، أبلغ من التهويل في موضع آخر، والعكس صحيح، وقد يكون من الحكمة التدرج من الشديد إلى الأشد في موضع، ومن الشدة إلى اللين في موضع آخر. وما نأخذه على شيخ البيان صاحب الكشاف، أنه يطلق القول دون أن يبين هذه الحقيقة التي أشرت إليها، وسواء كان الزمخشري، يؤمن بأن بعض القرآن أبلغ من بعض، كما توحي به عباراته التي سننقلها لك، أم كان يرى أن مقاماً أبلغ من مقام إن أحسن القارئ الظن -وإن كنا نرجح حسن الظن- أقول: سواء كان هذا أم ذاك، فلا بد أن نقفك على عباراته لنناقشه أنا وأنت.

١- يقول عند تفسيره قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:٢٧]:

«قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: خلينا بينهم وبينهم، لم نكُفَّهم عنهم، حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سوّلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول»[1].

ويعني الزمخشري بالتحذير الأول قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ فهما تحذيران -كما رأيت- الأول: التحذير فيه من جهة أن العدو يراك، ولكنك لا تراه، فهو أقدر على الإغارة عليك، وعلى نيل ما يريد منك؛ ذلك لأن رؤيته لك دون رؤيتك له، تمكنه منك. فإذا أردت أن تنجو من حبائله وأذاه، فلا بد أن تكون حذراً في كل أحوالك.

الثاني: وأما التحذير الثاني، فمن جهة أن الولاية والمودة، إنما تكون بين الشياطين وبين الذين لا يؤمنون، فهو حث لبني آدم ليتجنبوا ما للشياطين من أساليب.

ولكن وليس معنى الأبلغية أن التحذير الثاني هو أبلغ من حيث الأسلوب من التحذير الأول، فلو أنك أخذت التحذير الأول ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ لوجدت فيه دواعي البلاغة متعددة متلاحقة، آخذاً بعضها بيد بعض، ويكفي أن نذكر لك أداة التأكيد (إن) واسمها العائد إلى الشيطان، ثم تكراره ضميراً مستتراً فاعلاً (ليرى)، ثم التأكيد بالضمير البارز (هو)، فأنت ترى أنه قد ذكر مرات ثلاث: الهاء في (إنه)، والفاعل الضمير المستتر للفعل المضارع (يرى)، والضمير البارز المؤكد للضمير المستتر (هو)، ولم يأت النظم هكذا «يراكم وقبيله» بعد قوله: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ إلى غير ذلك مما في الجملة القرآنية من أسرار النظم، وليس الآن مجال تفصيله.

---

(١) الكشاف، ج٢، ص٩٨.

إذن ليس المقصود أن الجملة الثانية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث هي أبلغ من الأولى، وإنما التحذير في الجملة الثانية أشد من سابقتها، لأنه مرتب عليه، فكل من التحذيرين جاء في مكانه، بحيث لا يستبدل به غيره، بل إن كلاً من التحذيرين في مكانه أبلغ من غيره، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ أبلغ من حيث كونه متقدماً على سابقه. وكذلك التحذير الثاني، أبلغ من حيث كونه متأخراً عنه.

٢- يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧] «أتبع النهي عن عبادة الأوثان، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أن الله عز وجل هو الضار النافع، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ [الزمر:٣٨]»[(١)].

وتلك أكبر من سابقتها، ولا بد من أن ننظر إلى سياق كل من الآيتين، فهذه الآية الكريمة جاءت عقب الحديث عن إهلاك المكذبين، وإنجاء المؤمنين، وهي سنّة لا تتخلف من سنن الله، ولا يمكنك أن تكره الناس أيها النبي ليكونوا مؤمنين، وأن هؤلاء المكذبين، كان حرياً بهم أن يستعملوا عقولهم، فلينتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، حيث أهلكوا، وبأس الله شديد. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

(١) الكشاف، ٢/ ٣٧٥.

يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٣-١٠٧].

أما الآية الثانية التي أشار إليها الزمخشري، وذكر بأن آية يونس أبلغ منها - وهي في سورة الزمر- فلقد جاءت في سياق مختلف عن هذا السياق، حيث يقارن فيه بين فريقين ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الزمر:٢٢]، ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر:٢٤]، ﴿ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٣٢]، ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٣٣]. بعد هذه المقارنات المتعددة مما ذكرناه لك ومما لم نذكره، يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر:٣٦-٤٠].

سياق كل من الآيتين -إذن- مختلف عن الآخر، كان السياق في سورة يونس -كما عرفنا- سياق وعيد وتهديد، بعد أن ذكر الأمم المهلَكَة، والأقوام المستأْصَلَة، ولكنه هنا في الواقع ليس كذلك، إنه سياق التأنيس، إنه سياق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، إنه سياق المقارنة بين فئتين من الناس، إنه سياق الإلزام بالحجة، والاعتراف بخلق الله للسموات والأرض.

وإذا أدركت وتذوقت اختلاف السياقين أمكنك أن تدرك لِمَ جاءت كل آية على ما هي عليه؟ في السياق الأول في سورة يونس كان لا بد من أن يبين لسيدنا

رسول الله ﷺ ، من أن حرصك على إيمانهم، لن يجدي شيئاً، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا كلهم مؤمنين بعد أن دعوتهم -إذن- لا بد أن تقطع القول معهم ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. واعلم أن إيمانهم لن يجلب لك نفعاً، وأن كفرهم لن يجلب لك ضراً، واعلم أن إصرارهم على الكفر لن يمكنهم من إيذائك ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس:٧].

أما السياق الثاني، فهو سياق التأنيس، قل لهم بعد أن اعترفوا بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله: أفكرتم في أنفسكم؟ فرأيتم أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله، الذي تعترفون بأنه خلق السموات والأرض، هل تكشف عني ضراً أراده الله، إن أنا كنت معكم، أو تمنع عني خيراً ورحمة أرادها الله لي وأنا أخالفكم، إن حسبي الله وحده عليه يتوكل المتوكلون، فاعملوا يا قوم على مكانتكم، ألا ترى إلى هذا التلطف، ألا ترى إلى هذا التأنيس، ألا ترى إلى هذه الحجج، قل لي بعد ذلك -بربك- غير مجامل، ولا مأخوذ بعاطفة، أتصلح الآية الأولى إلا في الموضع الذي جاءت فيه؟ وهل يمكن أن نغير النظم، أتصلح الآية الثانية في غير الموضع الذي جاءت فيه؟ ثم هل يمكن أن ندعي -كما زعم الزمخشري عفا الله عنه- بأن إحداهما أبلغ من الأخرى؟ إن مثل هذا الادعاء، كالذي يدّعي أن الأسنان العليا الحاجة إليها ماسة، أكثر من الأسنان السفلى، أو أن الرِّجل للإنسان أكثر لزوماً من اليد، أو أن فصل الصيف يمكن أن تكون الحاجة إليه أكثر من فصل الشتاء، وإذا كان هذا ليس ممكناً، فإنه لا يمكن أن يقال: إن هذه الآية أبلغ من تلك، أو أن تلك أبلغ من هذه.

ولنواصل الحديث مع الزمخشري رحمه الله.

٣- يقول عند قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج:٢٠]: «يصهر يذاب. وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة، أي: إذا صبّ الحميم على

رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥]»[١].

ولكننا نقول: كل من الآيتين في موضعها أبلغ، بيان ذلك:

إن هذه الآية جاءت في سورة الحج، المختلف في مدنيتها، والذي يعنينا أن الآية جاءت في سياق الحديث عن الكافرين، الذين أبوا الإيمان، فأهانهم الله ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨] فتكلمت عن أنواع العذاب، فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار، وليس هذا فحسب، فهناك عذاب آخر ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾... إلخ الآيات. ثم ذكرت جزاء المؤمنين فأوجزت، لكن الآية الثانية على العكس من هذه، الآية في سورة سيدنا محمد ﷺ، سورة القتال، ولنستمع ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥].

فأنت تلحظ أن سياق الآية هنا، جاء حديثاً عن الجنة، وتفصيلاً لما فيها من أنواع الأنهار، التي أُكْرِمَ المؤمنون بها، وأن هذا لا ينبغي أن يوازن بمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقط أمعاءهم. وسياق الآية هنا -إذن- لم يأتِ تفصيلاً لهذه الشدائد التي سيلقاها المعرضون يوم القيامة.

لا نستطيع أن نقول -إذن- إن ذاك أبلغ من هذا، وإنما يمكن أن نقول: إن الشدة التي عبرت عنها الآية الأولى، كان يقتضيها السياق الذي جاءت فيه، ولكن نظم الآية الثانية، جاء منسجماً مع سياقها.

---

(١) الكشاف، ٣/ ١٥٠.

٤- يقول عند قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون:١٨].

﴿عَلَىٰ ذَهَابٍۭ﴾ من أوقع النكرات وأحَزِّها للمفصل. والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به، وطريق من طرقه. وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإيعاد، من قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك:٣٠]، فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفادها إذا لم تشكر[١].

وقد تفننوا هنا في ذكر الأوجه التي كانت فيها الآية الكريمة أبلغ من الآية الثانية، فنقلوا عن صاحب التقريب ثمانية عشر وجهاً ثم أوصلها صاحب روح المعاني إلى اثنين وعشرين، ثم نقل عن العلاّمة الشيخ محمد الراوي حتى أوصلها إلى ثلاثين وكانوا -سامحهم الله وجزاهم خيراً-، في غنىً عن ذلك كله، فلكل من الآيتين سر نظمها، ونظام سرها، لتكون كل في موضعها درة العقد، وآية السعد. وأكتفي هنا بما قاله الشهاب الخفاجي رحمه الله . قال: «واختيرت المبالغة هنا لأن المقام يقتضيها، إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس، على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة مع كمال عظمة المتصف بهما، ولذا ابتدئ بضمير العظمة مع التأكيد بخلاف ما ثمة، فإنه تتميم للحث على العبادة والترغيب عما هو فانٍ، لا يتوهم أنه عدل عن الأبلغ ثمة، لأنه أبلغ في مقامه كما فصله في الكشف»[٢].

وهكذا يتبين مما نقله الشهاب رحمه الله عن صاحب الكشف للقزويني رحمه الله أن الأبلغية ليست لذات الآية على غيرها، وإنما لأن المقام يتطلب هذا، فلقد جاءت في بيان تعداد الآيات في هذا الكون، الدالة على قدرة الله. أما الآية الأخرى وهي

---

(١) الكشاف، ٣/ ١٨٠

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي، ج٦، ص٣٢٥.

آخر آية في سورة الملك ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك:٣٠] فقد جاءت في سياق الحث على الإيمان، وبيان أن الناصر والرازق، والمنشئ هو الله وحده، كما يظهر هذا من السورة الكريمة.

ونكتفي بما نقلناه لك عن الزمخشري في هذه القضية، لأن هدفنا ليس الاستيعاب، وإنما أردنا أن ننبهك على هذه القضية ذات الشأن، فإذا رأيت ما يشابهها عنده أو عند غيره، فنرجو أن يكون ما عرفته معيناً لك على حُسْن التصرف.

وبعد فيطول بنا المقام، لو أردنا أن نستعرض القضايا القرآنية على تعددها، ويغني عن ذلك قوله سبحانه ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥] فالقرآن في أعلى المراتب سواء من حيث كلماته، أم من حيث نظمه، أم من حيث تناسب معانيه وتناسقها بحيث لا تجد فيها اختلافاً ولا تناقضاً ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢] أم من حيث بلوغ الغاية التي ليس بعدها غاية، في أحكامه التشريعية، وأخباره التاريخية، وبراهينه العقدية، وإشاراته العلمية، ولمحاته الكونية، وقيمه الخلقية والاجتماعية، وتوجيهاته في شؤون الإنسان جميعها، أياً كان مولده ونشأته، وأياً كان لونه وبيئته، وأياً كان عصره ومصره.

الفصل الحادي عشر

أسلوب القرآن

الأسلوب هو الطريقة التي يصوغ بها كل متكلم حديثه، والنهج الذي يتبعه في كلامه وقوله، ومن هنا كان الأسلوب خاضعاً لنفسية المتكلم وثقافته من جهة، وللموضوع الذي يتحدث عنه من جهة ثانية. وإذا كانت الفصول السابقة قد خصصت للكلمة، والجملة، والفقرة القرآنية، وللحديث عن السورة من حيث ترابط موضوعاتها، ولما بين السور من صلات ووشائج، فإننا في هذا الفصل سوف لا نحدثك عن شيء من هذا كله، وإنما نحدثك عن طريقة القرآن التي امتاز بها وهو يقرر موضوعاته الكثيرة المتعددة، وستجد أن القرآن كما هو معجز فيما مضى، فهو معجز كذلك في أسلوبه وطريقته، وقد قدمنا لك كلام الخطابي رحمه الله وهو يقسِّم البلاغة إلى الجزالة، والعذوبة، والسهولة، والفخامة، وكيف أن القرآن اشتمل على هذه الأقسام جميعها.

ولقد تعود الناس وهم يتحدثون عن الأساليب أن يذكروا أن هناك أسلوباً صعباً، وآخر سهلاً ميسَّراً، وأن من الأساليب الأسلوب الأدبي الممتع، الذي يحرك القلوب، ويذكي الوجدانات، ويثير العواطف، ومنها ما هو على العكس من ذلك، فهو يقنع العقل، وينمّي الفكر، ويصدع بالحجة، كما أن من هذه الأساليب ما يغلب عليه طابع الإيجاز والإجمال، ومنها ما يمتاز بالإسهاب والبيان والإطناب. لذلك تجد الناس تنوعت ميولهم لهذه الأساليب، فما يرضي الخاصة لا يرضي العامة وما يقنع به غير المتعلمين لا يقنع المتعلمين.

هذه حقائق لا مراء فيها ولا غموض، ولكننا حينما نتتبع نهج القرآن نجده فريداً في أسلوبه. وإليك بيان ذلك:

١- الإقناع والإمتاع:

وكما عودناك من قبل، نذكر لك بعض الأمثلة لتهتدي بنورها، ولتكون أساساً لك تتبعه في الوقوف مع ما شئت من آي القرآن الكريم، فإذا كان الإقناع والإمتاع أمرين مختلفين في الأسلوب، فإننا نجد أن القرآن الكريم يجمع بينهما، بحيث تجد في الآيات الكريمة ما يتسابق إليها عقلك وعاطفتك معاً.

فمن حيث الإقناع تجد البرهان القاطع، والحجة الدامغة، والدليل المحكم، ومن حيث الإمتاع تجد روعة التأثير، والتصوير البارع، وصدق الانفعال. اقرأ هذه الآيات الكريمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٥-٧].

وتدبر هذه الآيات الكريمة جيداً، وستجد أنها ليست أسبق من قلبك لعقلك، وليست أسبق من عقلك لقلبك كذلك. أما من حيث الإقناع، فستجد أن الآيات الكريمة تسلسلت بك تسلسلاً منطقياً، فلماذا يرتاب الناس في البعث، ومن حقهم أن ينظروا إلى أنفسهم وأصل نشأتهم، فهذه المادة الحية في كيانهم ليست إلا تراباً، ولقد أثبت العلم التحليلي أن عناصر جسم الإنسان لا تزيد على ما في هذه الأرض من عناصر، ثم إن هذا الإنسان قد أدرك بالبديهة كيف نشأ بعد أن لم يكن شيئاً، وكيف نما وترعرع منذ أن كان نطفة في الرحم، إلى أن بلغ أشده بشراً سوياً، ثم كيف تزول تلك النضارة وتتلاشى تلك القوة حينما يُردّ إلى أرذل العمر. ولماذا

يرتاب الإنسان في البعث؟ وهذه الأرض من حوله، تبدو هامدة خاشعة قاحلة، ولكنها وقد نزل عليها الماء تغير كيانها، واهتزت وربت وأنبتت من كل الثمرات. وتلك حجج نوقن أن الفلسفة بكل ما تضمنته من مقدمات ونتائج، وما بحثته من وسائل وغايات، لن تبلغ ما بلغته هذه الأدلة، من صحة تركيب، وجمال ترتيب، وحسن تبويب، هذا من حيث الإقناع.

أما من حيث الإمتاع فإنك واجد أنت من نفسك وعاطفتك ما أعجز أنا عن وصفه، إنها لا ريب تثير وجدانك، وتنمي عاطفتك وتهذبها، وما ذلك إلا بهذا الأسلوب الذي اتبعته الآية الكريمة، إنها بحق تهز النفس كما تهتز الأرض حينما ينزل عليها الماء.

وهكذا تجد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٧٧-٨١].

ومثل هذا الإقناع والتأثير تجده في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ:٦-١٦].

وكما تجد هذا الإقناع والإمتاع في الأدلة على البعث، تجد ذلك في الأدلة على الوحدانية كذلك، واقرأ هذه الآيات: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

والحق أن هذه الآيات جميعاً، تظهر فيها بلاغة الإقناع بها لا مزيد عليه، كما تتجلى فيها بلاغة الإمتاع. وإذا كانت البلاغة أن يكون وصول اللفظ إلى أذنك، ليس بأسرع من وصول المعنى إلى قلبك، فإن هذا ما تحس به في هذه الآيات جميعاً، وهذا لا يمكن أن يجتمع لغير هذا الكتاب الخالد.

ويطول بنا المقام لو عمدنا إلى التفصيل، وقضية الأسلوب قضية ترتكز أول ما ترتكز إلى الذوق.

٢- الجزالة والعذوبة:

وكما أن الأسلوب القرآني، تبرز فيه بلاغة الإقناع، ونضارة الإمتاع؛ وهما أمران ينتسب كل منهما لغير ما ينتسب إليه الآخر، فالأول ينتسب إلى العقل والفكر، والثاني يتصل نسبه بالعاطفة والمشاعر، الأول إلى القوة المفكرة، والثاني إلى القوة المتأثرة، فإن هذا الأسلوب يمتاز كذلك بأمرين مختلفين جهة ونسباً، وباعثاً وسبباً، أعني بهما الجزالة والعذوبة، وهما أسلوبان امتاز بهما كلام العرب.

فالجزالة هي القوة من قولهم: «حطب جزل» وهو ما لا تأكله النار بسهولة وبعد استعمال هذا اللفظ في الماديات، استعملوه كعادتهم في المعنويات، فأطلقوا الجزالة على الأسلوب القوي، وهو ما كانت جمله وكلماته تقرع القلوب قرعاً، وتصخّ الآذان، بما لها من زمجرة ووقع، وقوة صدع وشدة دفع. ذلكم هو الأسلوب الجزل الفخم، وهذا يظهر أكثر ما يظهر عند أهل البادية الذين لم تشذبهم الحضارة، أو عند من أراد تقليد هؤلاء في كلامهم، كقصيدة بشار:

بَكِّـــرا صَـــاحِبَيَّ قَبْـــلَ الهجـــير   إنَّ ذاكَ النجـــــاحَ في التبكـــــيرِ

التي بناها أعرابية خالصة -كما يقول-[1].

وعلى العكس من هذا الأسلوب، فهناك الأسلوب السلس، العذب، السهل؛ وهو ما كانت كلماته وجمله رقيقة الحواشي، فيها من الرقة وجمال الوشي ما يلذ به السمع، ويأنس له الطبع. ويظهر هذا أكثر ما يظهر في كلام أهل الحواضر، الذين هُذِّبت عندهم ألحاظ الألفاظ، فخلصت أساليبهم من كل شواظ.

وإذا أردت الفرق بين الأسلوبين، فما لك إلا أن تعمد إلى المفضليات، وكثير من حماسيات أبي تمام، فإنك تجد أن الأولى -المفضليات- يظهر في أكثرها الأسلوب الأول، أسلوب الفخامة والجزالة، وأن كثيراً من حماسيات أبي تمام تجد فيها السلاسة والرقة والعذوبة.

والقرآن الكريم جمع هذين الأسلوبين معاً، فبينما تجد كلماته تقرع القلوب وتصدع الأفئدة، فإنك مع ذلك تجد المفرح المؤنس، وما ذلك إلا لاختلاف المقامات، وأن لكل مقام مقالاً، وليس هذا فحسب بل الأعجب من هذا أنك تجد القطعة الواحدة من الكلام يظهر فيه هذان الأسلوبان، اقرأ سورة الحاقة مثلاً، وانظر إلى الأسلوب القوي، كأنما هو أوامر مشددة، وقذائف مصوبة مسددة، تجد هذا مثلاً في الحاقة، والقارعة، والطاغية، وحسوماً، وصَرْعَى، وإعجاز، وخاوية، وأخذة رابية، وطغى الماء، ودكتا دكة واحدة، فهي يومئذ واهية. ولكنك إلى جانب هذه الكلمات والجمل والتراكيب، ذات القوة الشديدة الصدع، نجد إلى جانب ذلك روعة الرّجع في العيشة الراضية، والقطوف الدانية، والجنة العالية، والأيام الخالية. وهكذا لو سرت مع السورة الكريمة متأملاً لرأيت ذلك كله.

---

(١) راجع: دلائل الإعجاز، ص٢٧٢.

وخذ سورة الإنسان ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ وستجد مع السلاسل والأغلال والسعير، وعبوساً قمطريراً. ولكن مع ذلك ستجد سلسبيلاً وكأساً كان مزاجاً كافوراً، ونضرة وسروراً، وجنةً وحريراً.

تلك قضية -بحق- يمتاز بها القرآن الكريم وحده، وما لك إلا أن تتدبر سورة المرسلات وسورة النازعات، وإلى جانب ذلك الذاريات والصافات، لتجد أسلوب الفخامة والجزالة يغلب على السورتين الأوليين، والعذوبة والسلاسة تغلب على السورتين الأخريين، وإنما اخترت لك هذه السور المكية، حتى لا تظن - كما توهم الكثيرون فأخطؤوا- أن الجزالة والفخامة إنما هي في القرآن المكي، وأن السلاسة والعذوبة تغلب في القرآن المدني، أو أن الفخامة في آيات الشدة فحسب، والحق أنهما صفتان في كتاب الله يمتاز بهما أسلوب القرآن.

٣- الإيجاز والإطناب:

ومن عجيب أمر القرآن أنه جمع في أسلوبه بين أمرين، لا أقول كالمتضادين، وإنما هما متضادان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ونعني بهما الإيجاز والإطناب -كما هو اصطلاح علماء البلاغة، أو هما القصد باللفظ، والوفاء بالمعنى، كما سماهما أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله . والحق أن القرآن يستثمر أقل قدر ممكن من اللفظ، في أكبر قسط من المعنى. ولا تظنن أننا نقف عند تلك العبارات الجامعة التي بهرت الألباب، لنكتفي بها، فنكرر ما قرره المتقدمون، فكرره المتأخرون كقوله سبحانه ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]، وقوله: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]. إلى غير ذلك من العبارات الكريمة، التي نجدها في كتب المتأخرين والمتقدمين، فنحن -والحمد لله الأجود، ولله الحمد بما أرشد- قد عودناك في هذا الكتاب أن نأتيك بما تغلب عليه الجدّة مما وفّق الله وألهم، الجدّة من حيث التمثيل والتعليل -كما رأيت في الفصول السابقة-؛ ذلك لأن الهدف من هذا الكتاب أن

يكون داني القطوف، سهل التناول، نقبس فيه من أقوال السابقين مما نعترف لهم به فضلاً، ولكننا نمتع النفس في روضات الآيات، ونرجو أن نكون قد أسهمنا بنصيب نسأل الله أن يأجرنا عليه، وأن يكون للقارئ فيه ما يكشف عن وجه الإعجاز، ومعذرة عن هذا الاستطراد، ولنرجع إلى حديثنا عن الإيجاز.

إن أي عبارة من كتاب الله تعالى إذا تأملتها، وجدت أنها وافية بالمعنى مع قلة الألفاظ، وقد يرجع ذلك إلى اختيار الألفاظ -كما حدثناك من قبل- كمجيء الريب في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، فإنها لا تغني عنها كلمة الشك -كما عرفت- ولو استعملت كلمة الشك لاحتاجت معها إلى كلمات أخر، وككلمة الفعل في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور:٤١]، وكلمة القيام في قوله: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:٢٠]، والوقوف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٣٠].

وقد يرجع إلى سر التركيب والنظم، وما التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وغيرها من الأساليب إلا شاهد صدقٍ، وبرهان حقٍّ على هذا الإيجاز، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩]، وإلى قوله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة:٩٦]، وإلى قوله: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، وغير ذلك مما لا تنفرد به آية دون آية من كتاب الله، لو أردت أن تعبر عن معناه، وأن تأتي لهذا المعنى بالألفاظ الدالة عليه، لاحتجت في كل آية أو جملة إلى أضعاف ما اشتملت عليه من الكلمات، ففي الآية الأولى مثلاً تجد التنكير في كلمة (رسول) و(عزيز) و(حريص) و(رؤوف) وتجد القَسَمَ المحذوف الذي دلّ عليه قوله: (لقد)، وتجد التقديم في قوله: (عليه توكلت) وتجد التعريف في قوله:

(العرش العظيم). وفي الآية الثانية تجد التوكيد والقسم والضمير في قوله: (ولتجدنهم)، والتنكير في قوله: (حياة)، وهكذا في الآيات الباقية، ولتكن على ثقة كما قلت لك، من أن إصابة المعنى ووفاءه، تحتاج منك إلى أضعاف مضاعفة لهذه الكلمات والألفاظ.

وقد يكون الإيجاز ناشئاً عن غير هذين السببين، -أعني الألفاظ والتراكيب- وإنما يكون ناشئاً عن حذف كثير من الجمل، التي تعلم من طيّ الكلام، وهذا ما امتاز به الكتاب الكريم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يس:٢٠-٢٣]، فأنت حينما تقرأ هذه الآيات، تدرك أن جملاً كثيرة قد حذفت، إذ ماذا قالوا له بعد أن قال لهم: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ كأنما قالوا: أنترك آلهتنا لما تدعوننا إليه، لا ينبغي أن نستمع إليك، فنحن جماعة وأنت واحد، فأنت الحري بأن تتبع آلهتنا وتترك إلهك، فردّ عليهم بقوله -كما حدثنا القرآن- ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ . وهكذا تجد أن القرآن حذف كثيراً، مما يجب أن يحذف، ومما يفهم من السياق. وهذا كثير في كتاب الله تعالى، ونقلنا لك شيئاً منه من قبل.

٤- الإجمال والبيان:

ومن خصائص الأسلوب القرآني الإجمال والبيان، وهذه تختلف عما قبلها، فالذي نقصده من الإجمال والبيان، غير الذي نقصده من الإيجاز والإطناب، بيان ذلك:

إن الكلام المجمل ما لا تفصيل فيه، والكلام المبيَّن هو الكلام المفسر، وإذا تأملت كتاب الله تبارك وتعالى وجدت هاتين ظاهرتين فيه، فحينما تقرأ الآية

الكريمة، تشعر أنها مبينة لا تحتاج إلى مزيد قول، ولا إلى كثير شرح. ولقد نقل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله عن بعض شيوخه: «بأن القرآن ليس بحاجة إلى تفسير، لأنه مفصل المعاني، مبين الأهداف». ولكنك إذا أنعمت النظر مرة أخرى، ورجعت البصر كرتين، وجدت أن هذه الآية المحكمة المجملة، بحر لا ساحل له، فما أحوجك أن تقف أمام كل كلمة فيها، وعند كل جملة من جملها، ووجدت أنها تمدك بمعانٍ كثيرة، كل معنى له وجه من التأويل صحيح، وتلوح عليه مسحة إشراق، وما لك إلا أن تقرأ سورة الفاتحة، وستجد أن معانيها تنساب إلى قلبك انسياباً، كالماء العذب، ولكنك حينما تقف أمام كلماتها ستجد أنها بحاجة إلى وِقْر جَمَلٍ -كما يقولون-.

قف مع قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢]، وقف عند ما قاله المفسرون في قوله: (قيماً) وستجد أنها معانٍ محتملة صحيحة، فهل هو قيم بما يحتاجه الناس من مصالح في دنياهم وآخرتهم، أي يشمل هذه المصالح جميعاً أو هو قيم على ما سبقه من الكتب ومهيمن عليها، أم هو قيم بمعنى أنه سليم، من كل اعوجاج أياً كان حجمه وقدره -وهكذا قوله سبحانه ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الكهف:٥].

وهذا قول الله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى:٤]، فإنك يمكنك أن تؤولها بالآخرة والأولى، وهما الداران: دار الدنيا ودار الآخرة، ويمكن أن تكون الآخرة والأولى خاصتين برسالته ﷺ في هذه الدنيا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل:٥]. فثقيلاً قد تعني أن القرآن الكريم ينطوي على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، لا سيما على الرسول ﷺ، وقد تكون (ثقيلاً) أنه رصين لرزانة لفظه ومتانة معناه، أو أنه ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفيته للسرد وتجريد للنظر، أو ثقيل في الميزان أو على الكفار والفجار، أو ثقيل تلقيه، فعن عائشة رضي الله عنها «رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم

عنه، وأن جبينه ليتفصد عرقاً»[1]. وهذا كثير يمكن أن تجده في أي كتاب من كتب التفسير، وننبهك أننا لا نعني التأويلات البعيدة عن روح الآية، وإنما حديثنا عما يتفق مع سياق الآيات وروحها.

وما ذكرناه خاص بكتاب الله لن تجده في أي كتاب آخر، خذ أي قول مهما بلغ من الروعة والدقة، وحُسْن النسق، ووفاء المعنى، وحاول أن تقلبه على وجوه كثيرة، وسوف تجد أن المعنى الذي تصورته أنت، وفسرته به، هو نفسه الذي قاله من قبلك وإن اختلف الناس في شرحه وتفسيره، فإنما يختلفون من حيث الأسلوب والإيجاز والإطناب فحسب، أما القضايا الجوهرية الرئيسة فهي واحدة؛ اختر قطعة من الشعر، وحاول أن تكون لشاعر مبدع تعاقب على ديوانه شراح كثيرون، واقرأ هذه الشروح جميعاً، فإنك ستجد ما قلته لك، قد يختلفون من حيث الإعراب، والإطالة في شرح الكلمات، أو ما في الجمل من استعارات وتشبيهات، أما غير ذلك فهم فيه سواء، وأين هذا من كتاب الله تبارك وتعالى، الذي تعطيك الجملة الواحدة منه، عطاء غزيراً، لا ينضب ماؤه، ولا يذهب رواؤه وبهاؤه، وسأختار لك قطعة كانت -كما يعترف الأدباء والنقاد- زبدة نتاج شاعر، طبق الآفاق ذكره وشعره، حتى قال عن نفسه:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

ذلكم هو المتنبي. أما القصيدة التي أختارها لك، فهي قوله:

صَحِبَ النَّاس قبْلَنا ذا الزَمانا ... وعَناهُمْ مِنْ شَأْنِهِ ما عَنَانا
وتَوَلَّوا بغُصَّةٍ كُلُّهُمْ منْـ ... ـهُ وإنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أحْيانا
رُبَّما تُحْسِنُ الصنيعَ لَيَاليـ ... ـه ولكنْ تُكَدِّرُ الإحْسانا
وكَأنّا لم يَرْضَ فينا بِرَيْبِ الدهـ ... ـر حتى أعانَهُ مَنْ أعانا

(١) أخرجه البخاري، ٢.

كُلَّـــما أَنْبَـــتَ الزّمـــانُ قَنـــاةً رَكّـــبَ المَـــرْءُ في القَنـــاةِ سِـــنانا
ومـــرادُ النُّفـــوسِ أصْـــغَرُ مِـــنْ أنْ نَتَعـــادَى فيـــه وأنْ نَتَفـــانى
غـــيرَ أنَّ الفتَـــى يُلاقـــي المَنايـــا كالحِـــاتِ ولا يُلاقـــي الهَوانـــا
ولَـــوْ أنَّ الحيـــاة تَبْقـــى لِحَـــيٍّ لَعَـــدَدْنا أضَـــلَّنا الشُّـــجْعانا
وإذا لم يَكُـــنْ مِـــنَ المـــوتِ بُـــدٌّ فَمِـــنَ العَجْـــزِ أنْ تَكـــونَ جَبانـــا
كُلُّ مـا لَمْ يَكُـن مِـنَ الصَّـعْبِ في الأنْـــفُسِ سَـــهْلٌ فيهـــا إذا هُـــوَ كانـــا

يقول الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي معلقاً على هذه القصيدة: «وبعد فقد وفق المتنبي في هذه القطعة كل التوفيق، ولعل شيطانه ممن كانوا يسترقون السمع، فتلقى هذه الآيات من ذات الرجع -السماء- فكأنها المعنية بقول حسان بن ثابت:

وقَافِيَـــةٍ عَجّـــتْ بلَيْـــلٍ رَزِينـــةٍ تَلَقَّيْـــتُ مِـــنْ جَـــوِّ السَّـــمَاءِ نُزُولَهَـــا»[1]

ولكن مع ما لها من جودة، ومع ما فيه من قوة تأثير؛ فإن ما أعطته من معنىً حينها قيلت هو ما تعطيه اليوم كذلك، وخذ شراح المتنبي على اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم وأزمنتهم، فإنهم لن يعطوك معنىً جديداً، وكذلك من يأتي بعد من شراح -إن قُدِّر للديوان أن يُشرح- وأين هذا من كتاب الله، الذي لا تنقضي عجائبه، وتجد الجِدَّة من أبرز صفاته ومميزاته، وهذه الجِدّة تشترك فيها الكلمات والجمل على السواء.

ومن هذه الخصائص التي ذكرتها لك إمتاعاً وإقناعاً، وجزالة وعذوبة، إيجاز لفظ ووفاء معنى، إجمالاً وبياناً، من هذا تدرك السر الذي من أجله تجد القرآن الكريم يجد كل واحد فيه بغيته، الخاصة والعامة، والمثقفون أياً كانت ثقافاتهم، لونا وجهة، والمتعلمون مهما كان نصيبهم من العلم، أولئك جميعاً يجد كل في القرآن

---

(١) شرح ديوان المتنبي، ج٤، ص٣٧٢.

الكريم ما يؤثر في نفسه، ويشحذ همته، ويبعث فيه الأمل، أو الخوف على حسب ما يقرأ من آيات.

والحق أنني لا أود أن أطيل الحديث في هذا الفصل، لما نقلته لك في الجزء الأول من أقوال الأئمة، ولأنه يعتمد أكثر ما يعتمد على الذوق، ولا تنسَ ما لجرس هذا القرآن من قوة تأثير، وروعة إيقاع. وصدق الله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

الفصل الثاني عشر

الفاصلة القرآنية

يقصد بالفاصلة القرآنية ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية، فكما سموا ما ختم به بيت الشعر قافية، أطلقوا على ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة، وإنما ذكرنا هذا الفصل في الإعجاز البياني؛ لأنه لا ينفك عما قبله من فصول، فالحق أن أمر الفاصلة من أعظم مظاهر الإعجاز القرآني، إنها لا تقل في هذا الشأن عن اختيار الكلمات، أو التقديم والتأخير، والحذف والذكر، بل إن أمر الإعجاز يمكن أن يكون فيها أكثر ظهوراً، وأشد تأثيراً على النفس، وأعظم إقناعاً للعقل، وألذّ إمتاعاً، وأروع إقناعاً.

وقد ذكر الجاحظ في البيان التبيين «حدثوا أن رجلاً في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ «فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال أعرابي: لا يكون. وفي رواية أخرى أنه قال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه»[1].

وروي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كَفَر، بفتح الكاف، فقال الأعرابي: لا يكون، فقرأها عليه (كُفِر) بضم الكاف[2] وكسر الفاء، فقال الأعرابي يكون[3].

---

(1) ج٢، ص٢٦٩.

(2) قال الزمخشري: «كُفِر» هو نوح عليه السلام، وجعله مكفوراً؛ لأن النبي نعمة مكفورة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧] فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة. ومن هذا المعنى يحكى أن رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حمدتُ الله عليها. الكشاف، ٤/ ٣٥.

(3) ج٢، ص١٧٤.

هذا ما ذكره الأعرابي بطبعه وسليقته وسجيته، ولكننا وجدنا أناساً في القرن العشرين، وقفوا غير هذا الموقف، نحن لا ننكر على الناس أن لا يعلموا كل شيء، ولكننا ننكر أن يدّعو علم كل شي. نحن لا نعجب، ولا نستهجن أن يردّ الحق خصوم ألدّاء، عرفوا بتعصبهم وتحيزهم. نحن لن نفاجأ إن سمعنا من مبشر حاقد، أو مستشرق جاحد، إن سمعنا من هذا أو ذاك طعناً على كتاب الله، ودين الله. لكن الذي كنت لا أوده أنا وأنت أيها القارئ معاً، أن نجد مصدراً من مصادر المعرفة، طالما روّج له أصحابه، وأحاطوه بهالات فخمة من الإجلال والتبجيل، وسوروه بأسوار البحث العلمي، والنزاهة، وألبسوه لباس الحقيقة، بل عدوه حصناً من حصون المعرفة، أن نجد من وصفوه بهذه الصفات، بعيداً عن ذلك كله، بل هو فوق ذلك ممعن في الافتراء، بعيد عن النزاهة في البحث، منافٍ لقواعد العدل، وأسس المنطق؛ تلك دائرة المعارف البريطانية. ففي حديثها عن مادة قرآن، والتي كثرت فيها الافتراءات والتخبط، بل ظهر فيها الحقد في مواضع كثيرة، والتي سنخصص لها كتاباً خاصاً بها إن شاء الله[1]، ولكن الذي يعنينا الآن هو ما جاء عن الفاصلة القرآنية في هذا السفر حيث جاء ما يلي:

«وكأن القرآن يعطي للقارئ انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكد صحة ذلك طريقة ختم هذه الآيات، بآيات مثل «إن الله عليم»، «إن الله حكيم»، و«إن الله يعلم ما لا تعلمون»، وإن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط ليتمم السجع والقافية».

ما أشبه هذا القول بمن يدعي أن النظام في هذا العالم، كان على غير حكمة وتقدير، فوجود الشمس أبعد من القمر عن الأرض، ونسبة اليابسة أقل من نسبة الماء في هذه الأرض، وقصر النهار وطول الليل في فصل الشتاء، وعكس ذلك في

---

(١) وقد كتب رحمه الله كتاباً بعنوان «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية» ناقش فيه كل صغيرة وكبيرة مما ورد في هذه الموسوعة من افتراءات.

الصيف، ووجود العينين في الوجه، ووضع اليدين في المكان الذي وضعتا فيه، ووجود بعض الأعصاب والأجهزة في الإنسان، واختلاف الأكسجين في أعلى طبقات الجو عنه على ظاهر الأرض، كل أولئك أمور لا حكمة فيها، ولا ضرورة لها، إنما هي أمور جاءت هكذا، فهي ألصق بالفوضى، وأبعد ما تكون عن الدقة. أي والله إن ذاك القول وهذا سواء؛ ذلك أن الدقة في الفاصلة القرآنية والترتيب المحكم، والنظام البديع، لا يقل عما في هذا الكون، فخالق الكون ومنزل القرآن هو الله، الذي أتقن كل شيء. وكان حرياً بأولئك أن لا يصدروا أحكاماً على ما لا يعلمون، وهذا ما تقتضيه بدهيات البحث العلمي.

ونقول لأولئك أولاً: إن إنكار ضوء الشمس وسطوعها، لا يضيرها، ولو أن الأمر كما قالوا، لما وجدت فاصلتان متحدتان ومتجاورتان في كتاب الله، فإذا كانت القضية قضية سجع، وختم للكلام، بطريقة عشوائية -وجلّ القرآن عن ذلك- كأن من السهل أن تختم كل آية بما لا يشبه ما ختمت به صاحبتها التي ذكرت معها، ولكننا نجد كثيراً من الآيات المتجاورات، ختمت كل منهما بما ختمت به الأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١- هاتان الآيتان من سورة البقرة آية الدين ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والآية التي تليها ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة:٢٨٣].

٢- وآيتان في سورة النحل ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٦-٩٧].

٣- آيتا النور ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النور:٥٨] ختمت بقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ والتي تليها ختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور:٥٩].

٤- آيتا النساء ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء:١٤٧] والتي بعدها [١٤٨] ختمت بقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾.

٥- آيتا الحديد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحديد:٢٦] والتي تليها [٢٧] ختمت كل منهما بقوله سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

كان من الممكن أن تختم كل واحدة من هذه الآيات، بغير ما ختمت به الأخرى، ففي آية البقرة يمكن أن يقال بدل (عليم): خبير، وفي آية النساء يمكن أن يقال بدل (عليماً): بصيراً، وفي آية النحل يمكن أن يقال بدل (يعملون): يفعلون، وفي آية النور يمكن أن يقال: عزيز حكيم، وفي آية الحديد يمكن أن يقال: كافرون، ولكن الأمر ليس كذلك، وإنما هو خاضع لنظام دقيق، للحرف فيه رسالته وغرضه، فما بالك بالكلمة والجملة. ولقد مر معك كثير من هذا من قبل.

إن الفاصلة القرآنية جاءت متسقة، متناسبة كل التناسب مع معنى الآية وموضوعها، وسياقها الذي تتحدث فيه، وغرضها الذي جاءت من أجله، وإليك البيان:

بعض الفواصل القرآنية، لا يحتاج الأمر فيها إلى البيان، وكثير فكر، وكبير عناء، بل يمكن للقارئ أن يدرك هذه الفاصلة من السياق نفسه، فمثلاً: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦]، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧]، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة:٨]. ومن هذا القبيل الفاصلة التي مثلوا بها وقالوا: إنها منقطعة عما قبلها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

١- فقد جاءت هذه الآية مثلاً في سورة البقرة[1]، في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦]، أيّ مُنْصِف، بل أي عاقل يدّعي أن هذه الفاصلة، غير متصلة بما قبلها، بل أي فاصلة يمكن أن تصلح بدل هذه الفاصلة، يخاطب الله المؤمنين وقد كتب عليهم القتال والجهاد، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم، فربما يكرهون شيئاً يكون فيه خيرهم، وربما يحبون شيئاً تكون نهايته شراً لهم، ووبالاً عليهم. إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك، أي فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي ختمت بها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

٢- وفي السورة نفسها تذكر الآيات بعض أحكام الطلاق، وتنهى أولياء النساء أن يمنعوهن من الرجوع إلى أزواجهن، إذا تراضوا بينهم بالمعروف، فيبين لهم أن ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وأن ذلكم هو أزكى لهم وأظهر، وتختم الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣٢]. قل لي بربك أي فاصلة يمكن أن تصلح لهذه الآية الكريمة؟ وهؤلاء الإخوة والآباء يريدون أن يمنعوا أخواتهم أو بناتهم، من الرجوع إلى أزواجهن، وإنما يريدون ذلك أنفةً واستجابة لدواعي الحميّة، وانتقاماً من أولئك الأزواج من غير تفكير في النتائج والعواقب، التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا التصرف الخاطئ، ما نظن أن هناك فاصلة ترجع أولئك الأولياء لرشدهم، وتخوّفهم من عواقب تصرفاتهم - أجدى وأولى مما ختمت به الآية الكريمة.

٣- وفي سورة آل عمران ينعى القرآن على أهل الكتاب، الذين يحاجّون في إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [آل عمران:٦٥] فما كان

---

(١) وفي أول السور نقرأ قوله الله تعالى في خطاب الملائكة وقد قال لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠] وهذه الفاصلة في موضعها لا يصلح غيرها فيه.

إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، فكيف يكون كذلك واليهودية والنصرانية متأخرتان في الوجود، وإذا كانوا يحاجون في بعض القضايا التي يعلمونها، فلِمَ يحاجون فيما ليس لهم به علم، ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران:٦٦]. بماذا يمكن أن تختم هذه الآية يا ترى، إن لم تختم بهذه الفاصلة؟ وأي تحذير هو أعظم من هذا التحذير؟ بل وأي إقناع هو أقوى وأصح من هذا الإقناع؟.

٤- وفي سورة النحل جاء قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النحل:٧٤] وأظن أن أمر هذه الآية ظاهر لا يحتاج إلى أي تعليق.

٥- وفي سورة النور: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور:١٩] أليس في هذه الآية تطمين للمؤمنين الذين أشيعت الفاحشة فيهم؟ وأراد بعضهم أن ينال منهم، أليس في ذلك تطمين لهم من أن ذلك خير؟ كما جاء في آية سابقة لهذه الآية ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [النور:١١] ثم أليس فيه تهديد لأولئك الذين يشيعون الفواحش، بما هيأه الله لهم من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة؟

هذه الآيات التي ختمت بهذه الفاصلة، قل لي بربك بعد هذا، أي فاصلة تلك التي أقحمت إقحاماً، ولا نجد فيها إحكاماً في هذه الآيات الخمس؟ ولكنه الهوى، والحقد، وممن؟ ممن يدّعون المعرفة مع كل أسف.

هذا نوع من الفواصل القرآنية، الأمر فيه ظاهر -كما قلت-. وهناك نوع آخر بحاجة إلى نوع من الفكر، وسيجد الفكر فيه ضالته، وكلا النوعين من مظاهر الإعجاز، وآيات البيان. ولنمثل لك من النوع الثاني بما يسمح به المقام، ولا نود أن نطيل عليك.

١- اقرأ هاتين الآيتين من سورة السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة:٢٦-٢٧]. ولن يحتاج منك الأمر إلى كثير تأمل؛ تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلَكَة من قبلِ هؤلاء، هو حديث عن التاريخ -إذن-. وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع، متاعاً لهم ولأنعامهم، وأمر التاريخ -لا ريب- يُسمع سماعاً، ولكن ما يشاهدونه يبصرونه إبصاراً. قل لي بربك أي دقة تلك التي في الآيتين الكريمتين؟ إنه تنزيل رب العالمين.

٢- في سورة العنكبوت نقرأ هذه الآيات: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت:٤١] وبعد هذه الآية نقرأ قول الله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٣] وفكر فيما عرفه الناس من أمر العنكبوت اليوم، من حيث قوة خيوطه، ومن حيث الفوضى الأسرية -إن صحّ التعبير- والتمزق العائلي، وعدم النظام، فلقد قالوا إن خيوط العنكبوت أقوى من خيوط الحرير، ولكن الفوضى تدب في بيته، فربما أكلت الأنثى زوجها، وبالتالي فالفوضى التي تدب في بيت العنكبوت لا مثيل لها ألبتة في بيت آخر، إلا أن تكون في أمتنا العنكبوتية، في عصرها الحاضر، لا في عصورها الماضية؛ أليس ذلك يحتاج إلى علم ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

٣- واقرأ هاتين الآيتين في سورة المائدة: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٧-٨].

تحدثت الآية الأولى عن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، وهو أن يتقوه ويعبدوه، وتلك قضية خاصة بكل فرد، ترجع إلى ما في قلبه وإلى باطنه، ولذا ختمت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾. أما الثانية فقد أمر فيها المؤمنين بالعدل مع أعدائهم، وتلك قضية ظاهرة يطلع عليها الناس، ولذا ختمت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

٤- ولقد نبه الزمخشري وغيره من الأئمة، إلى ما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة:١١-١٣]، فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض، وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ لأن المشاعر هي الحواس، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه، وهو الجهل، ناسب أن تختم بالعلم.

قال الزمخشري رحمه الله : «فإن قلت: فلِمَ فُصلت هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون)؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق، وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدّي إلى الفتن والفساد في الأرض، فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاور، والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهَد؛ ولأنه قد ذكر السَّفَهَ وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له. مساق هذه الآية

بخلاف ما سِيقت له أوّل قصة المنافقين، فليس بتكرير، لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شُطّارِ دينهم صدقوهم ما في قلوبهم»[1].

٥- كما نبهوا إلى هذه الآيات في سورة الأنعام ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ [الأنعام:٩٧-٩٩]، وختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ فلما كانت قضية النجوم مما يعلمه العرب، ختمت بقوله ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾، ولما كانت قضية النفوس دقيقة، لا يطلع عليها إلا الخاصة، ختمت بقوله تعالى ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ لأن الفقه أخص من العلم، فهو العلم بدقائق الأمور. ولما كانت الآية الثالثة تظهر فيها دلائل القدرة الإلهية، ختمت قوله سبحانه: ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾.

٦- وهذه آي النور: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النور:٤١]، وقد تقدم لك من قبل أن الفعل يختلف عن العمل؛ فالعمل يكون مقصوداً لصاحبه، ولكن الفعل قد يكون كذلك وقد لا يكون، فختمت الآية الكريمة، التي تتحدث عن الطير وغيره، بقوله ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ لأن هذا التسبيح أمر جبليّ فيهم.

٧- وهاتان آيتان في سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

(١) تفسير الكشاف، ١/ ٦٥

جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

حيث ختمت آية النهار بالبصر؛ لأن آية النهار مبصرة، وختمت آية الليل بالسمع؛ لأنه يختلف عن النهار.

٨- ولقد مرّ معك من قبل ما ختمت به آيات سورة الروم التي اخترتها لك في فصل الفقرة القرآنية.

وعوداً إلى دائرة المعارف البريطانية، فنحن نعلم أن في القرآن الكريم ما يزيد على ستة آلاف آية، ومع ذلك فقد نجد أن آية واحدة، كانت لها فاصلة خاصة، لا نجدها في القرآن الكريم كله على كثرة آياته، قد تكون هناك آيتان اثنتان في كتاب الله تعالى، جاءت فيهما الفاصلة متحدةً. ونتساءل الآن لو لم تكن قضية الفاصلة في غاية من الإحكام والدقة؟ ولو لم تكن خاضعة ناشئةً عن نظام بديع، لا يقل عن هذا النظام الكوني، سماءً وأرضاً، ولكن نظام الكتابين واحد -أعني الكتاب المتلو وهو القرآن، والكتاب المرئي وهو الكون- أقول: لو لم تكن قضية الفاصلة في غاية من الإحكام والدقة: لما أمكن أن تكون هناك فاصلة لم تذكر. سوى مرة واحدة في كتاب الله، أو مرتين، بل كان من الممكن أن تذكر مرات كثيرة، لأن ذكرها لا يخضع لنظام معين.

مثال ذلك مما ذكر مرة واحدة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠]، جاءت فاصلة لقوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾، ومثال ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ حيث جاءت فاصلة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، جاءت فاصلة لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ:٢].

ومثال الفاصلة التي لم تذكر إلا مرتين في كتاب الله تعالى ﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فقد ذكرت مرتين اثنتين إحداهما في سورة الإسراء ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤]، والثانية في سورة فاطر في قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١].

وإذا نظرت إلى هاتين الفاصلتين، وجدتها جاءتا بعد الحديث عن أمور السماء والأرض، إما من حيث تسبيحها لله، أو من حيث إمساك الله لهما، وفي ذلك الحلم كله، حلم الله على أولئك المفرطين، ومغفرته للمذنبين. وهذا كثير في كتاب الله تعالى لا نود استقصاؤه بالطبع.

إن أمر الفاصلة في كتاب الله تعالى، جاء على نسق بديع ونظام حكيم، يتم به المعنى ويزدان به اللفظ، ولا ينظر فيه إلى تلك القيود التي ذكروها في قافية الشعر، من حيث لا يجوز أن يتعلق بالقافية ما بعدها، أم من حيث لا يجوز أن تتجاور قافيتان متساويان، وقد علمت من قبل أنه قد تأتي فاصلتان متساويتان في كتاب الله تعالى، قد تأتيان متجاورتين، وقد يتعلق ما بعد الفاصلة بها، كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧].

على أن كثيراً من فواصل القرآن الكريم ختمت بأسماء الله تبارك وتعالى ولكن هذا الختم كان خاضعاً للدِّقة والإحكام والموضوعية، وقد مرّ بك طرف من هذا. ولقد وقف علماء القرآن عند بعض الفواصل ليبحثوا عما فيها من سِرٍّ يَدِقُّ على كثير من الناس، مما سموه مشكلات الفواصل وهو قليل بالطبع، وهي مواقف تدل على العناية من جهة، ثم هي لا تدع بعد ذلك طرفاً من شبهة لمشتبهٍ أو مرتاب، من

ذلك مثلاً قوله سبحانه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]، حيث لم تكن الفاصلة (الغفور الرحيم). وقوله سبحانه ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ ﴾ [الممتحنة:٥]، وقوله خطاباً لإبراهيم عليه السلام في آية (إحياء الموتى) ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠ ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وكان المتبادر (واعلم أن الله على كل شيء قدير)، وقوله في سورة البقرة: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٩]، وفي سورة آل عمران، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩ ﴾ [آل عمران:٢٩]، وكان المتبادر أن تختم الأولى بما خُتمت به الثانية، والثانية بما خُتمت به الأولى.

ولقد جلّى العلماء -رحمهم الله- ذلك كله[١]، مما يرد بقوة على أولئك المتخرصين، الذين يقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم.

وننبهك إلى أن بعض العلماء يرى أن قضية الفاصلة روعيت لتقديم بعض الكلام أو تأخيره، ومعنى هذا أنه يمكن أن يقدّم الكلام أو يؤخر من أجل غرض لفظي فتسمعهم يقولون: «أُخِّر أو قُدِّم رعاية للفاصلة»، وهذا أمر حريّ أن نحذرك منه، وأن تُحَذِّر منه غيرك، إن قضية الفاصلة مع ما لها من حُسْن جرس وجمال إيقاع، إلا أنها لا تكون من أجل هذا، وإنما هي خاضعة لأحكام النظم، ودقة المعنى - كما قلنا من قبل.

ويجمل بنا في هذه المناسبة أن نذكر لك ما نقله السيوطي عن الزمخشري في كشافه القديم[٢] فقال: «لا تُحسن المحافظة على الفواصل لمجرّدها إلا مع بقاء المعاني

---

(١) راجع: الإتقان.

(٢) ذكر الزمخشري في مقدمة كشافه أنه كان قد فسر فاتحة الكتاب، وآيات من سورة البقرة، تفسيراً أطال فيه النفس، ثم تركه، فلما بدأ تفسيره الكشاف اختصر وأوجز. ولعله هذا ما يعنيه العلماء حينما يقولون: «قال الزمخشري في كشافه القديم». فليس هناك للزمخشري كشاف غير هذا =

على سردها، على النهج الذي يقتضيه حُسْنُ النَّظْم والْتئامه، فأما أن تُهمَل المعاني، ويُهتمّ بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مؤداه، فليس من قبيل البلاغة، وبُني على ذلك أن التقديم في ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٤]، ليس لمجرد الفاصلة، بل لرعاية الاختصاص»[1].

وإذن فقد روعي في الفواصل أمران اثنان، أمر المعنى أولاً، ثم بعد ذلك أمر اللفظ وما يحدثه في النفس، ولذا تجد أن أكثر الفواصل ختمت بحروف المدّ واللين. قال السيوطي في الإتقان:

الخامس: «كثر في القرآن خَتْمُ الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته: وجود التمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه: إنهم إذا ترنّموا يلحقون الألف الياء والنون؛ لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع.

حروف الفواصل إما متماثلة أو متقاربة:

فالأولى مثل: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ [الطور:١-٤].

والثاني مثل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٣-٤]، ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق:١-٢]»[2].

إننا لا نستطيع أن نلمّ بكل ما يتعلق بالفاصلة القرآنية، فنحن إنما نتحدث عنها في فصل من فصول كثيرة، ولكن نرجو أن يكون ما ذكرناه كافياً.

= الكشاف الذي نعرفه، ولكن يعنون بالكشاف القديم تلك الآيات التي كان قد فسرها الزمخشري، وأطال في تفسيرها النفس.

(١) الإتقان، ج٣، ص٣٥٩.

(٢) الإتقان، ج٣، ص٣٥٩-٣٦٠.

الفصل الثالث عشر

التكرار

إن قضية التكرار ذات صلة وثيقة بإعجاز القرآن البياني، وتلك قضية بدهية، ذلك أننا نجد في النظم مواضع متشابهة، سمّاها بعض الباحثين تكراراً. فالناظرون في كتاب الله تعالى من أجل تلاوته وتدبره، أو بهدف التشكيك والطعن، يجدون لأول وهلة أن هناك قضايا ذكرت أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع كالقصص وموضوعات العقيدة، وبعض الجمل والآيات، وسموا ذلك تكراراً.

ومع إجماعهم على هذه التسمية، إلا أنهم اختلفت فيه مذاهبهم، وتعددت مشاربهم، وتلك طبيعة في أحوال الناس، بل هي سنّة من سنن الله في هذا المجتمع البشري، فالكثرة الكثيرة من هؤلاء مسلمين كانوا أم غير مسلمين، رأوا أن في هذا التكرار سحر بيان، وتثبيت بنيان، فعدّوه بلاغة وإعجازاً، ووجدوا فيه منهجاً قوياً، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها، وحاولوا أن يبرهنوا على ذلك ببراهين، مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع، وأساطين التربية، وذوو الاختصاص في فنّ الإعلام والدعاية.

وفئة قليلة عميت أو تعامت، هيمن عليها الحقد، فعدّت هذا مثلبة ومطعناً في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية، ولذا رأينا أن أباطيل أولئك لم تظهر مبكرة، فلم نسمع شيئاً عنها حتى من أعداء القرآن، الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة، بل على العكس من ذلك، وجدنا أن هذا القرآن يملك عليهم كل شيء، وإن لم يؤمنوا به. هذه الأباطيل - إذن- ظهرت فيما بعد، حينما فسد المزاج اللغوي، واجتمع الطاعنون على دين الله

من كل صوب، وتألبوا حسداً عليه، فبدأ الحديث عن شبهة التكرار. فكان لا بد أن يشمّر العلماء عن سواعد الجدّ ليردّوا إلى النحور الظالمة سهام الحقد.

الأقدمون والتكرار:

ابن قتيبة:

عرض المفسرون والكاتبون في علوم القرآن، والدراسات القرآنية لهذه القضية، فلم يألوا جهداً في دراستها، ولعل من أقدم الذين عرضوا لقضية التكرار عرضاً موجزاً مركزاً، إمام أهل السنّة اللغوي ابن قتيبة[1] قال رحمه الله: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفَرْضٍ بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ، تنبيهاً لهم عن سِنَة الغَفْلَة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدِّد الموعظة، وناسخٍ بعد منسوخ، استعباداً لهم، واختباراً لبصائرهم. يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان:٣٢]»[2].

ثم يقول: «وكانت وفود العرب تَرِدُ على رسول الله ﷺ للإسلام، فيُقْرِئُهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مُثَنّاة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله

(١) أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المروزي، العالم الكبير، اللغوي الناقد والكاتب والأديب والحافظ والمؤرخ والراوي الصادق، والمفسر المحدث المحيط بمشكل وغريب كتاب الله وسنن نبيه، أصله فارسي من مدينة مرو، يقال: وُلد في الكوفة، ويقال في بغداد سنة (٢١٣هـ)، وتوفي سنة (٢٧٦هـ) أول ليلة من رجب.

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص١٨٠.

بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويُلْقِيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

وليست القصص كالفروض، لأن كُتُبَ رسول الله ﷺ كانت تُنْفَذُ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة، وعددها وأوقاتها، والزّكاة وسنّتها، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وهذا ما لا تُعرَف كيفيته من الكتاب، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عز وجل في كل قطر، وبثّه في آفاق الأرض، وعَلَّم الأكابرُ الأصاغرَ، وجُمِعَ القرآنُ بين الدَّفَّتَيْن، زال هذا المعنى واجتمعت الأنباء في كل مصر وعند كل قوم»[1].

الخطابي:

ثم جاء إمام آخر من أئمة أهل السنّة اللغوي المفسر المحدِّث، أبو سليمان الخطّابي[2] في رسالته «بيان إعجاز القرآن» فبعد أن بيَّن وجوه إعجاز القرآن -كما يراها- كرّ على شبه المعارضين والمعاندين، ومنها شبهة التكرار وهو ما يعنينا هنا. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما ما عابوه من التكرار، فإن تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم

---

(١) المرجع السابق، ص١٨١، ١٨٢.

(٢) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (٣١٩-٣٨٨هـ/ ٩٣١-٩٩٨م)، فقيه محدث من أهل بست من بلاد كابل، له معالم السنن وبيان إعجاز القرآن، وإصلاح غلط المحدثين وله شعر. توفي في بست.

العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها، وقد يقول الرجل لصاحبه بقصد الحث والتحريض على العمل: عَجِّل عجّل، وارم ارم، كما يُكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب: مهم مهم مهم، ونحوها من الأمور، وكقول الشاعر:

هَـــلاّ سَــــأَلْتَ جُمُـــوعَ كِنْـــ ـــــدَةَ يَـــوْمَ وَلَّـــوْا أَيْــــنَ أَيْنَــــا

وقول الآخر:

يَــــا لِبَكْـــرٍ انْشِـــرُوا لي كُلَيْبـــاً يَــــا لِبَكْـــرٍ أَيْـــنَ أَيْـــنَ الفَـــرَار

وقد أخبر الله عز وجل السبب الذي من أجله كرر الأقاصيص، والأخبار في القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه:١١٣]»[1].

مما سبق ندرك أن أبا سليمان رحمه الله يحدد شرطين اثنين لكي يكون التكرار مذموماً:

أحدهما: أن لا يكون هناك حاجة تدعو إليه.

ثانيهما: أن لا يكون في الكلام المكرر زيادة.

أما إذا كان في الكلام المكرور زيادة على ما ذكر أولاً، وكان في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها، فإن ذلك تكرار محمود -كما يقول الخطابي رحمه الله - ونحن إذ نوافق الشيخ من جهة، لكننا نخالفه من جهة أخرى، وسنرجئ مناقشته بعد أن نستمع إلى عالِـم آخر، هو الإمام الزركشي[2] رحمه الله.

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، ص٥٢-٥٣.

(٢) الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، أحد العلماء الذين نجموا بمصر في القرن الثامن، وُلد بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ حينما كانت معمورة بالمدارس، انتظم في حلقات الدروس، =

الزركشي:

أشار في كتابه «البرهان» إلى التكرار في القرآن بعامة وإلى التكرار في القصة بخاصة، فبعد أن بيَن أن التكرار أسلوب من أساليب العرب، وأن الكلام حينما يكرر، فإنه في النفوس يقرر، وعاب على الذين ينكرونه. وعرّفه بقوله: «وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١١-١٥].

فأعاد قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، لا لتقرير الأول بل لغرض آخر، لأن معنى الأول الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله، والإخلاص له فيها، ومعنى الثاني أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص... واعلم أنه إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل، أما إذا وافق الأصل فلا، ولهذا لا يتجه سؤالهم. ولِمَ كَرَّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾ في قول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]»[1].

وبعد هذا التعريف ذكر فوائد التكرار، وفي مقدمتها التأكيد، ولكنه قال بعد ذلك: إن التكرار أبلغ من التأكيد.

= وتفقه بمذهب الشافعي وهو جهبذ من جهابذة أهل النظر وأرباب الاجتهاد، وعَلَمٌ من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين، كان منقطعاً إلى الاشتغال بالعلم، لا يشتغل عنه بشيء، وله أقارب يكفلونه أمر دنياه، توفي بمصر في رجب سنة ٧٩٤هـ.

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، الطبعة الأولى، ج٣، ص١٠-١١.

ومما سبق نجد أن الخطابي والزركشي متفقان على أن ما ذكر في كتاب الله تعالى أكثر من مرة، كان فيه في كل مرة زيادة معنى، ومع ذلك سمياه تكراراً. ونحن إذ نعجب من الزركشي إذ عرّف التكرار بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه، مع أنه في موضع آخر من كتابه ينكر الترادف في كتاب الله تعالى، ولكننا نعترف له بلمحة طيبة جيدة، وهي أن ما ذكر أكثر من مرة لتقرير معنى واحد هو الذي يسمى تكراراً، أما إذا كان لتقرير معنى آخر، فليس من التكرار في شيء، وكذلك قوله: «إنه يُسأَل عن حكمة التكرار إذا خرج عن الأصل» أي إذا صعب علينا أن ندرك الحكمة من ذكر اللفظ أكثر من مرة، أما إذا لم يخرج عن الأصل، فلا يُسأَل فيه عن حكمة التكرار، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

تعريف التكرار:

نحن -إذن- مع الخطابي في عدّه من التكرار ما كان فيه زيادة معنى، ولسنا مع الزركشي في تعريفه التكرار بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه.

والتكرار -كما نراه- هو إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، فإذا لم يتوافر هذان الشرطان، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو إذا ذكر اللفظ أكثر من مرة، ولكن لكل موضع سياقه الخاص، ومعناه الخاص، فإن ذلك لا نسميه تكراراً أبداً. هذا هوالتعريف الدقيق للتكرار، كما يظهر لنا.

المحدثون والتكرار:

الرافعي:

ولقد عرض بعض الكاتبين المحدَثين لقضية التكرار، ومن هؤلاء كاتب العربية والإسلام، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي[1] رحمه الله، فعند حديثه عن

---

(١) مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي، (١٢٩٨-١٣٥٦هـ/ ١٨٨١-١٩٣٧م)، عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكُتّاب، أصله من طرابلس الشام، =

أسلوب القرآن، وما امتاز به هذا الأسلوب، وما انفرد به من خصائص، فيعد التكرار إحدى هذه الخصائص والميزات، وحديث الرافعي من حقه أن لا يوجز وأن لا يختصر، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قَصَصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقق النعمة وترديد المنَّة والتذكير بالنِّعَم واقتضاء شكره، إلى ما يكون هذا الباب، وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه لا في ضروب من خطابهم: للتهويل والتوكيد، والتخويف والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة.

بيد أن وروده في القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته وأنهم يُخَلُّون عنه[1] لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهماً، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجهاً أوعبارة، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون.

فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز وأشد عليهم في التحدي، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي الذي قد تمكن معه الاستطاعة أو تتهيأ المعاريض حيناً بعد حين، إلى العجز الفطري الذي لا يتأول فيه المتأول ولا يعتذر منه المعتذرون ولا يجري الأمر فيه على المسامحة.

= مولده في بهتيم (منزل والد أمه) ووفاته في طنطا، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، شعره نقي الديباجة على جفاف في أكثره، ونثره من الطراز الأول، الأعلام، ج٧، ص٢٣٥.

(١) يتركونه بلا معارضة، والتخلية: الترك.

وقد خفي هذا المعنى (التكرار) على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتي بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا: إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة سعة، وهو -أخزاهم الله- كان أروعَ وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً !

وفي بعض ذلك التكرار معنى آخر فَطِن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره، وأول من نبّه عليه الجاحظ في كتاب (الحيوان) إذ قال: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام» أي كأن ذلك مبالغة في إفهامهم وتوسع في تصوير المعاني لهم وتلوينها بالألفاظ، إيجازاً في موضع وإطناباً في موضع إذ كانوا قوماً لا سليقة لهم كالعرب وليسوا في حكمهم من البيان، فلا يمضي كلامه لسننه بلا اعتراض من تنافر التركيب وثقل الحروف وجفاء الطبيعة اللغوية، فلهذا ونحوه كان لا بد في خطابهم من التكرار والبسط والشرح، بخلاف العرب، فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم من الحذف، والقصد إلى الحجة، والاكتفاء باللمحة الدالة، وبالإشارة الموحى بها، وبالكلمات المتوسمة، وما يجري هذا المجرى، وهو قول صحيح في الجملة بيد أنهم أخطؤوا وجه الحكمة فيه»[1].

عبدالكريم الخطيب - محمد قطب:

ومنهم الأستاذ عبدالكريم الخطيب في كتابه «إعجاز القرآن» و«القصص القرآني» كما عرض لها الأستاذ محمد قطب في كتابه «الدراسات القرآنية» والنتائج

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٩٣-١٩٥.

التي يمكن أن تستفاد من هذه الدراسات أن التكرار قد يكون للتأكيد، وما جاء منه في كتاب الله تعالى، فإنما قصد منه التأثير في النفوس، وبخاصة إذا كانت الموضوعات المكررة موضوعات مهمة، كالعقيدة التي أراد القرآن أن ترسخ في النفوس، وتثبت في أعماق القلوب -وهذا الذي قرره الخطابي كما رأينا من قبل-.

ويذكر الأستاذ محمد قطب أن ما في القرآن مما يظن أنه تكرار، إنما هو متشابه[1]. ويمثله بثمار الجنة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة من كتاب الله. أما الأستاذ الخطيب[2]، فلقد فصّل فيما يخص القصة القرآنية من التكرار، مبيناً بعض الأمور التي توهم التكرار في القصص القرآني.

ومنهجنا أن نعرض لهذه القضية، مستلهمين من القرآن الكريم ما يفتح به لنا ربنا، وهو الفتاح العليم.

على أننا لا ننكر على الذين ذهبوا لوجود التكرار في القرآن، معللين هذا بأنه لا يخرج عن الأساليب التي عرفتها العرب، وبأنه إنما يراد به التأثير على النفوس حتى يقرر فيها ما يكرر. أقول: لا ننكر على أولئك، وليس معنى هذا أننا نتفق معهم فيما ذهبوا إليه، ونؤثر أن نرجئ الحكم بعد أن نعرض لهذه القضية من جميع جوانبها. فنقول وبالله التوفيق:

الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم مع كثرتها، نجملها في هذه الأمور الرئيسة الثلاثة:

١- الأحكام: وتشمل ما اصطلح عليه فيما بعد بالعبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والحدود، وما يتصل بهذا من الآداب والقيم.

---

(١) الأستاذ محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، بيروت، ص٢٤٥.

(٢) الأستاذ عبدالكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الفكر العربي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ص٢٣٨ وما بعدها.

٢- العقيدة: وتشمل الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وما يتصل بهذا من الأمثال والحقائق.

٣- أما الموضوع الثالث فقصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم الماضية.

وقد أجمعوا على أن لا تكرار في آيات الأحكام، وإنما الذي يمكن أن يكون فيه تكرار هما الموضوعان الأخيران، آيات العقيدة والقصص. هذا من حيث الموضوع.

أما من حيث اللفظ، فقد قالوا: إن هناك جملاً أو آيات ذكرت أكثر من مرة، مما يوجب القول بأنها مكررة.

ومن هنا كان لزاماً علينا أن يكون حديثنا في هذا الباب عن آيات العقيدة والقصة وتكرار الجمل الآيات.

المبحث الأول

آيات العقيدة

ولنبدأ بآيات العقيدة التي يجمع الباحثون على أنها كررت في كتاب الله لقصد نبيل وهدف شرف.

أولاً: آيات الألوهية:

هي التي تقرر صلة هذا العالَم -والعالَم كل ما سوى الله مما يعلم به سبحانه- بخالقه، من حيث احتياجه للخالق سبحانه. وقد تحدثت الآيات عن خلق الإنسان والحيوان والنبات والسموات والأرض وما عليها. أما آيات خلق الإنسان فلقد ذكرت فيما يقرب من أربعين موضعاً، ولنقتصر على بعض هذه الآيات حسب ترتيب النزول:

١- في أول نجم نزل على سيدنا رسول الله ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق:١-٢].

٢- في سورة عبس: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس:١٨-١٩].

٣- في سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:٣٦-٣٩].

٤- ما جاء في سورة المرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات:٢٠-٢٣].

٥- ما جاء في سورة البلد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد:٤-٩].

٦- ما جاء في سورة الطارق: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ [الطارق:٥-٨].

٧- ما جاء في سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ ﴾ [يس:٧٧].

٨- ما ورد في سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ ﴾ [الفرقان:٥٤].

٩- ما ورد في سورة فاطر: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ ﴾ [فاطر:١١]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ [فاطر:٢٨].

١٠- ما ورد في سورة الواقعة: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ ﴾ [الواقعة:٥٧-٦٢].

١١- ما جاء في سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ ﴾ [الحجر:٢٦].

١٢- ما جاء في سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨ ﴾ [الأنعام:٩٨].

١٣- ما جاء في سورة الصافات: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ ﴾ [الصافات:١١].

١٤- ما جاء في سورة الزمر: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر:٦].

١٥- ما جاء في سورة غافر: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر:٦٤]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر:٦٧].

وتستمر الآيات الكريمة تحدثنا عن خلق الإنسان، وليس من غرضنا أن نستقصيها جميعاً، ومن أنعم النظر في الآيات التي ذكرناها لا يمكن أن يدّعي أن فيها شبهة تكرار، فكل آية -كما رأينا- تتحدث عن قضية غير التي تتحدث عنها الآية الأخرى، يقول أستاذنا الشيخ محمد محمد السماحي: «تبصر في هذه الآيات وكيف رتبها هذا الترتيب العجيب، الذي يتفق مع التربية العلمية والنفسية جميعاً، فقد نبههم أولاً على أن الإنسان مخلوق من علق، وقد علمت أنه لا يطلق إلا بعد تعلق الخلية الذكرية بالخلية الأنثوية، وتفاعلهما في الرحم، ومن العلق هذا ينشأ الذكر تارة، والأنثى تارة أخرى، وتأتي نظرية توقف العلة على معلولها، ولا بد من أول لهما، ولا بد من خالق ابتدأ السلسلة بوجه ما. ثم تكلم على أحد طرفي العلق وهو الخلية، التي من شأنها أن تسعى حتى تصل إلى أختها الأخرى. التي تنتظرها في مكان الخلق والتقدير، فكيف سعت؟ وكيف تلاقت؟ ثم كيف خلق وقدر في هذا المكان؟ ثم كيف تيسر له السبيل وكي استكمل حياته ومات وقبر؟ ثم ينتقل خطوة أخرى فنبهه إلى أن النطفة التي خلق منها على هذا الوجه السابق أمنية مقدرة من مقدر حكيم، يتمنى الماني والمستمني بلوغ غايتها في إنتاج الولد ذكراً أو أنثى، ثم تأخذ على حسب التقدير لسيرها المقدر لها، فتكون علقة فتخلق فتسوّى، فيكون منها الزوجان الذكر والأنثى، فكيف خُلقت وكيف سُوِّيت؟ ثم كيف تحولت إلى ذكر تارة وأنثى تارة، مع أن المعمل الذي تكون فيه الخلايا الذكرية أو الأنثوية إنما هو معمل واحد»[1].

(١) مذكرات في التفسير الموضوعي لطلبة الدراسات العليا، ص٦.

وقد يتساءل بعضهم أليس من التكرار في آيات خلق الإنسان ما جاء في هاتين السورتين المتجاورتين سورة الحج وسورة المؤمنون؟ ففي سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ ﴾ [الحج:٥]، وفي سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]. ونرد على هذا التساؤل بأن قضية التكرار في هاتين الآيتين منتفية كل الانتفاء، فلقد اختصت كل منها بأمور لم ترد في الأخرى.

أما ما يظن اشتراك الآيتين فيه، فبعيد عن التكرار كذلك، فآية الحج جاء التعبير فيها بكلمة (ثم)، وآية المؤمنون جاء التعبير فيها بالفاء، فلكل من الآيتين غرض يختلف عن الآخر. آية المؤمنون جاءت تبين تعاقب الأطوار كما يفهم من الفاء التي هي للترتيب والتعقيب -كما يقول النحويون-، وآية الحج جاءت تبين أن كل طور من هذه الأطوار، لا بد أن يمر بمراحل وأطوار حتى يبلغ الطور الآخر، فللنطفة أدوار وللعلقة أدوار.

آيات خلق الإنسان -إذن- على كثرتها وتعددها، نجد أن لكل آية منها هدفاً وغاية، والذي يزعم أن فيها تكراراً، مثله كالذي يدّعي أن جهاز التنفس في الإنسان والجهاز الهضمي والدموي، أجهزة مكررة يمكن أن يغني عنها جهاز واحد، وما نظن أحداً يجرؤ على قول مثل ذلك.

وكذلك حينما نستعرض الآيات التي تحدثت عن خلق الحيوان والنبات، نجد كل آية تحدثت منها عن خاصية في هذا النوع أو ذاك، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ

رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٥-٨]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور:٤٥]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [النحل:٧٩]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ [الملك:١٩]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

وفي الحديث عن النبات نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام:٩٩]، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٣-٤].

وهكذا الآيات جميعاً التي تحدثت عن هذين النوعين، نجد أن كل آية كريمة توجه أنظارنا إلى موضوع مستقل، وتفتح لنا باباً جديداً من أبواب العلم، وتضع أيدينا على دقائق في هذا الكون، وتشير إلى حقائق حريٌّ بها أن تدرس دراسة جادّة مفصلة.

وكذلك الآيات التي تحدثت عن السموات والأرض، وما فيهما من جبال وأبحر ونجوم وكواكب، مما يطول بنا بحثه واستقرؤاه واستقصاؤه، ولكن الغرض

الذي نرمي إليه ونرجو أن نكون قد أصبناه، هو انتفاء التكرار في موضوع الخلق، والذي هو أكثر الموضوعات التي عرض لها القرآن في قضية الألوهية.

ومثل قضية الخلق قضية الوحدانية، فالأدلة التي جاءت بها الآيات الكريمة متنوعة متعددة، ويكفي لذلك أن نقف عند بعض الآيات الكريمة التي تحدثت عن الوحدانية، في سورة المؤمنون: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون:٩١]، وفي سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وفي سورة الشورى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١]. إن كل آية من هذه الآيات توجه العقل إلى دليل وتسمو به إلى برهان يختلف عن غيره.

ثانياً: الرسالة:

إن آيات الرسالة في القرآن الكريم كانت ذات مراحل متميزة، لكل مرحلة خصائصها، ابتداءً من مرحلة الإنذار ومروراً بمرحلة الأدلة وردّ الشبهات والإجابة على الاقتراحات وانتهاءً بمرحلة التحدي... والمتأمل في هذه المراحل وفي الآيات الكريمة التي تحدثت عنها يجد أن كل آية عرضت لموضوع، وعالجت قضية ذات شأن، مما يجعل القارئ المتدبر لا يرتاب في جدة هذه الموضوعات والقضايا، وبالتالي يصل إلى قناعات لا تحوم حولها شائبة بأنه لا تكرار في الآيات التي تتحدث عن الرسالة.

ولنضرب لك مثلاً:

١ - الأدلة على الرسالة: الأدلة التي جاء بها القرآن برهاناً على رسالة النبي ﷺ : هذه الأدلة كانت تستند إلى التاريخ تارة، وإلى الواقع تارة أخرى. أما أدلة التاريخ فلم تقف عند حقبة واحدة من حقب الدهر، وإنما كانت في عمق هذا التاريخ، كما أنها لم تقف عند بيئة واحدة، لكنها أرشدت إلى أكثر من بيئة كذلك. أما

الواقع فتجده تارة يستند إلى سيرة النبي ﷺ، وأخرى إلى ما منّ الله به على أولئك... ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص:٥٧]. ويستند تارة ثالثة إلى ما في هذا الكون من آيات. كل ذلك تجده جاء على غير وتيرة واحدة، متسقاً مع السياق الذي ذكر فيه.

٢- آيات التحدي: وأنت إذا وقفت مع هذه الآيات، وجدتها أبعد ما تكون عن قضية التكرار، فتارة ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور:٣٤]، وأخرى: ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود:١٣]، وثالثة ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:٣٨]، وأخيراً ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣].

تارة ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم ﴾ [هود:١٣، يونس:٣٨]، وتارة ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم ﴾ [البقرة:٢٣]، وتارة ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:١٥]، وتارة ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة:٢٤].

ولا يدورنَّ بخلدك أن هذه العبارات جميعها ذوات معنى واحد، بل إنها اختلفت لفظاً واختلفت معنى كذلك.

ويصعب أن نتتبع الآيات التي تحدثت عن الرسالة في جميع أطوارها وأدوارها، راجين أن يكون ما اجتزأناه كافياً ومغنياً، وما على القارئ إلا أن يتتبع آي الذكر الحكيم، ليسْعَدَ وينعُم، ويكون معي في كل ما أدّعي وأزعُم، من أن لا تكرار في الآيات التي تحدثت عن الرسالة.

ثالثاً: البعث:

بقي من موضوعات العقيدة قضية البعث: وللبعث في كتاب الله شأن عظيم لا نجده في أي كتاب آخر، فالإيمان باليوم الآخر هو أحد بل أعظم أركان الإيمان،

والمتدبر لآيات الكتاب الكريم والسنّة المشرفة يدرك ذلك لأول وهلة، لذلك كان لا بد أن يستفيض الحديث عن اليوم الآخر في كتاب الله تعالى.

يقرر مبدأ البعث بما لا نجده في أي كتاب -كما قلت- لا من حيث المضمون والحقائق فحسب، بل من حيث الأسلوب والدليل، فمن حيث المضمون والحقيقة يحرص القرآن الكريم والسنّة المطهرة كذلك، على التأكيد والتقرير لبعث الأجسام، لتجازى كل نفس بما عملت، وأن الثواب والعقاب قد يكون كل منهما مادياً وروحانياً، وليس كما يقرر الفلاسفة ومن تبعهم من أصحاب الكتب السماوية فيما بعد، من أن البعث والنعيم والثواب كل أولئك أمور روحانية فحسب.

أما من حيث الأسلوب، فمع خطورة الموضوع، وشدة ارتباطه بالعقل، إلا أننا نجد أن أسلوب القرآن في تقرير البعث يثير المشاعر، ويهيج الوجدانات والعواطف، ويهيب بالعقل بل يحتم عليه أن يبحث ويستنتج. يدرك هذه الحقيقة من قارن بين أسلوب القرآن الكريم في إثبات البعث وأسلوب المتكلمين فيما أقاموه من أدلة.

ولا تظنن أيها القارئ أنني حاولت أن أبتعد بك عن موضوع البعث، فأنقلك إلى موضوعات تتشابه وتتشابك فيما بينها، وإنما كانت تلك مقدمات -لا بد من أن نعرفها وأن نحيط بها- مدخلاً لموضوعنا، وأساساً لما نودّه من تقرير الوجود أو نفي التكرار في كتاب الله فيما يخص عقيدة البعث.

والناظر في كتاب الله يجد الحديث عن البعث مبثوثاً في سور القرآن الكريم، لا مكيّها فحسب، بل مدينّها كذلك، وكي نصل إلى ما نودّه من نتائج، ولكي يكون حكمنا على الأمور دقيقاً، يجمل بنا أن نتدبر هذه الآيات ولو تدبراً إجمالياً فماذا سنجد؟

لا يساورني شك بأنك أيها القارئ حينما تتدبر آيات البعث في كتاب الله وعقيدة اليوم الآخر، فتسجد أموراً ثلاث حرص القرآن الكريم على إبرازها والحديث عنها، وهذه الأمور كما ظهرت لي بعد بحث هي:

أولاً: الحديث عن طبيعة هذا اليوم -اليوم الآخر-

ثانياً: الحديث عما يكون فيه ما يقع من أحداث.

ثالثاً: عن الأدلة التي سلكها القرآن لإثبات هذا اليوم، بما يقنع العقول ويمتنع العواطف.

١- طبيعة هذا اليوم:

فقد حدثنا القرآن الكريم عن طبيعة هذا اليوم، ولكن حديث القرآن لم يكن على وتيرة واحدة، وإنما كانت هناك حقائق متنوعة متعددة، يبرزها في آياته ذات الروعة والإعجاز، فهو اليوم الآخر أو الدار الآخرة تارة، ويوم القيامة أو يوم الجمع تارة، أو يوم التغابن ويوم الفصل تارة ثالثة. ثم نجد الحديث عن هذا اليوم الآخر أو الدار الآخرة بأوصاف متميزة، فتارة هي الساعة، وأخرى هي الطامة أو الصاخة، وفي موضع الحاقة أو القارعة أو الواقعة، إلى غير ذلك من أوصاف كل واحد منها إنما يضيف للعقل جديداً، لأنه يتحدث عن خصيصة لهذا اليوم، لا نجدها في موضع آخر من الآيات، كل هذا لشحذ الهمم، وتنبيه النفوس، وإيقاظ العقول، لأن تحسب لهذا اليوم حساباً، وأن تعي هذه النتيجة الأخيرة وهي أهم النتائج وأولاها بالتقدير؛ لأنها الغاية بل غاية الغايات، وهي قوله سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

٢- أحداث اليوم الآخر:

أما ما يكون في هذا اليوم فلقد كانت هناك حقائق كثيرة أبرزتها آي الذكر الحكيم، سواء منها ما يحدث لهذا الكون والحياة أو للمخلوقات.

أما ما يحدث للكون فنقرؤه في مواضع كثيرة من كتاب الله، من انشقاق السماء وانفطارها، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق:١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾

[الانفطار:١]، ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴾ [المرسلات:٩]، ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان:٢٥]، ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ [النبأ:١٩]، ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾ [المعارج:٨]، ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ [الزمر:٦٧] وهكذا الأرض تمد لتلقي ما فيها تتخلى عنه، وكأن ما كانت تحتفظ به تأبى أن تتنازل عنه لأحد، وذلك لا بد له من زلزلة عظيمة ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ ﴾ [الزلزلة:١-٥].

أما ما في السموات فستكور الشمس، وتنكدر وتطمس النجوم، وتنتثر الكواكب، هكذا بهذا التعبير المعجز الذي يدلنا على التفرقة بين الكواكب والنجوم، يخسف القمر ويجمع الشمس والقمر.

أما ما على الأرض فستفجر البحار وتسجر، أما الجبال فستكون كالعهن المنفوش ثم تدك ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ ﴾ [الواقعة:١-٦]. وهكذا تسيّر الجبال فتكون سراباً، وبعد ذلك كله تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

هذا ما تشير إليه الآيات الكريمة منذ أن ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض. إلا من شاء الله، نقرأ ذلك كله حديثاً رائعاً عن الأحداث المروّعة في هذا الكون.

أما ما يحدث للخلائق فيحدثنا القرآن الكريم حديثاً مستفيضاً، ولكنه كذلك يبرز حقائق متنوعة متعددة، فلا تجزى نفس عن نفس شيئاً في هذا اليوم، لأنها لا يقبل منها عدل ولا يؤخذ منها شفاعة، بل لا تنفعها شفاعة كذلك إلا شفاعة أَذِنَ بها الله الحي القيوم، فمنذ أن تخرج الخلائق من الأجداث سِراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون وكأنهم جراد ينتشر، يحدثنا القرآن الكريم عن الهواجس النفسية والتمنيات والاعتذارات، وفي كل آية حقيقة جديدة.

كما يحدثنا عن المراحل التي تمر بها الخلائق في هذا اليوم ابتداءً من نشر الكتب ليعطي كل كتابه بيمينه أو شماله، أو من وراء ظهره ليقرأ كل كتابه ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

ثم تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الحساب، وهو حساب سريع، لا ظلم فيه ولا نسيان. ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الميزان، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٢] و ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [القارعة:٧]، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٣-١٠٤] وأمه هاوية.

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة الصراط ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم:٧١-٧٢] وبعد ذلك يكون الحديث عن الجنة والنار وما فيهما، مما أُعِدَّ لأهلهما من أمور مادية أو معنوية، ذلكم هو حديث القرآن عما في هذا اليوم.

٣- الأدلة على اليوم الآخر:

بقيت الأدلة التي سلكها القرآن مبرهناً بها على هذا البعث، وكان يمكن أن يسكت القرآن عن هذه الأدلة، فهو الذي لا يتخلف وعده، ومن أصدق من الله قيلاً، ولكننا مع ذلك نجد الأدلة مبثوثة في هذا القرآن على الحقائق التي يقررها، سواء كانت هذه الحقائق تتعلق بوحدانية الله، أم بنبوة النبي ﷺ أم بإثبات أن هذا القرآن من عند الله، وكذلك لإثبات اليوم الآخر، والعجيب أن أدلة القرآن الكريم أدلة متنوعة من هذا الكون، ومن الإنسان نفسه، بل نجدها أدلة هي في حقيقتها نعم من نعم الله على هذا الإنسان في هذا الكون، ولا نود هنا، أن نعرض لهذه القضية بالتفصيل، فذلك له موضع آخر في غير هذا الموضع إن شاء الله، لكن الذي يهمنا هنا، أن ننظر إلى أدلة البعث، وسنجد هذه الأدلة سلك القرآن بتقريرها مسالك

متعددة، لكنها جميعها سهلة ميسرة، فقد تكون هذه الأدلة مما يحيط بهذا الإنسان في هذا الكون، ومما هيّئ لراحته وإمكانات وجوده على هذه الأرض ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ:٦-١٧].

وقد يسلك بالدليل طريق آخر، فينتزع من نفس الإنسان وما يمر به من أطوار، وما يشاهد في شأن ما يقيم صلبه ويصلح شأنه، ويبهجه فيما يراه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج:٥-٨] أرأيت إلى هذين الدليلين اللذين جيء بهما لإثبات البعث أحدهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ فهو دليل مستمد من الأنفس، والثاني ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فهو مستمد مما هو حول الإنسان ومما لا حياة بدونه، ما أعظمهما في تأثيرهما، وما أروعهما في إمتاعهما، وما أبدعهما في إحاطتهما، وما أقنعهما في حجتهما ومنطقهما، وإذا صحّ ما ذكره المفسرون من أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ نزل في النضر ابن الحارث الذي قيل إنه جاء بأخبار وحكايات من خارج بلاد العرب، فكان يقرؤها للناس

ليشغلهم عن القرآن إذا صح ذلك فما أشبه الليلة بالبارحة ونحن نرى أن الذين ينكرون عقيدة البعث، يشبهون النضر بن الحارث، فلقد جاؤوا بأقوالهم من غير البيئة الإسلامية.

وقد يسلك في دليل البعث مسلكاً آخر، وهو مسلك عجيب ملفت للنظر، مدهش للألباب. إنه دليل الضدية، إنه يبرهن على وجود الشيء من ضده، فالمنكرون للبعث تتلخص شبهاتهم في وجود الحياة من اللاحياة، فكيف ينتج الشيء من ضده، كيف يكون النقيض من نقيضه؟ يقول الله في هذا: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس:٧٨-٨٣] هكذا جعل من الشجر الأخضر ناراً، والخضرة تتنافى مع النار، بل تضادها، لأنها ناتجة عن الماء وهكذا تتعدد الأدلة القرآنية لإثبات البعث.

وقد يفصِّل دليل مما يجمله الآخر، فإنزال الماء على الأرض الذي ورد مجملاً في الآية السابقة، نجد فيه تفصيلاً في آية أخرى، كقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:٥٧] وقد يكون الدليل جملة واحدة مرتكزة في فطرة الإنسان، كأنما هي بدهية تدرك لأول وهلة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم:٢٧] وهكذا الأدلة المبثوثة في كتاب الله تعالى، وليس غرضنا الاستقصاء، فما ذكرناه فيه الغنية والكفاية.

من ذلك كله يوقن كل منصف ذي بصيرة، أن التكرار الذي ادّعي في آيات العقيدة أمر لا مسوغ له ولا ضرورة، وما أشبهه بآيات الأحكام التي يجمعون على عدم التكرار فيها، مع أن الموضوع الواحد منها قد يذكر في أكثر من سورة، فآيات الطلاق، وآيات الحج، وآيات الجهاد، ذكرت في سور متعددة من سور القرآن، إلا أن كل سورة كان يذكر فيها ما لا يذكر في السورة الأخرى، فآيات الطلاق مثلاً ذكر بعضها في سورة البقرة، وبعضها في سورة الطلاق وهي التي تسمى سورة النساء الصغرى، وبعضها في سورة الأحزاب، وآيات الحج ذكر بعضها في سورة البقرة، وبعضها في سورة آل عمران، وذكر بعضها الآخر في سورة الحج. ولم يدّع أحد أن ذلك من التكرار، كذلك آيات العقيدة -كما رأينا-.

المبحث الثاني
القصص القرآني

الذين نظروا إلى القصة القرآنية، ووجدوا القصة الواحدة تذكر في أكثر من سورة، ظنوا أن ذلك من باب التكرار، ولكن الدارس المتأمل ستؤدي به دراسته المتأنية إلى النتيجة التي استخلصناها من آيات العقيدة، وهي أنها لا تحوم حولها شائبة تكرار. وسنوجز لك الحديث عن القصة من حيث التكرار، سندع النتيجة لك كذلك، لتستخلصها أنت، وأحيلك إن أردت مزيداً على كتابنا (القصص القرآني) في إيحائه ونفحاته.

ولنضرب لك مثلاً بما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، لِنَبِيَّيْنِ اثنين عليهما وعلى أنبياء الله ونبينا صلاة الله وسلامه، سيدنا نوح، وسيدنا موسى، ولنأخذ نماذج ثلاثة لكل من الرسولين -عليهما السلام-، بادئين بقصة سيدنا نوح عليه السلام.

فالأنموذج الأول ما جاء في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت:١٤-١٥]. وهذه القصة القصيرة مع قصرها وإيجازها فلقد جاءت موفية للغرض الذي سيقت من أجله. كما جاء فيها على قصرها ما لم يذكر في غيرها، وهي المدة التي لبثها نوح عليه السلام في قومه.

وهذه قصة نوح في سورة المؤمنون، جاء فيها قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا

كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون:٢٣-٢٦] ويوحي الله تبارك وتعالى إليه بأن يصنع الفلك، وأن لا يخاطبه في الذين ظلموا فهم مغرقون، ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩].

هذه قصة نوح في سورة المؤمنون، جاء بين الإجمال والتفصيل. وجاءت على هذا النسق كذلك في سورة الأعراف والشعراء والقمر، ولكنها في كل سورة من هذه السور الأربع لم تكن سواء، بل كانت كل قصة منسجمة مع السورة التي ذكرت فيها، موضوعاً وأسلوباً، ولذا كان في كل قصة جزئيات لم تذكر في القصة الأخرى.

ولكن قصة نوح ذكرت مطولة مفصلة في سورتي نوح وهود -عليهما السلام- . وأنت حينما تتدبر القصة في السورتين، تجد أن كلاً منهما تشتمل على قضايا وجزئيات وأحداث لا توجد في غيرها، مما يجعلك توقن غير مرتاب، أن لا تكرار في قصة نوح عليه السلام .

أما قصة موسى عليه السلام ، فقد ذكرت موجزة في سورة النازعات، مطولة في سورة الأعراف، وما بين هذا وذاك في سورة يونس، وكانت كل واحدة لها أسلوبها المتميز. ولو أردنا أن نذكر ما في كل سورة لطال الحديث.

اتساق القصة مع موضوع السورة:

وما على القارئ إلا أن يفتح كتاب الله، سائلاً الله أن يفتح له في فهمه، فيتدبَّر ما فيه، وسيجد أن كل قصة جاءت تتناسب وتتسق مع موضوع السورة في شخصيتها، فقصة موسى في سورة النازعات، هذه السورة ذات المقاطع القصيرة القوية الفخمة الجزلة، ذكر فيها قوله سبحانه عن فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٥]. وقصة موسى عليه السلام

في سورة الزخرف ذكر فيها ما يتناسب مع اسم السورة الكريمة؛ وما بنيت عليه، وما ذكر فيها من إسراف المعرضين، ومن رفع بعض الناس فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وهي التي ذكر فيها قول فرعون حينما نادى في قومه متباهياً: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف:٥١]. وقصة نوح عليه السلام جاءت قصيرة في سورة العكنبوت، وهي السورة التي بدئت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت:١-٢]، فهي سورة الدعاة الذين جاهدوا في الله، وهم يرجون لقاءه، ولذلك جاءت قصصها قصيرة كأنما هي لقطات تذكر الدعاة إلى الله بصعوبة الأمر وخطورته.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه:١١٣]، وصدق الله ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود:١]، وصدق الله ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر:٢٨].

ويطول بنا الأمر إذا أردنا أن نتتبع القصص القرآني في سوره، فتلك قضية لا يتسع لها مثل هذا الفصل، ولكننا نجزم ونوقن بأن كل متأمل لكتاب الله تعالى يجزم كذلك، بأن القصص القرآني ليس فيه تكرار من جهة، ومن جهة ثانية فإن كل قصة ذكرت في السورة التي تلائم موضوعها، وتتسق مع شخصيتها، سواء كان ذلك من حيث أسلوب السورة، أم من حيث جزئياتها وأحداثها.

يقول العلاّمة المصلح الأستاذ محمد الخضر حسين[١]، شيخ الأزهر الأسبق: «إنه لا تكرار في القصص القرآني، وإنما كل قصة في سورة، فيها من المعاني والحكم

---

(١) محمد الخضر حسين بن علي بن عمر الحسيني التونسي (١٢٩٣-١٣٧٧هـ/ ١٨٧٦-١٩٥٨م)، عالم إسلامي، أديب باحث، يقول الشعر، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، وممن تولوا مشيخة الأزهر، وُلد في نقطة من بلاد تونس وتخرج بجامع الزيتونة، ودرس فيها، وأنشأ مجلة السعادة العظمى، وترأس تحرير مجلة نور الإسلام، ولواء الإسلام، له تآليف منها: حياة اللغة، والخيال في الشعر العربي، ومناهج الشرف، والدعوى إلى الإصلاح... . الأعلام، ج٦، ص١١٤.

ما لا يوجد في سورة أخرى، وسياق السورة وظرفها يحددان موضع العبرة من القصة، فليس من السهل أن يقال: في كل سورة جاءت فيها قصة موسى مع فرعون أنها قصة واحدة، بل الواجب أن ندرس القصة في كل سورة ، ليتبين السياق الذي جاءت من أجله، والعبرة التي هدفت لها، والحكمة التي قصدت منها».

ويمثل الشيخ بقصة آدم، ويقول: «إنها وردت في ست سور، في البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه [1]. ففي سورة البقرة وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من أنهم يكفرون به، فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة، وتعليمه الأسماء كلها.

وفي سورة الأعراف، وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً ما يشكرون الله، الذي مكّنهم في الأرض، وجعل لهم فيها معايش، ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان. وفي سورة الحجر، وردت القصة في سياق خلق الإنسان من طين، والجن من نار، فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما سورة الإسراء، فقد وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها، في واقعة حسد إبليس وعدائه لآدم وذريته»[2].

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : «يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها، هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدَّى بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري، والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

---

(١) ولم يذكر سورة (ص).

(٢) مجلة لواء الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة، ص٥٣٧-٥٥٤.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وإنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار»[1].

ولقد عرض الزركشي رحمه الله لفوائد التكرار في القصص القرآني، ومع أننا لا نسميه تكراراً -كما قلت- ومع أن ما ذكره أيضاً قد يكون بعضه متداخلاً في بعض، وقد تكون الأسباب التي ذكرها أكثر وجاهة من بعضها الآخر، إلا أن فيه فوائد يجمل للقارئ أن يقف عليها، لذا رأينا أن ننقل كلامه كما جاء. قال رحمه الله: «ومنه تكرار القصص في القرآن، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية. انتهى. وإنما كرر لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام وذكرها في موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كلّ حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته، أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجرياً فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى آخرين وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون وعبّر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٦٤، الطبعة الخامسة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوافرها على نقل الأحكام فلذا كررت القصة دون الأحكام.

السادسة: أن الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ ثم بيَّن وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً بأنهم عاجزين عن الإتيان بمثله بأي نظم جاؤوا، بأي عبارة عبّروا، قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح.

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣] وقال في موضع آخر: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ [هود:١٣]، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في موضع واحد، واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾، «إيتونا أنتم بسورة من مثله» فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: أن القصة الواحدة من هذه القصص، كقصة موسى مع فرعون وإنْ ظُنَّ أنها لا تغاير الأخرى، فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ، فإن كل واحدة لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها، فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع، كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصيّة من نظم القرآن عدة معانٍ

عجيبة: منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللاً فباين بذلك كلام المخلوقين، ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات.

ومنها أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ -لما فيه من التغيير- ميلاً إلى سماعها لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير النظم وبيان وجوه التأليف، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة مَن لا يلحقه نهاية ولا يقع على كلامه عدد»[1].

ومما تقدم نستطيع أن نصدر حكمنا الآن، من أنه لا معنى أبداً للقول بأن هناك تكراراً في القصص القرآني، بل إن كل قصة جاءت فريدة فيما تقصده وتهدف إليه، وما مثل القائلين بالتكرار إلا كمثل الذي يزعم أن اليد في الإنسان كررت، وأن أصابع اليد الخمسة إنما هي إصبع واحد، وصدق الله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف:٥٤] والحق أن موضوع القصة موضوع ثري بالقيم غنيّ بما فيه من براهين على الإعجاز القرآني. والإطالة ربما تخرجنا عن قصدنا، لذلك نرجو أن يكون ما ذكرناه وافياً بما أردناه[2]، ولله الحمد في الأولى والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج٣، ص٢٥-٢٨.

(٢) وقد فصلنا القول في كتابنا: قصص القرآن، صدق حدث، وسمو هدف إرهاف حس تهذيب نفس.

المبحث الثالث

جانب الألفاظ

ذلك الذي قلناه في موضع التكرار من قبل، كان الحديث فيه عن الموضوعات القرآنية (آيات العقيدة والقصص) ولكن هناك موضعاً آخر ادُّعي فيه التكرار، ونعني به ما جاء في كتاب الله تعالى من جمل أو آيات، ذكرت فيه أكثر من مرة، في مواضع متفرقة سواء كان ذلك في سورة واحدة من القرآن، أم في سور متعددة. ونحن حينما نكتب هذه الفصول لا نكتبها دفاعاً عن القرآن لنرد على الحاقدين من أصحاب الشبهات فحسب، فالقرآن لا ريب فيه، وإنما نكتبه نهدف أول ما نهدف -ونحن فرحون سعداء- أن يعلم ذوو الغيرة على هذا القرآن، روعة الإعجاز ومواطن الإيجاز، فيعتز بذلك الكتاب أيما إعزاز. وسنحاول ألا نقتصر على ما ذكروه مما اشتهر، كالذي جاء في سورة الرحمن وهو قوله سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات، بل سنحاول أن نذكر ما يفتح الله به لنا، ونحن نتتبع آي الذكر الحكيم، لأننا كما قلت: لن نقف موقف المدافعين، لكننا ننبه العقول لمواطن الحجج، لنقيها كل غفلة ولجج، ونشوق النفوس ونحن ننتقل بها في روضات الجنات للآيات المحكمات:

في سورة البقرة:

١- فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة:١٨]، وقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة:١٧١]، ذكرت الآية الأولى في سياق الحديث عن المنافقين بعد قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، وذكرت الثانية في سياق الحديث عن الكافرين ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾. ومن أجل ذلك ختمت الأولى بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ ﴾،

والثانية بقوله سبحانه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، لأن كلاً من الجملتين يتسق ويتناسب مع الآية التي ذكرت فيها. وهكذا نجد أن كل واحدة ذكرت في سياق خاص، وهذا أبعد ما يكون عن التكرار.

٢- ومن ذلك ما جاء في قصة آدم في السورة نفسها ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٦-٣٨].

فمع ما يوجد من اختلاف في اللفظ بين الآيتين، أعني قوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ﴾ وقوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، فإن الأمر بالهبوط هنا ذكر مرتين، ولكن كل واحد منهما يختلف عن الآخر، فالأمر الأول ترتبت عليه عداوة بعضهم لبعض، أي: عداوة إبليس لآدم وبنيه. أما الأمر الثاني فلقد ترتب عليه شيء آخر، وهو ما سيختبرون به ويبتلون، من اتباع هدى الله أو الإعراض عن هذا الهدى. لكل من الآيتين -إذن- هدف وغاية، وهذا ما يتنافى مع التكرار تنافياً تاماً.

٣- في سورة البقرة هذه الآية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة:١٣٤، ١٤١] ذكرت هذه الآية مرتين، الأولى بعد الحديث عن بناء الكعبة ودعاء إسماعيل وإبراهيم عليهما وعلى نبينا صلوات الله وسلامه، ووصية كل من إبراهيم ويعقوب لبنيه بالتوحيد والإسلام لله رب العالمين. وذكرت الثانية بعد ادّعاء أهل الكتاب أنهم هم المهتدون، وطلبهم من المسلمين أن يكونوا مثلهم، وادّعاؤهم أن إبراهيم وبنيه كانوا هوداً أو نصارى، ومحاجتهم في ذلك.

الآية الأولى إذن كما يظهر لنا -والله أعلم بأسرار كتابه- ذكرت لإرشاد المسلمين كي يواصلوا المسيرة، فاتحين القلوب والبلاد باسم الله، ما دام الله قد

شرفهم بأبوة إبراهيم وإسماعيل، وبهذا النبي العظيم دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٩]، وجاءت الآية الثانية لتقيم الحجة على أهل الكتاب الذين هم في عهد الرسول ﷺ، بأن الله لن يسألهم عن إعراض آبائهم وتوليهم، وجحدهم لنعم الله، وتحريفهم لآياته إذا آمنوا بمثل ما آمنتم به أيها المؤمنون.

وإن المتدبر لسياق الآيات يمكنه أن يلمح ذلك ويستنتجه، وهكذا نجد أن كلتا الآيتين لها موضوعها الذي يقتضي وجودها. فلم تذكر الثانية تأكيداً للأولى، كي تدخل في باب التكرار.

٤- في شأن تحويل القبلة جاءت هذه العبارات القرآنية الكريمة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة:١٤٤] وبعد هذه الآية الكريمة يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة:١٤٩-١٥٠].

هذه الآيات الكريمة حينما يقرؤها القارئ، يجد أن الأمر بتولية الوجه شطر المسجد الحرام قد ذكر أكثر من مرة، فيذهب الكثيرون إلى أن ذلك للتأكيد.

ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن الآيات الكريمة لم تذكر للتأكيد فحسب، وإنما كان لكل واحدة منها غرضها الذي تؤديه، وغايتها التي تقصد إليها. فنحن نعلم خطورة قضية القبلة، من حيث إنها جاءت تلبية لرغبة النبي ﷺ، ومن حيث ما فيها من استقلال شخصية المسلمين حتى في عبادتهم، ولقد كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أول نسخ في الإسلام، لذا وجدنا هذه العناية في شأن هذا التحويل، ومع ذلك كان لكل آية مغزى خاص بها:

فالآية الأولى جاءت تبين للنبي والمؤمنين، أن هذه هي القبلة التي تمنيتموها ورغبتم فيها -وقد علم الله ذلك منكم- أجابكم الله لما طلبتم. وأما الآية الثانية فلقد كان الأمر فيها لبيان قضية أخرى، وهي أن هذه القبلة التي أمركم الله أن تتحولوا إليها، لن تنسخ أبداً وهي القبلة الباقية. وأما الآية الثالثة فجاءت تبين أن الهدف من هذا الأمر بالتحول إلى هذه القبلة، من أجل أن تقطعوا دابر كل قول فلا يبقى للناس عليكم حجة.

هكذا إذن نجد أن أمر التكرار لا يستقيم مع غاية الآيات الكريمة، وإنما اخترنا ذلك القول، وعللنا كل أمر بما يناسبه أخذاً من الآيات نفسها، فالأمر الأول بالتولية شطر المسجد الحرام جاء عقب قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾. وأما الأمر الثاني فقد جاء بعده قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ﴾، ومعنى هذه الجملة الكريمة أنه حق ثابت لن ينسخ أبداً. أما الآية الثالثة فالأمر فيها ظاهر، فلقد ذكر عقبها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾.

٥- في آيات الصيام ذكر قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة:١٨٤-١٨٥].

فهاتان الجملتان من كتاب الله مع ما بينهما من فرق باللفظ، حيث جاءت الأولى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، وجاءت الثانية ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ وذلك لغاية بيانية دالة بحق على سر من أسرار إعجاز هذا الكتاب

الخالد. ومع أن بحثنا لا يتعلق بها، لكن لا بأس أن نذكرها ليستيقن المنصفون من غير المسلمين، وبخاصة من أهل الكتاب، أن القرآن بعيد عن الحشو والزيادة والإطناب، ونذكرها كذلك ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ولكن بعد أن نأتي على المقصود من بحثنا وهي قضية التكرار.

فالجملة الأولى ذكرت بعد قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ وذكر بعدها قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾، والراجح عند جمهرة العلماء وأئمة التفسير أن هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ وإذا عرفنا هذا ندرك بُعد القول بالتكرار. وإليك أيها القارئ الكريم بيان ذلك: قوله سبحانه: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ذكر فيه أكثر من حكم:

١- القضاء للمريض والمسافر.

٢- التخيير بين الصيام والفدية.

٣- خيرية الصيام وتفضيله على الإطعام.

وجاءت الآية الثانية تنسخ هذا الحكم، فتوجب الصيام على كل من شهد الشهر، فلا يجوز له أن يطعم ويفطر، وإذاً فمن البدهي أن يكون هذا التساؤل: ترى هل هذا الحكم وحده هو الذي نسخ من الآية السابقة؟ أم أن حكم المريض والمسافر كذلك قد نسخ، فلا يجوز لهما الإفطار مطلقاً، وإن جاز فما البديل الذي يفعلانه؟ فجاءت الآية الكريمة لتجيب على هذه التساؤلات الضرورية، وهو أن حكم المريض والمسافر في حال وجوب الصيام لم يتغير ولو أن هذه الجملة الكريمة لم تذكر لكان ذلك نقصاً في البيان يجل عنه القرآن ولكان موضع تساؤلات، بل موضع خلاف فيما بعد. كل من الجملتين، إذن ذكرت لا للتأكيد ولكن لتقرر كلّ حكماً خاصاً.

بقي أن نجيب على التساؤل المتعلق بذكر كلمة ﴿مِنكُم﴾ في الجملة الأولى، وعدم ذكرها في الثانية، فقد عرفنا أن الآية الأولى منسوخة، فالخطاب فيها للمؤمنين الذين نزل القرآن فيهم، أما الجملة الثانية فإن الخطاب يتناول أولئك الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وغيرهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإذا كان الأمر كذلك لا يجوز أن تذكر كلمة (منكم) في الآية الثانية، لأنها ليست للصحابة رضي الله عنهم وحدهم، وإنما للمؤمنين بعامة هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن كلمة ﴿مِنكُم﴾ ذكرت قبل هذه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ﴾ فلا داعي لتكرارها هنا، أما في الآية الأولى فلم يسبق لها ذكر.

في سورة آل عمران:

٦- في سورة آل عمران ذكرت هذه العبارة الكريمة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ مرتين متجاورتين:

أولاً: في قوله سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران:٢٨].

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران:٣٠].

والناظر في السياق القرآني، يجد أن كلاً من التحذيرين جاء عقب قضية خطيرة مهمة. جاء الأول بعد نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء، وهي قضية عنى بها القرآن الكريم بعامة، وعنيت بها سورة آل عمران بخاصة، وما أصاب المسلمين اليوم من ضعف وخور وهزال ليس إلا بسبب هذه الموالاة. وجاء الآخر

في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة، فالتحذير الأول يترتب عليه العذاب الدنيوي من تفرق وتمزق وذلة ومسكنة، أما التحذير الثاني فيترتب عليه العذاب الأخروي ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر:٢٦].

في سورة النساء:

٧- في سورة النساء ذكرت هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨] ثم ذكرت في السورة نفسها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النساء:١١٦-١١٨] ويظن الذين لا معرفة لهم بالسياق القرآني، أن الآية قد كررت، ولكن الذي ينعم النظر يدرك إدراكاً لا يتطرق إليه الريب أن لا تكرار، بل إن كل آية من الآيتين، جاءت تتحدث عن أمر خاص بها.

فالآية الأولى جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، يدلنا على ذلك ما ذكر قبلها وما جاء بعدها. ولنستمع لذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء:٤٧-٥٥]. ولا يشك أحد في أن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن أهل الكتاب واليهود بخاصة.

أما الآية الثانية، فقد ذكر بعدها قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء:١١٩-١٢١]. ومن البدهي أن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن مشركي العرب.

الآية الأولى إذن تتحدث عن أهل الكتاب، ويبين القرآن الكريم أنهم مشركون، وقد وجدنا من العلماء من يتحاشى أن يصفهم بالشرك(١). أما الآية الثانية فجاءت تتحدث عن الوثنيين من العرب، ولذا ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ وختمت الآية الثانية بقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾، ذلك لأن أهل الكتاب افتروا إثماً حينما غيروا ما أكرمهم الله به من الشرائع، ولا كذلك مشركو العرب، وقد أشار العلماء من قبل إلى هاتين الآيتين(٢).

٨- وفي السورة نفسها وعقب كل موضع من الموضعين اللذين ذكرناهما من قبل أعني ما يختص بأهل الكتاب وما يختص بمشركي العرب، ذكرت هذه الآية

---

(١) انظر كتابنا: اتجاهات في التفسير ومناهج المفسرين.

(٢) انظر: جلال الدين عبدالرحمن بن الكمال بن أبي بكر السيوطي، وُلد سنة (٨٤٩هـ) نشأ يتيماً وحفظ القرآن صغيراً، أخذ عن الشيخ محيي الدين الكافيجي، التفسير والأصول والعربية والمعاني، رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث والفقه والنحو، والمعاني والبديع والبيان، توفي سنة ٩١١هـ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٥م، ج٣، ص٣٥١.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء:٥٧].

فقد ذكرت هذه الآية بعد الحديث عن أهل الكتاب، وبالتحديد بعد قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء:٥٥-٥٦].

أما الآية الثانية فقد ذكرت عقب قوله تعالى في النص السابق الذي تحدث عن مشركي العرب ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء:١٢١-١٢٢] وليس ثمة تكرار، لأن الآية الأولى جاءت تبين لأهل الكتاب إنْ هم آمنوا وعملوا الصالحات، إيماناً خالصاً من كل شائبة، فإن لهم جنات. والآية الثانية جاءت تعد الوثنيين من العرب كذلك بهذه الجنات، إنْ حسن إيمانهم، ذلك لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبلَه سواء كان -أي الذي قبل الإيمان- افتراءً أم ضلالاً.

في سورة المائدة:

٩- أ- وفي سورة المائدة جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة:٤٤]، ب- ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥]، ج- ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧].

جاءت خاتمة لآيات ثلاث متتابعة، ولا يظنن ظان أن هناك تكراراً في هذه الجمل الثلاث، فالتكرار منتفٍ من جهتين اثنتين:

أما أولاً: فلأن كل جملة جاءت تتحدث عن غير ما تتحدث عنه الأخرى، إذ تتحدث الأولى عن المسلمين، والثانية عن اليهود، والثالثة عن النصارى.

ثانياً: كل آية ختمت بما لم تختم به الأخرى كما رأينا.

آيات متفرفات:

١٠- هناك آيات ذكرت في تقرير سعة ملك الله تعالى، أو بيان صفاته وذلك كقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حيث ذكرت أكثر من مرة في كل من آل عمران [الآيات:١٠٩، ١٢٩، ١٢٦] والنساء [الآيات:١٣١، ١٣٢] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ حيث ذكرت مرتين في سورة الأنعام [الآيات:١٨، ٦١]. وكل واحدة من الآيات الكريمة، جاءت بعد وعيد خاص يتطلبه المقام، ويقتضيه السياق.

١١- في سورة المائدة ذكرت هذه الجملة الكريمة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢] ثم ذكرت بعد عدة آيات وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، فإذا عرفنا أن الآية الأولى جاءت تتحدث عن الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام وهم أهل مكة، وجاءت الثانية تأمر المسلمين بالعدل: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ ويدخل فيها أول ما يدخل أهل الكتاب، أدركنا أن كلاً من الجملتين الكريمتين جاءت في شأن فئة من الناس، وأدركنا كذلك أن إحداهما لا تغني عن الأخرى.

في سورة الأنفال:

١٢- في سورة الأنفال ذكر قوله تعالى بعد الحديث عن أحداث بدر، عندما خرج المشركون بطراً ورئاء الناس ليصدوا عن سبيل الله، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وأني جار لكم، وحينما تراءت الفئتان

وتلاقى الجمعان، ولى مدحوراً ونكص على عقبيه، وقال ما قال. أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا قولتهم الشنيعة: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال:٤٩]، وهي قولة سجلت في القرآن الكريم أكثر من مرة كما سنذكر ذلك إن شاء الله ونذكر السبب في ذلك... بعد ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال:٥٠-٥٤].

من هذا النص الكريم نجد أن قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ ذكر مرتان، أخبر عنهم بأنهم كفروا بآيات الله في الآية الأولى [٥٢]، وكذبوا بآيات ربهم في الآية الثانية [٥٤]، ولزيادة التوضيح نقرر ما يلي:

ذكرت الآية الأولى عقب الحديث عن أهل مكة الذين خرجوا إلى بدر بطراً ورئاء الناس، يصدون عن سبيله. وقد زين لهم الشيطان أعمالهم، وهم يشبهون من هذه الحيثية آل فرعون، فلقد خرجوا بطراً ورئاء الناس كذلك، للقضاء على موسى ومن آمن معه، وزين لهم شيطانهم -فرعون- أعمالهم. وهذا ما حدثنا عنه القرآن الكريم ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء:٥٣-٥٦]، لقد كفرت قريش بآيات الله كما كفر فرعون وآله، فأخذهم الله القوي الشديد العقاب.

أما الآية الثانية فقد ذكرت عقب سنّة من سنن الله تبارك وتعالى في هذا الكون وهذه الحياة، وهو أنه سبحانه إذا أنعم على قوم نعمة ما، فإنه لا يغيرها، بل

يضاعفها وينميها إن شكروا، لكنهم إن جحدوها وغيّروا ما بأنفسهم، استحقوا العقاب، لأنهم بدلوا نعمة الله كفراً، وقريش من هذه الحيثية تشبه آل فرعون، فكما أنعم الله على فرعون بالجنات والعيون والأوتاد، فقد أنعم على قريش كذلك بالحرم الآمن، والناس يتخطفون من حولهم، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ورزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون، ولكن كلا الفريقين غيروا نعم الله، فذكرت هذه الآية مرة ثانية.

بقي أن يقال إنه قد جرت عادة القرآن الكريم حينما يكون المقام مقام هيبة وإجلال وإخافة أن يذكر لفظ الجلالة (الله) فإذا كان المقام مقام إنعام وتربية وتفضل، ذكر اسم الرب. فإذا عرفنا هذا، وعرفنا أن الآية الأولى ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ذكرت عقب مصرع أهل بدر الذين أبوا إلا الجحود. وعرفنا أن الآية الثانية ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ ذكرت بعد سنّة من سنن الله تعالى في هذا الكون، وهي أنه لا يغيّر نِعَمه التي خصّ بها بعض الناس إلا إذا غيروا ما بأنفسهم وكفروا بأنعم الله.

إذا عرفنا ذلك كله ندرك أن كلاً من الآيتين الكريمتين جاءت تقرر حقيقة، وتتحدث عن سنّة من سنن الله، مما هو بعيد كل البعد عن شبهة التكرار ودعوى التأكيد.

١٣- وفي سور الأنفال نفسها ذكرت هذه الآية ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢٢] ثم ذكر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنفال:٥٥-٥٦] ويقيننا أن الأمر في هاتين الآيتين الكريمتين ظاهر لا يحتاج إلى بيان، لأن الآية الأولى جاءت في شأن الذين أعرضوا عن الحق، فأبوا أن يستمعوا له وينطقوا به. وجاءت الثاني حديثاً عن الذين أبوا الإيمان ونقضوا العهد. فالآية الأولى تتحدث عن الكافرين قبل أن تكون هناك معاهدات

بينهم وبين النبي ﷺ ، وليست كذلك الآية الثانية، فهي تتحدث عن الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، وذلك ما يرشد إليه السياق، لذا جاء في الآية الأولى ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ في الآية الثانية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

١٤- في سورة الأنفال ذكر قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال:٤٩] وفي سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢] ومع التغاير التام بين الآيتين، إلا أنه قد يشتبه على بعض الناس وجود التكرار من حيث المعنى. ولأولئك نقول: كانتا قولتين مختلفتين زماناً، كانت الأولى يوم بدر وكانت الثانية يوم الأحزاب، وقد ذكرهما القرآن لينبه المسلمين لما يقوله خصومهم أعداء الإسلام، ونحن نجد اليوم من يردد هذه القضية هزءاً أو مراءً، وبخاصة أولئك الذين تلاشت شخصيتهم وفقدوا ذاتيتهم، فزعموا أن فيصل الغلبة ليس إلا للقوة المادية فحسب، وقد كذبوا وصدق الله ورسوله، ومعاركنا التي خضناها مع عدونا خير دليل على ما قلناه، إذ لم تغن الكثرة عدداً والقوة عدداً.

انتهيت من تسجيل هذه الأسطر وإذ بصوت الحق يرتفع «الله أكبر الله أكبر» ففرحت بذلك إذ هو تصديق للحق.

١٥- وفي آخر سورة الأنفال ذكرت بعض الأحكام الخاصة بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾ [الأنفال:٧٢] ثم ذكرت بعدها آيات تتحدث عن المؤمنين من حيث ما يتحلون به من صفات، وما أُعِدَّ لهم من جزاء وأجر، وهو ما لا يحتاج إلى بيان إذ لا شبهة تكرار فيه لأحد.

في سورة التوبة:

١٦- في سورة براءة نهى الله تبارك وتعالى أن يعجب النبي أو المؤمنون بما لأعداء الله من أموال وأولاد فقد ورد قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥] فقد ذكرت الآية الكريمة مرتين مع تغاير في النظم.

أما الآية الأولى فجاءت بعد تقرير هذا الحكم، وهو أن أولئك الأعداء من المنافقين إن أنفقوا طوعاً أو كرهاً، فلن تقبل نفقاتهم، لأنهم كفروا بالله ورسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون، وأما الآية الثانية فقد جاءت تثبيتاً للنبي ﷺ وللمؤمنين بعد صدور هذا الحكم الرباني القاطع، وهو حرمانهم من شرف الجهاد ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة:٨٣-٨٦].

فقد جاءت الآية الكريمة إذن تعقيباً على هذا الحكم، كأنه يقول لهم لا يهولنكم هذا الحكم، فإن الذي أغناكم عنهم في خروجهم معكم للجهاد، هو الذي يغنيكم عن أموالهم وأولادهم كذلك.

آيات متعددة:

١٧- تذكر بعض الجمل في السورة أو سور متفرقة، كما نجد ذلك في سورة يونس ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [يونس:٥٥]، وفي السورة نفسها ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [يونس:٦٦]، وكما في سورة النور ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ

﴿ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ [النور:٣٤]، وقوله: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ [النور:٤٦] وغير ذلك مما لا يمكننا حصره ومثل هذا، لا يعد من التكرار، لأن التشابه إنما جاء في جزء من الآية. وأقول التشابه لا التماثل، لأن هناك تغايراً في الجزءين -كما رأينا- في الأمثلة السابقة، ومع ذلك فلكل معناه الخاص به، فإن كان هناك تماثل في بعض الأجزاء، فسنجد أن السياق مختلف وأن كلاً من الجملتين المتماثلتين جاءت ليحمل عليها ما لا يحمل على الأخرى.

نأخذ لذلك مثلاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ ذكرت في سورتين من عرائس القرآن «الحواميم» إحداهما في سورة (فصلت) وقد ذكر عقبها ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [فصلت:٣٠-٣١] إلى آخر ما قاله الملائكة من قول طيب لأولئك. والثانية في سورة الأحقاف وذكر عقبها ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤]، وقوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت:٨]، وفي آية أخرى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأحقاف:١٥] ونجد في آية ثالثة ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:١٤]، أو ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف:١٥]. كل ذلك بعيد بالطبع أن يتوهم متوهم بوجود التكرار فيه.

ومن هذا القبيل ما جاء في سورة المائدة ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة:١٧] وفي السورة نفسها ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:٧٢] وما جاء في سورة الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾

[الأعراف:٥٤]، وما جاء في سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس:٣].

وما جاء في سورة الأنعام ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:١١] وفي سورة النمل ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٩] وفي سورة العنكبوت: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [العنكبوت:٢٠]، ولا شك أن لكل من الآيات الثلاث معنى لا يشاركها غيرها فيه، فالآية الأولى التي جاء العطف فيها بـ (ثم) تطلب من الناس أن يسيروا من أجل أعمالهم وتجاراتهم وتعليمهم، وليكن مع هذه الأغراض النظر، ليعرفوا أحوال الأمم وطبائع الأشياء. وأما الآيتان الثانية والثالثة فتطلبان أن يكون هذا السير من أجل النظر فحسب، إلا أن الغاية من هذا النظر مختلفة فهي التعرف على أحوال الماضين في الآية الثانية، والتعرف على آثار القدرة الإلهية في الأرض في الآية الثالثة.

وشبيه بهذا ما جاء في أكثر من سورة من قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾ [الروم:٩، فاطر:٤٤، غافر:٢١] وفي آية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾ [يوسف:١٠٩، الحج:٤٦، غافر:٨٢، محمد:١٠] ذكرت هذه الآيات في آخر سورة يوسف وفي أوائل سورة الروم وفي أواخر سورة فاطر، وذكرت مرتين في سورة غافر في أولها وفي آخرها ومرة في سورة سيدنا محمد ﷺ والسياق لكل آية ونظمها الخاص بها يتكفلان بما ترشد إليه كل آية.

ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [العنكبوت:٢٢] وفي آية ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٣١] دون ذكر السماء، ومثل ذلك لا يمكننا أن نستقصيه هنا، لكن الذي نودّ أن نقرره ونحن مطمئنون كل الاطمئنان، واثقون مما نقوله كل الثقة، من أن أي آية ذكرت أكثر من مرة في سورة،

أو أكثر من ذلك، وأن أي جملة ذكرت في أكثر من آية في سورة أو أكثر من ذلك، لها رسالتها الخاصة بها، وغايتها المنشودة منها، وغرضها الذي تؤديه تنسيقاً وإيقاعاً، وروعة وإبداعاً.

في سورة الشعراء:

١٨- في سورة الشعراء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨-٩] ذكرت ثماني مرات، وكانت كل مرة تذكر عقب قوم من الأقوام الذين كذبوا، ابتداءً من الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ، فقوم موسى وإبراهيم -عليهما السلام-، وبعد ذكر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، فكان لها ما يحتمها في كل موضع.

في سورة الرحمن:

١٩- في سورة الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ذكرت إحدى وثلاثين مرة.

يقول القاضي عبدالجبار الأسد آبادي(١): «قال أبو طي: فأما ما يكون في سورة الرحمن قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فليس بتكرار، لأنه ذَكَرَ نِعَماً بعد نِعَمٍ، وعَقَّبَ كلَّ نعمة من ذلك بهذا القول، فكأنه قال: فبأي آلاء ربكما التي ذكرتها تكذبان، وإنما عنى بالتثنية الجن والإنس، ثم أجرى الخطاب على هذا الحد، في نعمة نعمة، وعنى بكل قول غير ما عناه بالقول الأول، وإن كان اللفظ متماثلاً، وهذا كقول القائل، لمن ينهاه عن قتل المسلم وظلمه، ويزجره عن ذلك: أتقتل زيداً وأنت تعرف فضله! أتقتل عَمْراً وأنت تعرف صلاحه! ويكرر ذلك فيكون حسناً

---

(١) عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني الأسد آبادي أبو الحسين (ت٤١٥هـ/ ١٠٢٥م) قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره وهم يلقبونه قاضي القضاة بالري، ومات فيها، من مؤلفاته «تنزيه القرآن عن المطاعن» و«الأمالي» و«المجموع في المحيط بالتعليق».

ولا يُعَدّ تكراراً، ولو أن أحدنا عَظُمَتْ نِعَمُه على ولده، ورآه آخذاً في طريق العقوق، لحسن أن يقبل عليه فيقول: أتغضبني في كذا، وقد أنعمت عليك! أتغضبني في كذا وقد أنعمت عليك! أتغضبني في كذا وقد أنعمت عليك، فيكون تكرارُ ذلك أبلغ في المراد، حتى لو حذفه لنقص الغرض في هذا الباب ولم يكن بمنزلته»[1].

في سورة المرسلات:

٢٠- في سورة المرسلات وردت هذه الآية الكريمة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في مواضع متعددة، لكننا حينما نتأمل السورة الكريمة، والآيات التي جاءت عقبها هذه الآية، فإننا نقرر موقنين ونوقن مقررين، أن لا تكرار ألبتة، اللهم إلا إذا كانت أصابع يدي الإنسان العشرة جاءت مكررة. وإليك البيان أيها القارئ -علمك الله وإياي-.

جاءت الآية الأولى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعد ذكر مشهد من المشاهد التي ستحدث لهذا الكون إيذاناً بمجيء يوم الفصل ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات:٨-١٥] وجاءت الثانية عقب التنبيه والإشارة لهذا التقرير التاريخي عن شؤون الأمم السابقة ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسلات:١٦-١٩].

أما الآية الثالثة فقد ذكرت بعد هذا التقرير الرائع، والإلزام القاطع لهذا الإنسان بالحجة، وهي تحدثه عن خلقه، بل عن المراحل الأولى من هذا الخلق، وما حفّه الله به من عناية ورعاية ما كان ليوجد لولاهما، سواء كان ذلك من حيث ما

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل، إعجاز القرآن، قَوَّمَ نصه أمين الخلوي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، الطبعة الأولى، شعبان، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، مطبعة دار الكتب، ج١٦، ص٣٩٨-٣٩٩.

للأب أم للأم، من حيث الماء أم القرار ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المرسلات:٢٠-٢٤]، أما الآية الرابعة فقد ذكرت بعد أن من الله على هذا الإنسان، فهيأ له هذه الأرض لتكون صالحة للحياة، بأن هيأ له ما لا بد منه لاستمرار هذه الحياة إلى أن يشاء الله، ذلك أن خلق الإنسان لا يؤدي إلى النتائج المرجوة منه إذا لم تتوافر له العوامل التي تهيئ له البقاء، وصدق الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة:٧] ومن هنا نجد أن الله تبارك وتعالى لا يذكر نعمة الخلق، إلا ويذكر نعمة ما معها لا يستمر الخلق بدونها، لذلك ذكرت هذه الآيات بعد آيات خلق الإنسان التي قرأناها ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات:٢٥-٢٨].

وبعد هذه الإشارات التاريخية والنفسية والكونية، التي لا يسوغ لأحد أن ينكرها، أقول بعد هذه التوطئة الضرورية رجعت الآيات الكريمة تذكرنا بالغاية، تنبه المكذبين إلى عاقبة أمرهم الوخيمة ووبال ما سيحيق بهم، فتجيء الآية الخامسة بعد هذا المشهد المروع، وبالطبع فهو يختلف كما سنرى عن المشهد الأول اختلافاً تاماً. ولنقرأ ولنستمع ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسلات:٢٩-٣٤].

أما الآية السادسة، فإنها تأتي بعد بيان ما يلقاه أولئك المكذبون من حرج، وما يشعرون به من ضيق، حيث يختم على أفواههم فلا يستطيعون النطق، ويسلبون القدرة على الاعتذار عن قبيح ما فعلوه، وبخاصة عن هذا التكذيب الذي كذبوه. وأما الآية السابعة فإنها تذكر بعد الحديث عن يوم الفصل الذي جمع فيه الخلائق، وبعد أن يمكنوا من النطق ويرخى لهم العنان، ليوقنوا أن ما أصابهم إنما هو بأيديهم،

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩]، نقرأ ذلك كله فيما يلي ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المرسلات:٣٥-٤٠].

أما الآية الثامنة فقد ذكرت بعد ما أعد الله للمتقين، ومن سنّة القرآن أنه حينما يذكر فريقاً يذكر الفريق الآخر، ترهيباً وترغيباً، ووعداً ووعيداً، نقرأ ذلك في هذه الآية ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المرسلات:٤١-٤٥]. أما الآية التاسعة والعاشرة، فتأتيان تبكيتاً للمجرمين بعد خطابهم كما خوطب المؤمنون، وبعد توبيخهم على عدم الاستجابة لرسل الله والامتناع عن عبادة الله المنعم ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المرسلات:٤٦-٥٠] صدق الله العظيم.

تلك هي السورة الكريمة في نظمها المحكم وإحكامها المنظم، أفتجد بعد ذلك أيها القارئ موطن تكرار؟ أفتشعر بعد هذا السرد بتكرار موطن في السورة الكريمة؟ ما أظن إلا أنك معي بأن لكل آية موطنها الذي يختلف جغرافياً وتاريخاً عن موطن الآية الأخرى، يا للروعة في الإبداع!! ويا للإبداع في الصنعة البيانية!! ويا للبيان يأخذ بالألباب. وصدق الله.

في سورة النبأ والتكاثر:

جاء في سورة النبأ: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [النبأ:١-٥].

وفي سورة التكاثر: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [التكاثر:١-٤].

ويذهب الكثيرون إلى أن هذا تكرار للتأكيد[1] والذي يلوح لي بعد وقفة مع الآيات الكريمة، أن الأمر ليس من قبيل التأكيد، وبالتالي فليس من قبيل التكرار، وأرجو أن لا يدور بخلدك أيها القارئ بأنني أنكر أسلوب التأكيد، فلا تظنن هذا الظن بي، فالتأكيد من الأساليب التي لا تنكرها العربية، بل قد تكون له مواضعه ومواقعه التي يزدان بها الكلام ويحكم بها المعنى. ولكن الذي أزعمه هنا، أن ما في الآيات الكريمة ليس من قبيل التأكيد، واللغويون يقررون أنه إذا أمكن حمل الكلام على التأسيس، كان ذلك لا شك أولى من التأكيد، ونوقن أن الكلام هنا يمكن أن يحمل على التأسيس، بل نجد ذلك هو الأوفق بالسياق والألصق بالمعنى.

جاءت كل من الآيتين في السورتين الكريمتين في سورة النبأ والتكاثر معطوفة بـ (ثم)، و(ثم) كما نعلم للتراخي، وقد يكون هذا التراخي زمانياً أو رتبياً، وإذا كان ذلك كذلك فليس مما يتقبله الفكر والنفس أن نعدّ جملتين عطفت إحداهما بحرف التراخي، أن نعدّهما شيئاً واحداً، بل الظاهر أن هناك ردعاً وتهديداً يُفهم من كل جملة على حدة، أحدهما أشد من الآخر. وهذا ما أشار إليه الزمخشري عند تفسير سورة النبأ[2]. ولكنه رحمه الله عند تفسير سورة التكاثر[3] ذكر أن ذلك من قبيل التأكيد، مع أن الردع الثاني أشد من الأول.

أما الآلوسي[4] رحمه الله فقد نقل في تفسير روح المعاني[5] هذا القول ولكنه نقل عن سيدنا علي -كرّم الله وجهه- ما ينافي كونه للتأكيد، وهو أن الردع الأول في

---

(١) عبدالكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٢٣٩.

(٢) الكشاف، ج٤، ص٦٨٤.

(٣) الكشاف، ج٤، ص٧٩٢.

(٤) محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي شهاب الدين أبو الثناء (١٢١٧-١٢٧٠هـ/ ١٨٠٢-١٨٥٤م) مفسر، محدث، أديب لغوي، نحوي مشارك في بعض العلوم تقلد الإفتاء في بغداد وسافر إلى الموصل فالقسطنطينية وأكرمه السلطان عبدالمجيد وعاد إلى بغداد من تصانيفه، روح المعاني، كشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص للحريري، معجم المؤلفين، ج١٢، ص١٧٦.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج٣، ص٢٢٤.

القبور ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [التكاثر:٣] والثاني في النشور، أي: يوم القيامة. وما نظن الأمر يحتمل هذا الخلاف كله، وما نظن هذا الخلاف كذلك إلا نتيجة لقواعد النحويين، فابن مالك رحمه الله صاحب الألفية يرى أن الجملة الثانية للتأكيد على نية إسقاط حرف العطف، ولا أدري كيف نجيز أن نسقط حرفاً أو نعدّه كذلك، وقد ذكر في الكتاب الكريم، ولو كان الأمر كذلك، ولو كان هذا الحرف لا يؤدي معنى لما ذكره الله تبارك وتعالى، وكان يمكن أن يحذف عن الموضوعين، فيقال في الموضع الأول «كلا سيعلمون كلا سيعملون» ويقال في الموضع الثاني «كلا سوف تعلمون كلا سوف تعلمون».

والذي أطمئن له أن لا تكرار، وأن ثم يمكن أن تكون للتراخي الرتبي، وهو أن الوعيد الثاني أقسى وأشد وأنكى من الأول، ويمكن أن يكون للتراخي الزمني، أي أن زمن الردعين مختلف، وبخاصة إذا ثبت عن سيدنا علي ما نقل عنه الآلوسي في تفسير آية التكاثر.

سورة الكافرون:

٢٢- ومن أقوى ما تمسك به القائلون بالتكرار سورة الكافرون ومن الخير المفيد أن نتدبر السورة حتى نستطيع أن نناقش من قال ونعي ما قيل ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون:١-٦] السورة الكريمة عدا البسملة ست آيات، إحداها خطاب للنبي ﷺ فيه نداء للكافرين، وهي ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ وآخر آية حكم ونتيجة وهي: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾، وما بين هاتين الآيتين آيات أربع، يمكن أن نقسمها من حيث المعنى إلى مجموعتين، المجموعة الأولى ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ و﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ ﴾، فالآيتان الكريمتان تشيران إلى أن الرسول ﷺ لا يعبد ما يعبده الكافرون.

والمجموعة الثانية ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ وهي الآية الثالثة عدا البسملة، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ وهي الآية الخامسة، وهما تنفيان عبادة المشركين لما يعبد الرسول ﷺ.

والذين ذهبوا إلى التكرار قالوا: إنه للتأكيد، وممن ذهب إلى هذا القول ودافع عنه بقوة، واستدل له بأقوال العرب وبما جاء من أشعارهم الفراء، ولكن الجمهور من العلماء ذهب إلى غير هذا، ذهبوا إلى عدم التكرار في السورة الكريمة، وهؤلاء اختلفوا فيما بينهم في تفسير الآيات تفسيراً يبعد القول بالتكرار.

ولا أود أن أقحمك أيها القارئ الكريم في كل ما ذكروه، فأدخلك في متاهات قد يصعب عليك الخروج منها، وتمييز بعضها عن بعض، ولكنا نود أن نسلك بك إن شاء الله تعالى مسلكاً لا وعورة فيه، غير حزن ولا متعرج، وجميل بنا أن نعرف السياق الذي جاءت الآيات الكريمة فيه، والسبب الذي نزلت من أجله.

فقد ذكر ابن جرير رحمه الله وغيره أن المشركين ومنهم الوليد بن المغيرة طلبوا من النبي ﷺ أن يهادنهم، أن يعبد آلهتهم ويعبدوا إلهه فأبى عليهم النبي ﷺ ذلك، ونزلت السورة الكريمة، وعلى هذا فإن ما نرجحه في تفسير الآيات الكريمة ونستأنس له بقول الحذاق الجهابذة من العلماء، من عدم التكرار في السور الكريمة ما يلي وبالله التوفيق:

قال لهم النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ أي لا يمكن أن أعبد في مستقبل الأيام معبوداتكم الفاسدة، كيف وقد أكرمني الله بالنبوة وهداني الصراط المستقيم؟ وأنتم تعلمون أنه قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فكيف ترجون مني أن أعبدها اليوم أو أعبدها فيما بعد؟ أما أنتم فلا يمكن أن تعبدوا الله الذي أعبده -والسورة خطاب لقوم علم الله أنهم لا يؤمنون- وبخاصة بعد أن استحكم بيني وبينكم العداء، فأنتم ما عبدتم الله الذي دعوتكم لعبادته يوم أن كنتم تعدّونني فيما بينكم الصادق الأمين، وقبل أن يحدث بيني وبينكم ما يعكر الصفو.

والخلاصة: أن كل آية من المجموعتين جاءت على صورة الدعوى، وجاءت الآية الثانية على صورة الدليل، فكأن كلاً من الآيتين دعوى ودليلها، فالدعوى في المجموعة الأولى ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ أي لا يمكن أن أجيبكم إلى ما طلبتم فأعبد آلهتكم، والدليل على هذه الدعوى ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ أي قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فهل يعقل أن أعبدها الآن أو بعد الآن؟ وأما الدعوى في المجموعة الثانية هي ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي لا يمكن أن تصدقوا فتعبدوا الله الذي أعبده وقد حدث بيني وبينكم ما حدث، ودليل هذه الدعوى ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي حينما دعوتكم لأول وهلة وأنتم لم تجربوا عليّ كذباً، وعلمتم أن لا مطمع لي في شيء فلم تجيبوني، فكيف تجيبونني اليوم؟

الآيات الأربع -إذن- اثنتان منهما تشكلان الدعوى، عدم استجابة كل من الفريقين للآخر، والآيتان الأخريان كل منهما برهان على الدعوى التي تلائمها. هذا الذي يبدو لنا في فهم السورة الكريمة، راجين من الله أن نكون قد اهتدينا للصواب وراجين من الله كذلك أن نكون قد بينا لك المقام ووضحناه أيما توضيح، والله يجزي سيدنا محمداً ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

ونكتفي بما ذكرناه، والحق أن قضية التكرار تستحق كتاباً خاصاً، نرجو أن يظهر قريباً إن شاء الله.

وبعد، فإن ما نرجوه بعد هذه المسيرة المباركة في الرياض القرآنية النضرة، وقد نفحنا من عطرها، وشربنا من نميرها، وقبسنا من نورها، أقول إن ما أرجوه -وقد حاولت معالجة قضية ذات شأن وخطر، وهي قضية التكرار- أن أكون قد ألقيت الضوء- الذي يبصر به كل ذي لب- على جوانب من هذه القضية، وإن لم أكن قد وفيت فحسبي أنني حاولت ما استطعت، وهو جهد المقل، أرجو الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه والله يجزي سيدنا محمداً ﷺ عنا خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفصل الرابع عشر

الزوائد والحذف

تمهيد :

للعرب أوضاع عجيبة في لغتهم، إفراداً وتركيباً، فهم ينتقلون من معنى إلى معنى آخر بأقصر الطرق، وأيسر التكاليف، وربما كان بين المعنيين بون شاسع، قد يكون هذا الانتقال بتغيير حرف واحد، ألا ترى إلى ما بين الفصل والوصل من بعد، وكذلك الحنف الجنف، لأن الحنف إنما هو الميل إلى الحق، والجنف الميل إلى الباطل، وكذلك الفتق والرتق، فأنت ترى أن هذه المعاني المتباعدة كان الانتقال من أحدها إلى الآخر بتغيير حرف واحد.

وقد يكون هذا التغيير بواسطة حركة، لا بواسطة حرف ألا ترى إلى قولهم: هُمْزة وهُمَزة، وضُحْكَة وضُحَكَة، فهي بالسكون من يُهْمز ويُضْحك منه، ولكنها بالفتح تقال لمن يهمز الناس ويضحك منهم. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

وقد يكون التغيير التحول من معنى إلى معنى بواسطة التنوين، ألا ترى أنهم يفرقون بين قولهم: هذا مكرمٌ أخاك، ومكرمُ أخيك، فيجعلون الثاني لمن وقع منه الإكرام فعلاً، وليس كذلك الأول، إلى غير ما هنالك من الأمور الدقيقة الكثيرة العجيبة الشأن في هذه اللغة الشريفة لغة القرآن الكريم.

والذي يعنينا الآن الحديث عن حروف المعاني، ونعني بها الحروف التي وضعها العرب ليؤدي كل منها معنى في الجملة التي وضع فيها، كحروف العطف والجر، ذلك لأن هذه الحروف هي التي ادعي حذفها تارة وزيادتها أخرى.

وسندرك أن دراسة هذه الحروف دراسة موضوعية ستقفنا على جانب فذ من جوانب إعجاز القرآن الكريم من جهة، ودقة هذه اللغة وأحكامها من جهة أخرى.

ونرى من الفائدة أن نخصص هذه الصفحات لشرح بعض المصطلحات التي ستمر بنا في هذا البحث، ذلك لأن للحرف أثراً كبيراً في باب المعاني، فكم من جملة تغير معناها تغيراً كلياً من جراء حركة أو حرف. ومن طريف ما قيل: إنه قيل لأحدهم: ما حاجتك؟ قال: كتاب أنظر فيه، ومحتاج أنظر له، ووجه حسن أنظر إليه. فهذه كلمة واحدة رأينا أن معناها يختلف اختلافاً كلياً باختلاف الحرف الداخل عليها، ومثل هذا الاختلاف في الجملة التي تكون فيها (إلى) أو (حتى) وكلاهما للغاية، فنقول مثلاً: سرت إلى آخر الطريق أو إلى نصفه، ونقول: سرت حتى آخر الطريق، ولا نقول: حتى نصفه.

ونقول: أكلت السمكة إلى نصفها أو إلى رأسها، ونقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولا نقول: حتى نصفها، لأن حتى إنما تكون لآخر الغاية، وليس كذلك (إلى)، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر:٥].

ومثل هذا ما نجده بين حرفين لا يفرق بينهما. كثير من الناس، وهما (أو) و(أم) فكثيراً ما يستعمل كل منهما مكان الآخر، مع أن لكل منهما مكانه الذي لا ينبغي أن يعدوه ولا يستعمل فيه غيره[1]، وسنبين لك بعض الفروق بين هذين الحرفين فتدبر وتأمل:

---

(١) انظر: الأزهية في علم الحروف، تحقيق: عبدالمعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٣٤. ومؤلف هذا الكتاب هو علي بن محمد الهروي (أبو الحسن)، ت٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، أديب، نحوي، قدم مصر واستوطنها، وروى عنه الأزهري، ومات في مصر من تصانيفه الذخائر في النحو في أربع مجلدات، وكتاب الأزهية، شرح فيه العوامل، ومختصر في النحو سماه المرشد.

١ - بعد كلمة سواء والاستفهام يجب أن تأتي (أم)، ولا يجوز أن تأتي (أو). قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة:٦].
وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم:٢١]، ومن هنا ندرك أن ما شاع عند كثير من الناس من استعمالهم (أو) بعد كلمة سواء خطأ ينبغي أن ننبّه إليه وأن نحذر منه.

٢ - تأتي (أم) إذا كان السؤال عن قضية تأكدت من ثبوتها، ولكن الذي تجهله تعيين من ثبت له الحكم، فإذا كنت تعرف أن ابن صديقك دخل الجامعة، ولكنك تجهل أي الكليتين دخل، أكلية الشريعة أم كلية الهندسة، إذا كنت تعرف أن صاحبك قرأ أحد كتابين هما كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الكامل للمبرّد، وإذا كنت تدرك أن أحد صديقيك جاء من السفر، ولكنك لا تعرف من هو أخالد أم سعيد.

في هذا الأمثلة جميعاً لا يجوز أن تستعمل (أو)، ويجب أن تستعمل (أم)، تقول: «أكلية الشريعة دخل أخوك أم كلية الهندسة؟»، «أكتاب الكامل قرأت أم كتاب البيان والتبيين؟»، «خالد جاء من السفر أم سعيد» والجواب على هذه الأسئلة هو تعيين من ثبت له الحكم، فتقول في الإجابة عن السؤال الأول: كلية الشريعة، وتقول في الإجابة عن السؤال الثاني: كتاب الكامل، وتقول في الإجابة عن السؤال الثالث: سعيد.

أما إذا كنت خالي الذهن ولا تعرف شيئاً عن هذه القضايا، فأنت لا تعرف أن ابن صديقك دخل إحدى الكليتين، ولكنك تعرف أن له رغبة في دخول إحداهما، ولكنك لا تدري أتحققت هذه الرغبة أم لم تتحقق، وكنت تسمع من صديقك أنه كان يريد قراءة أحد هذين الكتابين، ولكنك لا تدري أقرأ أم لم يقرأ، وكنت تسمع أن سعيداً أو خالداً سيأتي أحدهما من سفر، ولكنك لم تدر أجاء أحدهما أم لم يجئْ. أنت في هذه الحالات جميعها لا تعرف شيئاً، فيجب عليك أن تستعمل كلمة أو، ولا

يجوز استعمال كلمة أم. تقول: أكلية الشريعة دخل ولدك أو كلية الهندسة؟ أقرأت كتاب البيان والتبيين أو كتاب الكامل؟ أخالد جاء من السفر أو سعيد؟ والجواب في هذه الحالات يختلف بالطبع عن الحالات الأولى التي استعملت فيها كلمة (أم)، الجواب عن هذه الأسئلة جميعاً يكون بنعم أو لا. فإن كان دخل إحدى الكليتين: يقال: نعم، وإن لم يقرأ أحد الكتابين يقال: لا، وإن جاء أحدهما من السفر يقال: نعم.

تستعمل كلمة أم -إذن- إذا كنت تعرف الحكم ولكنك تجهل التعيين، أي تجهل ثبوت هذا الحكم لأحد المتعادلين، وتستعمل كلمة (أو) إذا كنت تجهل الحكم ألبتة، والجواب عن الحالة الأولى التي استعملت فيها (أم) يكون بتعيين من ثبت له الحكم، والجواب عن الحالة الثانية التي استعملت فيها (أو) يكون بالإيجاب أو النفي، (بنعم أو لا).

وندرك مما سبق أننا لا يجوز أن نستعمل (أم)، إذا أردنا الشك أو التخيير، ولا يجوز أن نستعمل (أو) إذا أردنا التعادل، وإليك هذه الأمثلة. تقول: «أزيد أفضل أم عمرو؟»، «آلنحو أيسر أم البلاغة؟»، «آلحديد أثقل أم الماء؟» ولا يجوز أن تستعمل (أو) في هذه الأمثلة. وتقول: «أيهما أعظم أثراً في التاريخ صلاح الدين أو نور الدين أم قطز؟» «أيهما أكثر عداء للإسلام أميركا أو بريطانيا أم الاتحاد السوفيتي؟» و«أي المستشرقين أكثر مكراً مرجليوث أو نودلكه أم جولدتسيهر؟» فأنت ترى أننا قد جئنا بـ (أو) أولاً، ثم جئنا بـ (أم) بعد ذلك، وهذا ينسجم مع القاعدة التي عرفتها من قبل.

ففي السؤال الأول نحن لا نريد المفاضلة بين صلاح الدين ونور الدين، ولا نريد أن يكون أحدهما معادلاً للآخر، وإنما نريد أن نعادل بينهما وبين قطز، فالمعادل لصلاح الدين ونور الدين هو قطز، ولهذا جيء بـ (أم) وذكر بعدها المعادل وهو قطز، ولم تذكر بين صلاح الدين ونور الدين لأننا لم نرد أن نفاضل بينهما.

وهكذا تدرك السر في الجملة الثانية، وهو أننا لم نرد أن نقارن بين أمريكا وبريطانيا من حيث العداء للإسلام فهما رأسان لأفعى واحدة، إنما نريد أن نوازن بين عدائهم وعداء الشيوعية، لذلك كان العطف بـ (أو) أولاً وبـ (أم) ثانياً، وكذلك المثال الثالث، فنحن لا نوازن من حيث المكر بين مرجليوث ونودلكه، وإنما بينهما وبين جولدتسيهر.

ثم (أم) هذه قد تكون حرف عطف، فتسمى متصلة، سواء كان ذلك بين مفردين مثل: «أجاء زيد أم عمرو»، (أم) بين جملتين هما في حكم المفرد كالآية الكريمة ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦]، أي: إنذارك وعدمه سواء.

وقد لا تكون كذلك، فتسمى المنقطعة، ولا تكون إلا بين جملتين ليستا في حكم المفرد، قال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر:٤٠].

فـ (أم) هذه ليست حرف عطف يراد منها التسوية، وإنما هي بمعنى: (بل) و(الهمزة)، كأنه انتقل عن قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى شيء أكثر منه استحالة فقال: بل ألهم شرك في السموات. وإنما أطلت في بيان هذين الحرفين لأني وجدت كثيراً من الناس يضع أحدهما مكان الآخر.

ومن الدقة اللغوية كذلك في استعمال الحروف التفرقة بين (إلى) و(اللام) في قولنا: «ما أحبَّ عُمَرَ إلى المسلمين» و«ما أحبَّ عُمَرَ للمسلمين».

ففي المثال الأول: (المسلمون) هم الذين يحبون عمر، وفي المثال الثاني: (عمر) هو الذي يحب المسلمين، ذلك أن ما بعد (إلى) يكون (فاعلاً)، وما قبلها (مفعولاً)، و(اللام) على العكس من ذلك، ما قبلها يكون (فاعلاً)، وما بعدها (مفعولاً)، فإذا قلنا: «خالد أحب إلى أبيه» كان الأب هو المحب، وإذا قلنا: «خالد أحب لأبيه» كان خالد هو الذي يحب أباه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾

[يوسف:٨]، هم لا يقصدون -بالطبع- أن يوسف كان يحب أباهم أكثر من حبهم لأبيهم، وإنما يتحدثون عن حب أبيهم ليوسف(١).

وقد يكون للحرف أكثر من معنى واحد، كما بينه اللغويون، ونحن نذكر هنا ما تدعو الحاجة إليه.

أولاً: الباء:

١- **الإلصاق**: كأن تقول: «مررت بالحائط»، قال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨]، ولا يكاد هذا المعنى يفارق هذا الحرف.

٢- **التعدية**: وتسمى: باء النقل، وهي: المعاقبة للهمزة، ومعناها أن ما بعد الباء كان فاعلاً، لكن بدخول الباء صار مفعولاً، فهي تشبه الهمزة من هذه الناحية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، فالأصل أن يقال: ذهب نورهم، لكن بدخول الباء صار المعنى: أذهب الله نورهم.

٣- **الاستعانة**: وهي أن تدخل الباء على آلة الشيء، مثل: كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، ويمكن أن يكون منه قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كما سيأتي معنا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ [العلق:١].

٤- **السببية**: وهي أن يكون ما بعد الباء سبباً لما قبلها، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة:٥٤]، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠].

---

(١) محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م) عالم بالعربية والأدب، مصري، مولده ووفاته بالقاهرة. له الكافية الشافية في علمي العروض والقافية، وإتحاف أهل الإسلام فيما يتعلق بالمصطفى وأهل بيته الكرام. الأعلام، ٦/ ٢٩٧.
حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، ملتزم الطبع والنشر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ٢/ ٢١٧.

٥- المصاحبة: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود:٤٨]، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر:٤٦]، ويمكن أن يكون من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] كما سنعرفه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

٦- البدل: كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨]، أي: أرضيتم بهذه بدل هذه. ومنه: «ما يسرني أن لي بها حمر النعم» ومنه بيت الحماسة:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا　　　وشنّوا الإغارة فرساناً وركبانا

٧- التعويض: كما نقول: «اشتريته بمائة»، «كافأت المتفوقين بجوائز ثمينة». والفرق بين هذا وبين الذي قبله، أي: بين (باء) التعويض و(باء) البدل، أن في باء التعويض مقابلة شيء بشيء، بأن يُدْفَعَ شيء، من أحد الجانبين، ويُدْفَعَ من الجانب الآخر شيء في مقابلته. وفي باء البدل اختيار أحد الشيئين على الآخر فقط من غير مقابلة من الجانبين(١).

ونكتفي بما ذكرناه لأننا نذكر ما تدعو إليه حاجتنا من جهة، ولا نوافق على كثير من المعاني التي ذكروها لهذا الحرف من جهة أخرى.

ثانياً: من:

١- من أول معانيها الابتداء، قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٥]، وكما يكون الابتداء في المكان، يمكن أن يكون في الزمان، ومنه قوله

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، ٢/ ٢٢٠.

تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨]، وفي الحديث «مطرنا من الجمعة إلى الجمعة»[1].

٢- التبعيض: وهي أن تصلح مكانها «بعض» قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣]، ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فليس المراد أن ينفق الإنسان كل ما رزقه الله، وكل ما يحب، وإنما بعضه.

٣- بيان الجنس: ومنه قوله سبحانه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢]، ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾ [الأعراف:١٣٢]، ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف:٣١]، فـ (من) في هذه الآيات الكريمة «بيانية»، وعلامتها:

أ- أن يكون ما بعدها خبراً لما قبلها.

ب- أن يحل محلها اسم موصول إذا كان قبلها معرفة، أو الضمير إذا كان نكرة، ففي الآيات السابقة ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ يجوز أن نخبر بما بعدها عما قبلها، فما قبلها النسخ وما بعدها آية، فيقال: المنسوخ آية، المفتوح من الله: الرحمة، المأتي آية، الرجس هو الأوثان، والأساور الذهب، كما يمكن أن يقال: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، لأن الرجس معرفة، يحلون فيها من أساور هي ذهب، لأن أساور نكرة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم لم يردهم، رقم الباب (١١)، رقم الحديث ٩٧٣..

وستعرف أن كثيراً مما سموه زائداً يرجع إلى هذا المعنى، وستدرك أن ما طعن به بعض الملاحدة على كتاب الله مردود، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩] وهذه في حق الصحابة.

قالوا: الصحابة إذن قسمان.

والحق أن (من) هنا ليست للتبعيض، فالصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول، وكلهم مغفور لهم -إن شاء الله تعالى- وإنما (من) بيانية، أي: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين هم هؤلاء كذا وكذا.

٤- البدل: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [التوبة:٣٨].

٥- الفصل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة:٢٢٠].

٦- التنصيص على العموم: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ﴾ [المائدة:١٩].

٧- توكيد العموم: مثل: «ما جاءني من أحد»، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ [البقرة:١٠٢].

ثالثاً: اللام:

وتأتي:

١- للملك، كما نقول: «إن الأرض لله».

٢- التعليل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥].

٣- الاختصاص: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الجاثية:٣٦].

٤- لام العاقبة، وتسمى: لام الصيرورة أيضاً: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص:٨]، وهم إنما التقطوه لغير ذلك.

٥- التبليغ: وهي الجارة لاسم السامع، مثل: «قلت لك».

وهناك معانٍ كثيرة ذكرها النحاة لهذه (اللام) فأوصلوها إلى نيف وعشرين وكذلك أكثر حروف الجر.

ونحن لسنا معهم في كثير مما ذكروه، لأنه ليس من رأينا أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، ونمثل لذلك بأنهم ذكروا أن (اللام) تأتي بمعنى (إلى) وجعلوا منه قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة:٤-٥]، قالوا: فـ (اللام) بمعنى (إلى) أي: أوحى إليها. وربما عللوا ذلك بسبب الفواصل، ورؤوس الآي، مع أن الناظر في الآيات الكريمة، آيات الوحي، يجد غير هذا، ففعل الوحي الذي يتعدى بـ (إلى) دائماً لم نجده تعدى بـ (اللام) إلا في هذه الآية، وإذا نظرنا في الآيات الكريمة، وجدنا أن هذه الآية الكريمة هي التي كان الوحي فيها للجماد، أما الآيات الأُخَر، فقد كان فيها للأنبياء تارة، ولغيرهم من البشر تارة، ولما فيه حياة من غير البشر تارة.

١- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس:٨٧]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٧].

٣- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل:٦٨].

فتعدي الوحي بـ (اللام) إذن لم يكن لرؤوس الآي، وإنما كان لغاية بيانية قصد إليها القرآن الكريم.

وأكتفي بما ذكرت لأننا لا نقصد بأن نبين معاني حروف الجر وغيرها، إنما كان الهدف مما ذكر بيان بعض المصطلحات التي تمر معنا في هذا البحث.

الفصل الخامس عشر

الزيادة

يختلف مصطلح الزيادة عند العلماء، فهناك الزيادة التي يتحدث عنها علماء الصرف، ويعنون بها الزيادات التي تكون في بنية الكلمة، وتجمع حروفها في «سألتمونيها»، كزيادة السين والتاء في الأفعال، مثل «استنصر»، أو في الأسماء مثل «مستنصر»، وهذه لا يعنينا بحثها -بالطبع- وإنما الذي يعنينا الزيادة عند النحويين، زيادة حروف المعاني، وهي بهذا الاسم عند البصريين، أما الكوفيون فيسمونها حروف الصلة.

ولا بد لمن يتحدث عن إعجاز القرآن بعامة، والبياني بخاصة، أن يعرض لهذه القضية التي عالجتها أفكار العلماء قديماً وحديثاً، بل شغلت حيزاً لا بأس به من مقولاتهم ومدوناتهم، الزوائد كلمات -وأكثرها حروف- رأى بعضهم أنها لا حاجة لها من حيث الإعراب، فإذا أُسقطت بقي الكلام تاماً، كالباء في خبر ليس، حذفها ووجودها سواء تقول: «أليس الله بقادر»، وتسقط الباء فتقول: أليس الله قادراً، فهي إنما يؤتى بها لتأكيد الكلام وتقويته.

وذهب آخرون إلى أنها لا تزيد المعنى شيئاً، فالمعنى سواء إن وُجدت أم حُذفت، وإنما جيء بها لغرض لفظي يتعلق بجرس الكلام، وجمال إيقاعه، وحلاوة نغمه.

ويرى ابن السراج[(١)]، ومن نقل عنه[(٢)]، أن هذه الزيادة لا يجوز أن تكون في الكلام، إلا إذا ألغي عملها، فهم ينكرون زيادة حروف الجر مثلاً، لأنه لا يمكن أن تكون زائدة وعاملة معاً.

ويرى عبدالعال سالم مكرم، أن هذه الزوائد ظاهرة أسلوبية، فهي وإن كانت زيادة من حيث المعنى، أي يتم المعنى بدونها إلا أنها يستملح بها الأسلوب، وذلك ما استقر عند العرب، والقرآن إنما جاء على أسلوب العرب ونهجهم.

وهذه الزوائد يتحاشى بعض الأئمة تسميتها بهذا الاسم -كما قلت- إجلالاً لكتاب الله تعالى، فيطلقون عليها الصلة، فالباء في خبر ليس مثلاً، لا يقولون عنها زائدة، وإنما يقولون: الباء صلة، ونحن لا تعنينا التسمية بقدر ما يعنينا جوهر الموضوع وأساسه، والحقيقة أن هذه الزيادة نمت في بيئة النحاة، وترعرعت في حجورهم، وكان ذلك نتيجة للقواعد التي قعّدوها، وألزموا أنفسهم بها، وحينما ندرس هذه الزيادة -التي سموها كذلك- دراسة موضوعية، فإننا نخرج بنتيجتين اثنتين:

الأولى: أن أكثر النحاة قال بوجود زوائد في كتاب الله تعالى، مع أن كثيراً من المفسرين والعلماء نفى القول بالزيادة. فمن النحويين مثلاً: الفراء[(٣)]

---

(١) هو محمد بن سري السراج، أبو بكر، والسراج: بفتح السين وتشديد الراء وبعد الألف جيم، هذه بالنسبة إلى عمل السروج، له كتاب «الأصول» وله: «شرح كتاب سيبويه» توفي سنة ٣٢٢هـ. انظر: تاريخ العلماء النحويين، ص٤٠-٤٤.

(٢) كتاب الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، نشر: الكليات الأزهرية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ٢/ ١٠٣-١٠٧.

(٣) الفراء: هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أو بني منقر، أبو زكريا المعروف بالفراء (١٤٤-٢٠٧هـ/ ٧٦١-٨٢٢م) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب، كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، وُلد بالكوفة وانتقل إلى بغداد. توفي في طريق مكة، وكان فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها. الأعلام، ٨/ ١٤٥.

والأخفش[1]، وأبو حيان[2]، ويمكنك أن تأخذ أي كتاب من كتب النحو، كشرح الكافية للرضي[3]، وشرح المفصل لابن يعيش[4]، ومعاني القرآن للفراء[5]، وإعراب القرآن لأبي البقاء[6]، أو المنسوب

---

(١) الأخفش: هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي، ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ/ ٨٣٠م) نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنف كتباً كثيرة. الأعلام، ٣/ ١٠٢.

(٢) أبو حيان: هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الجياني، أثير الدين أبو حيان، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات (٦٥٤-٧٤٥هـ/ ١٢٥٦-١٣٤٤م) وُلد في إحدى جهات غرناطة ثم أقام بالقاهرة وتوفي فيها بعد أن كف بصره. له مصنفات كثيرة منها «البحر المحيط، والنهر، ومجاني العصر، وطبقات نحاة الأندلس...». الأعلام، ٧/ ١٥٢.

(٣) رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي النحوي (ت٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) نجم الدين، عالم بالعربية، من أهل استراباذ (من أعمال طبرستان)، اشتهر بكتابيه الوافية في شرح الكافية، وشرح مقدمة ابن الحاجب المسماة بـ «الشافية». الأعلام، ٦/ ٨٦.
وانظر: مثلاً ٢/ ٣٨٤، كتاب الكفاية في النحو، شرح رضي الدين الأستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) ابن يعيش: هو موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (٥٥٣-٦٤٣هـ/ ١١٦١-١٢٤٥م) المعروف بابن يعيش، وبابن الصانع، من كبار العلماء بالعربية، موصلي الأصل، مولده ووفاته في حلب، رحل إلى بغداد ودمشق، وتصدر للإقراء بحلب إلى أن توفي، كان ظريفاً محاضراً، كثير المجون مع سكينة ووقار. الإعلام، ٨/ ٢٠٦.
شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت ومكتبة المتنبي، القاهرة، ٨/ ١٣٣.

(٥) معاني القرآن للفراء، عالم الكتب ببيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٠، ١/ ٢٣٨.

(٦) أبو البقاء: هو الإمام محب الدين، أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري. عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب، أصله من عكبرا (بليدة على دجلة)، ومولده، ووفاته ببغداد. أصيب في صباه بالجدري فعمي. من كتبه: «التبيان في إعراب القرآن» ويسمى «إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن». وإعراب الحديث وغيرها من الكتب النافعة، (ت٦١٦هـ/ ١٢١٩م). الإعلام، ٤/ ٢٠٨.
إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار العلم للجميع. انظر: ١/ ١٤٦، سورة الأنعام.

للزجاج[1]، وستجد القول بزيادة كثير من الحروف والكلمات مبثوثاً في صفحات هذه الكتب.

وعلى العكس من ذلك تجد الأمر عند كثير من المفسرين والعلماء، ونمثل لك بتفسير الطبري[2] (ت٣١٠هـ)، والرازي[3] (ت٦٠٦هـ)، وأبي مسلم بن بحر[4]

---

(١) الزجاج: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (٢٤١-٣١٨هـ/ ٨٥٥-٩٢٣م)، عالم بالنحو واللغة، وُلد ومات في بغدد. كان في فتوته يخرط الزجاج، ومالَ إلى النحو فعلّمه المبرد، أدب ابن وزير المعتضد العباسي، وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب، وله تصانيف كثيرة. الأعلام، ١/ ٤٠.

إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ١/ ١٣١.

(٢) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (٢٢٤-٣١٠هـ/ ٨٣٩-٩٢٣م) المؤرخ، المفسر، الإمام، ولد في آمل / طبرستان، واستوطن بغداد، وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى، له أخبار الرسل والملوك، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق، وكان مجتهداً في أحكام الدين، لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. الأعلام، ٥/ ٦٩.

انظر مثلاً: عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] حيث يرد على القائلين بزيادة الكاف.

كتاب: جامع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر المحمية، ١٣٢٣هـ ١/ ٣٥.

(٣) الرازي: هو فخر الدين الرازي، إمام المتكلمين وقامع المبتدعين، وحجة الله على العالمين، المتبحر، تاج المحققين، أبو الفضل، محمد فخر الدين بن ضياء الدين بن الحسن بن الحسين التميمي البكري الرازي الشافعي، وُلد سنة (٥٤٣هـ) وقد كان مولعاً إلى حد الغرام بالفلسفة، والكلام، والجدل، وأصول الفقه، والتصوف. وتوفي سنة (٦٠٦هـ).

انظر: مثلاً: عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، حيث يقرر أن (ما) استفهامية فراراً من القول بالزيادة.

التفسير الكبير، الطبعة الأولى ملتزم الطبع عبدالرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر، ٩/ ٦٢.

(٤) ابن بحر: هو محمد بن بحر الأصفهاني، الكاتب، أبو مسلم، مولده سنة (٢٥٤هـ) كان نحوياً كاتباً بليغاً، مترسلاً جدلاً، متكلماً معتزلياً عالماً بالتفسير وغيره من صنوف العلم، صار عالم أصبهان وفارس، له «جامع التأويل لمحكم التنزيل» والناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو (ت٣٢٢هـ).

انظر: مثلاً: عند قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء:٩٥]، حيث يرد القول بزيادة (لا). تفسير الرازي، ٢٢/ ٢٢١.

(ت٣٢٢هـ) من الأقدمين، والشيخ محمد عبده[(١)]، والدكتور محمد عبدالله دراز[(٢)] والشيخ عبدالرحمن تاج[(٣)] من المحدثين، وستجد أنهم يردون القول بالزيادة.

الثانية: أن ما سموه زائداً أو صلة، عندما ننعم النظر فيه، فإننا لا نتردد أي تردد، ولا نرتاب أدنى ريب، بأن هذا الذي سموه زائداً، لم يكن للتأكيد فحسب، ولم يكن ليجمل به الإيقاع فقط، وليس ظاهرة أسلوبية -كما قيل- إنما هو بعد ذلك كله أمر اقتضاه المعنى، وحتمته الحكمة البيانية، والحكمة العقلية كذلك، فلو ذهب من الكلام لذهب جزء جوهري من المعنى.

والزوائد التي ذكروها خمس عشرة، ولكننا بعد استقصاء وجدناها أكثر من ذلك بكثير، فجمعنا منها ستاً وعشرين أداة، وهي إما حروف أو أسماء أو أفعال، والذي يعنينا منها الحروف فقط وهي: (إلى، والباء، واللام، ومن، وعن، وفي، والكاف).

والذي يستعرض كتب التفسير والنحو وإعراب القرآن، يجد أن كل حرف من هذه الحروف قيل بزيادته في آيات كثيرة من آي القرآن الحكيم. ونحن في هذا الفصل لا نستطيع أن نلم بها، تلك قضية وحدها بحاجة إلى كتاب ذي فصول متعددة، ولكن يكفينا أن نأتي بما يسمح به المقام، فيكون شاهد صدق على مظهر من مظاهر الإعجاز من جهة، ويكون برهاناً على غيره مما لم يذكر من جهة ثانية.

---

(١) انظر: مثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨]، حيث يرد القول بزيادة (ما)، محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١/ ٣٧٩.

(٢) حيث نفى زيادة الكاف في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الطبعة ٢، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص١٢٧.

(٣) مجلة الأزهر ابتداءً من ٥ عدد شوال ١٣٨٦هـ.

أولاً: الباء:

والآيات التي قيل فيها بزيادة الباء تنيف على العشرين آية، وهذا بالطبع غير الآيات التي جاءت فيها الباء في خبر ليس أو ما. مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦] فهذا القسم كثير في كتاب الله تعالى، والذي يعنينا القسم الأول، وهو ما لا يندرج تحت قاعدة معينة، وسنمثل له ببعض الآيات:

١ - ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥].

٢ - ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الحج:٢٥].

٣ - ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:٢٠].

٤ - ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد:١٣].

٥ - ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق:١٤].

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥].

قالوا[1]: إن الباء زائدة، والتقدير: (فليمدد سبباً)، أي: فليمدد حبلاً، والغواصون من أجل التقاط المعاني لا يرضون هذا القول، لأنه ليس المقصود المد

(١) ابن هشام: هو أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري، وُلد في القاهرة سنة ٧٩٠هـ/٣٠٩م، قيل عنه إنه على علم جم يشهد بعلو قدره في صناعة النحو. وقال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالِمٌ بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه.
مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، ١/١٠٨.

وحده، فقد يمد الشخص حبالاً كثيرة من غير أن تكون له بها صلة مباشرة، ولكن المقصود أن يصل هو نفسه بهذا الحبل، لذا عدّي الفعل بالباء، أي: يوصل نفسه بهذا الحبل الممدود إلى أعلى.

تلك هي بلاغة القرآن في استعمال الحرف حيناً، وتركه حيناً آخر.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج:٢٥].

قالوا[١]: إن الباء هنا زائدة، لأن فعل (أراد) يتعدى بنفسه، وكثير من المفسرين ذهب إلى أن الباء تتعلق بمفعول محذوف، أي: «ومن يرد فيه مراداً بإلحاد» فراراً من القول بالزيادة.

ولكن ما أرجحه أن الفعل هنا ضمن معنى الهمّ، والهَمُّ يتعدى بالباء، ذلك أن مكة -شرفها الله تعالى- يضاعف فيها العمل، فإذا كانت الحسنات تضاعف لأصحابها أضعافاً كثيرة، فينبغي أن تكون السيئات كذلك، والغنم بالغرم[٢]، وكأن الذي يهم في هذا البلد بشيء فإنه يجازي عليه.

قال في الكشاف[٣]:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ١/ ١٤١، شركة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

والبرهان في علوم القرآن للزركشي، ١/١٠٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) عن ابن مسعود: «الهمة في الحرم تكتب ذنباً» وهذا ما رجحه ابن القيم في «زاد المعاد»، وابن القيم هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ابن قيم الجوزية)، حققه الشيخ شعيب الأرنؤوط، الطبعة ١، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، مكتبة المنار الإسلامية، ١/ ٥٤.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ٢/ ١٥١.

«ومفعول «يرد» متروك ليتناول كل متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً ما، عادلاً عن القصد، ظالماً (نذقه من عذاب أليم) يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه، ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده».

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠].

في قوله سبحانه: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ قراءتان:

القراءة الأولى: «تَنبُت» (بفتح التاء وضم الباء)، وفعله الماضي: نَبَتَ الثلاثي، وهذه قراءة أكثر القراء.

والقراءة الثانية: «تُنبِت» (بضم التاء وكسر الباء)، وماضيه: أنبت الرباعي، وهي قراءة ابن كثير.

وقال بعضهم إن الباء زائدة، كما نقل عنهم أبو حيان[1] إلى أن الباء زائدة على هذه القراءة، والمعنى تنبت الدهن.

وذهب غيرهم إلى أنها غير زائدة، والمعنى تنبت ثمرها مصاحباً أو ملتبساً بالدهن.

والحق أن زيادة الباء غير متصورة ولا ممكنة، لأن المعنى غير مستقيم على هذه الزيادة، لأن الشجرة في الحقيقة لا تنبت الدهن، وإنما تنبت الثمر المشتمل على هذا الدهن، ونحن نعرف اليوم أن من الزيتون ما لا يؤخذ منه زيت، وإنما هو زيتون من أجل أن يؤكل ثمره بعد أن يخلل.

إن القول بزيادة (الباء) على قراءة ابن كثير يُخرِج الآية الكريمة عن المعنى المراد، والحق أن مؤدى القراءتين واحد، وإن كان من فرق بينهما، فإنما هو فرق بين

---

(١) البحر المحيط، ٦/ ٤٠١.

الفعلين الثلاثي والرباعي، وليس من غرضنا أن نعرض له هنا، ولأن بحثنا في قضية الزوائد.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد:١٣].

قالوا[1]: إن الباء زائدة، والمعنى: «فضرب بينهم سور»، ولكن الذي نعتقده، غير هذا، وهنا لا بد من شرح وتفصيل.

المعن في آيات الكتاب العزيز يجد ما يأخذ بالألباب، وتنشرح له الصدور، روعة بيان، ودقة معنى، قد يحدثنا القرآن الكريم عن السموات والأرض، أو عن الدنيا والآخرة، فيلحظ من له شفافية ودراية بأن الحديث يختلف ما بين جهة وجهة، وأن هناك كلمة جاءت لتدل على دقة التعبير القرآني، فمثلاً تحدث القرآن الكريم عن الأرض وما يتخذه الناس فيها من بيوت وقلاع وأسوار، فعبر عن هذا كله بكلمة (بنيان)، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات:٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف:٤].

ذلك كله حديث عن الأرض -كما رأينا في سورتي الصافات والصف-، وما أجمل كلمة (بنيان)، وما أجمل البنيان وحجارته، تصف صفاً، وصفاً فوق صف.

ولكن نجد القرآن الكريم حينما كان الحدث عن السماء يعبر فيه بكلمة غير هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:٢٢]، أليس التعبير بكلمة (بناء) مغايراً لكلمة (بنيان)، وذلك إنما جاء لغرض بديع، وهدف

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن، العُكْبَري، ٢/ ١٣٥.
وانظر: سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل (ت١٢٠٤هـ)، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، مطبعة البابي الحلبي، ٤/ ٢٨٣.

رفيع، وهو أن طبيعة تماسك السموات يختلف كلية عما عهده الناس في هذه الأرض من وضع الحجارة بعضها على بعض، اختلاط المواد بعضها ببعض، هذا عن السماء والأرض.

وقد حدثنا القرآن الكريم كذلك عن الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور:٢٠]. فنحن نرى أنه غُوِيرَ بين الفعلين لا لاختلاف لفظيهما، ولكن إشارة إلى أن طبيعة ما في الدنيا من زواج وغيره تختلف عما سيكون في الآخرة.

وعلى هذا يمكننا أن نفهم الآية الكريم التي معنا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾، ذلك لأن الآية -والله تعالى أعلم بأسرار كتابه- تبين لنا أن ما يتخذه الناس من أسوار في الدنيا، وما يقومون به من وسائل لهذه الأسوار يختلف تماماً عما يكون في الآخرة، وأن ما في الآخرة يختلف كلية عما عهده الناس في هذه الدنيا.

هذا الذي هداني الله إليه بعد وقفة طويلة، ومراجعات لأكثر كتب التفسير مطولها وغيره حتى الكتب النادرة، فلم أجد تعليقاً على هذا الحرف، وله تعالى المنَّة والفضل، ورَحِم الله أئمتنا وجزاهم خيراً.

على أن الباء -هنا- يمكن أن نفهم منها معنى الإحاطة والشمول، لهذا السور الحاجز بين الفريقين.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق:١٤].

لم تعلق كتب التفسير على هذه الآية بشيء، وكل الذي قالوه(١): إنها زائدة، لأنه تزاد قياساً في مفعول (علم، وعرف) وما أشبههما.

---

(١) ابن يعيش، شرح المفصل، ٨/ ٢٥. وابن هشام، المغني، ١/ ١٠٧.

وأقول وبالله التوفيق، ومنه العون: المتدبر لآي القرآن الكريم يجد أن هذا الفعل جاء بغير الباء في مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ [التوبة:٧٨]، ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١٠٧]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة:١٠٦] وغير ذلك من الآيات الكريمات ولم تَجِئْ الباء إلا في هذه الآية الكريمة.

والذي نحسبه -والله أعلم بأسرار كتابه- أن هذه الآية الكريمة هي أول آية جاءت بهذه الصيغة، وسياقها يدل أنها جاءت تهديداً وتخويفاً لهذا الذي ينهى عبداً إذا صلى وكذب وتولى سواء كان أبا جهل أم غيره، وهو لم يكن من المؤمنين بالله تبارك وتعالى، وبأنه يعلم خائنة الأعين ويسمع ويرى، فكأن العلم هنا مضمن معنى الإيمان والتصديق.

والتضمين من سنن العرب في كلامهم وأساليبهم، فكانت الآية وعيداً له وإنكاراً عليه لعدم هذا الإيمان والتصديق.

أما الآيات الأُخر فنجد أنها جاءت خطاباً للمؤمنين، إيماناً حقاً ظاهراً وباطناً أو لأولئك المؤمنين بالظاهر، وهم المنافقون، فلم يكن ثمة حاجة لتضمين العلم معنى الإيمان، وسياق الآيات جميعاً ما ذكرناه، وما لم نذكره يدل على ذلك، وليست الآية التي معنا من هذا القبيل، لذا جاءت الباء في هذه الآية دون غيرها من الآيات المماثلة لها، فضلاً عن جمال الإيقاع الذي جاء من وجود الباء بعد الميم حيث الغنّة بسبب الإخفاء الشفوي، كما يقول علماء التلاوة، وهي متلائمة مع قصر الآية الكريمة.

تلك هي الباء في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ جمال معنى، وجمال إيقاع.

ثانياً: (من)[1]:

وقد ذكروها زائدة في كتاب الله تعالى فيما يقرب من عشرين آية وهذا بالطبع غير (من) الاستغراقية، وسنكتفي ببعض الآيات، ومن ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣].

٣ - قلوه تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ ﴾ [العنكبوت:٣٥].

٤ - قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس:٣٤].

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦]:

ذهب العكبري[2] إلى أن (من) زائدة، والذي حمله على ذلك أنه جعل لفظ (آية) حالاً، والحال لا تدخل عليه كلمة (من) والأدهى من ذلك أنه جعلها حالاً لا لأن المعنى يقتضي ذلك، وإنما قاسها على قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود:٦٤] فالآية هنا حال، قال: فإذا كانت الآية هنا تُعرب حالاً، فهي في الآية السابقة كذلك، وهذا قول عجيب، لأننا نفرق بداهة من حيث المعنى بين قوله ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾، وقوله: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾. فالآية الأولى المقصود بها الآية من القرآن، والآية الثانية المقصود بها العلامة المعجزة[3]. والإعراب فرع المعنى لكنه جعل المعنى فرعاً للإعراب.

---

(١) انظر ما تقدم.

(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن، ١/ ٣٣.

(٣) وهذا عليه إجماع المفسرين ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم بن بحر بحيث ادّعى هنا أن الآية بمعنى الرسالة وذلك لأنه ينكر النسخ. الرازي، ٣٠/ ٢٥٧.

والخلاصة أن (من) لا يتم المعنى بدونها فضلاً عن أن نقول بزيادتها؛ لأننا لا يجوز أن نعرب آية على أنها حال كما هو الحال في آية الناقة. إلى هذا أشار صاحب المغني قال رحمه الله : وأما قول أبي البقاء ﴿ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾، أنه يجوز كون آية حالاً و(من) زائدة كما جاءت آية حالاً في ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ والمعنى أي شيء ننسخ قليلاً أو كثيراً، ففيه تخريج التنزيل على شيء إن ثبت فهو شاذ، أعني زيادة من في الحال، وتقدير ما ليس بمشتق ولا متنقل، ولا يظهر فيه معنى الحال حالاً، والتنظير بها لا يناسب، فإن آية في ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ بمعنى علامة لا واحدة الآي، وتفسير اللفظ بها لا يحتمله، وهو قوله قليلاً أو كثيراً، وإنما ذلك مستفاد من اسم الشرط لعمومه لا من آية[1].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣]:

وقد ذكرت (من) هنا ثلاث مرات ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، ﴿مِن جِبَالٍ ﴾، ﴿مِنۢ بَرَدٍ ﴾، وقد اتفقوا على أن (من) الأولى ابتدائية، ثم اختلفوا فادّعى بعضهم الزيادة في الثانية ومعنى الآية عند هذا الفريق: «وننزل من السماء جبالاً» وادعى آخرون أن (من) الثانية هي الزائدة والمعنى عندهم «وننزل من السماء من جبال فيها برد»، والحق أن (من) الثانية يمكن أن تكون ابتدائية أو تبعيضية، وكذلك الثالثة إلا أنها يمكن أن تكون بيانية كذلك، فالمعنى على كونهما ابتدائيتين «وننزل ماء يبتدئ إنزاله من السماء مبتدئاً من جبال في هذه السماء مبتدئاً من برد في هذه الجبال»، فالماء المنزل ابتدئ إنزاله من البرد الكائن في الجبال الكائنة في السماء، والمعنى على كونهما تبعيضيتين «ننزل ماءً مبتدئاً من السماء من بعض البرد الكائن في بعض الجبال»، وعلى كون الثالثة للبيان يكون المعنى «وننزل من السماء من جبال هي البرد» فعلى هذا تكون

(١) المغني لابن هشام، ج١، ص٣٢٤.

الجبال البرد نفسه، وهذا هو معنى البيان. والذي يترجح لي أنهما -أي الثانية والثالثة- تبعيضيتان -والله أعلم- وعلى كل حال فلا داعي للقول بالزيادة.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً ﴾ [العنكبوت:٣٥]:

والتقدير عندهم[١]: ولقد تركناها آية، وهذا غير وجيه، لأن الضمير في «منها» إما أن يرجع إلى القرية، وإما إلى العقوبة، ولا يستقيم المعنى على كلا التفسيرين، وإنما جعل مما بقي من القرية آية أو جعل من أثر العقوبة آية، فمن تبعيضية إذا رجع الضمير (ها) للقرية، أي: ولقد تركنا بعض آثار هذه القرية آية. وبيانية إذا رجع للعقوبة، أي: ولقد تركنا العقوبة آية. وأظن الذين قالوا بالزيادة حملوا هذه الآية وقاسوها على قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر:١٥] حديثاً عن ذات الألواح والدّسر التي حُمل عليها نوح عليه السلام ومن معه، ولعل القارئ إن شاء الله تعالى يدرك -كما أدركتُ- أن هناك فرقاً بين الآيتين من حيث المعنى، فالله تبارك وتعالى يريد أن يكون من العقوبة لقوم لوط أو من أثر قراهم لمن يمر عليها آية للمعتبرين. أما السفينة تلك التي وضع فيها أهل ذلك العالم الصغير وصار منهم هذا العالم الكبير فهي نفسها آية، لأنها بقيت بأجزائها ألواحاً ودسراً، فلا ينبغي ولا يليق أن نحكم على الزيادة في آية قياساً على آية أخرى من غير أن ننظر إلى معنى كل واحدة من الآيتين وموضعها وأسلوبها.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس:٣٤].

(ومن) هنا تبعيضية، لأن الله لم يفجر عيون الأرض جميعاً، والذين قالوا[٢] بالزيادة قاسوا هذه الآية على قول الله تعالى حكاية عن الطوفان ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر:١٢]. ونقول فيهما ما قلناه من قبل، فشتان بين ما تشير إليه كل من

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي الغرناطي، ج٧، ص١٥١.

(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري، ج٢، ص٢٠٥.

الآيتين، فالآية الأولى تتحدث عما أكرم الله به الإنسان من تفجير بعض عيون الماء في الأرض نعمةً منه سبحانه، والآية الثانية تتحدث عما كان أيام الطوفان عقوبةً وانتقاماً ولقد كانت الأرض كلها كذلك.

ثالثاً: عن:

قال أبو عبيدة عند قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ [النور:٦٣] مجازه: يخالفون أمره وعن: زائدة[١].

والمفسرون واللغويون غير أبي عبيدة والأخفش ومن ردد قولهما على غير ذلك، أي على أن (عن) ليست زائدة.

قال ابن جرير عند تفسيره هذه الآية: «وأدخلت (عن) لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره. ويدبرون عنه معرضين»[٢].

وإلى قريب من هذا ذهب أبو البقاء، وذكر الشيخ الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين[٣] هذا القول، وزاد قولاً آخر وهو أن ﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ بمعنى يصدون والمفعول: محذوف، أي: يصدون الناس عن أمره، وما نظن أن هناك حاجة لمثل هذا: فمتى كان الأمر خالياً عن الحذف والتقدير كان أولى.

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي، وُلد في سنة ١١٠هـ ولم تذكر المصادر أين وُلد ولكن العلماء يضعونه في عداد علماء البصرة، تعلم النحو والشعر والغريب على يد أبي عمرو بن العلاء، وتكاد تتفق كلمة العلماء على أنه من الخوارج، وقد وضعت في عهده أسس العلوم الإسلامية، وكان يشارك فيها مشاركة جيدة، توفي بين سنتي (٢٠٩-٢١٣هـ).
مجاز القرآن، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، مكتبة الخانجي، مصر. وانظر: البحر المحيط، ٦/ ٤٧٧. وإملاء ما بيَّن به الرحمن للعكبري، ٢/ ٨٤. والبرهان للزركشي، ٤/ ٢٨٦.

(٢) تفسير الطبري، ١٨/ ١٣٥.

(٣) ٣/٢٤٣.

والخلاصة: أن القول بالزيادة إنما نُقل عن الأخفش وأبي عبيدة، وجمهور العلماء يردونه[1] والذي يظهر لي بعد ما قالوه، وبعد نقل هذه الأقوال عنهم أن مجيء (عن) في الآية الكريمة لنكتة دقيقة، وغرض بياني، وهو التحذير من مخالفة أي أمر مهما دق، لأننا حيثما نقول: يخالفون أمره، فهذا يمكن أن يشمل الأمور ذات الشأن، ولكن عندما قالوا: يخالفون عن أمره، فكأنه يعني: لا ينبغي أن يتزحزحوا عن هذا الأمر ولو قيد أنملة.

هذا المعنى لا يتم بدون هذه الكلمة التي وصفها قوم عفا الله عنهم بالزيادة.

رابعاً: لعل:

يدّعي بعض الكاتبين المحدثين[2] زيادة (لعلّ) في قوله تبارك وتعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف٤٦].

فهو يدّعي أنه قد زيدت كلمة (لعل) من أجل الفاصلة، فأصل النظم عنده «لعلي أرجع إلى الناس فيعلمون» لأن الفعل المضارع ينصب في جواب الترجي فزيدت (لعل) حتى تكون الفاصلة بالنون. وكنت أود للكاتب أن يقف مع الآية الكريمة، أما وإنه لم يفعل، فلتقف أنت أيها القارئ مع الآية الكريمة في نظمها. وبادئ بدء فإنها جرأة أن نقرر زيادة كلمات من أجل الفاصلة وهو بعدُ باب خطيرٌ أن يُفتح، لأنه سيدّعي بأن قضايا كثيرة إنما زيدت لأجل الفاصلة أو النظم، أو السياق، وهذه تشكل خطورة نحن على ثقة من أن الكاتب لا يرضاها.

---

(١) لذلك ذكر الشيخ القول بالزيادة بعد القولين السابقين تضعيفاً له.

(٢) الدكتور عبدالفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، من أسرار التعبير القرآني، دار المريخ للنشر، طبعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ولنرجع إلى الآية الكريمة، جاء أحد السجينين، وهو الذي نجا منهما ليوسف عليه السلام، ليؤول له الرؤيا، وكان الملك ومن حوله ينتظرون بفارغ الصبر هذا التأويل ذلك لأن لهذه الرؤيا شأناً عند الملك، كما نفهمه من سياق القرآن، وجاء رسول الملك وهو فرح مغتبط، أن يعلم التأويل من يوسف عليه السلام، فمن يدري فلعل هذه تجعل له حظوة ومنزلة عند الملك، وهذا ما كان يرجوه ويتوقعه، ألم يقل: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف:٤٥] فهذا التوقع الذي كان يرجوه رسول الملك، وهو ما جاءت من أجله كلمة لعل الأولى ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾. أما الناس، والملك أوَّلهم بالطبع فلقد كانوا يتوقعون تأويل هذه الرؤيا التي أحدثت في أنفسهم هزة وأقضّت مضاجعهم، وأرّقتهم، كانوا بحاجة إلى ما يزيل ذلك كله عنهم، وهم يتوقعون أن يعرفوا من تأويلها ما يريحهم، ليعلموا ما يترتب على هذه الرؤيا.

كلمة (لعل) في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ لم تأتِ من أجل الفاصلة، وإنما جاءت ليستقر به الأمر، ويتم بها المعنى -وهو توقع الناس ورجاؤهم-، جاءت كلمة أساسية في النظم، ولو كان الأمر أمر الفاصلة، لأمكن أن يقال: «لعلي أرجع إلى الناس فيعلمون» فتكون الفاء العاطفة لا السببية ولن نعدم تخريجاً نحوياً لها، وقد جاء في التنزيل ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس:٣-٤] برفع يذكّرُ، وفي سورة طه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه:١١٣].

وعلى ما ذهب إليه الكاتب، فإن (لعل) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦]. أقول إن (لعل) على ما ذهب إليه ينبغي أن تكون زائدة، جيء بها من أجل الفاصلة، لأن النظم يصير هكذا: «فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي ويرشدون» كذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١] لأن النظم

يكون هكذا: «اعبدوا ربكم تتقوا» فيكون مجزوماً بجواب الأمر فزيدت (لعل) لأجل الفاصلة، وعلى هذا فيجب أن نضيف لقائمة الزوائد كلمة جديدة هي (لعل). إننا نجلّ الكتاب الكريم، والنظم البديع، والكلام المعجز عن مثل ما ذهب إليه الكاتب.

خامساً: إذا ما:

ذكرت (إذا) كثيراً في كتاب الله، ولكنا في بضع عشرة مرة ذكرت بعدها (ما)، وكل الذي تسمعه أن (ما) زائدة بعد (إذا) للتأكيد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم تُركت في عشرات الموضع، وذُكرت في هذا العدد النزر القليل؟ لا بد إذن من سر بياني، ولطيفة من لطائف الإعجاز، وهذا ما سنعرضه بعد قليل إن شاء الله بعد أن نذكر لك أمثلة من النظمين الكريمين.

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور:٤٨].

٢ - قال سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة:٩٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١].

٣ - قال تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة:٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور:٦٢].

٤ - أ- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [التوبة:١٢٧].

ب- قال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة:٨٦].

٥- أ- قال سبحانه: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يونس:٥١].

ب- وقال سبحانه: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل:٨٢].

٦- أ- قال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم:٦٦].

ب- وقال سبحانه: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الصافات:١٦].

٧- أ- قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت:٢٠].

ب- قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر:٧١].

ارجع إلى كل مجموعة من هذه الآيات الكريمة، ستجد أن (ما)، جاءت حيث استدعى السياق وجودها، وكانت هناك كلمة بيانية وغرض بلاغي، خذ المجموعة الأولى مثلاً: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾، إن شهادة الشهداء أمر تتعلق به مصالح الناس وحقوقهم، وهؤلاء الشهداء قد يجدون إحراجاً وضيقاً من إدلائهم بالشهادة كان لا بد -إذن- من أن يؤكد لهم هذا المعنى، فجاءت (ما) لتؤدي هذه الرسالة الكبيرة العظيمة.

أما الآية الثانية فلا تتطلب هذا التأكيد، فإنها تتحدث عن واقع المنافقين، بأنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، يعرض فريق منهم.

فإذا انتقلت إلى المجموعة الثانية، وجدت أن (ما) تتحدث عن قضية خطيرة كانت تشغل المؤمنين، وهي مصير أولئك الذين ماتوا قبل أن تحرم الخمر تحريماً

قاطعاً، ماذا سيكون مصيرهم في الآخرة؟ فجاءت الآية الكريمة تبين أن أولئك ليس عليهم جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، فالأمر -إذن- بحاجة إلى هذا التأكيد، لأنها تتحدث عن المتقين وتلك سجية فيهم، أنهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا.

أما المجموعة الثالثة، وهي التي اشتملت عليها سورة براءة، فإن الآيات التي ذكرت فيها (ما) جاءت عقب قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ ثم بينت أن أولئك يمارون، ويجادلون ويراوغون، سواء كان ذلك بألسنتهم، أم بنظراتهم، فتارة ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، وأخرى ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾. ولكن الآية الثانية، حدثت عن أمر طبعي لأولئك المنافقين ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾.

وعلى هذا نستطيع أن نفهم ما بقي من الآيات، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ من أنه أراد تأكيد هذا المعنى، الذي دلت عليه (إذا)، ثم ألا ترى كيف استغربه أولئك حيث قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١]، أما الآية الثانية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، فليس بحاجة إلى هذا التأكيد لأن فتح الأبواب بعد المجيء أمر لا بد منه، بل كان المجيء من أجله، وإذا قلنا إن الجواب محذوف، فالأمر فيه كذلك، أي حتى إذا جاؤوها وجدوا ما يزعجهم ويؤلمهم.

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم:٦٦] كيف أكد هذا المعنى، ثم كيف كان الرد عليه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم:٦٨].

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى:٣٧] ألا ترى أن الغفران بعد الغضب أمر صعب على كثير من النفوس، فكان لا بد أن تأتي (ما)

تحث المؤمنين على هذه الفضيلة التي لا بد أن يروضوا عليها نفوسهم، كذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر:١٥-١٦]، تلك قضية فكرة اجتماعية جاء القرآن ليردها، ولذلك كان الرد حاسماً محكماً، ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر:١٧].

ومن هنا تدرك أن (ما) لم تزد بعد (إذا) كما يدعون، وأنها لم تَجِئْ عرضاً، وإنما جاءت لتؤدي غرضاً، ونعم الغرض الذي أدته.

والحق أن ما سموه زائداً هو من أعظم روافد الإعجاز وهو بحق يحتاج إلى مؤلف خاص، ذلك لأن هذه الزوائد التي عدوها خمس عشرة أداة، ورأيناها تصل إلى ست وعشرين كلمة، بحاجة إلى استقصاء من حيث الآيات القرآنية، وهذا أمر يتطلب جهداً، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لمثل هذا العمل الجليل، ولله الحمد والمنّة[1].

---

(١) بعد أن كتب هذا البحث وغيره في الزوائد، رأى أن يتوسع في الموضوع فأصدر رحمه الله كتابه لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، ثم رأى أن يضم إليه ما ادعوه محذوفاً في آيات القرآن الكريم من الحروف، فزاد عليه وسماه لطائف المنان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن.

الفصل السادس عشر

الحذف

والنحويون الذين قالوا بزيادة الحروف في كتاب الله تعالى لم يقفوا عند هذا، بل رأوا كذلك أن هناك حروفاً محذوفة، قدروها هم كما يحلو لهم. والحق أن قضية حذف الحروف لم تفت العلماء والمحققين، فهذا ابن جني في «الخصائص» ينكر على القائلين بالحذف، ونحن معه فيما قال، إلا أن الأمر فيما نرتئيه يحتاج إلى شيء من التفصيل.

فالحروف ليست سواء فهناك حروف قد تحذف من الكلمة بهدف التخفيف، ولكنك بعد حذفها تجد دليلاً عليها، أي: تدرك لأول وهلة أن في الكلمة حرفاً محذوفاً، وذلك كالياء التي حذفت من أواخر الكلمات، كـ «يسر» في قوله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [الفجر:٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٤]، والتاء في مثل قوله سبحانه: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة:٨٥]، وأدوات القسم فيما يدل عليها دليل في مثل قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥]، وأدوات النفي في مثل قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يونس:٨٥].

مثل هذه إن حذفت، فإن هناك دليلاً يدل عليها، فحذفها وذكرها سيان، بل حذفها أيسر من ذكرها، ولكن هناك حروفاً ادّعوا حذفها، دون أن يكون عليها دليل كبعض حروف العطف، وحروف الجر، بل إن هذا الحذف فضلاً عن أن لا دليل عليه، فإنه لا يساعد عليه المعنى. وسأضرب لك بعض الأمثلة لذلك.

ولكنني قبل هذا أراني مضطراً إلى تسجيل هذه الملحوظة المؤلمة، وهي أن ما قرره بعض النحويين من قضية الحذف والزيادة، يأخذه بعض الكاتبين عنهم دون تمحيص، ودون نظر إلى المعنى، أيستقيم مع القول بالحذف أو الزيادة، أم لايستقيم؟ والأنكى من ذلك أننا نجد بعض الكاتبين المحدَثين، الذين تصدوا للكتابة عن الإعجاز وعن النظم، ينقلون هذه الأقوال في كتبهم، على أنها وجه من وجوه البلاغة والإعجاز البياني، وما هي -يعلم الله- كذلك. ويا حبذا لو أنهم رجعوها إلى مصادرها، وهذا ما تقتضيه الأمانة العلمية، ولو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم وأقوم قيلاً، فيدرك القارئ المصدر الذي رجعوا إليه، ويسلمون هم من تبعة هذا القول، وهذا كثير مع كل أسف.

أما في كتاب «فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم» للدكتور فتحي عامر، يتحدث فيه عن حذف الحرف، وكل الأمثلة التي ذكرها مأخوذة من كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي. ولكن الزركشي رحمه الله والحق يقال ذكر في أول بحثه هذا اختلاف العلماء في جواز حذف الحرف، إلا إذا دلّ عليه دليل. ونقل عن ابن جني أن الحرف ينوب عن الاسم أو الفعل، وإنما ذكر اختصاراً، فإذا قلنا: «هل يطلع الفجر على المستضعفين؟» فمعنى هذا: أستفهم وأسأل عن طلوع الفجر، (فهل) نابت عن جملة «أستفهم» و«أسأل». وإذا قلنا: «تفوز الأمم إلا الضعيفة»، فمعنى هذا: «نستثني الأمة الضعيفة» فنابت «إلا» عن جملة «أستثني». وعلى هذا يرى ابن جني أنه لا يجوز حذف الحرف، لأنه جيء به اختصاراً للكلام، واختصار المختصر إخلال[1].

---

(١) أبو الفتح عثمان ابن جني الموصلي (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) من أئمة الأدب والنحو، وله شعر. وُلد بالموصل وتوفي في بغداد، وكان أبوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي. من تصانيفه: «شرح ديوان المتنبي»، «المبهج»، «سر الصناعة». الأعلام، ٤/ ٢٠٤. الخصائص، تحقيق: محمد عليّ النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، لبنان، ٢/ ٢٧٣.

ولكن الكاتب -سامحه الله- لم يشر إلى شيء من هذا، إنما تحدث عن بعض الحروف التي ذكرها الزركشي، من غير ما إشارة إلى الزركشي، أو إلى غيره.

وسأقف بك عند نوعين من هذه الحروف، حروف العطف أولاً، وحروف الجر ثانياً.

أولاً: حذف حروف العطف:

١- قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة:٦٧].

قالوا: والتقدير: «فقال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» فقد حذفت الفاء في هذه الآية.

٢- في قوله سبحانه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ [القصص:٧٩]، قالوا: والتقدير: «وقال الذين يريدون الحياة الدنيا».

واكتفى الكاتب بنقل هذين المثالين في حذف حرف العطف، ولكن صاحب البرهان ذكر أكثر من هذا، ومنها:

٣- قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [آل عمران:١١٨]، وقال والتقدير: «ولا يألونكم».

٤- ومنها: قوله سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الغاشية:٨]، قال: والتقدير: «ووجوه يومئذ ناعمة».

٥- ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة:٩٢]، قالوا: والتقدير: «وقلت».

٦- ولقد ذكر غير الزركشي أمثلة أخرى، منها ما جاء في إعراب القرآن المنسوب للزجاج ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠]، قال والتقدير: فقالوا.

٧- وما ذكره القرطبي[1] عند قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:١٨٠]، قال: التقدير: وكتب، فهو معطوف على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨].

٨- ومنه قوله سبحانه: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل:١٥-١٦]، قال: والتقدير: «والذي كذب» .

٩- ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، قالوا: والتقدير: «ورابعهم».

١٠- ومنها قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣]، قالوا: والتقدير: «وأغويناهم».

١١- ومما ذهبوا فيه إلى الحذف كذلك قوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة:١٨، ١٧١]. قالوا: والتقدير: «صم وبكم وعمي».

ثانياً: حروف الجر:

١- قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:٦]، قالوا: والتقدير: «اهدنا إلى الصراط المستقيم».

---

(١) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، والمشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف. توفي سنة ٦٧١هـ.
الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م، ٢/ ٢٥٨.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة:١٣٠]، قالوا: والتقدير: «في نفسه».

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ [البقرة:٢٣٥]، قالوا: والتقدير: «على عقدة».

٤- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، قال: التقدير: «يخوفكم بأوليائه».

٥- قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ [الأعراف:١٥٥]، قال: التقدير: «واختار موسى من قومه».

٦- قوله تعالى: ﴿ فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه:٥٢]، قالوا: والتقدير: «لا يضل عن ربي».

٧- قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣] والحرف الذي قدروه في هذه الآية الكريمة (على)، ومعنى الآية عندهم: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم على بعض».

٨- قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر:١٢]، قالوا: والتقدير: «وفجرنا من الأرض عيوناً» أو «وفجرنا الأرض بعيون».

٩- قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل:١٧]، وتقديره: «كفرتم بيوم».

وأكتفي بما ذكرته لك، فإن أردت مزيداً، فارجع إلى كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي، وكتاب «إعراب القرآن» المنسوب للزجاج.

مناقشة ما ذهبوا إليه:

حينما ننظر في هذه الآيات الكريمات نظرة تدبر، نجد أن القول بالحذف مرفوض ومردود، ولئن أجازوا لأنفسهم القول بحذف الواو، وحذف حرف جر، فلا أدري كيف أجازوا لأنفسهم القول بحذف (الفاء)، والفاء للترتيب والتعقب، وكيف يمكن أن يحذف حرف يدل على معنيين. وإن التبصر في فهم القرآن واجب، وإن التكلف في تأويله ممقوت، وهو خروج عن سنن البيان، ومنهج الإعجاز، وروعة الإيجاز.

إن القول بالحذف فيه إهمال للسياق والمعنى كليهما، بل هو تهوين لشأن النظم كذلك، فلقد مثل صاحب البرهان لهذا الحذف بقوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [هود:٥٠]، قال: والمعنى: «فقال يا قوم»، ولكن ما الدليل على هذه الفاء التي حُذفت؟ ومن العجب أن جعل الدليل ما جاء في آية أخرى ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [المؤمنون:٢٣]، الدليل على حذف حرف من آية، ذكره في آية أخرى.

ويقيني بدقة النظم في كتاب الله تعالى، يقيني ويقيك هذه المنزلقات. وإذا أردنا أن نفهم القرآن هذا الفهم، وأن نُخرِج آياته على هذا التأويل، سيختلط الأمر، ويختبط الفكر، ويخترق الستر. فماذا نقول في قول الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ق:٢٣-٢٧]. ترى أنكون من عشاق الحذف، فنقول في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ بأن هنا واواً محذوفة، دلت عليه الآية التي قبلها، أم نكون من عشاق الزيادة فنقول إن الواو في قوله ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ زائدة لأن الآية التي تليها جاءت بدون واو.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٩]، وفي آية أخرى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

[إبراهيم:٦]. أفنكون من عشاق الزوائد فندعي زيادة الواو في الآية الثانية، لأن الآية الأولى جاءت خالية من الواو؟ أم نكون من هواة الحذف، فندّعي أن الآية الأولى حذفت منها الواو؟ وهذا كثير في كتاب الله تعالى.

والحق الذي لا مرية فيه، والذي يتفق مع شفافية الأسلوب ونضارته، وسداد المعنى ورونقه، وجلال النظم ومتانته، أن لا حذف ولا زيادة، إنما جاءت كل واحدة على أبدع صورة، وأعذب وأعجب تركيب.

أولاً: حروف العطف:

وإليك بإيجاز ما يؤنس نفسك، ويرهف حسك، ويبهجك روقاً، ويروقك ذوقاً، وسأرتب لك الآيات على ترتيب السور:

١ - قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة:١٨،١٧١]. قالوا: إن هنا واوين محذوفتين، والتقدير: «صم وبكم وعمي»، واستدلوا[1] لذلك بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام:٣٩].

ونحن إذا استعرضنا الآيات الكريمة التي جاءت فيها هذه الأوصاف، فإننا سنجد أن هناك آيتين في سورة البقرة، إحداهما في سياق المنافقين، وهي هذه الآية، والأخرى في سياق الكافرين وهي قوله سبحانه: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة:١٧١].

وسورة البقرة مدنية -كما نعلم-، وهناك آيتان أخريان في سورتين مكيتين، إحداهما في سورة الأنعام، وهي الآية الآنفة الذكر، والأخرى في سورة الإسراء، وهي قوله سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء:٩٧]،

---

(١) إعراب القرآن المنسوب للزجاج، ٢/ ٨٠٣.

وإنما جاءت آية الإسراء على هذا الترتيب، مغايرة من حيث نظمها حيث قدم فيها ما أخر في الآيات الثلاث، وما ذلك إلا لأن الحديث فيها عن يوم القيامة، وهو حري أن تقدم فيه صفة العمي، لأنه أشق ما يكون عليهم في ذلك اليوم.

أما توسط حرف العطف بين هذه الصفات، فالذي نحسبه -والله أعلم بما ينزل- أن الآية الكريمة أرادت أن تعدد لنا أوصاف الكافرين، فبعضهم يحشرون عمياً، وبعضهم بكماً، وآخرون صماً، فليس المراد جمع هذه الصفات الثلاث لفئة واحدة، وذلك ما نستند في فهمه إلى كتاب الله تعالى قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

ثم إن حشرهم على هذه الهيئة منسجم مع المنطق، لأنهم إذا كانوا عمياً وبكماً وصماً، فسيفقدون كثيراً من أنواع الإحساس، ولكنهم إذا كانوا على صفة واحدة، فإنهم سيشعرون باللوعة والضيق، لأنهم إن فقدوا حاسة من هذه الحواس فسيبقى لهم غيرها، كي يشعروا بالألم والعذاب.

أما آية الأنعام، فيذهب المفسرون إلى أن (الواو) فيها للاستئناف، ومعنى هذا أنها تتحدث عن المكذبين في الدنيا، ويرون أن (الواو) إذا جاءت لتغاير الوصفين، وإنما ترك العطف في غيرها لنكتة اقتضت ترك العطف، هذا ما قرره علاّمة الرافدين الشهاب الآلوسي[1] رحمه الله ولكنه لم يذكر لنا هذه النكتة التي اقتضت ترك العطف في آيتي البقرة.

والذي يلوح لي بعد تأمل أن الأمر ليس كما ذكروا، وأن الواو ليست للاستئناف، وإنما هي للعطف، وأستدل لذلك -والله أعلم- بسياق الآيات، فالآية التي قبل هذه الآية ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى

(١) روح المعاني، ٧/ ١٤٧.

﴿ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام:٣٨-٣٩] فأنت ترى أن الآية الكريمة، إنما جاءت عقب الحديث عن الحشر، فبعد أن ذكر الحشر لهذه الأمم جميعاً، خص الحديث عن أولئك المكذبين، لأنهم هم المقصودون، أما دواب الأرض والطير فليس هناك غرض ليتحدث عما سيحدث لها بعد هذا الحشر.

وعلى هذا يكون العطف في الآية دالاً على تغاير الذوات والأنواع، لا على تغاير الصفات فحسب.

أما آيتا البقرة، فلم يكن حاجة إلى العطف فيهما، لأن الهدف بيان أن أولئك القوم لما لم يستعملوا حواسهم فيما يرشدهم إلى الخير، صاروا وكأنهم قد حرموا هذه النعم جميعاً.

وهكذا نرى أن ما قدروه من حرف محذوف لا يتفق مع جلال النظم ودقة المعنى، وروعة السياق، وجمال الأسلوب.

٢- وفي سورة البقرة أيضاً، قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ﴾ [البقرة:٦٧] حيث قدروا (فاء) محذوفة في الآيتين.

ولكنك إذا أنعمت النظر في النظم الكريم، وجدت بهجة المعنى فيما جاء عليه هذا النظم.

ففي الآية الأولى يخبرنا القرآن الكريم بأن الله قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾، ولو أنه قيل: «فقالوا أتجعل فيها» لفهم من هذا أن قول الملائكة كان مرتباً على قول الله، دون مهلة ولا تريث، وذلك ما لا يتفق مع جلال الملائكة، وتعظيمهم وخشيتهم لله تبارك وتعالى، هذه الفاء التي قدروها، يختل بها المعنى.

والذي نفهم به الآية الكريمة ما جاء عليه النظم، فحينما قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تتشوف النفوس، وتتشوق القلوب، وتتساءل ماذا قالت الملائكة يا ترى؟ فتأتي الإجابة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، فالجملة القرآنية جاءت جواباً عن سؤال مقدَّر في النفوس. وهذا لا شك له أثر نفسي عند المخاطَبين جميعاً، لأنه يمكنهم من المشاركة في استخراج المعاني من الآية الكريمة، ولذا قرر علماء البيان، وأئمة البلاغة، أن الأمر حينما يكون من باب الاستئناف، فإنه يكون أكثر تأثيراً، وهذا ما يذكرونه في باب الفصل والوصل.

الآية -إذن- من باب الاستئناف البياني.

٣- كذلك قوله سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧]، فإن أمر الفاء التي قدروها محذوفة لا يستقيم به المعنى، ويقال فيها ما قيل فيما قبلها. الآية -إذن- من باب الاستئناف البياني، وهو أحسن هنا وأكثر تأثيراً من العطف الذي تكلفوا له القول بالحذف.

٤- أما قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:١٨٠] حيث قدروا (واوا) عاطفة تجمع بين هذه الآية وبين التي قبلها وهي ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨].

والحق أن تدبر الآيتين يحسن -إن لم نقل يحتم- القول بعدم العطف، ولقد فطن أبو حيان رحمه الله في البحر المحيط[1] لهذه الدقيقة، حيث رد على القائلين بالحذف، وإليك خلاصة ما قال:

إن قوله سبحانه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ يدل على أن هناك أناساً سيقتص منهم فيقتلون، وهؤلاء بالطبع هم من الذين يحضرهم الموت، فقوله

---

(١) ٢/١٦.

سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ إنما هو متعلق بما قبله، لأن هؤلاء الذين حضرهم الموت، منهم أولئك الذين سينالهم القصاص، فكأنه قيل: «فهل كتب على هؤلاء الذين سيقتص منهم قبل أن يقتلوا شيء؟»، فجاء الجواب يشملهم وغيرهم، فكانه قيل: «كتب عليهم وعلى غيرهم ممن حضره الموت، إن ترك خيراً الوصية». ويؤيد ما ذهب إليه أبو حيان مجيء ضمير المخاطبين في الآيتين.

٥- أما آية آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [آل عمران:١١٨].

فالحقيقة أن القول بوجود حرف محذوف يفسد به النظم، فليس معنى الآية: لا تتخذوا بطانة من منكم ولا يألونكم خبالاً، لأنه يؤدي إلى أن هذه البطانة منهم من يألوننا خبالاً، ومنهم غير ذلك، وهذا لا تقصد إليه الآية من قريب أو بعيد، وإنما المعنى لا تتخذوا بطانة من دونكم، ثم بيّن القرآن الأسباب التي من أجلها نهانا عن أن نتخذ الكفار بطانة، فكأنه قيل لِمَ؟ فذكر أسباباً كثيرة كل واحد منها يكفي كي لا نوالي أولئك.

وهذه الأسباب كلها جاءت على سبيل التعداد بدون حروف عطف، كان السبب الأول: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي: لا يقصّرون في إفسادكم وخبالكم، وكأنه قيل: وهل هناك شيء آخر، فقال: ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾، أي: أحبوا عنتكم ومشقتكم وصعوبة الأمر عليكم، وكأنه قيل: وهل هنا شيء آخر؟ فقال: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

٦- أما آية التوبة: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة:٩٢].

فذكروا[1] أن النظم هكذا: «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا».

والحقيقة أن هذا نظم ينبو عنه القرآن الكريم، ذلك لأنهم ما أتوا النبي ﷺ إلا ليحملهم، ولكن النبي ﷺ -وقد كرّمه الله فجعل رزقه كفافاً- قال لهم ما قال، ففعل الشرط وجوابه خاصان بالنبي الكريم.

والذين قالوا بحذف الواو، جعلوا جملة: تولوا جواباً لـ (إذا). وهذا الذي ينبو عنه النظم -كما قلت قبل-؛ لأنهم ما جاؤوا النبي ﷺ من أجل أن يتولوا باكين.

المعنى الذي يلائمه النظم -إذن- هو أن تكون جملة أتوك فعل الشرط، وجملة قلت جوابه: إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه. وهنا تستشرف النفوس لتعرف ما كان من شأن أولئك البررة، فكأنه قيل فماذا فعلوا بعد أن سمعوا من النبي ﷺ ما سمعوا؟ قيل: تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، وهكذا نجد القول بالحذف، قولاً مردوداً صناعة ومعنى، ونسقاً فنياً.

٧- قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف:٢٢].

وقد قدروا هنا واوين محذوفتين.

إحداهما: «ورابعهم».

والثانية: «وسادسهم».

وقد نسوا -عفا الله عنهم- قوله سبحانه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ولعمري ما يضير القرآن لو وضع هذه الواو، إذا كانت من صلب النظم فيه، ولعمري كذلك لمَ ذكرها مرة واحدة، وكان من الممكن أن تُحذف وأن يقدرها المقدرون؟

---

(١) إعراب القرآن للزجاج، ٢/ ٨٠٤.

إن تلك جرأة على كتاب الله تعالى، ما كنا نود أن يقدم عليها مثل أولئك الذين نُحسِن الظن بهم، ولقد رأيت تعليقاً للرافعي رحمه الله في كتابه «إعجاز القرآن» يرد فيه على بعضهم في شأن هذه الواو، اجتزئ منه ما يلي، قال رحمه الله:

«إنما كانت -أي الواو- في هذه الجملة دون غيرها مما تقدّمها، لتؤذن بأن الذين قالوا: إنهم سبعة كانوا على ثقة مما قالوه ولم يرجموا بالغيب، ولهذا فصلوا بين القوم وبين كلبهم الذي ليس منهم إلا في العد، وارتفاع هذه الواو من الجملتين الأولين جعلهما لا تصفان إلا الشك، وجعل سياق الكلام يؤكد أن الحساب في الجملتين من الغلط، وأن القول به لم يصدر على القطع والتحقيق، ولذا قال ابن عباس، حين وقعت الواو انقطعت العدة، أي لم يبقَ بعدها وجه للعدد، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، فتأمل كيف انتظمت هذه الواو معنى الآية كلها، وكيف تكون البلاغة المعجزة التي تجعل في تركيب الكلام أسراراً كأسرار الخلق الحي»[1].

٨- قوله سبحانه: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص:٦٣].

قال صاحب إعراب القرآن رحمه الله: «إن هنا واواً محذوفة، والتقدير: (وهؤلاء الذين أغوينا وأغويناهم كما غوينا)»[2].

ونوقن بأن أدنى تدبر للآية الكريمة، من شأنه أن يجعل المتدبر يلفظ ويرفض هذا القول، ولا يسمح لنفسه أن يتلفظ فيه، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ ﴾.

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ٢/ ٤٧.

(٢) إعراب القرآن، للزجاج، ٢/ ٨٠٣.

ولا أدري لِمَ لَمْ يقدروا واواً أخرى محذوفة في قوله سبحانه ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ فليس أحد الموضعين أولى من الآخر بهذا التقدير.

إن القول بالحذف، يؤدي إلى ركاكة النظم، وهو ما يجل عنه كتاب الله تبارك وتعالى، فكيف يمكن أن يقال: «هؤلاء الذين أغوينا وأغويناهم» والعطف يقتضي التغاير والجملتان من وادٍ واحد، ونذهب إلى ما ذهب إليه أئمة التفسير والنحو فأبو حيان[1] في بحره ونهره ذهب إلى أن قوله سبحانه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ مبتدأ صفته: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿أَغْوَيْنَآ﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وقوله: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الخبر، وإنما جاز أن يكون خبراً، لأنه مقيد، أي: أغويناهم كغينا.

وذهب أبو علي الفارسي[2] إلى أن قوله سبحانه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ جملة مستأنفة.

ونحن إذا تأملنا الآية الكريمة وتدبرناها حق التدبر، فربما يترجح لنا قول الفارسي، ذلك لأن قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ كلام مستقل بذاته ثم جاءت الجملة الثانية مستأنفة كأنه قيل: فكيف أغويتموهم؟ فقيل: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

وسواء اختير قول أبي حيان، أم قول الفارسي، فإن القول بحذف الحرف مستبشع مستكره، من حيث الوضع والطبع معاً.

٩- قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

قالوا: إن هنا واواً محذوفة، والتقدير: «فخرج على قومه في زينته وقال الذين».

(١) البحر المحيط، ٧/ ١٢٨.

(٢) الجمل على الإجلالين، ٣/ ٣٥٦.

ويا ليتهم قبل أن يقرروا ما يريدون، يقفون مع حس القرآن ونسقه. إن العطف يقتضي الاشتراك -كما نعلم- فإذا قلنا: فرح المجاهدون وحزن القاعدون، فنحن نود من أول وهلة أن نقرر الاشتراك. والنظم في الآية ليس من هذا القبيل، وإنما يريد أن يقرر القرآن، أن قارون حينما خرج على قومه في زينته اختلف الناس في شأنه، لأن منهم صاحب الإيمان القوي، ومنهم دون ذلك، فلم يرد القرآن أن يجمع بين الخروج وبين القول، وإنما المعنى الذي يعين عليه النظم أنه حينما قيل: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾، تساءل المتسائلون، فماذا كان شأن الناس؟ فقيل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

ثم إن حذف الواو يفيد نكتة بديعة أخرى، وهي أن هؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا، لمجرد رؤية قارون فيما هو عليه من زينة، قالوا ما قالوه. الحذف -إذن- مستبعد ومستكره كذلك.

١٠- قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ (٨)﴾ [الغاشية:٨].

قالوا: هنا حرف عطف مضمر محذوف. والتقدير «ووجوه يومئذ ناعمة». ولم أجد من المفسرين من أروى قوله ذا ظمأ، اللهم إلا جملة عند أبي السعود، نقلها عنه الآلوسي والشيخ الجمل، وهي قوله: إنه ترك العطف «إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما»(١).

ولقد وقفت عند هذه الآية، وعند ما يشبهها من كتاب الله تعالى، وهي قوله سبحانه: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) ﴾ [عبس:٣٨-٤٠]. ولعل عذر القائلين بالحذف، أنهم وجدوا هذه الواو جيء بها في هذه الآية الكريمة ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠)﴾ فقاسوا آية الغاشية عليها.

---

(١) الجمل على الجلالين، ٤/ ٥٢٦.

ولكننا حينما ننعم النظر في الآيات، نجد فروقاً بين الموضعين، فأنت ترى أن الآية الأولى التي عطفت بالواو، كان الحديث فيها حديثاً مجملاً، غير مفصل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾، ذلك لأن ما قبل هذه الآية، يستدعي إجابة عن الفريقين، وهو قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس:٣٧]. وهذا بالطبع يشمل المؤمنين، والكافرين معاً، ولا يخص فريقاً دون فريق، إذن لا بد أن يبين حال الفريقين فقال: ﴿وُجُوهٌ﴾، ﴿وَوُجُوهٌ﴾.

أما سورة الغاشية فالأمر يختلف فيها اختلافاً كلياً، فالحديث من أول السورة كان عن فريق واحد، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)﴾ [الغاشية:١]، وهذه التسمية تشير إلى ما يغشى أولئك المعرضين من العذاب، ثم بدأ يفصل في شأن أولئك الذين يغشاهم العذاب، فبين وفصل وشرح كثيراً من أحوالهم، وما يلقونه وما يصلونه، وما نوع طعامهم. ولما انتهى من أمرهم انتقل للحديث عن الفريق الآخر، وكانت روعة النظم وجودة السبك، وفخامة المعنى تقتضي ترك العطف، لأنه لو عطف لكانت الغاشية للفريقين معاً، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، ولكن الأمر ليس كذلك كما عرفت.

إذن الحديث من أول السورة عن فريق واحد، فلما انتهى من شأنه جاء دور الحديث عن فريق آخر لم يتحدث عنه من قبل، فكان من الأولى أن يكون الحديث عنه بطريق الاستئناف، ذلك ما يبدو لي -والله أعلم بمراده- فيما يتصل بهذه الآية الكريمة. وأرجو أن تتأمل ما قلته لك، لتتذوقه كما تذوقته.

١١- قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)﴾ [الليل:١٥-١٦]. قالوا: وأصل النظم «والذي كذب وتولى» فجعلوا الذي يصلى النار نوعين الأشقى أولاً، والذي كذب وتولى ثانياً، ولا أدري لم هذا التكلف والتمحل؟ أفيكون هناك

أشقى من الذي كذب وتولى؟ ولماذا كان هو الأشقى، أليس لأنه كذب وتولى؟ إن الذي حملهم على القول بالحذف، هو أنهم جعلوا الأشقى وصفاً لشخص معين، مع أن القرآن لم يحدثنا عما يسند ذلك القول ويصححه. إن الأشقى هو نفسه الذي كذب وتولى. فالقول بالحذف -إذن- كديد، غير سديد.

هذه بعض حروف العطف التي قالوا بحذفها، ولا تظنن أننا نستطيع الاستقصاء، ولا نوده كذلك، وإنما نريد أن نأتي لك بأمثلة لتكون عوناً وهادياً فيما يعرض لك، أو يعرض عليك من هذا القبيل.

ثانياً: حروف الجر:

١ - قال تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦].

يقول أصحاب إعراب القرآن: إن في هذه الآية حرفاً محذوفاً، وهو (إلى)، والتقدير «اهدنا إلى الصراط المستقيم»[1] ويستدل لذلك بمثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

وبادئ ذي بدء أحب أن أقرر هنا، أن النظم القرآني امتاز بالدقة والإحكام، وأن هذه الدقة تنسجم وتتناسب مع السياق، وهل النظم إلا ترتيب اللفظ في النطق، ترتيباً يتفق مع المعنى المراد؟ ولو أننا أنعمنا النظر في الآيات لرأينا ما يثلج الصدر، وتهتز له النفس طرباً، والقلب خشوعاً.

ولنقف مع هذه المادة في كتاب الله تبارك وتعالى، وكيف جاءت على نسق بديع، ونظام محكم إن فعل الهداية يجيء في كتاب الله تعالى مسنداً إلى الله حيناً، وإلى غيره حيناً آخر، ذلك لأن الهداية إما أن يراد منها التوفيق والإيصال، وإما أن يراد بها الدلالة والإرشاد، والفاعل الحقيقي في هذين المعنيين هو الله تبارك وتعالى، إلا أنها

(١) إعراب القرآن، ١/ ١٠٦.

بالمعنى الثاني قد تسند إلى غيره سبحانه، لذلك جاءت هذه المادة لتكون من دلائل الإعجاز في كتاب الله سبحانه.

فإذا أسند هذا الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، رأيناه في أكثر الآيات يتعدى بنفسه، وقد يتعدى بحرف الجر على قلة، لأن الهادي -أياً كان معنى الهداية- هو الله سبحانه، وإذا جاء مسنداً لغيره سبحانه فلا بد من أن يتعدى بحرف الجر، وتلك لعمر الحق دقة لا يستطيعها البشر، قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد:١٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح:٢]، ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:١٧٥]، وقال سبحانه حاكياً عن الرسل عليهم السلام: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، هذا ما أسند الفعل فيه إلى الله سبحانه من غير أن يوسط حرف الجر، وقد جاء على قلة -كما قلت- متعدياً بحرف الجر، قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج:٥٤]، والذي يرجع إلى سياق الآيات يدرك الفرق الواضح بين هذه الآية التي وسط فيها حرف الجر (إلى) وبين الآيات السابقة التي عدي فيها الفعل بنفسه.

أما ما أسند الفعل فيه لغير الله تعالى، فنمثل له بقوله سبحانه: ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ص:٢٢]، وهو ما قاله الذين تسوروا المحراب لداود عليه السلام، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥]، وقال سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحج:٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٣].

ومن هنا ندرك أنها ظاهرة أسلوبية في كتاب الله تعالى، وهي من دلائل الإعجاز -كما قلت من قبل- لأن الله هو المبين الحقيقي، والموفق. أما هداية غيره

سبحانه، فإنما هي إرشاد ودلالة لا يستقل أصحابها بها، وإنما هي تابعة لمشيئته سبحانه، ألا ترى إلى قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وهكذا ندرك أن القول بالحذف، ليس أغرب منه إلا ادعاء الزيادة في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، أعني زيادة (إلى) قياساً على قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾، والحذف والزيادة توأمان، القرآن منهما براء.

وأخيراً ما أحرانا أن نتدبر هذه الآية ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ [يونس:٣٥]، فانظر كيف كان الحديث عن الشركاء، وكيف كان الحديث عن الله، وكيف اختلف الفعل في الموضعين.

٢- قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة:١٣٠] والتقدير عند دعاة الحذف: إلا من سفه في نفسه. والحقيقة أن الحرف الذي قدروه يشوه النظم، ويذهب برونق المعنى، فضلاً على أنه لا حاجة له من حيث اللغة.

ولقد ذهب الأئمة إلى أن قوله تعالى: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ معناه «إلا من جهلها» لأن السفه معناه الجهل، وتقدير الحرف المحذوف، بحيث يصير النظم «سفه في نفسه» ينبو عنه النظم الكريم -كما قلت- فليس المراد جهله في نفسه، فذلك أمر خاص به، وإنما المراد جهله نفسه واستخفافه بها. قال الشيخ الجمل رحمه الله تعالى:

«قوله: جهل أنها مخلوقة لله، أشار بهذا إلى أن سفه مضمن معنى جهل وقوله: أو استخف بها، أشار به إلى أنه متعد بنفسه من غير تضمين، وهما وجهان حكاهما السمين، ونصه قوله: «نفسه: في نصبه وجهان أحدهما، وهو المختار، أن يكون مفعولاً به؛ لأن ثعلباً والمبرد حكيا أن سفه يكسر فيتعدى بنفسه كما يتعدى سَفَّه

بفتح الفاء والتشديد، وحكي عن أبي الخطاب أنها لغة، وهو اختيار الزمخشري، فإنه قال: سفه نفسه: امتهنها واستخف بها، والثاني: أنه مفعول به، ولكن على تضمين سفه معنى فعل يتعدى، فقدره ابن جني والزجاج بمعنى جهل، وقدره أبو عبيدة بمعنى أهلك.

«قوله جهل أنها مخلوقة»: أي لم يستدل بها فيها من آثار الصنعة على الوحدانية وعلى نبوة نبينا بالمعجزة، والعرب تضع سفه موضع جهل، لأن مَن عبد حجراً، أو قمراً أو شمساً أو صنماً فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها»[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]، قالوا: والتقدير: ولا تعزموا على عقدة النكاح، لأن عزم -كما يقولون- تتعدى بحرف الجر، يقال: «عزمت على كذا»، واستدلوا لذلك ببيت من الشعر، ولا أدري لِمَ اكتفوا بهذا الموضع؟

ولقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾ [البقرة:٢٢٧]، وعلى هذا ينبغي أن يكون في هذه الآية حرف محذوف كذلك، ولكننا نرد القول بالحذف:

أولاً: لأن الآيتين جاءتا على نسق واحد، ونظام واحد، وكان هذا كافياً لرد قول أولئك وردعهم عن قولهم.

ثانياً: إن القول بأن عزم لا تتعدى بنفسها، قول يعوزه الدليل، وخير شاهد على ذلك التنزيل.

ثالثاً: إن عزم هنا ضمنت معنى آخر، والتضمين بلاغة كما يقرر أئمة البيان، كأن يقال: «ولا تنووا أو تتموا عقدة النكاح، أو تباشروا، أو تبتوا، أو تنفذوا».

---

(١) الجمل، ١/١٠٨.

واعلم أننا لا نوجب القول بالتضمين، ولكننا ذكرناه مساهلة لمن يرى أن عزم لا تتعدى بنفسها، ونحن لسنا مع هذا الرأي، فإن استدلوا بالشعر كان دليلنا القرآن، وهو خير ما يستدل به.

أما قولهم: «عزمت علي كذا»، أو «عزمت عليك أن تفعل كذا»، ففي الأول معنى التصميم، وهو يتعدى بـ«على»، وفي الثاني: معنى القسم.

والخلاصة: أنه لا داعي للقول بالحذف -كما رأيت-.

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]، قالوا: والمعنى يخوف بأوليائه، بدليل فلا تخافوهم.

ولكننا نقول: لِمَ لا يكون المعنى: «يخوفكم أولياءه»، وهذا ما يدل له قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾. إن (خوف) يمكن أن تعدى للمفعولين بنفسها، دون واسطة حرف الجر.

٥- ومما كادوا يجمعون على الحذف فيه قوله سبحانه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]، وأصل النظم عندهم: «واختار موسى من قومه».

ولكن بعد تأمل في الآية الكريمة، نجد أن إبقاء الآية على ما هي عليه، أسد نظماً، وأصح حكماً، ذلك لأن هذا الفعل يتعدى بنفسه، هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإن معنى الآية دون اللجوء للحذف فيه مزية، سوف تتلاشى عند القول بالحذف، وإليك بيان ذلك:

إذا قلنا: «واختار موسى من قومه سبعين رجلاً»، فإن القوم هنا تشمل بني إسرائيل جميعاً، ويصير المعنى «اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً».

ولكننا إذا أبقينا الآية على ما نزلت عليه من عند الله تعالى، وكما قدر العزيز العليم، يكون المعنى هكذا: «واختار موسى قومه، أي اختار موسى قومه الذين

سيذهبون معه للمناجاة، فتكون كلمة القوم هنا خاصة لأولئك الذين اختارهم موسى عليه السلام لا تعم بني إسرائيل جميعاً، ثم ذكر لهؤلاء القوم الذين اختارهم موسى مزيد بيان، فقال سبعين رجلاً، فيكون هؤلاء الذين اختارهم موسى ذكروا مرتين، ذكروا أولاً بعنوان القوم، ثم ذكروا ثانياً ببيان العدد، ولا شك أن هذا فيه من التفخيم، والتعظيم ما لا يوجد في القول الأول الذي يعتمد الحذف، لأنهم على ذاك القول لم يُذْكَروا إلا مرة واحدة، ألا ترى إلى ما أصاب موسى عليه السلام حينما أهلكوا».

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥١-٥٢]، والحرف المحذوف الذي قدروه هنا (عن) أي: لا يضل عن ربي.

وأعجب، ويعجب معي كل منصف كيف استساغوا مثل هذا التقدير، فهو مع ما فيه من تكلّف، يذهب بجلالة النظم، وصحة المعنى، وإليك بيان ذلك:

يقول موسى عليه السلام : إن أخبار القرون الأولى وأحوالهم عند ربي، في كتاب محفوظ، لا يضيع الله عنه شيئاً، ولا ينسى منه شيئاً كذلك، وتقدير حرف الجر يخل بهذا المعنى، لأن الفاعل لا يكون واحداً، مع أن الفعلين من وادٍ واحد كما يدل عليه السياق، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾، أي: ولا ينسى ربي، هذا هو المتبادر.

أما على ما ذهبوا إليه، فسيكون الفاعل للفعل الأول عائداً على الكتاب، أي: لا يضل الكتاب عن ربي، والفاعل للفعل الثاني: ينسى عائد على الله، وهذا تفكيك للنظم، وتفتيت للسياق، حريّ بنا أن ننزه القرآن الكريم عنه.

٧- قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور:٦٣]. والحرف الذي قدروه في هذه الآية الكريمة (على)، ومعنى الآية عندهم: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم على بعض.

وهذا التقدير: يفترض فيه أن المجتمع المسلم مجتمع تقاطع وكراهية فليس فيه إلا أن يدعو كل واحد على الآخر، وكأن الرسول ﷺ -وهو الرحمة المهداة، والنعمة

المسداة- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، أقول: كأن الرسول الكريم ﷺ ليس من شأنه إلا أن يدعو على الناس.

إن تقدير هذا الحرف لا أقول: يُذْهِبُ رونقَ النظم فحسب، ولا أقول: يفسُد به المعنَى فقط، وإنما هو بعد ذلك كله يتناقض ويتنافى مع ما كان يتصف به النبي الكريم ﷺ من رحمة ومحبة من جهة، وبين ما كان عليه المجتمع المسلم الأول من جهة أخرى. كيف وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح:٢٩].

فهل يتناسب هذا مع الحرف الذي قالوا بحذفه، اللهم، لا.

ومعنى الآية الكريمة:

أي: لا تجعلوا دعاء الرسول حينما يدعوكم كما يدعو بعضكم بعضاً، أي إذا دعاكم الرسول ﷺ فلا بد أن تلبوا دعاءه، ولا يجوز لكم بحال ما أن تجعلوه كدعاء بعضكم لبعض.

فإضافة الدعاء إلى الرسول ﷺ من إضافة المصدر لفاعله، وقد يكون المعنى: لا تدعو الرسول ﷺ وتنادوه كما يدعو بعضكم بعضاً ويناديه. وإنما ينبغي أن تعظموه ﷺ حين دعائكم وندائكم له، فتكون إضافة الدعاء إلى الرسول ﷺ من إضافة المصدر إلى مفعوله.

وعلى التفسير الأول تكون الآية حثاً للمؤمنين أن يستجيبوا للرسول إذا دعاهم. وعلى التفسير الثاني تكون الآية حثاً للمؤمنين كي يعظموا الرسول ﷺ إذا دعوه ونادوه.

وعلى كلا التفسيرين لا نجد مكاناً للحرف الذي ادعوه محذوفاً.

٨- وقد قدروا الحذف في قوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر:١٢]، ولكنهم هنا افتنوا في تقدير هذا الحرف، فتارة قالوا: إن

المعنى وفجرنا من الأرض، فالمحذوف هو (من) وأخرى قالوا: إن النظم وفجرنا الأرض بعيون، فالمحذوف هو الباء، ويعلم الله أنه لا هذا ولا ذاك.

ولو أننا وقفنا مع سياق الآية الكريمة، لأدركنا أن السياق والمعنى يأبيان هذا الحذف، الآية جاءت حديثاً عن الطوفان حينما دعا نوح ربه أني مغلوب، فانتصر الله له ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١١-١٢]، إن السياق يدل على تهويل الأمر، وكيف كانت السماء كلها أبواباً، وكيف كانت الأرض كلها عيوناً، أن القول بالحذف سواء كان «فجرنا من الأرض عيوناً» أم «فجرنا الأرض بعيون» لا ينسجم مع ما يريده القرآن، ذلك لأن ما يريد أن يبينه القرآن الكريم، أن الماء كان يعم هذا الكون سماء وأرضاً، فليست هناك عيون خاصة فجرت من الأرض أو فجرت بها الأرض.

ولعلك تعجب إذا عرفت أن عشاق الزيادة وقفوا عند قوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس:٣٤] فقدَّروا أن هنا حرفاً زائداً وهو (من)، ولو أنصف هؤلاء وأولئك لوقفوا مع النص القرآني فيما يرشد إليه، وفي سياقه الذي يتفق مع نظمه، ولأدركوا أن لا حذف في الآية الأولى، لأنها جاءت في سياق الحديث عن الطوفان، وأن لا زيادة في الآية الثانية، لأنها جاءت في سياق طبعي، كان الهدف سببه بيان قدرة الله.

٩- وأخيراً نقف مع قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل:١٧].

ولقد أبوا إلا أن يجعلوا حرفاً محذوفاً كذلك في هذه الآية، ونظم الآية عند هؤلاء، فكيف تتقون أن كفرتم بيوم.

ولا أدري كيف يمكن أن يتم المعنى على هذا التقدير، وهل من كفر باليوم الآخر يمكن أن يوبخ على عدم التقوى، وهل بعد الكفر ذنب؟ ذلك معنى ينفر منه

الطبع والذوق، والمعنى المتبادر من الآية الكريمة: كيف تتقون يوماً عظيماً، وتخلصون أنفسكم مما فيه من هول، إن اخترتم الكفر على الإيمان؟ فيكون ﴿يَوْمًا﴾ مفعولاً لـ ﴿تَتَّقُونَ﴾.

وأكتفي بهذا القدر. والحق أنهم أسرفوا كثيراً في إقحام الحرف بين الزيادة والحذف، والذين يتدبرون آي القرآن الكريم سيجدون من روعة النظم ما تزكو به نفوسهم، قد يَذكُر القرآنُ الكريم حرفاً في آية ويحذفه في أخرى، ولكل من الحذف والزيادة موقعه وموضعه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل السابع عشر

تحليل لبعض السور القرآنية

بعد هذا التطواف فيما عرفته من فصول في الإعجاز البياني، أردنا تتميماً للفائدة -وقد آثرنا أن يكون كتابنا هذا يمتاز بالدراسة الميدانية العملية للإعجاز- أقول: بعد هذا التطواف الذي حدثناك فيه عن الكلمة القرآنية، وعن الجملة، والفقرة، وعن التكرار والزوائد والفاصلة، إلى آخر ما حدثناك عنه، يجمل بنا أن نقف مع بعض السور القرآنية، لنحاول تحليلها تحليلاً فنياً.

وأعني بالتحليل الفني، التحليل البياني والموضوعي، وإن شئت فقل تحليلاً عاماً نطبق فيه ما درسناه في الفصول السابقة، على السورة المراد تحليلها. فندرسها مثلاً من حيث الكلمات، والفواصل، والترابط، والتكرار -كما يسمونه-. وإياك أن تظن أنني أريد أن أفسّر لك السورة، فليس غرضنا الآن التفسير، وسأقتصر لك وأوجز ما وسعني ذلك، وسوف لا أختار لك من الطوالِ، وأكتفي باختيار سورتين اثنتين، أولاهما مكية، والأخرى مدنية، حتى ندرك أن الأسلوب القرآني، مكيه ومدنيه سواء، وليس كما زعم بعضهم من أن القرآن المكي يختلف عن المدني، من حيث الرصانة، والجزالة، والقوة، وهي فرية كفانا مؤونة الردّ عليها، كثير من العلماء رحمهم الله تعالى.

السورة المكية التي اختارها لك سورة الزخرف، والسورة المدنية سورة المجادلة.

١- سورة الزخرف:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾
وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن

كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ
بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا
تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي
سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ
إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي
الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا
خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ
عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن
نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم
بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ
وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ
﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ
تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ
نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم
مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ
ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾
وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا
تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن
ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا
فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا
وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾
وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ
أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ
﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم
بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ
مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ
يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ
لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ
عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا

خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ
رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ
ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

سورة الزخرف هي إحدى الحواميم السبع، والحواميم عرائس القرآن، وهن الروضات الدمثات -كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه- وسورة الزخرف في المصحف بعد سورة الشورى، وصلتها بسورة الشورى ظاهرة تَكَلَّمَتْ كل منهما عن الكتاب الكريم، ففي سورة الشورى نقرأ قول الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الشورى:٧]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢]. وجاءت سورة الزخرف لتكمل الموضوع، الذي حدثتنا عنه سورة الشورى، حيث بدئت بذكر الكتاب، وما يستحقه من أوصاف، ثم موقف الناس منه. والحق أن المناسبات بين الحواميم أو آل حميم بيِّنة، لا تحتاج إلى كبير تأمل.

تسمى السورة سورة الزخرف، وقد ذكرت هذه الكلمة في السورة الكريمة، ولكن ليس هذا فحسب، بل سنرى أن موضوع السورة متسق مع اسمها. بدأت السورة بالحروف المقطعة (حم) وهي حروف أصح ما يقال فيها: إنها للتحدي،

والتنبيه والإيقاظ، وهذا مفصل في كتب التفسير، ثم أقسمت بالكتاب المبين، وجواب القسم: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣]، فالقسم وجوابه -كما ترى- من وادٍ واحد، ومشكاة واحدة؛ القسم بالكتاب، وجواب القسم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾. وقد بينا لك في الفصل الأول من هذا الكتاب، سر استعمال الكتاب تارة والقرآن أخرى، وسر استعمال الجعل تارة، والإنزال أخرى، فلا نعيده هنا، كما بينا لك في أول هذا الكتاب سر قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾.

ووصف القرآن بقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف:٤]، وقد تقدم لك سر استعمال كلمة «أم» حينما حدثناك عن الرماني ورسالته في إعجاز القرآن، وعرفت أنها استعارة بديعية. وهذان الوصفان «عَلِيّ حكيم» وصف بهما القرآن، وهما اسمان من أسماء الله -كما جاء في آخر السورة السابقة.

وبعد هذه التقدمة الجامعة الموجزة عن القرآن تتوجه السورة لخطاب أولئك المعرضين، الذين كان من حقهم أن يؤمنوا بهذا القرآن العربي، الظاهر من حيث نظمه، والمبين فيه ما يُسعِد أولئك القوم وغيرهم، ولكن إسرافهم حال بينهم وبين أن يؤمنوا به، ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الزخرف:٥] أي: أنهملكم فنعرض عنكم وندعكم، لأنكم مسرفون؟ لن يكون هذا، بل سيستمر تذكيركم. وبعد هذا، بيّن الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه، بأن هذا شأن الأمم من قبلهم، وبأنه ما من قوم جاءهم نبي إلا استهزؤوا به، فكانت سنّة الله أن يهلك أولئك المستهزئين، وقد كانوا أشد من أولئك بطشاً، وأكثر منهم قوة وآثاراً في الأرض. وهو وعيد لأولئك إن لم يؤمنوا ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الزخرف:٨].

وبعد هذا المقطع توجهت السورة الكريمة لإلزام أولئك بالحجة، وكان السؤال الذي وُجِّه لهم، لا يستطيعون التخلص منه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:٩] وبنت السورة الكريمة على هذه الإجابة المفصلة، آثار قدرة الله العزيز العليم، المتمثلة بهذه النعم التي لا يستطيعون عنها غناء، مِن جَعْلِ الأرض لهم مهداً، وجَعْلِهِ فيها سبلاً وطرقاً للهداية، ثم إنزال الماء من السماء بقدر، ليحيي الأرض الميتة، وكذلك شأن البعث، فكما يخرج النبات من الأرض الميتة الجرداء، سيخرجون من قبورهم كذلك، وليس هذا فحسب، بل هو الذي خلق الأزواج -الأصناف- كلها، وجعل لهم من الفلك والأنعام ما يركبون، ويقضون عليها حاجاتهم، كل ذلك من أجل أن يذكروا نعمة الله تعالى، ويحمدوه ويشكروه، ويقولوا ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف:١٣-١٤]، وبعد أن ذكرتهم السورة بهذه النعم العظيمة عليهم، عرضت لهم بطريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، فذكرت أنهم جحدوا هذه النعم وكفروها، وجعلوا لله من عباده جزءاً، فقالوا: الملائكة بنات الله، وذلك كفر فاحش ظاهر ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف:١٥].

وبعد أن بينت السورة الكريمة شيئاً من سفههم، فهم يكرهون البنات ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف:١٧]، وبقي حزيناً مهموماً، وكيف جعلوا لله البنات، وأبَوْها لأنفسهم، ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف:١٨] وهي كناية بديعة.

وبعد هذا أخذت السورة الكريمة تناقشهم، وترد شبهاتهم، فهؤلاء وقد ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ بالطبع لا ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩] يحتجون على عبادتهم لما يعبدون من دون الله بقوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ [الزخرف:٢٠]. ولكن من أين لهم هذا؟ هل عندهم دليل عقلي يتمسكون به ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف:٢٠] ويكذبون، والفاصلة هنا يخرصون، وجاءت في سورة الجاثية ﴿يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤]؛

لأن السياق هنا يقتضي هذه الفاصلة؛ وذلك لكذبهم فيما ادعوه، أما في سورة الجاثية فكان السياق حديثاً عن البعث، وإذا لم يكن لهم دليل عقلي، فهل هناك دليل نقلي يستمسكون به؟ ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الزخرف:٢١]. وإذا لم يكن لهم هذا ولا ذاك، فما هي حجتهم إذن؟ ليس لهم إلا قولهم، بأنهم وجدوا آباءهم على أمة، وهم على آثارهم مهتدون. وترد السورة الكريمة هذه الشبهة.

أولاً: بأن هذا هو شأن الأمم من قبلهم، كانوا يتمسكون بهذه الشبهة، فها هم المترفون من أقوام الأنبياء، يقولون هذا القول: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف:٢٣] وهنا فرق بين الفاصلتين -كما ترى- الفاصلة الأولى مهتدون، لأن العرب كانوا يتحدثون عن قضية الملة والدين، وهذه يناسبها الهداية، أما الأمم السابقة فالحديث عنها حديث عام، فهم يقتدون بآبائهم في مجالات الحياة جميعاً.

ثانياً: وترد عليهم السورة ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ ولكن القوم يمعنون بالإعراض والتكذيب ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف:٢٤-٢٥].

وثالثاً: ترد عليهم بطرف من خبر إبراهيم عليه السلام، وهم يزعمون أنهم ينتسبون إليه، والرد عليهم من جهتين؛ الأولى: أنكم إذا كنتم تقلدون آباءكم، فلماذا لا تقلدون خير أولئك الآباء إبراهيم عليه السلام؟ فهو أحرى بالاتباع من غيره. والجهة الثانية: أن إبراهيم عليه السلام، كان آباؤه وقومه معرضين عن الحق فتبرأ منهم، فلِمَ لا تقتدون به من هذه الجهة كذلك، ولا تطيل السورة في خبر إبراهيم عليه السلام، بل تَذْكُره من هذه الحيثية فحسب، وهذا منسجم مع موضوع السورة انسجاماً تاماً -كما ترى- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦]. وبعد إلزامهم الحجة، وبعد أن سُقِط في أيديهم، وبعد أن سدت عليهم المنافذ جميعها، في

شبهة تقليد الآباء، ينتقلون إلى شبهة أخرى -وكذلك أهل الباطل يتصيدون ويتخبطون، فما هي هذه الشبة يا ترى؟ وهذه هي الثالثة -كما رأيت- كانت الأولى قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ والثانية: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾. أما الشبهة الثالثة فهي قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١]. ويظهر أن القريتين مكة والطائف، وقد اختلف المفسرون كثيراً في الرجلين، وإن كان الكثير منهم يرجح أنهما الوليد وعتبة بن مسعود، وهذا لا يعنينا هنا بالطبع. ويرد القرآن عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢] بهذا الاستفهام الإنكاري، الذي فيه تعجيب من شأنهم، وبهذا النظم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ﴾ حيث قدم المسند إليه، ولم يقل: «أيقسمون»، كأنه يقول: ليس هذا من شأنهم، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات وسُخر بعضهم لخدمة بعض، وذلك كله متاع زائل، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ورحمة ربك خير مما يجمعون. والظاهر أن الرحمة الأولى في الآية هي النبوة.

وتستمر الآيات بالرد المحكم على هذه الشبهة فمقياس العظمة عندهم إنما هو الثراء والجاه، وهذا هيّن عند الله تبارك وتعالى، بل نجده في أيامنا لا يصلح مقياساً عند كثير من الأمم المتحضرة المتمدينة، أقول: تستمر الآيات برد هذه الشبهة، وتفصّل السورة تفصيلاً حكيماً؛ فمتاع الدنيا قليل، وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة. ولكن ما دامت كذلك فلِمَ لم يجعل الله فيها للكافرين الحظ الأدنى، والنصيب الأوفر فتكون لبيوتهم سُقفاً من فضة، ومعارج عليها يظهرون، إلى غير ذلك؟

يبين الله ذلك كلَّه وهي أنه لم يشأ ذلك، حتى لا يميل الناس إلى الكفر؛ ذلك أن الإنسان ضعيف، فحينما يرى الكافرين قد جمعوا زخارف الحياة ربما تضعف نفسه أمامه، ولهذا اقتضت حكمة الله أن تكون قضية الغنىَ والفقر، ليس لها دخل بين الكفر والإيمان، فقد يفتقر الكافر، ويغتني المؤمن، أما الآخرة فهي للمتقين

فحسب. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف:٣٣]...

وتستمر في الرد على أولئك الذين أعرضوا عن ذكر الله، وقد أضلتهم شياطينهم ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف:٣٦] إلى آخر ما في هذا السياق من قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الزخرف:٣٧] إلى قوله: ﴿ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزخرف:٣٩] فتحدثنا عما يكون بين الكافرين وشياطينهم، وبعد هذا تتوجه السورة للنبي ﷺ تثبته وتسليه، فليس عليه إلا البلاغ، ولن يستطيع غير ذلك، فهو لا يُسمع الصُمّ، ولا يهدي العُمي، ومن كان في ضلال مبين، ولا بد أن يُلاقوا ما أُعدَّ لهم، من أهوال العذاب، وقد يكن ذلك العقاب بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد يكون في حياته ﷺ ، ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف:٤١-٤٢]. فما عليك أيها النبي إلا أن تستمسك بالذي أوحي إليك، فأنت على صراط مستقيم، وأن هذا القرآن شرفٌ لك ولقومك، وكان حرياً بأولئك أن يدركوا هذه الحقيقة الكبرى، ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾. هذه الحقيقة الكبرى ليست جديدة عليك وعلى قومك، وإنما هي مستقرة في أعماق التاريخ، إنها عقيدة التوحيد، الذي ينازع فيه قومك ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف:٤٥].

وتستمر الآيات بالرد على هذه الشبهة، ولكنها الآن تذكر طرفاً من قصة نبي آخر، هو موسى عليه السلام كما ذكرت قصة إبراهيم عليه السلام متسقة مع رد الشبهة الثانية، وهي تقليد الآباء، فلقد ذكرت قصة موسى كذلك، متسقة مع هذه الشبهة الثالثة، وهي تقديس المال، والعناية بالترف، وما ذُكِرَ في قصة (موسى) هنا، خاصّ بسورة الزخرف متلائم مع موضوعها ومع موضوع الشبهة التي رد بها بخاصة، وهي

الشبهة الثالثة كما عرفت. كان خاصاً بهذه السورة، فهذا فرعون من قبلهم، ردّ نبوة موسى، لأنه ليس له شيء من زينة الدنيا وبهجتها، وها هو ينادي في قومه، بأن له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، فهو خير من موسى، وإذا كان موسى رسولاً فهلا ألقيت عليه أسورة من ذهب؟ وجاء معه الملائكة مقترنين، وهكذا استخف فرعون قومه فأطاعوه، فأغرقوا. وقصة موسى هنا جاءت موجزة، لم تحدثنا عن السحرة وإيمانهم، وغير ذلك مما اشتملت عليه قصة موسى.

ثم تعرض السورة الكريمة لطرف من قصة عيسى عليه السلام، ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزخرف:٥٧] بكسر الصاد، ومعناه يصيحون ويضجون، وأما يصُدُّون بضمها فمعناه يعرضون أو يمنعون. ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ [الزخرف:٥٨] وبين الله تعالى أنهم قوم خصمون جدلون، وأن عيسى إنما هو عبد أنعم الله عليه، وجعله مثلاً لبني إسرائيل.

وقصة عيسى عليه السلام الموجزة هنا، متلائمة مع موضوع السورة كذلك، بل مع رد الشبهة، وذلك أن عيسى لم يعرف بالثراء في بني إسرائيل، ولم يكن له نصيب من المال الوفير، والغنَى الفاحش، فهو من هذا الجانب كموسى عليه السلام الذي أنكر فرعون نبوته؛ لأنه ليس له رياش وأنهار وأسورة من ذهب، وهذا السبب الذي أنكروا نبوتك أيها النبي من أجله، ولذا قال القرآن في شأن عيسى في هذه السورة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ [الزخرف:٥٩].

وتنتقل السورة بعد ذلك، إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، وبأن هؤلاء مع ما بينهم من خلة ومودة، فإنها ستنقلب إلى عداوة ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف:٦٧]. وتذكر طرفاً مما أُعِد لأهل الجنة، يتناسب كذلك ويتسق مع موضوع السورة الكريمة، فهم وأزواجهم يُحبَرون، أي: يسرون سروراً عظيماً، وينعمون ويكرمون، والحبرة تدل على التجمل، فتعرف في وجوههم

نضرة النعيم، ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين، إلى غير ذلك مما أعده الله لهم.

ثم تعرض السورة لما أعد لأهل النار، وبعد هذا كله ترد السورة عليهم بأن الله واحد، لا ينبغي أن يكون له ولد، ذكراً كان أم أنثى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف:٨١]. وبعد هذا الإلزام تذكر السورة بعض الآيات التي فيها تقديس الله، والثناء عليه ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الزخرف:٨٢]، وتبارك الله، فهو الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، وليَدَعِ النبيُّ أولئك القوم في خوضهم ولعبهم، حتى يأتيهم اليوم الذي يوعدون.

وتختم السورة بهذا السؤال الموجه لهم، والمتسق مع ما جاء في أولها، فلقد سئلوا في أول السورة عمَّن خلق السموات والأرض، ولكنهم الآن يُسْأَلُون عمن خلقهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف:٨٧] فما بالهم يُصرفون عن الحق إذن؟ إذا كان هذا شأنهم في إعراضهم وإقناعهم، فاصفح عنهم أيها النبي وأعرض عن غيِّهم وجهلهم ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف:٨٩] وهو وعد للنبي ﷺ وللمؤمنين ووعيد لهم.

هذه السورة من حيث الموضوعات، متسقة متناسقة، ويمكن أن نتبين بعد هذا التحليل الموجز، أن موضوع السورة منسجم مع اسمها؛ ذلك لأنها ركزت على قضية الزخرف ومتاع الدنيا، وما يتشبث به أولئك القوم، من إيثار لهذا المتاع الدنيوي، وجعله شرطاً للنبوة، كما نجد عرضاً لشبهاتهم وردها ردّاً يرتكز على الكون والتاريخ معاً، والعقل والنقل كذلك، وأن ما ذكر من قصص كان خاصاً بردّ هذه الشبهات، ومنسجماً مع موضوع السورة، وأن فواصل السورة جاءت منسجمة مع الآيات انسجاماً كاملاً، ولقد تعددت في هذه الفواصل كلمة (مبين)، فكان لها في كل موضع معناها الذي يختلف عن الموضع الآخر، فهي في قوله: ﴿ وَالْكِتَابِ

﴿ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف:٢] غيرها في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [الزخرف:١٥] وهي غيرها في قوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝١٨﴾ [الزخرف:١٨] وهكذا قوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۝٢٩﴾ [الزخرف:٢٩]، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠﴾ [الزخرف:٤٠]، وفي هذا أبلغ رد على دائرة المعارف البريطانية، التي حدثتك عنها من قبل، من أن الفاصلة جاءت لتتميم الآية فقط، دون أن يكون لها صلة بها، فلو كان الأمر كذلك -ومعاذ الله أن يكون- لغيرت كلمة مبين في هذه الفواصل جميعاً، بغيرها من الكلمات، وهي كثيرة.

أما أسلوب السورة، فإنك لتلمح فيه القوة والجزالة والفخامة، وبخاصة الآيات الأولى، كما تلمح فيها العذوبة والسلاسة والسهولة وبخاصة القسم الأخير منها. وإنك لتجد القصد باللفظ كذلك، والوفاء بالمعنى، كما تجد الإقناع والإمتاع، يظهر لك ذلك وأنت تقرأ رد الشبهات في الآيات الكريمة، وكيف أنه كان رداً جامعاً محكماً، لم يترك شاردة ولا واردة -كما يقولون-. وكذلك لو تتبعت خصائص الأسلوب القرآني لوجدتها بارزة ظاهرة في هذه السورة الكريمة، ولقد حدثتك عن كلمة الجعل في مثل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف:٣] وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [الزخرف:١٠] وكيف أن هذه الكلمة جاءت في السورة، متسقة في جملها كلها ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [الزخرف:١٠]، ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ [الزخرف:١٥]، ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف:١٩]، ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ [الزخرف:٣٣]، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف:٦]، ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف:٤٥]. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠﴾ [الزخرف:٦٠] فانظر إلى كل واحدة من هذه الكلمات الكريمة، كيف اختيرت، كما اختيرت كلمة (مبين) التي حدثتك عنها من قبل.

ولا تنسَ كلمة (الصفح)، التي ذكرت في أول السورة وآخرها، ولكن كانت في كل موضع متلائمة مع السياق، فهي في الآية الأولى تتوعدهم وتهددهم، بأننا لن نهملكم، فنترك تذكيركم معرضين عنكم بسبب إسرافكم، ولكنها في الآية الأخيرة تطلب من النبي أن يعرض عن جهلهم، وأن يستمر بدعوته غير مبالٍ بهم.

فانظر إلى الكلمات، كيف تأتي كل في موضعها، فتحسب لأول وهلة تناقضاً في استعمال الكلمة، إذ كيف نفى الصفح أولاً، ثم أمر به ثانياً، ولكنك وقد تأملت وتدبرت، تجد الكلمة في موضعها درة نفيسة، وحصناً منيعاً، لا يمكن أن يؤتى من أي ناحية من نواحيه.

وأخيراً فإن الوحدة الموضوعية تتجلى بيِّنة في هذه السورة الكريمة، وهذا بالطبع غير ما فيها من دقة النظم في كل آية من آياتها، والتي لم نستطع أن نوفيها حقها، في هذه الكلمة الموجزة.

٢- سورة المجادلة:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ
وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا
يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا

أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ
وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ
لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ
خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ
فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى
ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ
أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ
ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ
لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ
أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ
أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم
بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ
عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة المجادلة].

سورة المجادلة مدنية، وقد أجمعوا على أن سبب نزول الآيات الأولى منها، قصة خولة بنت حكيم رضي الله عنها وقد ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، أخو عبادة

ابن الصامت ﷺ ثم ندم على ما قال فقال لها: ما أظنُك إلا قد حَرُمْتِ عليَّ، وذهبت إلى رسول الله ﷺ ترجو أن يجعل الله لها مخرجاً والرسول يقول لها: وهي تجادل النبي بأنها قد أخذها زوجها شابة صغيرة، وقد كبرت وليس لها أحد، وبأن لها صبية إن ضمتهم إليها جاعوا، وإن تركتهم إليه ضاعوا، والرسول الكريم يقول: ما أراك إلا قد حَرُمْتِ عليه، وتنزل الآيات بعد ذلك، وفي هذا أعظم دليل على أن هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى، لا من عند الرسول، وإلا لثبت على ما قال، وهذا خارج عن موضوعنا الآن.

بدأت السورة الكريمة بقول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١]. بدأت السورة بهذا الحرف الدال على التأكيد (قد)، والتأكيد هنا له ما يسوغه ويقتضيه، لأن هذه المرأة كانت في لهفة وشوق، وضيق، والسماع هنا معناه الإجابة، وليس إدراك الصوت، لأن إدراك الصوت لا يحتاج إلى تأكيد، وعبر عن المجادلة بالفعل المضارع، لاستحضار الصورة حتى تكون مؤثرة في النفس، وكذلك عن الشكوى، وكذلك قوله: ﴿يَسْمَعُ﴾، وعبر بـ (إلى) دون اللام، ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وما ذلك إلا لأنها كانت بعد أن تسمع من النبي ﷺ ما تسمع، تجعل منتهى شكايتها الله وحده، وختمت الآية بقوله: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾، وما ذلك إلا لأن الله تبارك وتعالى، كان يسمع التحاور والشكاية، ويبصر هذه المرأة، فهو سميع بصير في كل شيء، ولكل شيء.

ثم جاءت الآية الثانية تبين أمر الظهار في نفسه، وبأنه أمر مستقبح، وبأنه منكر وزور، لأن الزوج ليست أماً، وختمت الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ [المجادلة:٢]، وهما من صيغ المبالغة -كما يقول اللغويون- وما ذلك إلا ليبين عظم أمر الظهار، وأنه يحتاج إلى كثير من العفو والمغفرة، وأن هذا إنما هو من الله العظيم في عفوه ومغفرته، فهي كثرة من حيث الكم ومن حيث الكيف.

وجاءت الآية الثالثة والرابعة ببيان كفارة الظهار. الآية الأولى -إذن- كانت مقدمة لا بد منها، والآية الثانية بينت الظهار من حيث هو، والآية الثالثة والرابعة، بينتا ما يجب على المظاهر - والظهار أن يشبه الرجل امرأته بإحدى المحرمات عليه كأمه وأخته، وختمت الآية الثالثة بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ [المجادلة:٣] وما ذلك إلا ليبين لهم أن الله عالم بدقائق الأمور، وأن ما شرعه من كفارات أمر لا بد منه لردعهم وزجرهم. أما الآية الرابعة فقد ختمت بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة:٤] فبيَّن منزلة الحدود.

وبعد أن أنهت السورة قصة الظهار وقضيته، انتقلت إلى موضوع آخر متصل بالموضوع الأول اتصالاً وثيقاً، فكفارة الظهار حد من حدود الله، وحدود الله لا يجوز أن يُعتدَى عليها، وهي شرط للإيمان ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾. والقضية التي انتقلت إليها السورة الكريمة، هي قضية الذين يحادون الله ورسوله، أي: يهملون الحدود التي حدَّها، ويريدون أن يستبدلوها نظماً أخرى، وأن هؤلاء لا بد أن يصيبهم الخزي، وهي سنّة الله في كل من أهمل شرعه. ولِمَ تُهمل هذه الحدود ولِمَ تختار غيرها من النظم؟ مع أن الله قد أنزل آيات بينات فيها كل ما يحتاجه الناس. وكان من الممكن أن يبحث الناس عن نظم إذا كان هناك نقص فيما يحتاجون إليه. وختمت الآية بقول الله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [المجادلة:٥]. وفي هاتين الآيتين بيان بأن ترك الحدود كفر، وأن الاستهانة بها كذلك، أما لِمَ ختمت كل واحدة بما ختمت، فقد بينته لك في فصل الفاصلة.

ثم توعدت السورة أولئك بعد العذاب المهين، بأن الله سيبعثهم جميعاً فينبئهم بما عملوا، وقد أحصى الله عملهم كله، ونسوه هم، وختمت الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة:٦]، ولكي تستقر هذه المعاني في القلوب والأذهان،

انتقلت السورة إلى قضية أخرى، لتكون برهاناً ودليلاً على ما تقدم، وهي قضية شمول علم الله تبارك وتعالى، لما في السموات وما في الأرض فهو عَلِمَ بما يصلح عباده وما يحتاجون إليه، ولكل ما يتناجى به الناس قلوا أم كثروا، وختمت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ تأكيداً، حتى لا تبقى في أي نفس شائبة ريب، ولا شبهة شك.

ولما ذكرت النجوى انتقلت السورة الكريمة لقضية تتعلق بالمجتمع المسلم في عهد النبي ﷺ ، وقد تكون في عهود كثيرة كذلك، فذكرت لنا طرفاً عن أولئك الذين يناصبون المسلمين العداء، والذين يتناجون بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول، وبدأت بهذا الاستفهام التعجبي ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وفي الآية أسرار من عجيب النظم، ومن هذه الأسرار على سبيل المثال -لا على سبيل الحصر- كلمة (ثم) التي تدل على أن إصرار أولئك على عدائهم، كان عن سابق إصرار، ثم قوله: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ ولم يقل: «إلى النجوى». لأن من شأنهم المخالفة في كل شيء، وبدأت بذكر الإثم وهو ما فيه حرمة، ثم العدوان وهو ما فيه اعتداء على الآخرين ثم معصية الرسول وهي أعظم هذه الجرائم ثم أشارت إلى قضية من خداع يهود، وهو أنهم كانوا يُحَيّون الرسول إذا جاؤوه بما لم يحيه به الله، وبعد أن بينت الآية مصير أولئك القوم، توجهت إلى المؤمنين، فنهتهم أن يكونوا مثل أولئك، وبيَّنت لهم أن التناجي ينبغي أن يكون بما هو خير، وهو البر والتقوى، والبر هنا عمل الطاعة، والتقوى تجنب المعصية، وختمت بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة:٩]. إليه وحده ليجزيكم خيراً بتناجيكم. ثم بينت أن تناجي المنافقين واليهود، إنما هو من تسويل الشيطان، ليحزنوا المؤمنين ويؤذوهم، وأن ذلك لا يضيرهم شيئاً إلا بإذن الله، وختمت بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة:١٠] لا غيره، وفيها تثبيت لأولئك المؤمنين؛ ليبددوا جميع الهواجس التي يريدها لهم أعداؤهم.

وبعد ذكر أدب المناجاة، انتقلت السورة إلى أدب آخر، وهو أدب المجالس علمتهم كيف ينبغي أن يكون المؤمن في المجلس، وعلمتهم أن هذه المجالس والمناجاة، حري بها أن يزداد بها علماً، لأن لذوي العلم عند الله درجات. وختمت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة:١١] ذلك لأن بين موضوع هذه الآية، وموضوع السابقة في كفارة الظهار، صلة ووشيجة، ألا ترى أن كليتهما تشريع، إلا أن الأولى كانت في قضايا الحدود، وهذه في قضايا الإدارة.

ثم انتقلت السورة إلى أدب ثالث، ليس بعيداً عما قبله، بل هو متصل به اتصالاً تاماً، وهو مناجاة النبي ﷺ ، وختمت بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [المجادلة:١٢]، وذلك لمن لم يجد ما يقدمه من صدقة عندما يناجي النبي الكريم، وكأن في هذا حثاً للمسلمين على العمل، وأن لا يكونوا عالة على غيرهم، ثم أنكرت عليهم هذا الإشفاق ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١٣] وقد حدثتك عن الفرق بين الإشفاق والخوف، في الفصل الأول من هذا الباب، فلا نعيده هنا. وختمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة:١٣] فقدم في هذه الآية الاسم الجليل (خبير)، وفي الآية التي قبلها قدم «الجار والمجرور» ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ على الاسم الجليل (خبير) ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة:١١]؛ وذلك -والله أعلم- لأن ما ذكر في هذه الآية كان من العبادات التي افترضها الله عليهم، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فهي من القضايا الجوهرية الأساسية، فاقتضى المقام هنا أن يقدم الاسم الجليل، وليس الأمر في الآية السابقة من هذا القبيل.

وبعد هذه الآداب، تحدثت الآيات عن الموضوع الذي بدأته أولاً، وهو من يحادّ الله ورسوله، ومن نهوا عن النجوى ولكنهم أبوا، وربما تساءل هنا، ولماذا لم يتصل هذا الموضوع بذاك، ولماذا وسط فيه ذكر هذه الآداب التي أُمر بها المؤمنون؟

ويظهر لي، وسيظهر لك كذلك -إن شاء الله- أن هذا هو النسق الحكيم؛ ذلك لأن تجنب المسلمين لشر أولئك القوم، الذي يتألبون عليهم من المنافقين واليهود، لن يستطيعه المسلمون -أي تجنب الشر-، إلا إذا وطنت أنفسهم على هذه الآداب المتقدمة، فبعد أن بينت وفصلت، رجعت السورةُ لتكمل ما بدأته، ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة:١٤] وقد فصلت السورة هذا الموضوع تفصيلاً شافياً، فبينت صفات المنافقين، ووسائلهم الماكرة من الحلف على الكذب، واتخاذ الأيمان جُنَّة، وصدهم عن سبيل الله؛ ثم ذكرت ما سيلقونه من جزاء، من عذاب مهين، فيه الإذلال والمهانة، ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المجادلة:١٧] وسيبعثهم الله جميعاً، وسيحلفون له، كما يحلفون لكم أيها المؤمنون، وفي هذه العبارة تأنيس لهم، أي: لستم أنتم وحدكم، يكذب عليكم هؤلاء، ويحلفون لكم، بل سيحلفون لله كذلك.

وبيَّنت السورة الكريمة سبب ذلك كله، وهو أنهم استحوذ عليهم الشيطان، وانظر إلى هذه الكلمة ﴿ ٱسْتَحْوَذَ ﴾ التي تدل على أنه ساقهم وتملكهم تملكاً تاماً، حتى أنساهم ذكر الله، وما دام الشيطان قد استحوذ عليهم، فهم حزبه الخاسرون.

ولقد بينت السورة الكريمة الصلة بين أولئك المنافقين، وبين اليهود، فهؤلاء المنافقون ﴿ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة:١٤]، وهكذا توجه السورة المؤمنين إلى قضية لا ينبغي أن يغفل عنها المسلمون أبداً، وهي هذه الصلة وتلك الروابط، بين مرضى القلوب، الذين يزعمون أنهم مسلمون، من أجل أن ينالوا مكاسب، لا يمكن أن ينالوها لولا هذا الادعاء، ومن أجل أن يردوا عن أنفسهم كثيراً من العقوبات، هذه الصلة التي بدأتها الآية الكريمة بهذا الأسلوب، الذي فيه من التعجيب، كما فيه من التقرير، كما فيه من الإنكار والتنبيه ما هو حري بأن لا يغفله المسلمون، ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة:١٤] أي أن هؤلاء المُتَوَلَّيْن وهم اليهود، ليسوا منكم أيها المؤمنون، كما أنهم ليسوا من جماعة المنافقين،

فكيف يتولاهم هؤلاء. أو إن هؤلاء المتولين من المنافقين ليسوا منكم أيها المؤمنون، وليسوا من اليهود كذلك. فالمعنى الأول للآية: اليهود ليسوا منكم، وليسوا من المنافقين، والمعنى الثاني: المنافقون ليسوا منكم وليسوا من اليهود، وكلا المعنيين يدعو إلى التعجيب.

وهذا لا شك نوع من المحادة الذي يشترك فيه خصوم الإسلام، وأعداء المسلمين، فكما أن اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام لا يطيب لهم أن تنفذ الحدود، وأن تعلو راية الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإن أدعياء الإسلام من المنافقين والذين في قلوبهم مرض كذلك، لا يهدأ لهم بال، ولا يعجبهم أن يكون الدين لله. وتلك لعمر الحق قضية من قضايا الإعجاز، التي هي قمينة أن تتدبر.

ونختم هذا الكتاب بتحليل لسورة السجدة، والذي جاء في آخر كتاب البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني).

٣- سورة السجدة:

﴿الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ
مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ
وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ (١٠) ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ
بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (١١) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ
أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا
وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١٣) فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ

لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا
تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ
لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ
مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ
أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢٦﴾
أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا
يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

[سورة السجدة].

ابتدأت السورة الكريمة بهذه الحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾، بل هي آخر سورة في المصحف تبتدئ بهذه الأحرف الثلاثة، ولم تكن بدعاً من السور التي ابتدأت بهذه الأحرف، فهي غالباً ما يذكر فيها الكتاب بعد ذكر هذه الأحرف، وهكذا هذه السورة ذكرت الكتاب بخصائصه الكبرى، وحجة إعجازه، فهو الكتاب الكامل في موضوعه، وهو الذي لا ريب فيه، وهو المنزل من رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علماً، وأتقن كل شيء صنعاً.

وهذا الموضوع -وهو موضوع الكتاب من هذه الحيثيات- كان الفلك الذي تدور السورة عليه في كل ما عرضت له.

وإذا تدبرت السورة الكريمة؛ فإنك لن تجد صعوبة -إن شاء الله- في إدراك ذلك كله، وتيسيراً نقسم السورة إلى عدة مجموعات، فنتحدث عن كل مجموعة على حدة.

المجموعة الأولى:

(الآيات ١-٩)

﴿الٓمٓ ۝١﴾: يرى كثير من الحذاق أن هذه الأحرف جاءت على سبيل التعداد؛ للإيقاظ والتنبيه والتحدي، ذلك أن العرب ما تعودوا مثل هذا الأسلوب في النظم، فكانت هذه الأحرف موقظة لهم، تنبههم إلى ما بعدها من الحديث عن هذا الكتاب، ثم هي بعد ذلك كله تلزمهم الحجة، فالنبي الكريم ﷺ الذي جاءهم بهذا القرآن أميّ -كما يعلمون- لم يسبق له أن قرأ وعرف مثل هذه الأحرف، ثم إن القرآن الذي تحداهم الله به إنما يتكون منها، وهي حروفهم، فعجزهم حري أن يقودهم إلى الإيمان والتصديق بهذا الكتاب.

و(ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ للعهد الذي حدثتك عنه في باب التعريف، وهو عهد ذهني، إذ لم يسبق له ذكر هنا، فهو معلوم لهم.

وتقديم ﴿رَيْبَ﴾ -وهو المسند إليه-؛ لأن الهدف نفي جنس الريب عن الكتاب، أي: ليس شيء يمكن أن يرتاب فيه، فهو نفي لأساس الريب، وليس الهدف نفي الريب عنه، وإثباته لغيره، ولو كان المراد ذلك؛ لقيل: لا فيه ريب. كما قال عن خمر الآخرة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات:٤٧].

و(ال) في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للجنس، وقد تكون للاستغراق، وذكر الرب فيه توطئة لإقامة الحجة على المنكرين لهذا القرآن، فالرب هو المربي ذو الرحمة.

و(أم) في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ منقطعة، وقد حدثتك عنها في موضوع الاستفهام، فارجع إليها إن شئت، وتكون بمعنى (بل) والهمزة، فهي هنا

للإضراب، فبعد أن أقام الحجة على أن هذا الكتاب هو المعجز الذي لا ارتياب فيه، أضرب عن هذا معجباً ممن لا يؤمن بذلك، وفي هذا الإضراب إنكار؛ لأن (بل) معناها الهمزة والإنكار، فكأنه قيل: بل أيقولون افتراه.

وقوله سبحانه: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: إضراب آخر، كأنه قيل: دع قولهم هذا، ولا تلتفت إليه، فليس الأمر ما قالوه، بل هو الحق من ربك.

والفرق بين الإضرابين أن الإضراب في قوله سبحانه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾؛ إضراب انتقالي، والإضراب في قوله سبحانه: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ إضراب إبطالي. والإضراب الانتقالي: انتقال من أمر إلى أمر هو أفظع منه وأشد مع بقاء الحكم الأول، والإضراب الإبطالي: انتقال عن الحكم الأول مع إبطاله، فليس في قوله سبحانه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾؛ إبطال للحكم الذي قبله، وهو أنه منزل من رب العالمين، ولكن قوله سبحانه: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ فيه إبطال لقولهم.

وجملة ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ معرفة الجزءين، وفي هذا ما فيه، فهو الكتاب الذي جمع خصائص الحق، وإذا أردت أن تتصور الحق تصوراً تاماً؛ فهو هذا الكتاب، وقد حدثتك عن هذا في باب التعريف.

وفي قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ تشريف للنبي ﷺ، وتأنيس، وإلزام بالحجة للمنكرين.

والتنكير في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا﴾ يدل على التنويع والتكثير؛ لأن المقصود به العرب على أصح الأقوال.

و(من) في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ و﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ للتأكيد.

و(لعل) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ للترجي، أي: رجاء هدايتهم، وليس الترجي في جانب الله.

وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾؛ جاء بأسلوب الفصل؛ لأنه كلام مستأنف هدفه إقامة الحجة. والتعبير بالاسم الموصول للتنبيه على أهمية الصلة، وهي: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، وتقديم ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾؛ لعظمها، وتعريفها؛ للجنس، وقد يكون للعهد.

وقوله سبحانه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ﴾؛ إن كان خبراً لاسم الجلالة؛ فهو متمم الجملة، وإن كان الخبر: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾؛ فيكون جملة مستأنفة، وإنما جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنها جواب عن سؤال، فكأنهم قالوا: نحن لا ننكر أن الله خلق السموات والأرض، فقيل لهم: ولكن اعترافكم لا ينفعكم شيئاً، فإذا كنتم تعترفون بأنه الخالق، فكيف اتخذتم من دونه شفعاء، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ التفات من الغيبة إلى المخاطب، فبعد قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَتَىٰهُم ﴾؛ قال سبحانه: ﴿ مَا لَكُم ﴾. وفائدة هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب إقامة الحجة عليهم، ذلك لأن من شأن المخاطب أن يرد ما يوجه إليه من تبكيت واعتراض، وليس كذلك الغائب، وهذا الالتفات كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾؛ لإقامة الحجة كذلك.

و(من) للتأكيد، وتقديم ﴿ وَلِيٍّ ﴾؛ لأن النفس به أكثر إيناساً لمنزلة ولايته.

وقوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾؛ استفهام إنكاري، أي: أتعرضون فلا تتذكرون، وفصلت عما قبلها؛ لأنها جملة إنشائية، وما قبلها خبرية.

وقوله سبحانه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾؛ مستأنفة، فكأنه قيل: كيف يكون لكم وليّ وشفيع وكل شيء في قبضته؛ يدبر الأمر؟ والتعبير بالفعل المضارع يفيد التجدد، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿ يَعْرُجُ ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ اسم إشارة، ولامه للبُعد، وهو بعد عظمة وعلو، وقد عرفت أن اسم الإشارة لبناء ما بعده على ما قبله، كأنه قيل: ذلك المتصف بهذه الأوصاف من إنزال الكتاب، وخلق السموات، وتدبير الأمر، هو الحري بتلك الأوصاف التي ذكرت بعد اسم الإشارة؛ من كونه عالم الغيب والشهادة، عزيزاً رحيماً... إلى غير ذلك(١).

و(أل) في ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾؛ للاستغراق، وليس ذكر الشهادة احتراساً(٢)؛ كما ذكر بعض المفسرين، والجمع بين العزة والرحمة متلائم مع موضوع السورة، يجمع بين التيئيس والإطماع لأولئك المنكرين، تيئيسهم من بلوغ غاياتهم في إيذاء النبي ﷺ، وطمس الكتاب، وإطماعهم برحمة الله؛ ليؤمنوا.

وذكر الموصول ﴿ ٱلَّذِىٓ ﴾ إرشاد لأهمية الصلة بعده، و﴿خَلَقَهُۥ﴾ فعل ماضٍ على إحدى القراءتين، وبإسكان اللام(خَلْقَهُ)؛ بدل على القراءة الأخرى، غايته التوضيح، وزيادة التقرير.

ولم يأتِ التعبير عن خلق الإنسان بالقسم؛ كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ [المؤمنون:١٢]؛ لاختلاف السياق، فلقد كان القسم هناك مقصوداً ليبنى عليه ما بعده.

وتقديم (لكم) في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ على ما بعده للاهتمام والعناية، وترتيب هذه الثلاثة: السمع، والأبصار، والأفئدة؛ مقصود(٣).

و(ما) في قوله سبحانه: ﴿ مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ للنفي، وقد يكون لتأكيد عدم الشكر.

---

(١) راجع اسم الإشارة.

(٢) وقد عرفت الاحتراس في مبحث الإطناب.

(٣) وفي ذلك إعجاز علمي ليس محله هنا.

المجموعة الثانية:

(الآيات ١٠-١٧)

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾؛ وصلت هذه الآية بما قبلها، فكأنه قيل: لقد قال هؤلاء: إن الكتاب مفترى عليهم، وإن لنا أولياء وشفعاء، وقالوا كذلك: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾؛ فليست الواو للحال؛ كما ذهب إليه بعض الفضلاء.

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة، فكأنهم ليسوا حريين أن يخاطبوا، ومن حقك أن تسأل هنا: كيف يكون الالتفات تارة من الغيبة إلى الخطاب؛ كما حدثتنا عنه في المجموعة الأولى، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ كما في هذه الآية، والمتحدَّث عنهم فريق واحد؟

وأجيبك بأن للالتفات هدفين؛ هدفاً عاماً، وهو لفت نظر السامع وإيقاظه؛ لأنك حينما تنتقل به من أسلوب إلى أسلوب، تحرك نفسه ودواعيها لما سيُلْقَى إليه، وهذا الهدف العام نحده في كل التفات. وهدفاً خاصاً، وهو يختلف باختلاف المواضع التي يجيء فيها، فقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب أشد تبكيتاً وألزم للحجة، وأغلب للخصم، وقد يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أكثر تأثيراً؛ لأن فيه إعراضاً؛ كما تشيح بوجهك عن بعض الناس إذا أردت أن تعبر عن استيائك منه.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ ﴿أَءِنَّا﴾؛ إنكار وتعجب.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ إضراب عن إنكارهم البعث إلى ما هو أفظع منه وأشد، وأقسى وأخزى، وهو كفرهم بلقاء الله، والتعبير بالجملة الاسمية لبيان ثبوتهم وعراقتهم في هذا الكفر، وكذلك تقديم الجار والمجرور: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، وليس لرعاية الفاصلة كما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم ﴾؛ جملة مفصولة؛ لأنها جواب، والتعبير بالفعل المضارع للتجدد، وفي الآية للالتفات كذلك من الغيبة إلى الخطاب، ولا

شك أن أسلوب الخطاب هنا من شأنه أن يكون تأثيراً؛ لأنه إلزام لهم بالحجة، وفيه من التخويف والتهديد ما لا يخفى، فهو أشد عليهم من أن يقال: يتوفاهم. وُكِّلَ بهم. ثم إلى ربهم.

وتقديم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ فيه قصر وتخصيص، أي: ترجعون إليه لا إلى غيره.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حرف امتناع حذف جوابه؛ لما في حذف الجواب من البلاغة والإيجاز، ولتذهب النفس فيه كل مذهب، وقد تكون (لو) للتمني -كما عرفت من قبل- ولا تحتاج إلى جواب حينئذ.

والخطاب في قوله سبحانه: ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ يمكن أن يكون للرسول ﷺ، أو لكل أحد يمكن أن يخاطب[1]، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، والتعبير بالجملة الاسمية: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟﴾؛ لبيان أن هذه صفة ملازمة لهم، عليها يدومون، وفيها يثبتون.

والتعبير بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ استعطاف منهم. وقوله سبحانه: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ إما أن ينزل هذان الفعلان منزلة اللازم، كأنهم قالوا: صرنا من أهل البصر ومن أهل السمع، وكأنهم يعترفون بأنهم لم يكونوا من قبل يسمعون أو يعقلون، وإما أن يكون الفعلان متعديين والمفعول محذوفاً، أي: أبصرنا ما حل بنا وسمعنا ما قيل لنا من هول وتعنيف.

وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ [الملك:١٠]، وقد يكون مفعول كل منهما حذف للتعميم[2].

---

(١) ارجع إلى الضمير في فصل التعريف والتنكير.

(٢) راجع حذف المفعول.

وتقديم البصر على السمع في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾؛ منسجم مع أحداث يوم القيامة، أما في الدنيا؛ فيقدم السمع.

وقد أكدوا قولهم هذا بـ ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ رجاء أن يستجاب لهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾؛ حذف مفعول المشيئة، أي: ولو شئنا إيتاء كل نفس(١).

وقوله سبحانه: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾، ولم يقل: حق قولي. كأنما هو قول معهود، وهو ما قيل لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص:٨٥]، وجاء الأسلوب مؤكداً؛ ليقطع أطماع هؤلاء، وليتداركوا أنفسهم قبل أن يفوت الفوت، وتقديم الجِنَّة على الإنس؛ لأنهم أقدم زمناً، ولأن الغواية بسببهم غالباً.

وقوله سبحانه: ﴿فَذُوقُواْ﴾؛ الفاء للتفريع، والتعبير بالذوق عن الإحساس نوع من المجاز؛ تفصيله في علم البيان.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾؛ تهكم بهم؛ لأن يوم الإنسان هو الذي يسر فيه، وهو نوع من المجاز كذلك.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾؛ جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنها ناشئة عنها، فلا يصح أن توصل، وأكدت بـ (إنا)؛ لتيئيسهم، وقطع آمالهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾؛ ليس تكراراً، فإن لكل من الفعلين سببه الخاص، كان الأول بسبب نسيانهم وتركهم لما هو خير، وكان الثاني بسبب أعمالهم، وقد حذف المفعول من الأول؛ لدلالة الثاني عليه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ﴾؛ بيان لمن يتصف بالإيمان، ورد عليهم، وجاءت الآية بأسلوب القصر، وهو قصر الإيمان على صنف معين، فهو قصر

---

(١) راجع حذف المفعول.

موصوف على صفة، وهو قصر قلب؛ ليبين أن هؤلاء هم المؤمنون لا غيرهم، وليرد على الذين يزعمون أن الإيمان قد يكون لغير هؤلاء الموصوفين.

وفي الآية لفتة بيانية عجيبة، ذلك أن كثيراً من الآيات التي جاءت بهذا الأسلوب، كان التعبير فيها بالجملة الاسمية، مثل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]، و﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النور:٦٢، الحجرات:١٥]، وهي كلها سور مدنية، ولكن الآية في هذه السورة: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ ﴾؛ فعبر بالفعل المضارع، وهي سورة مكية، ولعلك بدأت تسلك الطريق الذي تهتدي به لمعرفة الفرق بين الأسلوبين.

ففي الآيات الأولى كان هناك مجتمع مؤمن، بل كان هو الأصل، وكان غير المؤمنين فيه متسللين أو مدعين، أما في هذه السورة؛ فليس الأمر كذلك، فليس هنا مجتمع مؤمن متميز؟ بل الأصل في المجتمع غير ذلك، فكيف يقال: إنما المؤمنون؟ ففي التعبير بالفعل المضارع غير ما قلته قبل بشارة بطريق غير مباشر إلى تحقق ما في حيز أداة القصر، وقد كان.

ويفهم من (إنما) أسلوب آخر، وهو أسلوب التعريض، فهو تعريض بأولئك الذين يتصفون بهذه الصفات، ويدعون الإيمان.

وبناء الفعل لما لم يسم فاعله في قوله سبحانه: ﴿ ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾ [السجدة:١٥] للدلالة على سرعة إجابتهم من جهة، ولبيان أنهم يستجيبون أياً كان المذكر من جهة أخرى، فهم ليسوا بحاجة إلى أسلوب مؤثر، فالحكمة ضالة المؤمن، فحذف الفاعل إذن لهدف بياني؛ لأن المقصود تأثرهم بالآيات.

والتعبير بكلمة ﴿خَرُّوا۟﴾ فيه ملحظ نفسي ينبئ عن التفاعل بينهم وبين الآيات، وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ إبداع بلاغي أبينه لك في ما يلي:

أولاً: ذكر المسند إليه (هم)، وكان من الممكن أن يقال: ولا يستكبرون.

ثانياً: تقديمه.

ثالثاً: مجيء الخبر فعلاً مضارعاً؛ ليدل على التجدد والحدوث.

رابعاً: مجيء الخبر جملة فعلية مسبوقة بنفي. وقد عرفت عند تقديم المسند إليه بأنه إن كان معرفة، وكان المسند فعلاً منفياً، فإنه يدل على تقوية الحكم وتأكيده، وقد يفيد التخصيص.

ومعنى التأكيد هنا تقوية الحكم، وأن هذه صفتهم دائماً، ومعنى التخصيص أنهم هم الذين لا يستكبرون، أما غيرهم فهو مستكبر، ولا مانع من إفادة التخصيص هنا لوجود القرينة.

وقوله سبحانه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾؛ فيه ملحظان بلاغيان:

أولاً: التعبير بالفعل المضارع؛ لما عرفته من قبل.

ثانياً: مجيء الجملة بأسلوب الفصل، فإن تجافي جنوبهم عن المضاجع ليس أجنبياً عن قوله سبحانه: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا ﴾، بل هو تأكيد له.

كذلك قوله سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾؛ عبر فيه بالفعل المضارع، وجاء بأسلوب الفصل، ولو قيل: ويدعون ربهم. لفسد المعنى، إذ يصير الدعاء مغايراً للتجافي، فقد تكون الجملة بدلاً من سابقتها، وقد تكون إجابة عن سؤال.

أما قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؛ فقد جاء بأسلوب الوصل؛ لأن قضية الإنفاق غير قضية التجافي والدعاء، فهي صفة أخرى مستقلة. وتقديم (مما) بيان لفضل الله عليهم، وإيراد الفعل الماضي (رزقنا) دون الفعل المضارع؛ دلالة على سخائهم وتوكلهم، فهم ينفقون مما أعطاهم الله، دون أن ينتظروا تجدد العطاء والتعبير بالفعل المضارع (ينفقون)؛ لما عرفت من قبل. فأنعم على هذا النظم الذي ينادي على نفسه بأنه من عند الله، وبأنه علامة الإعجاز.

وتنكير (نفس) في قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾؛ للتعميم، أي: لا يعلم أي أحد.

والتعبير بالاسم الموصول ﴿ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم ﴾؛ لتفخيم الأمر وإبهامه، وحذف الفاعل في ﴿أُخْفِيَ﴾ للعلم به، فما دام المخلوقون جميعاً يجهلون هذا الذي أخفي لهم، فمعنى ذلك أنه لا يعلمه إلا الله.

وفي قوله سبحانه: ﴿ جَزَآءً ﴾؛ إيجاز حذف، والتعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾ دلالة على استمرار عملهم الخير في الدنيا.

المجموعة الثالثة:

(الآيات ١٨-٢٢)

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ ﴾ بعدما ذكر للفريقين من أوصاف، تحدثت الآيات عما بينهما من فروق، وعما لكل منهما من جزاء.

وفي قوله سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾؛ استفهام، ولكنه خرج عن معناه، فالغرض هنا إنكار أن يكونوا سواء، والتعجيب ممن يظنهما كذلك، فهو كقوله سبحانه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥]، وفي هذه العبارة الكريمة إيجاز ظاهر.

وقوله سبحانه: ﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾؛ تصريح بعدم الاستواء، ومجيئها بأسلوب الفصل ظاهر؛ لأنها إجابة عن السؤال المتقدم.

وقوله سبحانه: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾؛ جملتان مؤكدتان بـ (أما)؛ كما عرفت في موضوع التوكيد، وسبب التأكيد هنا طمأنينة المؤمنين، وبخاصة في العهد المكي، وإفساح المجال للآخر؛ ليقلع عن فسقه وكفره.

وأنعم النظر في التعبير القرآني عن الجزاء لكل من الفريقين، حيث قيل في جزاء المؤمنين: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقيل في جزاء الفاسقين: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ويعلم الله أنه الإعجاز:

أما أولاً: فقوله سبحانه: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، حيث قدم الخبر: (لهم)، ففيه قصر، وتخصيص، أي: لهم لا لغيرهم.

وأما ثانياً: فقال: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ولم يقل: فلهم النار. لنفي هذا التخصيص، ولو قيل: فلهم النار. لأفادت أنها لهم لا لغيرهم، والأمر ليس كذلك؛ لأن النار ستكون لعصاة المؤمنين كذلك، فالفاسقون في الآية هم الكافرون، بدليل المقابلة.

وفي قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ﴾ استمرار وتعميم.

وحذف الفاعل في قوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ لأنه لا فائدة من ذكره، وهو منسجم مع أحداث يوم القيامة التي يحذف فيها الفاعل غالباً، ويقال في ﴿كُنتُم﴾ ما قيل في ما قبلها.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ جملة فعلية مؤكدة بالقسم أولاً، وهو ما تدل عليه اللام، وبنون التوكيد ثانياً، والداعي إلى التأكيد هنا إدخال الفرحة إلى قلوب المؤمنين، والجزع والهلع لغيرهم، وفيه إيماء لإقلاعهم عن ذلك، يدل عليه قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ استفهام معناه النفي، أي: لا أحد أظلم، والتعبير بـ (ثم) في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾؛ لتراخي الرتبة بين التذكير والإعراض، فهم حينما أعرضوا؛ إنما أعرضوا عن قصد وسبق إصرار وتعمد، فشتان بينهم وبين الفريق الأول الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾.

وتقديم قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على الخبر: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وإظهاره دون ذكر ضميره، وكان الظاهر أن يقال: إنا منهم؛ لبيان المسارعة في ذكرهم؛ لإدخال الحسرة عليهم، ولبيان علة الانتقام، حيث جمعوا بين الظلم والإجرام، ولو قيل: إنا منهم. لذهبت تلك الفائدة، وهي التنصيص على إجرامهم.

والتعبير بنون العظمة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا﴾؛ لشدة ما سيلاقون.

المجموعة الرابعة:

(الآيات ٢٣-٢٥)

وبعد أن بيَّن الله جزاء الفريقين، انتقلت الآيات لتسلية النبي ﷺ، وتثبيت فؤاده، فهو ليس أول نبي يلاقي العنت والتكذيب بل هناك أنبياء كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

ولقد ابتدأت هذه الجملة بالتأكيد بالقسم أولاً، الذي دلت عليه اللام، وبكلمة (قد) ثانياً، وقد تتساءل عن هذا التأكيد ما سببه، والرسول ﷺ ليس بحاجة إليه؟ وهذا صحيح، فالتأكيد هنا ليس لإيتاء موسى الكتاب، ولكنه لمضمون الجملة التي سيقت من أجله، فالجملة -كما قلت- سيقت للتسلية والتثبيت، تسلية الرسول ﷺ، وتثبيت المؤمنين، ولهذا جاء التوكيد، فالهدف -إذن- التأكيد على انتصار الحق، وذهاب الباطل.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ إن كان الخطاب فيها خاصاً للرسول ﷺ؛ فالغرض من النهي التثبيت والدوام، وإن كان الغرض من الخطاب المسلمين؛ فالنهي على حقيقته[1].

---

(١) اختلف المفسرون في الضمير في قوله تعالى: ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، فالزمخشري يرجعه إلى الكتاب، وغيره يرجعه إلى موسى، وقد اختلف هذان الفريقان في تأويل الآية، فارجع إليه، فليس غرضنا هنا تفسير السورة الكريمة. وتدبر قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ومثله قوله تعالى: =

وقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾؛ التنوين فيه للتعظيم، وقد يفيد التقليل أيضاً، و(من) للتبعيض، وفيه بشارة للمؤمنين بالنصر، بأن سيكونوا أئمة، والتعبير بالفعل المضارع (يهدون)؛ لاستحضار الصورة، فعند نزول القرآن الكريم لم يكن هؤلاء.

وقوله سبحانه: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾؛ قدم الصبر؛ لأنه هو الأساس في تحمل التبليغ، وعبر بقوله سبحانه: ﴿ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾؛ لما عرفت قريباً في مثل هذا التركيب.

وإضافة الرب إلى ضميره ﷺ فيه مزيد تسلية وإيناس وتشريف، والضمير في قوله سبحانه: ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ للتأكيد، وكونه هو الذي يفصل بينهم لا غيرهم، وفي الجملة إشارة إلى ما كان بين بني إسرائيل من خلاف.

المجموعة الخامسة

(الآيات ٢٦-٣٠)

وبعد هذا البيان، وبعد التذكير بآيات الكتاب يذكرهم القرآن بآيات من نوع آخر، وهي الآيات الكونية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾، والاستفهام إنكاري، أي: ألم يرشدوا ويبين لهم كثرة الذين أهلكوا من قبلهم من القرون الماضية؟ إن قلنا: إن الفاعل مضمون الجملة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، أو: ألم يرشدهم الله ويبين لهم؟ إن قلنا: إن فاعل يهدي هو الله[1].

= ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء:٢]، ولكنه عند الحديث عن القرآن قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٨٥]، فانظر كيف كان القرآن هدى للناس جميعاً

(١) وفي معنى الآية خلاف بين المفسرين.

وقوله سبحانه: ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾؛ جملة جاءت بأسلوب الفصل، كأنه قيل: من أين عرفوا هذا؟ فقيل: يمشون في مساكنهم، وتنكير الآيات للتكثير والتعظيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ﴾.

ويقال في الآية الثانية: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ ...﴾؛ ما قيل في هذه الآية. وفي قوله سبحانه: ﴿نَسُوقُ﴾؛ نوع مجاز، موضعه علم البيان.

وما يجب الوقوف عنده في هاتين الآيتين ما ختمت به كل منهما، فهو بحق دليل من أدلة إعجاز هذا الكتاب:

لما كانت الآية الأولى متصلة بالتاريخ والأخبار، والطريق لهذا كله السمع، ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾، ولما كان إنزال الماء وإنبات الأرض يعتمد على الرؤية؛ ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾، فسبحان من نزل هذا الكتاب رحمة وتبياناً.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾؛ استفهام غرضه الاستبعاد والإنكار، والفتح هو النصر، أو الفصل في الأمور.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ إيجاز، حيث حذف جواب الشرط أولاً، ومتعلق قوله سبحانه: ﴿صَٰدِقِينَ﴾ ثانياً.

وتقديم المفعول في قوله سبحانه: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مسارعة في التنصيص على حسرة أولئك الكافرين.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾؛ حيث قدم المسند إليه مسبوقاً بالنفي، وكان الخبر جملة فعلية، وفي هذا تخصيص كما عرفت من قبل.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾؛ تسلية للرسول ﷺ، وقد قدم الإعراض على الانتظار.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ زيادة تهديد لهم.

فانظر كيف بدأت السورة بحكاية قولهم، وختمت بهذه النتيجة، فلله الحمد.

هذه عجالة لهذه السورة الكريمة؛ كتبتها على عجل، فلا تلمني إن ظهر لك تقصير وزلل، وأسأل الله أن يصرف عنا الهوى ويجنبنا الخطل، وأن يكرمنا بحسن القول والعمل، وأن لا يقطعنا من الرجاء في رحمته وعفوه ومن الأمل، إنه نِعْم المولى ونِعْم النصير، وصلى الله على النبي الشفيع سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فهرس

مقدمة ٥
تمهيد: النظم ٩

الفصل الأول: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ١٣
الكلمة ١٧

الفصل الثاني: عناية العلماء بالدراسات القرآنية ٢٥
المبحث الأول: جانب اللفظ ٣٠
أولاً: الغريب ٣٠
ثانياً: النوادر ٣٦
المبحث الثاني: مدلول اللفظ ٤٤
أ- المشترك اللفظي ٤٤
أولاً: الأضداد ٤٩
ثانياً: الملاحن ٥٨
ثالثاً: الوجوه ٥٩
رابعاً: الأفراد ٦١
ب- المشترك المعنوي ٦٢
١- أبو هلال العسكري ٦٤
٢- ابن فارس ٦٦
٣- السيوطي ٦٩
٤- الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ٦٩
٥- الأستاذ علي الجارم ٧١
٦- الدكتور إبراهيم أنيس ٧١
٧- الدكتور رمضان عبدالتواب ٧٢
٨- الدكتورة عائشة عبدالرحمن ٧٤
المبحث الثالث: اللفظة من حيث الصيغة ٧٩

الفصل الثالث: بلاغة الكلمة في كتاب الله تعالى ٨٥
المبحث الأول: كلمات يُظَنّ أنها مترادفة ٨٦
١- الخوف والخشية ٨٦
٢- جاء وأتى ٩١
٣- الفعل والعمل ٩٢
٤- القعود والجلوس ٩٤
٥- الإعطاء والإيتاء ٩٥

٦- الكمال والإتمام ٩٧
٧- الشك والريب ٩٧
٨- السَّنَةُ والعام ١٠٠
٩- كتاب وقرآن ١٠٠
١٠- كَتَبَ وفَرَضَ ١٠٢
١١- الفلاح والفوز.. ١٠٣
١٢- جبَلٌ وعَلَمٌ ١٠٣
١٣- اليَمُّ ١٠٤
١٤- الحلف والقسم ١٠٤
١٥- الحمد والشكر ١٠٦
١٦- النأي والبعد ١٠٦
١٧- زوج وامرأة ١٠٧
١٨- الشح والبخل ١٠٨
١٩- النعيم والنعمة ١٠٩
٢٠- يدع ويذر ١١٠
المبحث الثاني: ألفاظ مختلفة جاءت في مواضع متشابهة، واختصاص كل موضع بما يلائمه ١١٣
١- الإلقاء والقذف ١١٣
٢- حادّ وشاقّ ١١٤
٣- التفكر والتذكر ١١٥
٤- هامدة وخاشعة ١١٧
٥- يَفْعَل ويَخْلُق ١١٨
٦- المؤمنون والمنافقون ١١٩
٧- المودة والحب ١١٩
٨- وضع المضمر مكان الظاهر (يسألونك، يسألك) ١٢٠
٩- الإغراء والإلقاء ١٢١
١٠- الوليجة والبطانة ١٢٢
١١- الدثار والتزمل ١٢٤
١٢- جعل وخلق ١٢٤

الفصل الرابع: في الإفراد والتثنية والجمع ١٢٩
كلمات قرآنية ورد لها أكثر من جمع واحد ١٤٣
جموع كثرة وقلة ظاهرة ١٤٨
جموع كثرة وقلة تحتاج إلى تدبر ١٤٨
الفصل الخامس: رسالة الحرف في كتاب الله تعالى ١٥٣
المبحث الأول: حذف الحرف وذكره ١٥٥
المبحث الثاني: استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة ١٧١

الفصل السادس: الجملة القرآنية ١٨٣
المبحث الأول: التأكيد ١٨٥
المبحث الثاني: الحذف والذكر ١٩٠
المبحث الثالث: التقديم والتأخير ٢٠٢
الأنموذج الأول: المغفرة والرحمة ٢٠٣
الأنموذج الثاني: العلم والحكمة ٢٠٤
الأنموذج الثالث: المغرفة والحلم ٢٠٥
المبحث الرابع: القصر ٢٢٨

الفصل السابع: الفقرة القرآنية ٢٣٥
آية الدين ٢٤٧
آية المواريث ٢٥٢

الفصل الثامن: السورة القرآنية ٢٦١
سورة الفرقان ٢٦٣
سورة الملك ٢٦٩
سورة غافر ٢٧٢
سورة الأحزاب ٢٨٠

الفصل التاسع: بين السورة والسورة ٢٨٩
١ - بين سورتي النور والفرقان ٢٨٩
٢ - بين سورتي التحريم الملك ٢٩٠
٣- بين سورتي الحديد والمجادلة ٢٩١
٤ - بين سورتي النبأ والنازعات ٢٩٢
٥ - سورتا الضحى والشرح وما بعدهما ٢٩٣

الفصل العاشر: القرآن في مجموعه ٢٩٩
أولاً: البارزي ٣٠٢
ثانياً: ابن سنان الخفاجي ٣١١
ثالثاً: الزمخشري ٣١٤

الفصل الحادي عشر: أسلوب القرآن ٣٢٣
١ - الإقناع والإمتاع ٣٢٤
٢ - الجزالة والعذوبة ٣٢٦
٣- الإيجاز والإطناب ٣٢٨
٤ - الإجمال والبيان ٣٣٠

الفصل الثاني عشر: الفاصلة القرآنية ٣٣٥
حروف الفواصل إما متماثلة أو متقاربة ٣٤٧

الفصل الثالث عشر: التكرار ٣٤٩
الأقدمون والتكرار ٣٥٠
ابن قتيبة ٣٥٠
الخطابي ٣٥١
الزركشي ٣٥٣
تعريف التكرار ٣٥٤
المحدثون والتكرار ٣٥٤
الرافعي ٣٥٤
عبدالكريم الخطيب - محمد قطب ٣٥٦
المبحث الأول: آيات العقيدة ٣٥٩
أولاً: آيات الألوهية ٣٥٩
ثانياً: الرسالة ٣٦٤
ثالثاً: البعث ٣٦٥
١ - طبيعة هذا اليوم ٣٦٧
٢ - أحداث اليوم الآخر ٣٦٧
٣- الأدلة على اليوم الآخر ٣٦٩
المبحث الثاني: القصص القرآني ٣٧٣
اتساق القصة مع موضوع السورة ٣٧٤
المبحث الثالث: جانب الألفاظ ٣٨٠
في سورة البقرة ٣٨٠
في سورة آل عمران ٣٨٥
في سورة النساء ٣٨٦
في سورة المائدة ٣٨٨
آيات متفرقات ٣٨٩
في سورة الأنفال ٣٨٩
في سورة التوبة ٣٩٣
آيات متعددة ٣٩٣
في سورة الشعراء ٣٩٦
في سورة الرحمن ٣٩٦
في سورة المرسلات ٣٩٧
في سورة النبأ والتكاثر ٣٩٩
سورة الكافرون ٤٠١

الفصل الرابع عشر: الزوائد والحذف ٤٠٥
تمهيد ٤٠٥
أولاً: الباء ٤١٠
ثانياً: من ٤١١
ثالثاً: اللام ٤١٣

الفصل الخامس عشر: الزيادة ٤١٥
أولاً: الباء ٤٢٠
ثانياً: من ٤٢٦
ثالثاً: عن ٤٢٩
رابعاً: لعل ٤٣٠
خامساً: إذا ما ٤٣٢

الفصل السادس عشر: الحذف ٤٣٧
أولاً: حذف حروف العطف ٤٣٩
ثانياً: حروف الجر ٤٤٠
مناقشة ما ذهبوا إليه ٤٤٢
أولاً: حروف العطف ٤٤٣
ثانياً: حروف الجر ٤٥٣

الفصل السابع عشر: تحليل لبعض السور القرآنية ٤٦٣
١- سورة الزخرف ٤٦٣
٢- سورة المجادلة ٤٧٥
٣- سورة السجدة ٤٨٢
المجموعة الأولى (الآيات ١-٩) ٤٨٤
المجموعة الثانية (الآيات ١٠-١٧) ٤٨٨
المجموعة الثالثة (الآيات ١٨-٢٢) ٤٩٣
المجموعة الرابعة (الآيات ٢٣-٢٥) ٤٩٥
المجموعة الخامسة (الآيات ٢٦-٣٠) ٤٩٦